Mngool.com



العدد الرابع - السنة الحادية والثلاثون ١٤٢٦هـ

الدارة



الإسهامات

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير
ص. ب ٢٩٤٥ . الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ . فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني magazine@darah.org.sa

السعر

السعودية ٥ ريالات، الإمارات العربية المتحدة ٧ دراهم،
قطر ٧ ريالات، البحرين ٥٠٠ فلس، الكويت ٥٠٠ فلس،
سلطنة عمان ٥٠٠ بيسة، المغرب ٨ دراهم،
مصر ١٥٠ قرش، تونس دينار واحد
خارج الدول العربية ما يعادل دولارًا أمريكيًا واحداً

الاشتراكات السنوية

٢٠ ريالاً للاشتراك من داخل المملكة العربية السعودية
للاشتراك من الخارج ٦ دولارات أمريكية
ترسل الاشتراكات بشيك مصدق باسم
دارة الملك عبدالعزيز على العنوان الآتي:

ص. ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ / ٢٠١٦ . فاكس ٤٠١٣٨٩٤
بريد إلكتروني magazine@darah.org.sa
موقع الإنترنت www.aldarah.org

شركات التوزيع

السعودية: الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع، الرياض، هاتف: ٤٧٨٢٠٠٠
مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع، القاهرة، هاتف: ٥٧٨٦٢٠٠
الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤
البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع، المنامة، هاتف: ٢٩٤٠٠٠
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، الكويت، هاتف: ٢٤١٧٨١٠
سلطنة عمان: المتحدة لخدمة وسائل الإعلام، مسقط، هاتف: ٧٠٠٨٩٥
قطر: دار الثقافة، الدوحة، هاتف: ٤١٣١٨٠
المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء، هاتف: ٤٠٠٢٢٣

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

رقم الإيداع: ٠٠٨٢ / ١٤ بتاريخ ١٤١٤/١/٢٢هـ
ردمد ٠١٤٨ . ١٣١٩



نشاطات الدارة

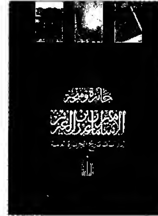
الدارة تنظم الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود

◀ تنظم الدارة الندوة العلمية لتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - المتوقع عقدها في شهر ربيع الآخر ١٤٢٧هـ الموافق مايو ٢٠٠٦م، وتهدف هذه الندوة إلى رصد المعلومات العلمية للمؤسسات والباحثين والأفراد المتوافرة عن الملك سعود، بغرض توثيق سيرته وشمائله، وجهوده التاريخية، وإنجازاته خلال فترة حكمه، بالإضافة إلى تأسيس قاعدة معلومات موثقة عن جلالته تبرز جهوده في تأسيس المملكة، وخلال توليه ولاية العهد، وأثناء فترة حكمه إداريا وإعلاميا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا وأمنيا، داخليا وخارجيا.



برئاسة الأمير سلمان مجلس إدارة الدارة يقرّ أسماء الفائزين بجائزة الأمير سلمان ومنحته لدراسات تاريخ الجزيرة العربية

◀ وافق مجلس إدارة الدارة برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة الدارة في جلسته المعقودة في مساء الثلاثاء ١٤٢٦/٩/١٥هـ على أسماء الفائزين والفائزات بجائزة ومنحة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، والتي تحظى بالدعم المباشر من سموه الكريم تشجيعاً وتقديراً للمهتمين بدراسات تاريخ الجزيرة العربية، وحرصاً على إثراء تاريخ هذه المنطقة بالعديد من الدراسات والبحوث، وقد فاز بالجائزة التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية أ. د. عبدالله بن يوسف الشبل، وأ. د. عبدالرحمن الأنصاري، وأ. د. عبدالله العثيمين، وأ. د. عبدالله أبو داهش، كما منحت الجائزة إلى عدد من الفائزين في رسالة الماجستير والدكتوراه والمقالة العلمية ومنحة الدراسات والبحوث ومنحة رسائل الماجستير والدكتوراه.



تشكيل لجنة وطنية موحدة لأسماء الأماكن الجغرافية السعودية

◀ كما اطلع مجلس إدارة الدارة أيضًا على الموافقة السامية بشأن توصيات الندوة التي عقدتها الدارة تحت عنوان (أسماء الأماكن الجغرافية في المملكة العربية السعودية) بالتعاون مع الجمعية الجغرافية السعودية، ووجه المجلس بتنفيذ التوصيات والعمل على تشكيل لجنة وطنية موحدة في الدارة لأسماء الأماكن الجغرافية، تضم الجهات الحكومية ذات العلاقة، كما وافق المجلس على إنشاء وحدة علمية في الدارة تقوم بالإعداد لأعمال تلك اللجنة وتنفيذها.

الدارة تنظم المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثاني

◀ تنظم دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس، المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثاني بمدينة الرياض، وذلك خلال الفترة ٢٦-١٤٢٧/١/٢٨هـ الموافق ٢٥-٢٠٠٦/٢/٢٧م.

ويأتي هذا المؤتمر امتداداً للمؤتمر الأول الذي عقد بتونس في المدة ٢٦-١٤٢٤/٢/٣٠هـ الموافق ٤/٢٧-٢٠٠٣/٥/١م.

ويرمي هذا المؤتمر إلى وضع التصورات والرؤى المستقبلية لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات الخليجية المغاربية في العديد من التخصصات ذات الاهتمام المشترك، انطلاقًا من تجاربهما وإنجازاتهما البحثية المتعددة.

أبواب المجلة

عندما اعتزمت مجلة الدارة اتخاذ خطوات جديدة في سبيل الرقي بها، اعتمدت على مجموعة من الضوابط والمعايير التي من شأنها أن تحقق النجاح الذي تطمح إليه. وبناء على هذا أعادت النظر في أعداد المجلة خلال ربع قرن، فأخذت منها ما برز على نظائره، وزادت عليها ما يسمو بها، وعلى هذا جاءت أبواب المجلة في ثوبها الجديد، وهي:

◀ ١ - **البحوث العلمية.** وتعد عماد مجلة الدارة، التي حاولت منذ أمد أن تحقق فيها أعلى درجات الدقة العلمية والجدة والموضوعية، وجاءت في حلتها الجديدة منتقاة موافقة لاتجاه المجلة محققة للغرض من إنشائها.

◀ ٢ - **البحوث المترجمة.** والغرض من هذا الباب تزويد القارئ العربي بالبحوث التي صدرت بلغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ونحوها من اللغات العالمية التي كان للباحثين في تلك الأقطار اهتمام بتاريخ الجزيرة العربية عامة، أو بتاريخ المملكة العربية السعودية خاصة.

وتشترط الدارة لنشر هذه البحوث أن يذكر اسم المؤلف الأصلي كاملا، والمصدر الذي أخذ البحث عنه، وأن تتميز تعليقات الباحث عن تعليقات المترجم. ولابد من إرفاق الأصل المترجم لمطابقة الترجمة وتحكيمها.

◀ ٣ - **الوثائق.** وهو باب جديد، ترمي المجلة من إنشائه إلى التعريف بعدد من الوثائق المحفوظة في مراكز حفظ الوثائق في دارة الملك عبد العزيز وغيرها. وفي نشر هذه الوثائق المحفوظة إفادة للباحثين والمهتمين بتعريفهم بوثائق لم يكن يسهل تعريفهم إياها بغير دراستها ونشرها في المجلة.

ومن أجل نشر هذه الوثائق يفضل إرفاق صورة واضحة من الوثائق المدروسة، مع ذكر الجهة التي تحتفظ بها، ورقم الحفظ.

◀ ٤ - **مراجعة الكتب.** يختص هذا الباب بالبحوث النقدية المتصلة بالكتب المطبوعة في مجالات مجلة الدارة المتنوعة، بهدف التعريف بمحتوى الكتب ونقدها بأسلوب علمي من حيث السلبيات والإيجابيات ومواطن التميز وأوجه القصور.

وللنشر في هذا الباب ينبغي ألا تزيد مراجعة الكتاب عن تسع صفحات، وأن تتضمن المراجعة ما يأتي: موضوع الكتاب وحدوده الزمانية والمكانية والمرجعية، منهج الباحث في بحثه وأدواته ومصادره، إضافات الباحث واستدراكاته على من سبقه والجديد في بحثه، النقد الموضوعي (الإيجابيات، السلبيات)، إضافات المراجع واقتراحاته.

وللمراجع اختيار طريقة عرض الكتاب بما يلائم الكتاب وما يراه مناسبًا.

◀ ٥ - **ملخصات الكتب.** وهو من جديد المجلة، تلتزم فيه المجلة بوضع ملخص للكتب المؤلفة حديثًا، يعرف المطلع عليه بأبرز سمات الكتاب وموضوعاته ومجالاته. وقد يعرض الملخص مصادر الكتاب ومنهج المؤلف في كتابه، وغرضه من تأليفه. وقد يشار إلى ما يحتويه من أشكال وخرائط وصور ووثائق، أفاد منها المؤلف في كتابه.

ومجلة الدارة ترحب بالباحثين الذين يرغبون في نشر مراجعات علمية لكتبهم أو كتب غيرهم أو ملخصات لها، إذ تستقبلها على عنوانها البريدي، باب: مراجعة الكتب، أو باب: ملخصات الكتب. ومن المستحسن أن يرفق المؤلف نفسه ملخصا لكتابه.

◀ ٦ - **تعقيبات وتعليقات** تنشر فيه المجلة ما يرد إليها من الباحثين والقراء من تعقيبات أو تعليقات على ما نشر فيها بغرض زيادة التواصل العلمي بين الباحث وقرائه.

شروط النشر

تعنى مجلة الدارة بنشر البحوث العلمية ذات العلاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي بعامة.

وينبغي أن تتوافر في هذه البحوث الشروط الآتية:

١ - أن يتسم البحث بالأصالة والمنهجية العلمية والجدة في الموضوع والعرض.

٢ - أن يكون صحيح اللغة، سليم الأسلوب، واضح الدلالة.

٣ - ألا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر إلى جهة أخرى، وألا يكون مستلا من رسالة علمية أو كتاب مطبوع.

٤ - أن يكون البحث مطبوعًا على الحاسب الآلي، مرفقا معه القرص المنسوخ عليه.

٥ - أن يرفق مع البحث ملخص له باللغتين العربية والإنجليزية في حدود (٢٠٠) كلمة، مع الحرص على الدقة في كتابة العنوان باللغة الإنجليزية.

٦ - أن ترفق نماذج واضحة من الأشكال التوضيحية والصور والوثائق والمخطوطات.

٧ - أن توضع الحواشي في آخر البحث، على أن يكون الترقيم متواصلا.

٨ - أن تذكر المعلومات الوراقية (الببليوجرافية) للمصادر المعتمد عليها (الكتب، والمقالات، والمخطوطات) عند أول ذكر لها في الحواشي، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع.

٩ - أن تكتب الأسماء الأجنبية باللغة العربية، وتكتب بلغتها بين قوسين عند أول ورود لها.

١٠ - أن يرفق الباحث سيرة ذاتية له توضح نشاطه العلمي والعملي.

منهج النشر

١ - تخضع البحوث الواردة للمجلة للتحكيم العلمي. ويلزم الباحث إجراء التعديلات المنصوص عليها في تقارير المحكمين، مع تعليل ما لم يعدل.

٢ - يعطى الباحث خمس عشرة مستلة من بحثه، وخمس نسخ من المجلة.

٣ - تمنح المجلة الباحث مكافأة مالية، وفق القواعد المعتمدة في هذا الجانب.

٤ - لا يعاد البحث إلى صاحبه سواء نشر أم لم ينشر.

٥ - تحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال والتعديل اليسير بما يتوافق مع أغراض الصياغة والمنهج العلمي المتبع.

٦ - لا تعبر الآراء الواردة في البحوث بالضرورة عن رأي المجلة.

٧ - لا صلة لترتيب البحوث بالمجلة بالقيمة العلمية للبحث أو الباحث، إذ الترتيب موضوعي وفني، وبما يناسب أبواب المجلة.

٨ - ترسل البحوث والدراسات والآراء والتعليقات إلى رئيس التحرير.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

المحتويات

البحوث

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

مشاهد وانطباعات وزير عدلية المغرب الخليفي عن الحجاز سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م

أ. د. محمد الشريف

ترأس وزير عدلية المغرب أحمد الرهوني الوفد المغربي في رحلته لأداء فريضة الحج، التي هيأها الجنرال الأسباني فرنكو لأهداف سياسية. وقد لقي الوفد المغربي الحفاوة والتكريم من قبل الملك عبدالعزيز رحمه الله، ودارت بين الجانبين الرسائل والهدايا، وقد أعجب الوفد بمظاهر التطور والعمران في المملكة كطرق المواصلات والعناية ببئر زمزم، وإنارة الحرمين الشريفين.

(٢٢١ - ٢٤٦)

لمحات من مظاهر التطور العمراني لمكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز

أ. د. عادل بن محمد نور غباشي

امتدّ النسيج العمراني في عهد الملك عبدالعزيز مقارنة بما كان عليه في العصور السابقة، فوصل العمران إلى مناطق جديدة في الجهات كافة، وقد تبع نمو العمران تطور الشوارع وتوسيعها وتوفير الخدمات لها، كما تواصل الاهتمام بتخطيط مناطق المشاعر المقدسة وتطويرها، كذلك تجلت العناية بإنشاء المرافق العامة في البلد الحرام، وإنشاء المستشفيات، ومراكز الشرطة.

(٢٤٧ - ٢٧٩)

نماذج من اتجاهات العلماء في بيان مكانة مكة المكرمة

د. عبدالرحمن بن محمد بودرع

تنوعت اتجاهات التأليف في مكانة مكة، فمنها: الفقهي، والتاريخي، والمعماري، وقد عني بعض العلماء باستعراض فضائل مكة الدينية، ومنهم من أسهم بالترجمة لرجال مكة ومشاهيرها، ومنهم من صنف في أخبارها وأيامها عن طريق منهج الحوليات أو منهج الخطط.

(٢٨١ - ٣١٠)

الوثائق

قضاة مكة المكرمة إبان الفترة (١٢٢٠ - ١٢٦٦هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٨م)

دراسة وثائقية من واقع أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة

د. محمد علي فهيم بيومي

يعين قضاة مكة بمقتضى فرمان سلطاني يصدر في شهر شوال، وتبلغ مدة التعيين سنة واحدة فقط إلا في بعض الحالات، ولا يتولى هذا المنصب إلا من تجاوز أعلى مراتب القضاة في الدولة، ومعظمهم من الأتراك، وقد ازدادت مهمتهم حتى أصبحت تشمل أمور الحياة المعيشية والدينية.

(٣١١ - ٣٦٠)

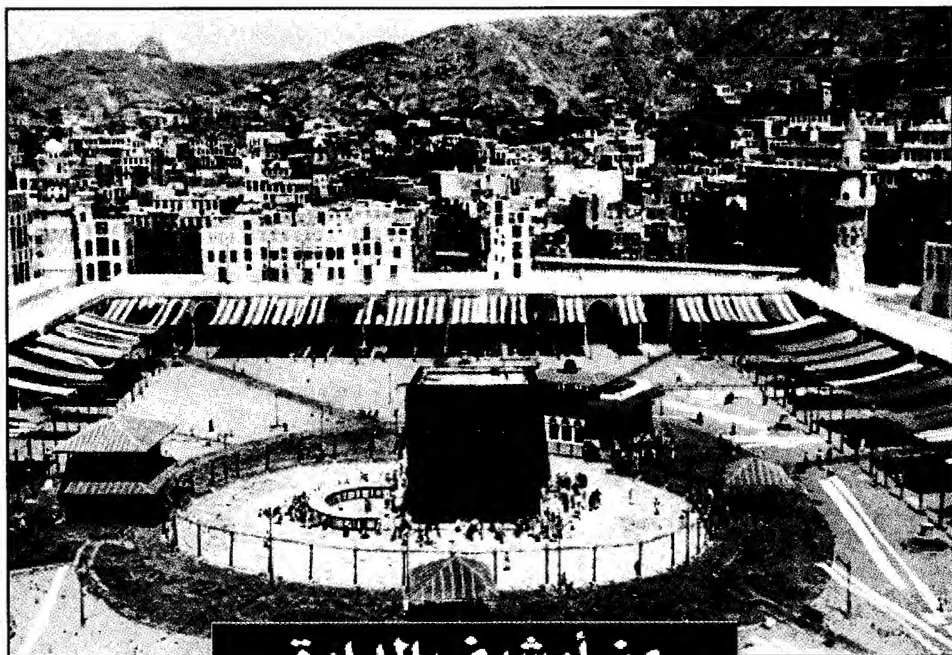
دراسات وثائقية عن الجزيرة والخليج العربي:

٢ - نماذج من عناية الملك عبدالعزيز بالحج

حمد بن عبدالله العنقري

بعد دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م دعا عموم المسلمين إلى أداء فريضة الحج مؤمنًا لهم جميع الخدمات على الموانئ والأمن والرعاية الصحية، كما وجه ممثليه ومعتمديه في الخارج بتسهيل إجراءات الحج وإلغاء الرسوم التي كانت تأخذها الحكومات السابقة من الحجاج، كما عني - رحمه الله - باستضافة الوفود والبعثات الرسمية.

(٣٦١ - ٣٨٧)



من أرشيف الدارة

صورة للمسجد الحرام
في عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م
التقطتها المجلة الجغرافية الأمريكية

التجارة الداخلية في مكة المكرمة

في مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

من خلال رحلة بركهاردت

د. نادية بنت وليد الدوسري
قسم التاريخ - كلية الآداب للبنات بالدمام

تعد مكة المكرمة من حيث الأهمية الاقتصادية والتجارية المدينة الثانية بعد جدة، ويؤدي الحج دوراً كبيراً في إنعاش الحركة التجارية في المدينة المقدسة[١]، الذي كان من فوائده تنشيط حركة التجارة بين الحجاز وسائر بقاع الأرض ذهاباً وعودة، حتى غدا مصدرًا مهمًا من مصادر الدخل المكي[٢]؛ فكان الحجاج يغدون إلى مكة المكرمة وبحوزتهم الكثير من الأموال لجباة الضرائب والتجار[٣]، والكثير من المتاجر الشرقية التي كانوا يحضرونها معهم لممارسة النشاط التجاري عبر الطرق التي كانوا يسلكونها أولاً، ثم لتغطية تكاليف رحلتهم ثانياً[٤].

(١) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة دراسة في التغير السكاني (١٣٩٤ - ١٤٠٣هـ)، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٧١.

(٢) فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص ١١٧؛

Norman. C.Walpole, Area Hand Book for Saudi Arabia, London, 1971, P. 240.

(٣) محمد المانع: توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين، ط١، شركة مطابع المطوع، الدمام، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٦؛ جوهان لودفيج بركهاردت: مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله بن صالح العثيمين، ط٢، د. ن، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ١٤٤.

(٤) فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٧٣.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون

الدارة

فقد كانت مكة المكرمة بلداً مفتوحاً للتجارة والكسب، ومما ساعد على ازدهارها - حتى سكنتها القبائل التي كانت تفد إليها من جميع الأصقاع والأقطار - هجرة إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام، التي يمكن عدها البداية الواضحة لتاريخ مكة المكرمة، على الرغم من أنها كانت معروفة منذ فترات تاريخية موغلة في القدم[٥]، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد، ودليل ذلك ما أشارت إليه المصادر من أن البضائع ترد إلى مكة المكرمة من كل الجهات[٦]، والثمرات تجبى إليها من كل مكان لقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧].

فلم تكن مكة المكرمة في يوم من الأيام في عزلة جغرافية، فقد كانت أسواقها تزدحم بالتجارة من جميع المصنوعات والمتاجر في رحلة إلى الشام ورحلة إلى اليمن، ولا يخفى ما كان للقرشيين من دور بارز في نقل التجارة مما أبرز أهمية الحجاز وعلى الأخص مكة المكرمة[٨].

لقد أصبح سكان مكة المكرمة ماهرين في التجارة، وبفضل تضخم رؤوس أموالهم صاروا في ثراء ويسر واسع، حتى غدت التجارة المصحوبة بالنشاط والمهارة مهنة لهم، وأصبحت من السمات التي تميز المجتمع المكي لتأصلها في نفوس أهلها بمختلف الطبقات، ولم يقتصر الأمر على سكانها من العرب فقط بل شمل أيضاً الجاليات الأجنبية التي كانت تتدفق إليها بأموالها وفنونها وعلومها[٩].

---

(٥) محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص ٢٠.

(6) British Admirality, Hand Book of Arabia, Vol. 1, P. 178.

(٧) سورة القصص، آية رقم ٥٧.

(٨) نبيل عبدالحي رضوان: الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٩٠٨م)، ط١، د. ن، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١١؛ محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص٢٠.

(٩) لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في الشام ١٨٣١-١٨٤١م، ط٢. مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٨٠؛ محمد محمود السرياني: المرجع السابق، ص ٢٠.

فكان من نتائج ذلك انتشار الأفكار الجديدة الموجودة خارج مكة المكرمة والتي كان يحملها باستمرار الحجاج الوافدون(١٠)؛ ولذا كانت الحجاز أكثر البلاد نعماً ومنافع ومرافق ومتاجر وغنى وتقدماً من بقية مناطق الجزيرة العربية، بل إنها كانت من أكثر المجتمعات معرفة للغات الأجنبية في العالم(١١).

ونظراً لأهمية موقع مكة المكرمة الجغرافي الذي جعلها مركزاً تجارياً منذ القدم، تأتي أهمية الزيارة التي قام بها بركهاردت، حيث تناول النشاط التجاري فيها كما شاهده في فترة زمنية مهمة، وهي الفترة التي قام فيها محمد علي باشا بالسيطرة على منطقة الحجاز(١٢).

ولد جون لويس بركهاردت في مدينة لوزان بسويسرا عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م(١٣)، وهو ينحدر من أسرة نبيلة، فوالده كان على صلة وثيقة ببعض المفكرين والشعراء والمؤرخين المفتونين بالتاريخ

(١٠) محمد المانع: المرجع السابق، ص ٢٦؛ بركهاردت: "مواد لتاريخ الوهابيين"، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(١١) إبراهيم بن محمد المزيني: "الأسواق والمراكز التجارية عند ابن جبير في رحلته"، الدرعية، السنة الثالثة، العدد العاشر، ربيع الآخر ١٤٢١هـ/ يوليو ٢٠٠٠م، ص ١٦٨؛

David. E. Long., The Persian Gulf An introduction to its peoples, politics, and Economics, P. 12.

(١٢) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: "جدة في مطلع القرن التاسع عشر كما شاهدها الرحالة بركهاردت"، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، يوليو ٢٠٠١م، ص ١٧٦؛

Vincent Sheean, Faisal The King and his Kingdom, England, 1975, P. 97.

(١٣) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٧٧. وقد تعددت الأقوال حول اسم الرحالة "جون لويس بركهاردت" ما بين اسم جوهان لودفيغ بوركهارت وبورخارث وبركارد وبركاردت وجون يركلر، في حين يسميه الفرنسيون Jean Gode Froi-Louis Kosega Rten، والظاهر أن الصحيح هو: يوهن لودفيك بركهاردت (Johann Ludwig Burckhart)، كما ورد في كتاب خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ٢/١٤٨، ٨/٢٦٤.

العربي والإسلامي، وتلقى تعليمه بمعهد بمدينة نيوشاتل وجامعة ليبزج (ليبزيغ) عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م، ومنها اتجه إلى لندن حيث درس اللغة العربية في جامعة كمبردج، كما تعلم الطب والفلك وعلوماً أخرى[١٤].

اتصف بركهاردت بالحرص على نقل الحقائق التاريخية والاقتصادية التي يكتب عنها إلى جانب الدقة في الوصف، والتحري والتمحيص في الروايات التي كان يسمعها وبالنزعة العلمية أيضاً[١٥]، كما أنه كان في مظهره محترماً وموقراً[١٦].

ومن أشهر مؤلفاته كتاب "ملاحظات عن البدو والوهابيين"، وكتاب "رحلات في الجزيرة العربية"[١٧]. لذلك عدّه المستشرقون والعلماء الرائد الحقيقي الأول لحركة الكشوف في الأراضي المقدسة والقطر الحجازي[١٨].

توفي بركهاردت في مصر وهو في ريعان شبابه، ودفن في قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس، وما يزال قبره موجوداً بها، ومكتوبًا على شاهد تربته هذه العبارة: "هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي عبدالله بوركهاردت اللوزاني

---

(١٤) سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ - ١٩٥٠م)، ط١، دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م، ص ٥٦ - ٥٩؛ إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٧٧.

(١٥) محمد سعيد الشعفي: "كتاب بوركاردت كمصدر تاريخي واقتصادي للدولة السعودية الأولى"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٤٥٣.

(١٦) أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ط٦، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٣، ص ٨٠-٨١.

(١٧) محمد سعيد الشعفي: المقالة السابقة، ص ٤٥٣؛ خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(١٨) عبدالشافي غنيم عبدالقادر: "الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

تاريخ ولادته ١٠ المحرم ١١٩٩هـ، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ"[١٩] .

مكة المكرمة مركزاً للتجارة الداخلية:

انفردت منطقة الحجاز وخاصة القسم الشمالي منها بخصائص حضرية متميزة تبلورت في مجموعة من الاتجاهات التي تتصل بوظائف المدينة، وبالتالي انعكست على نشاط سكانها الاقتصادي، وأدت إلى بروز العديد من المؤسسات العريقة للتجارة والخدمات، مما جعلها تظهر بمستوى حضري شديد الخصوصية على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، التي كانت من أهم ملامح الحجاز الذي ميزته عن غيره ولفتت الأنظار إليه[٢٠].

لذلك وجد بركهاردت أثناء زيارته لمكة المكرمة أن أهلها يشتغلون بحرفتين لا ثالثة لهما، وهما حرفة التجارة، وخدمة البيت الحرام، ولكنه في الوقت نفسه غلب الحرفة الأولى على الثانية مستثنياً من ذلك علماء الدين الذين كان عملهم محصوراً في نطاق المسجد الحرام، ولا يعملون في التجارة[٢١]. كما لحظ بركهاردت أثناء وجوده في مكة المكرمة أن شوارعها تنتشر بها

وجد بركهاردت أثناء زيارته لمكة المكرمة أن أهلها يشتغلون بحرفتين لا ثالثة لهما

(١٩) خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص٢٦٤؛ عبدالشافي غنيم عبدالقادر: المقالة السابقة، ص ٤٣٠ - ٤٣١، ويذكر أنه عاد إلى القاهرة سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م، وقد أخذ منه الأعياء كل مأخذ، وفي السنة التي بعدها زار سيناء، وعاد إلى القاهرة في يونية ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م، وكان يعتزم السفر إلى فزان؛ ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة موصياً بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كمبردج، وكتاباته كلها تدور حول رحلاته، وقد تولت الجمعية الأفريقية بإنجلترا نشرها، وله بالعربية " أمثال عربية " مع ترجمتها إلى الإنجليزية، انظر: خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٢٠) عمر الفاروق السيد رجب: الحجاز المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية: أرضه وسكانه دراسات إيكولوجية، ط١، دار الشروق، جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٦١.

(21) John Lewis Burckhardt , Travels in Arabia , London , 1829 , P. 187.

دكاكين الحرفيين كالبنائين والنجارين والخياطين وصانعي الأحذية والحدادين، ولكنه نفى أن تكون لهم مهارة نظرائهم من الحرفيين في مصر، حيث إن مهارتهم تقل كثيراً عن السابقين[٢٢].

ولعل بركهاردت يشير إلى السوق بوصفه ظاهرة إنسانية حضارية إلى جانب كونه ظاهرة اقتصادية، فهو يشمل المكان الذي يتجمع فيه أصحاب الحرفة الواحدة بشكل متجاور يضم شارعاً أو أكثر، وتقوم فيه مجموعة الحوانيت والدكاكين التي تكون دكاكين للبيع أو دكاكين للتصنيع والتجارة[٢٣]، وكانت منتشرة على طول الشارع الرئيس وسط المدينة، فلا توجد في مكة المكرمة أماكن مخصصة للأسواق العمومية، فجميع الأسواق تقام على طول الشوارع الرئيسة، وهي عبارة عن أسواق دائمة تمتد من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، وفيها جميع السلع ومن الأنواع كافة، وتزدحم بالناس في مختلف الأوقات بالنهار، ولا سيما في موسم الحج[٢٤].

ونظراً لأهمية أسواق مكة المكرمة رأينا أنه من الضروري التطرق لها، ولا سيما أن بركهاردت أغفل الحديث عنها بإيضاح.

يعد سوق الشامية - الذي يقع في الطرف الشرقي من السويقة الممتد من اليمين إلى الجبل ومن الشمال إلى حد الحرم الشريف،

---

(22) John Lewis Burckhardt , Ibid , P. 187.

(٢٣) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٤؛ وللمزيد من التفاصيل عن الأسواق انظر:

Norman. C. Walpole, op. cit ., P. 242 - 243.

(٢٤) عبدالحفيظ حمان: "الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر من خلال رحلة دومينجوباديا (علي باي العباسي)"، الدارة، العدد الثاني، السنة الثامنة والعشرون، ١٤٢٣هـ، ص ١١٦؛ وأسواق المدن أكثر تفصيلاً، حيث تقسم إلى أقسام، في كل قسم تباع بضاعة معينة، وغالباً ما تكون هذه الأسواق في الشوارع الضيقة بعيداً عن الشمس، وغالبية التجارة كانت تدار بوساطة محلات صغيرة، وأغلب بضاعتها مستوردة. انظر:

Norman. C. Walpole, op. cit ., P. 268

وهي المنطقة التي يسكنها التجار والأغنياء؛ لأنها منطقة جيدة البناء - من أشهر أسواق مكة المكرمة الكثيرة، وهو يشبه في عمارته الأسواق التركية المسقوفة بالخشب مثله في ذلك مثل خان الخليلي بمصر، ولكنه يختلف عنه قليلاً في أن شوارعه ضيقة بحيث تضيق بالمارين وبالجمال عند مرورها به، ويباع في هذه السوق أنواع عدة من السلع كالمسابح والأقمشة بمختلف أنواعها الهندية والتركية والشامية والحلبية؛ وأشهرها المنسوجات الحريرية، إضافة إلى الأحجار الكريمة التي كان يبيعها حجاج اليمن بثمن رخيص جداً في شوارع المدينة، وكانوا متخصصين في المتاجرة بها، أما السوق الصغير الذي يقع على يمين الحرم في مواجهة باب إبراهيم فهو مخصص لبيع المواد الغذائية والتموينية كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر، كما يوجد فيه العديد من الدكاكين لبيع السمك المقلي الذي يجلب من جدة غير أنه مضر جداً بالصحة لتعفنه من الحرارة وطول فترة نقله إلى مكة المكرمة، كما يباع الجراد فيه بالوزن، أما سوق الليل فهو يقع في شرق المسجد الحرام، وهو سوق كبير يتوافر فيه جل ما يحتاجه الحجاج؛ ولذلك يعد سوق البضائع المختلطة(٢٥).

بالإضافة إلى السوق الذي يقع بين الصفا والمروة، واشتهر بكونه سوقًا منتظمة، تباع فيه جميع الفواكه والأطعمة بمختلف أنواعها، كذلك الحبوب؛ ولذلك فهو مزدحم بالمشترين الذين لا يكادون يخلصون من شدة الزحام به، ويصطف على يمينه وشماله دكاكين البائعين الذين يقفون تحت أكواخ مصنوعة من العصي والحصر المنسوجة من القصب، وبعضهم الآخر يقف تحت نوع من المظلات كبيرة الحجم في وسطها ثلاث عصي تستند إليها، فهناك أصحاب

(٢٥) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ط٣، مكتبة المعارف، د. ت، ص ٣٩، ٦١-٦٢؛ حسين أمين: "نظرة بعض الرحالة المسلمين وبعض الرحالة الغربيين عند زيارتهم لمنطقة الحجاز"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٣٩٤-٣٩٥.

المطاعم، والباعة المتخصصون في بيع الحلويات[٢٦]، إلى جانب الخبازين والزمزمية (بائعي الماء)[٢٧]، وبائعي الفحم والخضار وبائعي الثياب (البزازين)، ومفردها بزاز، ويسمون أيضاً القماشين؛ لبيعهم الأقمشة المنسوجة[٢٨]، ويوجد عند باب بني شيبة تحت السوق التي بين الصفا والمروة وبشكل قريب ومتصل به بائعو العطارة (العطارين)[٢٩].

وكان بعض الباعة يضع على الأرض نوعًا من الخيش يسمى (الجوت) المصنوع من بقايا الخيوط الرديئة يفترشه، وينشر عليه أفضل ما لديه من بضاعة مثل: الليمون الذي يسمى في مكة المكرمة (بن زهير) وهو أكثر أنواع الليمون فائدة والكراث وأحياناً الرمان المجفف، إضافة إلى الباعة المتجولين من بدو ثقيف وقبائل قريش مع عدد من الأشراف الفقراء الذين يحملون على رؤوسهم عكمة (بقشة) بها أنواع مختلفة من البضائع كالمدورات والكفيات والأحارم وبعض المنسوجات، وفي يدهم بعض منها لعرضها على المشترين، وكانت لهم شهرة وشأن، أما بعضهم الآخر فكان يحمل على رأسه زنابيل الفاكهة وخاصة الرمان، أما بائعو الرمان من البدو فقد كانوا يشترونه من الحلقة، ويبيعونه على قوافل الحجاج الذاهبة إلى جدة والمدينة المنورة أو القادمة منها[٣٠].

كما يوجد سوق يسمى المعلا لبيع العيش (الخبز) والجبن والتمر، وهو أنواع عدة مختلفة، وهي من السلع المربحة، والتي يقبل عليها

(٢٦) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٦؛ عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٦.

(٢٧) طالب محمد وهيم: مملكة الحجاز (١٩١٦-١٩٢٥)، دراسة في الأوضاع السياسية، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٢م، ص ٩٣.

(٢٨) عبدالحميد مرداد: رحلة العمر، الرحلة الأولى، الرحالة السعودي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، لبيك للطباعة، جدة، ١٤١٠هـ، ص ٢٩٣، ٢١٠ - ٢١١.

(٢٩) إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٦.

(٣٠) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٢٩٥ - ٢٩٩، ٤٢١.

الناس بصفتها جزءًا من الطعام اليومي لجميع الطبقات بمختلف فئاتهم الاجتماعية(٣١)؛ لأنه كان الغذاء الأساسي للشعب الذي كان يعيش معظمه على الرعي(٣٢).

وقد قامت على هامش تجارة التمور صناعة لتحويلها إلى عجوة عن طريق كبسها، وهي أنواع كثيرة، أهمها وأفضلها التي تأتي من قرية تربة بالقرب من مدينة الطائف، على أن النوع الأكثر شيوعاً في الأسواق هو النوع القادم من قرى وادي فاطمة وخليص والجديدة، وهي قرى في الطريق إلى المدينة المنورة(٣٣). ويوجد دكاكين في السويقة المواجه لباب الزيادة، وهي إلى الشرق من المروة التي ينتهي فيها المسعى، تمتد بموازاة الجانب الشرقي من الحرم الشريف، وهي سوق صغيرة نظيفة على الدوام، يعرض فيها التجار الهنود والأغنياء سلعهم الثمينة، مثل: الموسلين والشال الكشميري، وفي منتصف السويقة توجد مساطب حجرية يبيع فوقها النخاسون العبيد الأحباش من الجنسين، ويبلغ سعر العبدة الجميلة من هؤلاء ما بين مئة وعشرة ريالات(*) ومئة وعشرين ريالاً. وكانت هناك دكاكين بباب العمرة(٣٤) ودكاكين لبيع الفاكهة بالمسعى بجميع أنواعها، وهي تشبه السوق الأستانبولية، كما كان هناك عدد كبير من الدكاكين يديرها

---

(٣١) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٩ - ١٩٢.

(٣٢) أحمد عسّه: معجزة فوق الرمال، ط١، المطابع الأهلية اللبنانية، ١٩٦٥م، ص ٣٥١؛ Norman. C. Walpole, op. cit., P. 217.

(٣٣) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٩ - ١٩٢.

(*) الريال: هو العملة الشعبية المعروفة، وتساوي ١ شلن و ١٠,٢٥ بنسات، وتسمح الحكومة العثمانية بجباية الضرائب بالريال أو الروبية بالإضافة إلى العملة العثمانية الرسمية. انظر: ج. ج لوريمر: دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٢، طبعة جديدة ومعدلة ومنقحة، أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، د. ت، ص ٨٥٠ - ٨٥١.

(٣٤) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٢١٠ - ٢١١، ٢٨٤؛ حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٥.

أناس أتراك من أوربا أو آسيا الصغرى، وكان هؤلاء يبيعون مختلف الألبسة التركية وأنواعها، وكانت تباع في هذه الدكاكين السيوف الجميلة والساعات الإنجليزية الممتازة ونسخ القرآن المزخرفة، كما كان طباخو إستانبول يبيعون فيها أنواع المأكولات والحلويات قبل الظهر، والكباب وغيره من اللحوم المشوية بعد الظهر، والمهلبية عند الغروب، ودكاكين أيضاً لبيع المأكولات الجاوية والسمن(٣٥)، بالإضافة إلى مجموعة من الدكاكين المقامة للبيع في موضع الطواف ودكاكين الحلاقين(٣٦) الذين يحلقون شعور الحجاج بعد انتهائهم من السعي، وهناك أكثر من عشرين دكاناً تباع فيها أنواع العطور والدهون والند، وفي دكاكين أخرى تباع المصوغات وقلائد المرجان والصندل بأنواعها، فضلاً عن سلع الصيني الفرفوري (الخزف)(٣٧).

أما الأسواق الموسمية التي كانت عامرة أيام التشريق في منى فقد كان يباع فيها مختلف السلع كالجواهر النفيسة والخرز وغير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا من هندية ومصرية وصينية ويمنية من عطر وعقيق وزعفران وعاج ولؤلؤ وديباج وعنبر(٣٨).

وفي جميع هذه الأسواق فإن حركة البيع تكاد لا تنقطع طوال مدة الموسم، مما ترتب عليه توافر الربح العظيم لأهل مكة المكرمة، وكان العبيد يقومون بالأشغال الشاقة، فكان منهم الحمالون والحطابون

(٣٥) عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ١٣٠، ٢٠٣؛ حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٤.

(٣٦) منير العجلاني: تاريخ البلاد العربية السعودية، الدولة السعودية الأولى، ج٢، عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، ط٢، د. ن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٦٨؛ عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٣٧) حسين أمين: المقالة السابقة، ص ٣٩٥.

(٣٨) عبدالمجيد الذويب: "الجغرافيون العرب دورهم في التعريف بالجزيرة العربية"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٢٩٧؛ إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٥٩ - ١٦٠، ص ١٦٩.

والحمارون والجمالون والسقاؤون والخادمون، وفي مكة المكرمة سوق كبيرة مخصصة لبيع الرقيق، ويسمى المكان الذي يتم فيه البيع دكة؛ بحيث يجلس عليها ما يراد بيعه من العبيد، ولكن مع مرور الوقت زال أثر هذه السوق، فلم يعد لها شأن يذكر(٣٩).

أما الصناعة في مكة المكرمة فليست بالأمر المهم، فلم تكن تتجاوز الحرف المهنية اليسيرة التي كان يحتاجها الناس بشكل يومي في حياتهم كصياغة بعض القطع الذهبية والفضية، والنجارة التي كانت محدودة والمصنوعات الفخارية لصنع الدوارق والقلل، وكان أهل مكة المكرمة يفضلون العمل في التجارة على العمل في الصناعة التي كانوا يعيبون العمل بها، ويعدون الاشتغال بالحرف فيه خدمة للآخرين؛ ولذلك تجدهم يترفعون عن امتهان أي عمل صناعي أو حرفة يدوية؛ مما أدى إلى التقليل من نسبة العاملين في الصناعة، بينما اقتصرت وبشكل عام على أصحاب الجنسيات الأجنبية من خارج الجزيرة العربية(٤٠).

لذلك كان لموقع مكة المكرمة دور كبير في توجيه أهلها إلى الاشتغال بالتجارة، وعدم القيام بأي عمل صناعي أو حرفي إلا للضرورة القصوى، لهذا كانت الحرية في ممارسة التجارة حائلاً دون النزول إلى ميدان المنافسة الصناعية، ومما لا شك فيه فقد أدى هذا الأمر إلى إغراق السوق بالمنتوجات الصناعية الخارجية والتي كانت تمتاز بالجودة(٤١)، إلى جانب الإمكانات الفقيرة التي وقفت مانعاً

(٣٩) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٤٠) عبدالفتاح حسن أبو عليّه: تاريخ الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٤٠ - ١٩٨١م)، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٩٥؛ محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠-٦١. كانت صناعة الحلي على درجة عالية من الإتقان، وما يزال صاغة مكة المكرمة إلى يومنا هذا مشهورين بإتقان الصنعة. انظر: الأمير شكيب أرسلان: "الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادي"، المنار، م٣١، ج٩، المحرم سنة ١٣٥٠هـ، يونية سنة ١٩٣١م، ص ٧٠٢.

(٤١) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٣؛ لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٩٣.

أمام قيام صناعة محلية متطورة، وصعوبة ذلك في ظل الظروف الصعبة التي كانت تمتاز بها الحجاز عن غيرها من المناطق، وبالرغم من ذلك التخلف في الصناعة إلا أن ذلك لم يمنع من القيام ببعض المشاريع المحلية الصغيرة اليسيرة، ولا شك أن الإعانات المالية التي كانت تؤدي إلى إنعاش الوضع الاقتصادي في مكة المكرمة خاصة كانت من ضمن الأسباب التي أدت إلى عدم اهتمام أهلها بالصناعة وغيرها من المهن(٤٢).

ونظرًا لذلك أشار بركهاردت إلى عدم وجود صناعات في مكة المكرمة، ولعله كان يقصد الصناعات الثقيلة، على الرغم من أنه ذكر وجود بعض الصناعات الخفيفة التي يقوم بها سكان مكة المكرمة، وهي كما أوردها في كتابه بعض مصانع الفخار والمصابغ التي تصبغ فيها الأقمشة، وصناعة الأحذية(٤٣).

ومعنى ذلك عدم وجود صناع في مكة المكرمة قادرين على طرق أو صنع الأقفال والمفاتيح، بل إن جميع المفاتيح والأقفال كانت بدائية ومصنوعة من الخشب، بالإضافة إلى الصناديق التي يتم جلبها من الخارج(٤٤)، كما لا يوجد صناع قادرون على صنع الأسلحة في مكة المكرمة، فهم لا يعرفون إلا صنع البنادق البدائية ذات الفتيلة، ومع ذلك فهي صناعة دقيقة جداً، إضافة إلى صناع السكاكين المقوسة والرماح(٤٥)، وصناع الصفيح الذين يصنعون نوعاً من الأوعية التي

---

(٤٢) طالب محمد وهيم: المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ وهذه الصناعات كانت نادراً ما تصدر للخارج، وهذه الصناعات اليدوية بدأت في الانقراض بعدما زاد الاستيراد لمنتجات بأسعار أقل بجانب أنه عادة ما تكون هذه الصناعات اليدوية قليلة الجودة. انظر:

Norman. C.Walpole.. op . cit ., P. 243.

(43) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 187.

(٤٤) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٦.

(٤٥) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١؛ عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٧.

يستعملها الحجاج لحمل مياه زمزم والكوفيات التي كان يصنعها الإندونيسيون(٤٦).

يستنتج من ذلك كما ذكر الجاسم "أن تلك الصنائع كانت تقليدية الصنعة بسيطة التصنيع، كما أنها كانت لا تنتج بكميات كثيرة إلا في الظروف الاستثنائية"(٤٧).

وقد ذكر بركهاردت أن جزءًا من العملات (الأموال) التي يجنيها أهل مكة المكرمة يذهب إلى اليمن والهند، ويبقى ربع هذه الأموال في أيدي أهل مكة المكرمة، إنها تجارة مربحة، فالبضائع يتم شراؤها من قبل التجار في جدة من السفن القادمة من الهند، ومن ثم يقوم تجار مكة المكرمة بشراء هذه البضائع بالجملة؛ ليبيعوها خلال موسم الحج بربح يتراوح بين ٢٠٪ إلى ٥٠٪، ولا يعجب من أن أهل مكة المكرمة جميعاً يعملون في التجارة، حيث إنه بإمكان أي منهم أن يذهب إلى جدة، فيشتري بضاعة ببضع مئات من الدولارات(*)، ويبيعها أثناء موسم الحج؛ وبذلك يحقق ربحاً من هذه التجارة(٤٨).

---

(٤٦) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٨٣؛ عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٤٧) محمد علي رضا الجاسم: اقتصاديات المملكة العربية السعودية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢م، ص ١٥٨.

(*) المقصود بالدولار هنا دولار ماريا تيريزا (Maria Teresa)، وهو من أكبر العملات التي كانت متداولة في معظم أنحاء الجزيرة العربية، وينسب إلى الإمبراطورة ماريا تيريزا (١١٣٠-١١٩٤هـ/ ١٧١٧-١٧٨٠م) ملكة هنغاريا (بالمجر) وبوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) ودوقة النمسا ولوترنجن، وزوجة الإمبراطور فرانسيس الأول، ووالدة الملكة ماري أنطوانيت ملكة فرنسا، وعرف في الجزيرة العربية بالريال الفرانسي، وعند ظهور الريال السعودي اختفى من الأسواق. انظر في ذلك:

- Hawley Donald, The Trucial States, London, 1970 , P.150, 162;

- F. S. Vedal, The oasis of Al Hasa, Arabian Research Division, 1955, P. 176 - 177.

(48) John Lewis Burckhardt., op. cit. , p.187.

ويجني أصحاب الدكاكين وتجار التجزئة أرباحاً أكثر عند شرائهم للبضائع من القوافل، في حين تكون هذه الأرباح قليلة عند شرائهم للبضائع من تجار الجملة، ويقوم تجار مكة المكرمة الذين لا تتوافر لديهم الأموال الكثيرة اللازمة للتجارة بالبضائع الهندية بتوظيف رؤوس أموالهم للتجارة في الذرة والمواد التموينية الأخرى خلال موسم الحج، وأشار بركهاردت إلى أن التجارة في هذه المواد في السابق كانت عملية مربحة، إلا أن ذلك قد تغير في وقت لاحق، ويرجع السبب في هذا التغيير إلى أن محمد علي باشا أصبح يحتكر التجارة في المواد التموينية(٤٩)، وأصبحت كل الحبوب التي يتم شحنها إلى ميناء جدة تتم لحسابه، وكذلك السلع الأخرى، مثل: السمن والبصل، وقد فرض أسعاراً احتكارية للسلع التي كان يوردها إلى منطقة الحجاز(٥٠) للحصول على المزيد من الربح؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعاً باهظاً، حتى بلغت الأثمان ضعفها في مصر(٥١). هذه السياسة

---

(49) John Lewis Burckhardt, Ibid, P. 188 - 189.

ومن الأمثلة الدالة على احتكار محمد علي باشا للغلال الواصلة إليه من مصر، التي كان يبيعها على العسكر بأغلى ثمن أنه كان يحجر على الحجاج والمسافرين إحضار أي شيء معهم من الحب والدقيق، وكان يتم تفتيش أمتعتهم في السويس، وأخذ ما يجدونه معهم من القمح والدقيق، وغير ذلك مما يحملونه لزادهم ونفقتهم. انظر: محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ط١، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ١٦٠.

(٥٠) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١؛ ولقد أشارت إحدى الوثائق إلى احتكار محمد علي باشا للتجارة في جميع موانئ الحجاز واليمن. انظر: دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة (١) ذوات، رقم وحدة الحفظ (٧٨)، تاريخها، ٢٤ صفر ١٢٣٣هـ/ ٣ يناير ١٨١٨م، من الجناب العالي إلى رستم أفندي مأمور أمور تجارة محمد علي باشا في جدة.

(٥١) فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤؛ هنري دودويل: الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد علي مؤسس مصر الحديثة، تعريب، أحمد محمد عبدالخالق بك - علي أحمد شكري، مكتبة الآداب، د. ت، ص ٥٠ - ٥١؛ ولقد وصل سعر أردب الحبوب إلى ما يتراوح بين ١٣٠-١٦٠ قرشاً، في حين أن سعره في مصر كان اثني عشر قرشاً. انظر: إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١.

الاحتكارية جعلته مسيطراً على تجارة الواردات، كما مكنته من جني الكثير من الأرباح، والتي كان من أبرز نتائجها اتساع دائرة التبادل التجاري لمصر(٥٢) إلى جانب الإيرادات الضخمة التي كان يجنيها من وراء ذلك، التي صرفها على القوات المسلحة(٥٣).

لذا فإن التجار أصبحوا مجبرين على شراء الحبوب من جدة، وبالأسعار التي يفرضها محمد علي(٥٤)، ولكن تلك السياسة الاحتكارية أدت إلى عدم رضا التجار عن السياسة الاقتصادية المفروضة عليهم(٥٥)، وهذا ما دفعهم بمرور الوقت إلى الاستغناء عن الحبوب المصرية وخاصة الشعير والأرز، واستبدالها بالحبوب الهندية وخاصة الأرز الهندي، الذي هو الغذاء الأساسي لمعظم شبه جزيرة العرب(٥٦).

بالتالي فإن على هؤلاء التجار الاكتفاء بهامش ربح معتدل عند بيعهم لهذه الحبوب في مكة المكرمة، وبعد أن يقوم هؤلاء التجار بدفع مصاريف نقل الحبوب من جدة إلى مكة المكرمة يبقى لديهم هامش ربح يتراوح بين ١٥٪ و٢٠٪، وهذا النوع من التجارة يتناسب مع التجار ذوي رؤوس الأموال الصغيرة، حيث يكون بإمكان صغار التجار هؤلاء مضاعفة رؤوس أموالهم في فترة قصيرة(٥٧).

(٥٢) جميلة سعد زيد العيسى: الصراع البريطاني الفرنسي حول البحر الأحمر ١٢١٣ - ١٢٨٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٦٩م، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٣٦٦.

(53) Vatikiotis . P. j., The modern History of Egypt , London , 1969, P. 64.

(54) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 189;

كان محمد علي باشا يشتري المحاصيل من المزارعين مقابل أسعار منخفضة ومحددة، ثم يقوم بإعادة بيعها للسماسرة المحليين والمصدرين الأجانب بأرباح كبيرة. انظر في ذلك:

Thomas. E. Marston, Britain's Imperial Role in the Red sea Area 1800-1878, Copyright , 1961, P. 50 - 51 ; Vatikiotis . P.J., op . cit . , P. 65.

(٥٥) لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٥٦) إبراهيم فؤاد عبدالعزيز: المقالة السابقة، ص ١٩١؛ صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤م، ص ٦٩.

(57) John Lewis Burckhardt., op. cit ., P. 189.

ومع قدوم موسم الحج ترتفع أسعار المواد التموينية كافة، وكذا بشكل أقل نسبياً بالنسبة للسلع الأخرى، ونتيجة لذلك فإن التجار الذين يمتلكون مخزوناً كبيراً من الذرة والأرز والبسكوت(٥٨) سيحصلون بالتأكيد على ربح وفير، ويقدر توفير الطعام لحشد كبير بحوالي ستين ألف إنسان، والعلف بحوالي عشرين ألف جمل، وكذلك المواد التموينية اللازمة لهؤلاء الحجاج أثناء رحلة عودتهم إلى ديارهم ليست بالعملية التجارية البسيطة، كما أن محمد علي لم يسيطر بعد على كامل هذه التجارة لحسابه. وذكر بركهاردت أن كل فرد من أهل مكة المكرمة ممن يمتلكون مبلغاً قليلاً من الدولارات يقوم بشراء المواد التموينية، ونقل هذه المواد على حماره إلى مكة المكرمة؛ ليبيعها في موسم الحج(٥٩).

---

(٥٨) ربما قصد بركهاردت البقسماط، وهو التموين الذي يعد لحجاج بيت الله الحرام إلى جانب الغلال والدقيق. انظر: فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ١٣٤. وقد أشارت الوثائق المعاصرة لفترة سيطرة محمد علي باشا في الحجاز لهذا التموين حين ذكرت ورود "ثمانية وستين كيساً من البقسماط" من مصر. انظر: دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة (٣) بحريرا، رقمها في وحدة الحفظ (٥٥)، تاريخها، ٩ المحرم ١٢٢٩هـ/ ١ يناير ١٨١٤م. والبقسماط لفظة يونانية وتركية، وبالفارسية يسمى بقسمات، وتعني هذه التسمية: الخبز الجاف الذي يحمله المسافر؛ ليتزود به، وكان أمير الحاج ينعم على المنقطعين من الحجاج بالماء والبقسماط في الطلعة والرجعة. انظر أيضاً: سعد بدير الحلواني: العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩، ط١، د. ن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٤٤؛ عبداللطيف إبراهيم: "وثائق الوقف على الأماكن المقدسة"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٥٢.

(59) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 189.

كانت أسعار الغلال في الحجاز متفاوتة وغير محددة، فلم تكن هناك قاعدة ثابتة لأسعار السلع الغذائية، فكان كل من يمتلك النفوذ له أن يستغل أهل البلاد بالطرائق التي تحلو له، ويعود السبب في ارتفاع أثمان السلع هو طول المسافة بين المدن بعضها ببعض، بحيث إن عملية النقل لا تتم بالسرعة المطلوبة، وتتطلب وقتاً أطول. سعد بدير الحلواني: المرجع السابق، ص ١٢٨؛ لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٩٣؛ عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

إن استهلاك الحبوب في الجزيرة العربية أكثر منه في البلدان المحيطة بها، حيث إن أغلب سكان الجزيرة يعتمدون في غذائهم القمح والشعير والعدس والأرز(٦٠)، ولا تدخل الخضروات في الغذاء اليومي لسكان مكة المكرمة إلا بالنسبة للطبقة الثرية من سكان البلاد الساحلية؛ لندرتها وعدم توافر المياه الكافية لزراعتها محلياً، وبالتالي أصبحت زراعتها قليلة، إلى جانب أنها تحتاج إلى وسائل نقل سريع وإلى مراكز حضرية ذات كثافة استهلاكية عالية، كما أنها تتأثر بالنقل من خارج حدود البلاد(٦١)، ولذلك ذكر بركهاردت أن أهل مكة المكرمة لا يستهلكون الخضار، بل يستهلكون كميات كبيرة من الزبدة(٦٢)، التي كانت تحفظ في الأوعية والقرب، ولكنها تكون مذابة على شكل زيت بسبب ارتفاع درجة الحرارة دائماً(٦٣)، وهذا الأمر ليس بمستغرب؛ نظراً لكثرة الماشية وتوافرها، التي كانت تجلب من نجد لتباع في أسواق بعض مناطق الحجاز، حيث كانت سوقاً رائجة، ثم تنقل إلى مكة المكرمة لبيعها هناك مع منتجات نجد الأخرى(٦٤).

استهلاك الحبوب في الجزيرة العربية أكثر منه في البلدان المحيطة بها

من الوظائف العاملة في السوق السمسار، فقد أشار بركهاردت إلى أن هناك الكثير من الأرباح (الأموال) التي يتم جنيها عن طريق

---

(60) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 191;

كان القمح حتى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، يعد أهم الحبوب للسعوديين حتى تم استيراد الأرز الذي حل مكان القمح. انظر:

Norman. C. Walpole. op. cit., P. 217 - 218.

(٦١) أحمد عسه: المرجع السابق، ص ٣٥١؛ عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٥٨، ص ٢٨١. على الرغم من توفر كميات من الخضر في الطائف والمدينة المنورة إلا أنه ربما كانت تستغل للاستهلاك المحلي فقط لقلتها.

(62) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 191.

(٦٣) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١١٣.

(٦٤) مديحة أحمد درويش: تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، ط٢، دار الشروق، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٩٩.

الغش والخداع، حيث إن عدداً كبيراً من الحجاج لا يتكلمون العربية؛ لذا فإنهم يقعون فريسة سهلة للسماسرة الذين يجعلون هؤلاء الحجاج يدفعون أضعاف الخدمات المقدمة لهم، وذكر أن انتشار هذه الظاهرة يجعل أهل مكة المكرمة يبدون متفقين بالإجماع على أساليب الغش والخداع التي يمارسونها على الحجاج(٦٥)، وذكر أيضاً أن عقد الصفقات التجارية يتم من خلال السماسرة الذين يكونون في الغالب من الهنود، وتتم عملية المساومة التجارية بين التجار بإشارات سرية عندما يكون حولهم أشخاص غرباء، ولا يودون إطلاعهم على الأسعار، ويتم ذلك عادة بالتصافح بالأيدي، ولمس فقرات الأصابع بطريقة متعارف عليها للدلالة على الأرقام، وبذلك يتم الاتفاق على الأسعار، وإتمام الصفقات التجارية دون أن يلحظ الحضور أسعار الصفقات التي يتم عقدها(٦٦).

في حين يعمل بعض أهل مكة المكرمة مطوفين وأدلاء خلال موسم الحج؛ حيث يزداد الطلب على خدماتهم خلال هذه الفترة، ونوه إلى وجود أعداد كبيرة منهم يرافقون الحجاج إلى مختلف الأماكن في المشاعر المقدسة، وهم دائماً على استعداد لتقديم جميع أنواع الخدمات في مكة المكرمة(٦٧)، فكان أغلب الأهالي يعيشون من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الديني، ولا تروج تجارتهم إلا زمن

---

(65) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 188.

(66) John Lewis Burckhradt., I bid., P. 191.

(67) John Lewis Burckhradt., I bid., P. 193.

ومن الخدمات التي يقدمها المطوف للحجاج أنه كان يبعث في العادة خادماً في كل أسبوع مرة واحدة لكنس المجالس لهم، وإخراج الزبالة خارج الدار، وكان الحجاج يدفعون للمطوفين المصالح؛ ليتم توزيعها على من يستحقها من الناس بمعرفتهم، ومنها الأبدال والعقائق والقرابين، وكان بعض الأهالي الذين يعملون مطوفين ومرشدين يمدون الحجاج بالطعام في مقابل مبلغ من المال يتفقون عليه. انظر: عبدالحميد مرداد: المرجع السابق، ص ٣٩٣ - ٣٩٧؛

Norman C. Walpole., op. cit., P. 240.

الحج، والرزق الذي يأتيهم منه يعيشون عليه طول عامهم، وبعد الموسم يغادر الكثير منهم مكة المكرمة إلى الأماكن التي فيها حجاج سبق التعرف عليهم أثناء الحج، فيقدمون لهم بعض الهدايا، ثم يبرحونهم، وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم(٦٨).

لذلك وصفهم بركهاردت بالوضاعة والإلحاح في طلب المال من الناس (الحجاج)، واستغلالهم بشكل جشع، ويقع الكثير من الحجاج خصوصاً الأتراك الذين لا يتكلمون العربية ضحية لهؤلاء المطوفين والأدلاء عندما يتوسطون بصفتهم مترجمين بين الباعة والحجاج، كما يفرض هؤلاء المطوفون أنفسهم على الحجاج، ولا يفارقونهم من مطلع الشمس إلى مغيبها، حتى إنهم يشاركونهم في طعامهم وشرابهم، ولا يسمحون للحجاج بعمل أي شيء دون الرجوع إليهم في المشورة(٦٩). ومن دلائل ذلك أن المطوفين كانوا يوقفون أغنياء الحجاج في سوق المزايدة حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم(٧٠).

ويتمركز بعض الأدلاء والمطوفين بشكل دائم بالقرب من الكعبة بانتظار من يطلب خدماتهم من الحجاج للطواف حول الكعبة، وعندما يرى أحد المطوفين حاجاً منفرداً يذهب إليه، ويمسك بيده، ويبدأ بقراءة أدعية الطواف دون أن يطلب الحاج منه ذلك، ويتقاضى المطوف أجرة تقدر بنصف قرش، وقد لحظ بركهاردت بعض المطوفين يساومون

(٦٨) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦١.

(69) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 193; Sir Reader Bullard, The camels must Go An Autobiography, London, 1961 P. 126 - 127.

(٧٠) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٦٢ - ٦٣؛ ونظراً لأهمية الطواف لدى أهل مكة المكرمة فإن أحد الرحالة العرب ويدعى "الورتلاني" كان يعلم بعض أهل بلاده مناسك الحج، ويطوف بهم، فلما رأى أهل مكة المكرمة ذلك اعترضوا عليه، وقالوا له: "ألم تعلم أن أهل مكة المكرمة لا ينتظرون إلا هذا الموسم؟ طف لنفسك، واترك الناس"، وبعد المفاوضات اتفقوا على أن يستمر هو على ما كان فيه، ويأخذوا هم الأجرة من الحجاج. انظر: أبو القاسم سعد الله: "الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٣٤٣.

الحجاج، ويفاصلونهم على هذه الأجرة على مسمع من الناس، ويكتفي الدليل المعتدل بربع قرش أجرة على خدماته، ويقوم بعض أصحاب الدكاكين بإرسال أولادهم إلى المسجد الحرام؛ ليتعلموا مهنة الطوافة والدلالة(٧١)؛ لذلك تجد أن المطوف ربما كان صغيراً في السن لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبع يحمله بعض الطائفين على أكتافه؛ ليطوف به وهو على هذه الحالة يلقنهم الدعاء(٧٢).

لهذا السبب أشار البتنوني إلى إنشاء مدرسة خاصة لتخريج المطوفين لدراسة كل ما يتعلق بمهنة الطوافة، وعدّ ذلك أكبر خدمة دينية؛ لأن أكثر المطوفين جاهلون بمهمتهم الكبرى، فبعضهم يدخل في عقل الحاج ما ليس من الدين في شيء، كما أن بعضهم الآخر يحرّف ألفاظ القرآن الكريم أثناء الطواف عمداً سواء بالترقيق أو التفخيم مما لا يجوز تفخيمه أو لا يصح ترقيقه، ولتقريب الحرف إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً كانوا يقومون بقلب الحرف بآخر(٧٣).

ويكسب الأدلاء والمطوفون الذين يجيدون اللغة التركية(٧٤)، وهي اللغة التي يتحدث معظم أهل مكة المكرمة بها، وبعض المطوفين يتحدث بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية(٧٥) مبالغ كبيرة؛ حيث إن أجرهم أعلى من غيرهم.

---

(71) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٢) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٧٣) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٥٩ - ٦٠؛ ونظراً لأهمية الأمر فقد أمر الملك عبدالعزيز في عام ١٣٤٧هـ/ ١٨٢٨م؛ بإنشاء مدرسة للمطوفين ونظامها ومواد التدريس فيها، وكانت مدة الدراسة فيها سنة واحدة، ويجري الفحص في نهاية السنة الدراسية وتعطى الشهادات للناجحين، ولا يجوز لغير حامليها الاشتغال بمهنة التطويف. انظر: عبدالرحمن بن سبيت السبيت وآخرون: من وثائق الملك عبدالعزيز، إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة ٦٠، رئاسة الحرس الوطني، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢١١.

(74) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٥) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٤٥.

وبما أن الحجاج الأتراك يقدمون عن طريق جدة في جماعات يتراوح عدد الواحدة منها ما بين (٨) و (١٢) حاجاً ويقيمون في جماعاتهم، وليس بشكل منفرد في مكة المكرمة، ويتولى في العادة دليل واحد أمر الجماعة بأكملها، لا سيما أن التركي الذي يأتي من الجزء الأوروبي من تركيا أو من آسيا الصغرى الذي لا يعرف كلمة عربية واحدة يجد الطمأنينة عند الدليل الذي يتحدث التركية بطلاقة، ويعده بالراحة والهدوء في مكة المكرمة خصوصاً وأن هذا الحاج لا يتوقع فيها سوى العناء والتعب، ويحصل الدليل الذي يقوم على خدمة جماعة مؤلفة من (١٢) حاجاً لمدة شهر على أجر يعادل جميع نفقاته ونفقات عائلته وملبسهم لمدة عام كامل من هؤلاء الحجاج الأتراك[٧٦]، فلكل مطوف حجاج مخصصون على حسب اختلاف البلدان، فترى للأتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلاً مطوفين خاصين بهم، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حجاجه تعينه إمارة مكة المكرمة لهذا الغرض، وكانوا كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفاً من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه إلى غيره؛ لأنهم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة المكرمة هذه الالتزامات، ولذلك كان لبعضهم سلطان على حجاجهم يأمرون فيهم وينهون، ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة، ولكن بعد ذلك زال هذا الاحتكار، وأطلقت الحرية للحجيج يطوفون مع أي شخص أرادوا[٧٧].

ويتوقع أن تكون أجرة الدليل على خدماته متناسبة مع عدد أفراد هذه الجماعة، وغالباً ما يقوم الحجاج الأتراك بتوصية أقربائهم

---

(76) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(٧٧) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٢٣-١٢٤؛ عبداللطيف عبدالله بن دهيش: "دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هور غروني عن تاريخ الجزيرة العربية"، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ط١، جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٩٣.

الذين سيأتون للحج في مواسم مقبلة باسم دليل معين لخدمتهم، وحال وصول هؤلاء الحجاج إلى جدة يأمرون هذا الدليل بتوفير سكن لهم في مكة المكرمة، وملاقاتهم في جدة لاصطحابهم في رحلتهم من جدة إلى مكة المكرمة، وكذلك القيام بخدمتهم لقراءة الأدعية الخاصة بشعائر دخول المسجد الحرام، ويسكن بعض الأدلاء في جدة في فترة الشهور الثلاثة التي تسبق الحج، حيث يقوم هؤلاء الأدلاء باستقبال جماعات الحجاج الأتراك، واصطحابهم إلى مكة المكرمة(٧٨)، ولذلك ترى في موسم الحج في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحجاج الذين إذا وصلوا إليها وجدوا على أبواب جمركها مطوفيهم أو وكلاءهم في انتظارهم، وهم ينادون: "يا حاج فلان" أو "يا حجاج فلان"، يعنون المطوف؛ فيعرف الحاج اسم مطوفه، فينادى عليه وهو في هذه الشدة، فيبادر إلى مساعدته، ويأخذ منه ورقة جوازه؛ ليعلم عليها من قلم الجوازات، ثم يصير معه إلى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيها من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه، ثم يؤجر حميره أو جماله، ويسافر إلى مكة المكرمة بعد أن يشتري شقادفه(*) إن كان لها ضرورة عنده(٧٩).

---

(78) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 195.

(*) الشقادف: مفردها شقدف، وتسمى الهودج، وهي نوعان: نوع مهلهل بدائي يتكون من الخسف، ونوع يصنع من خشب خارجي تأخذ الشكل المخروطي المنظم، وتصنع في جدة، وهي من الصناعات الرائجة عندما كان النقل والانتقال يتم بوساطة الجمال بين مدن الحجاز، وهي المحامل التي يركبها الحجاج، وتوضع فوق ظهر البعير في هيئة قبة، ويتكون من جزئين متقابلين معدين للنوم فيهما لشخصين. انظر: عبدالقدوس الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، م١، ط٢، مطابع الروضة، جدة، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٤٦٥؛ سعد بدير الحلواني: المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٧٩) محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ١٠؛ كما يحدث في مكة المكرمة يحدث في المدينة المنورة حيث كان الحجاج ينزلون في بيوت الأدلاء الذين يكونون بصحبتهم لزيارة المسجد النبوي والآثار بالمدينة المنورة، ويتولى هؤلاء الأدلاء إنزال القادمين من الزوار في بيوتهم وإطعامهم والعناية بهم من بداية وصولهم إلى المدينة المنورة إلى وقت رحيلهم عنها، وكان الناس في الحجاز يسمون هؤلاء الأدلاء المزورين نسبة إلى محال الزيارة، وهم يؤدون في المدينة وظيفة المطوفين في مكة =

خلاصة القول، فإن مكة المكرمة تتميز بسمات اقتصادية خاصة استمدتها من قدم تاريخها وظروفها المكانية، وثقلها السكاني، ومميزاتها الحضرية، ولذا فإن هذه الدراسة تلقي الضوء على ملامح التجارة الداخلية من خلال نظرات أحد الرحالة الأوربيين الذي زار مكة المكرمة، ونقلها لنا(٨٠).

وقد تناول هذا الرحالة جوانب مهمة تتعلق بالتجارة الداخلية، تضمنت السلع المتوافرة في السوق سواء كانت سلعًا زراعية أو صناعية ونظام السوق من حيث البيع والشراء، وترتيب المحال وأوقات انعقاده ومكانه والوظائف العاملة فيه كالسمسار والدلال وغيرهم، والأسعار وكيفية التعامل معها مشيرًا إلى بعض الجوانب التي لم يتطرق لها في كتابته عنها؛ لأنه قرر "أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل معرفة التفاصيل الدقيقة الخاصة بالتجارة الواسعة في مكة المكرمة باستثناء أن يكون الشخص مشتغلاً بالتجارة أو له صديق مطلع من أوساط تجار الجملة؛ لذا فإنني أتحفظ في ذكر أي بيانات بهذا الخصوص خشية الإتيان بمعلومات خاطئة، كما أنني لم أجد من يقدم لي البيانات المطلوبة عن التجارة في مكة المكرمة"، وذكر أن الأفراد الذين يزعمون بأنهم لا يشتغلون بالتجارة من أهلها يرتبطون إما بالحكومة وإما بالمسجد الحرام، ولكن كما أشرت سابقاً فإن جميع أهل مكة المكرمة معنيون بنوع من التجارة، ويتطلعون دوماً لموسم الحج موردًا للدخل(٨١).

= المكرمة، وكانت معظم الأسر في مكة المكرمة وجدة لهم أدلاء معينون تستمر الصلة بهم، وتتوارث جيلاً بعد جيل. انظر في ذلك: محمد لبيب البتنوني: المصدر السابق، ص ٢٥٩؛ محمد علي مغربي: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة ١٣٠١-١٤٠٠هـ/ ١٨٨٣-١٩٨٠م، ج٢، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٨٠) عمر الفاروق السيد رجب: المرجع السابق، ص ٢٥٠؛ إبراهيم بن محمد المزيني: المقالة السابقة، ص ١٤٤.

(81) John Lewis Burckhardt., op. cit., P. 190-192.

ومع ذلك فإن رحلة بركهاردت رحلة مهمة لا تخلو من فوائد ترصد الأوضاع الاقتصادية لمنطقة الحجاز في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، التي يمكن استنتاج ما يأتي، منها:

١ - إن الأوضاع الاقتصادية في الحجاز تتأثر تأثراً كبيراً باستقرار الأوضاع السياسية العامة، فهناك ارتباط وثيق بين استقرار الأوضاع السياسة الداخلية، وتحسن الأوضاع الاقتصادية، ورخاء البلاد، وإذا حدث العكس واضطربت العلاقات بين حكامها والقوى الإسلامية الكبرى عمت الكوارث الاقتصادية، وتدهورت الأحوال[٨٢].

٢ - كان سكان مكة المكرمة ينتفعون من موسم الحج بوسائل مختلفة، كما كان التجار والأشراف يستفيدون منه استفادة كبيرة أيضاً[٨٣].

٣ - اعتماد هذه الدراسة على عنصري الملاحظة والرواية الشفوية، وهما المصدران اللذان اعتمد عليهما بعض الرحالة الأوربيين في كتاباتهم في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن هذا الرحالة كان يكتب ويؤلف كغيره من الرحالة؛ ليقدم ذلك للقارئ الأوربي قبل كل شيء؛ ولذلك تحرى الدقة في نقل المعلومات، وإن لم تخل من بعض الأخطاء، التي لم تكن أخطاء متعمدة[٨٤].

---

(٨٢) عبدالله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١، ط٨، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٤.

(٨٣) عبدالله الصالح العثيمين: "تاريخ المملكة"، المرجع السابق نفسه، ص ٢٣.

(٨٤) عبدالحفيظ حمان: المقالة السابقة، ص ١٢٤.

موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

د. إبراهيم فاعور الشرعة
قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - الجامعة الأردنية

موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرن التاسع عشر:

شهدت الفترة الواقعة ما بين القرن السادس عشر وأواسط القرن الثامن عشر صراعاً مريراً بين القبائل البدوية (الشامية والحجازية) والدولة العثمانية، تمثل ذلك الصراع في حالات كثيرة حول حماية قافلة الحج الشامي من اعتداءات هذه القبائل، حيث تكررت تلك الاعتداءات على القافلة مرات عدة؛ بسبب الخلاف ما بين أمراء القافلة وزعماء القبائل فيما يتعلق بالأموال "الصّرة"(١) التي كانت

(١) الصرة أو الصر: عبارة عن المال المدفوع من دار الخلافة لإعانة الحرمين الشريفين وسكانهما وتزويدهما بما يحتاجون إليه من شموع وزيت وقناديل. وكان مقدار ما يتقاضاه أمين الصرة ستة آلاف ليرة عثمانية. أما وقف السلطان سليم الأول فقد جعل فيه (٦٠٠) قرش لأمين الصرة فقط. ويخرج مال الصرة من نظارة الأوقاف العثمانية، حيث يوزع على القبائل البدوية مقابل حماية القافلة، وكانت الحكومة العثمانية تنفق في هذا المجال (١٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية في كل عام، ينفق القسم الأكبر على البدو كأجور للجمال وهدايا لشيوخ القبائل البدوية، خاصة تلك التي كانت تشكل خطرا على الحجاج، مثل: بني صخر وحرب. انظر "في رحلات الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج - رحلة السنوسي التونسي"، مجلة العرب، ج ٣-٤، السنة ١٣، ١٩٧٨م، ص ٢٨٤-٢٨٥؛ علي الشنوقي: مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين من سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٣١٨هـ (١٥١٧-١٩٠٠م)، المؤسسة الوطنية - بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٩م، ص ٢٧.
Abdul -Karim Rafeq: The Province of Damascus 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966.

تدفع للبدو من السلطات العثمانية، وحرمان البدو من نقل المؤن وتقديم الحماية وبعض الخدمات للحجاج في المنطقة الواقعة ما بين دمشق والأماكن المقدسة[٢].

ولكن الأمور تغيرت ما بين الدولة العثمانية والقبائل البدوية في الحقب اللاحقة، فابتداءً من القرن التاسع عشر خفّت اعتداءات القبائل على القافلة؛ إذ زاد اهتمام الدولة العثمانية بالقافلة؛ فقلت هجمات البدو على الحجاج، نتيجة لسياسة الدولة التي قامت على كسب ودّ القبائل والاستفادة منهم في نقل الحجاج، وبناءً على ذلك توطدت العلاقة بين الطرفين، بعد أن كانت علاقة عدائية في أغلب الأوقات؛ فمن خلال ما أورده الرحالة الأجنبي لورنس أوليفانت (Laurence Olyphant) عن قبيلة بني صخر[٣]، وتبنيها مسألة تقديم الجمال إلى والي دمشق

---

(٢) انظر، إبراهيم الشرعة: "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين"، مجلة دراسات "الجامعة الأردنية"، م ٢٩، ع ٢، حزيران ٢٠٠٢م، ص ٣١٩-٣٣٦.

(٣) قبيلة بني صخر: من القبائل البدوية الكبيرة التي نزحت إلى منطقة الكرك في أوائل القرن السادس عشر، وتنازعت مع القبائل البدوية التي كانت تحل في أراضيها. ثم تحولت إلى البلقاء وتنازعت مع قبائلها؛ فاستقرت أخيرا في بادية الأردن في المناطق التي كانت تسيطر على طريق الحج الشامي. وتعتمد بصورة كبيرة على الإبل، بلغ مجموع عائلاتها أكثر من ألف عائلة في بداية القرن التاسع عشر، وتقضي معظم فترة الصيف في البلقاء، وبعض العشائر يذهب إلى منطقة شرق إربد أو إلى جنوب حوران، وفي الشتاء ينتقلون إلى الشرق أو الجنوب الشرقي إلى وادي السرحان. لم يعتمد بنو صخر على تربية الإبل فقط، بل إن قافلة الحج الشامي، التي تمر بمحاذاة الحدود الشرقية للبلقاء، كانت تمثل المصدر الأكثر أهمية بالنسبة لهم، حيث كانوا يزودون القافلة بالجمال، ويتلقون نقودا من السلطات العثمانية مقابل حماية القافلة والسماح لها بالمرور بسلام، وكانوا يقومون بمهاجمة القافلة عندما يمتنع العثمانيون عن دفع الصرة. انظر:

Norman. N Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan. 1800-1980, Cambridge University Press, London, 1987, P. 124;

جبرائيل سليمان جبور: البداوة والبادية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٢٥-٢٢٦.

لنقل الحجاج مقابل أجرة معينة(٤)، يتضح لنا أن الدولة بدأت تهادن القبائل البدوية التي لها تماس مع طريق الحج كبني صخر مثلاً.

إن سياسة الدولة العثمانية في التعامل مع القبائل البدوية أملتها نتائج حادثة عام ١٧٥٧-١٧٥٨م (١١٧١هـ) الشهيرة(٥)؛ لذلك كلفت الدولة بعض القبائل مهمة نقل الحجاج والمؤن، ففي عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) بعث والي دمشق وقائد (سرعسكر) الجيش فيها أمير الحج إبراهيم باشا إلى قائمقام القدس حوالة مالية بقيمة (٣٢,٠٠٠) قرش، وأن يتم الإسراع لتسليمها إلى شيخ بني صخر عواد الفايز "مفخر المشايخ الموقرين"، مقابل أن يتعهد بنقل (١,٠٠٠) حمل شعير إلى قلعة معان(٦)، في موعد خروج القافلة من دمشق(٧).

---

(4) Laurence Oliphant: The Land of Gilead, William Blackwood and Sons, London, 1891, PP. 121-122.

(٥) هاجم قعدان الفايز شيخ بني صخر القافلة في عام ١٧٥٧م (١١٧٠هـ)، في المنطقة الواقعة ما بين تبوك وذات حج، حيث قتل معظم رجالها ونهب أموال الحجاج، كما نهب الجردة أيضاً، وكانت هذه الحادثة بمثابة نقطة تحول بالنسبة للدولة العثمانية واهتمامها بالقافلة. للمزيد عن هذه الحادثة. انظر: الشرعة، موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي، ص ٣٢٦-٣٢٨.

(٦) معان: من منازل قافلة الحج الشامي، فيها قرية وقلعة، يتم فيها البيع والشراء بين أهل معان والحجاج؛ فيتبادلون البضائع، وعلف الدواب، وبعض أنواع الفاكهة والمأكولات. وفيها واد يسمى وادي "المسوحة"، فيه ينابيع صغيرة عدة، كما يوجد في معان آبار ماء كبيرة تقع بينها بركة ماء. وقال عبدالغني بن إسماعيل النابلسي في معان بيتين من الشعر:

في طريق الحجاز من نحو شام ... قلعة واسمها الشهير معان

كل من جاءها على قصد صبح ... فهو من مالك الملوك معان

وهي إحدى المدن الأردنية تقع جنوب العاصمة عمان، وتبعد حوالي ٣٠٠ كم تقريبا.

انظر: عبدالغني بن إسماعيل النابلسي (ت١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق: أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٨٥؛ مرتضى بن علي بن علوان (ت١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م): منازل الحج، مخطوط رقم (١١٩٤، ١٣٧٠)، مركز الوثائق والمخطوطات - الجامعة الأردنية، ص ١٠٤ب، ٢٧٧أ؛ عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ص٤٥٥.

(٧) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم (٢٨٥)، (٩ شعبان ١٢١٩هـ/ ١٢ نوفمبر ١٨٠٤م)، ص ١٠٤- ١٠٥.

ومما يؤكد تطور العلاقة بين الدولة العثمانية والقبائل البدوية في المنطقة، خاصة قبيلة بني صخر، ما حدث من تعاون بين الطرفين للتصدي لقوات الإمام سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - التي توجهت في عام ١٨٠٩م (١٢٢٥هـ) نحو الشام، فقدّم كل من: الشيخ سعد القعدان الفايز والشيخ فهيد - وكلاهما من زعماء بني صخر - المساعدة لقوات والي دمشق، وأرسلا مجموعة من المحاربين إلى طبريا، انضمت إلى القوات المرسلة من قبل والي عكا سليمان باشا العادل؛ إذ كان لهذا التعاون أثر في تراجع قوات الإمام سعود[٨].

وتحسنت علاقة الدولة مع قبيلة عنزة أيضاً[٩]، التي كانت تعتمد عليها في تقديم آلاف الجمال للحجاج، مقابل أجور معينة وهبات لبعض شيوخها، بالإضافة إلى ما كان يقدّمه والي دمشق من أموال لهذه القبيلة في بعض مواسم الحج التي يكون مردودها ضعيفاً، كتعويض نتيجة لخسائرها الاقتصادية[١٠].

ولحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة، مثل: بيركهاردت (Burckhardt)، أن بعض العشائر البدوية، وبالذات التي كانت تستقر في جنوب منطقة شرقي الأردن، كانت تسهم بنقل الحجاج وتقديم المؤن، كاللياثنة في وادي موسى، الذين كانوا يحملون المؤن التابعة للقافلة عند وصول الحجاج إلى معان باتجاه الأماكن المقدسة، وبعض هذه العشائر؛ كالعلاوين، والعمران، والحيوات القاطنة بالقرب من العقبة، كانت تفرض "الأتاوات" على الحجاج بصورة دائمة؛ بسبب

---

(8) Raouf Sa'd Abu jaber: Pioneers Over Jordan, the Frontier of Settlement in Trans- Jordan's, 1850-1914, Tauris, London, 1989, P. 28.

(٩) قبيلة عنزة: تتكون عنزة من ولد علي، والحسنة، والرولة، والبشر والعمارات، وقدر عددهم في شمال الجزيرة العربية في بداية القرن التاسع عشر ما بين (٣٠٠-٣٥٠) ألف نسمة. انظر بوركهارت: البدو والوهابية، م١، ترجمة: محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢-٤.

(١٠) جون لويس بيركهارت: رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية، ج٢، ترجمة أنور عرفات، عمان، ١٩٦٩م، ص ٤٧.

مرور القافلة عبر مناطقهم، ولكن في بعض الأحيان كان يتم سلب الحجاج من قبل هذه العشائر(١١)، وبخاصة عندما تتدهور علاقتها مع الدولة العثمانية، ولا تحصل على الصرة السلطانية.

وهناك عشائر كالعمران (آل عمران)، الذين يرتبطون مع الحويطات بحلف، كانت تشكل مصدر إزعاج للحجاج عند مرورهم بأراضيها؛ ففي عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ)، هاجم العمران القافلة، ونهبوا سراياها المتقدمة أثناء مرورها في منطقتهم عندما كانت القافلة في طريقها من المدينة المنورة إلى دمشق(١٢).

ورغم سياسة المسؤولين العثمانيين في التعامل مع القبائل البدوية، واستمالتها، وكسب ودها إلا أن بعض القبائل بقيت مصدر قلق للدولة العثمانية، ولهذا كان أمير الحج يضطر إلى دفع بعض المبالغ، خاصة عند مرور القافلة بقرية الجديدة القريبة من منطقة الصفراء، حيث المقر الرئيس لقبيلة حرب؛ إذ كان الحجاج يدفعون لهذه القبيلة أتاوات مقابل دفع شرهم والسماح لهم بالمرور دون حدوث أي اعتداء على أرواحهم وأموالهم(١٣).

ويبدو أن عادة أخذ الأموال من الحجاج غدت شبه دائمة، ففي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨١٣م (ذو القعدة عام ١٢٢٨هـ)، طالبت قبيلة حرب أمير القافلة سليمان باشا بدفع مستحقاتها من الصرة السلطانية عن الفترة ما بين ١٨٠٣-١٨١٣م (١٢١٨-١٢٢٨هـ)، حيث توقفت خلالها قافلة الحج الشامي، بسبب سيطرة قوات آل سعود على الطريق المؤدي إلى الأماكن المقدسة

يبدو أن عادة أخذ الأموال من الحجاج غدت شبه دائمة

(١١) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٤، ١٤٧، ١٧١.

(١٢) بوركهارت: البدو والوهابية، ترجمة محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م، م١، ص١١؛ م٢، ص١٦١-١٦٧.

(١٣) جيرالد دي غوري: حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٣٣.

هناك وضبط الأمن فيه ومنع الاعتداءات، وكان المرور آنذاك عن طريق السويس إلى جدة فمكة، ولبى سليمان باشا طلب القبيلة، فسار بالقافلة دون حدوث أية عقبات[١٤].

وكانت قبيلة عنزة هي الأخرى تحصل على الأموال من العثمانيين لقاء نقل الحجاج وتقديم الجمال لهم، فمثلاً كانت الحسنة إحدى عشائر عنزة تتلقى صرة سنوية، تقدر بـ (١٥,٠٠٠) درهم؛ أي: حوالي ألف جنيه، حيث كان يتم تقسيم هذه الأموال بين بعض أفرادها.

كما أن عشيرة ولد علي، التي كانت تقضي فصل الشتاء بالقرب من طريق الحج من حوران حتى قلعة الزرقاء، تتقاضى المبلغ نفسه تقريباً من العثمانيين. وقد قدّر بيركهارت مقدار الصّرة، الذي يدفع لعنزة بمبلغ تراوح ما بين (٥٠-٦٠) ألف جنيه[١٥].

وعندما خضعت بلاد الشام لحكم محمد علي باشا (الحكم المصري) ١٨٣١-١٨٤٠م (١٢٤٦-١٢٥٦هـ)، اهتم ابنه إبراهيم باشا بشؤون قافلة الحج؛ فأصلح القلاع، وأحواض المياه، والآبار الموجودة في طريق الحج، التي كانت خربة، ومن أبرز القلاع التي أصلحها إبراهيم باشا في منطقة شرقي الأردن؛ الرمثة "الرمثا"، وعين الزرقاء، والبلقاء، والقطرانة، والحسا، وظهر عنيزة[١٦]، ومعان[١٧]، والعقبة، والمدورة؛ لذلك فقد سيطرت السلطات المصرية في بلاد

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(١٥) بوركهارت: البدو والوهابية، م١، ص ٧٨؛ م٢، ص١٦٤.

(١٦) عنيزة: أرض سوداء وفيها خان قديم، وتقع في الطريق على بعد عشر ساعات من قلعة الحسا، ليس في هذا المنزل ماء، لكنه محط الرحال للراحة، وجوها شديد البرودة. ابن علوان: منازل الحج، ص١٠٤ب، ٢٧٧أ؛ ابن كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ٢٣٢؛ حلمي: المحمل، ص ٣٤.

(١٧) محمد عدنان البخيت: "معان وجوارها - استعراض تاريخي"، مجلة دراسات تاريخية، ع ١١، ١٩٨٣م، ص٥٦.

الشام على أهم مراكز القافلة الموجودة في شرقي الأردن سيطرة كاملة[١٨].

ولكن رغم ذلك فقد كان المسؤولون المصريون في دمشق حريصين على سلامة القافلة، لتعزيز وجودهم في بلاد الشام؛ لذلك أصدر محمد علي باشا فرماناً في أوائل جمادى الأولى عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م تضمن تجهيز العساكر اللازمة للمحافظة على حجاج بر الشام، "ودفع تعديات العربان، واعتداءاتهم عليهم وعلى أمتعتهم"[١٩].

وسعى إبراهيم باشا إلى تحقيق ما تضمنه فرمان والده السابق، من توفير الأمن للقافلة وحمايتها، تجنباً للمخاطر التي كانت تعترض الحجاج قبل سيطرة المصريين على بلاد الشام؛ لذلك فقد حرم إبراهيم باشا بعض القبائل والعشائر البدوية من الصرّة، مثل: بني صخر، وعنزة، وأولاد علي، والحسنة، محاولة منه تهديد هذه القبائل وتحذيرها من مسألة الاعتداء على الحجاج، وبالتالي اكتفاء شرها. ولكنه عاد وقدّم إعانات مالية إلى هذه القبائل، بعد قطع الصرّة عنها، لتقديم بعض الخدمات للحجاج؛ لذلك خصص مبالغ معينة لكل شيخ قبيلة، بلغ مجموعها كاملةً (٩٤,٠٠٠) قرش. إضافة إلى ذلك فقد أبقت الحكومة المصرية على المرتبات الخاصة بالقلاع، ومتطلبات السفر من: الشعير، وقرب الماء، والشموع؛ بالإضافة إلى تسيير قوة عسكرية مسلحة لمرافقة القافلة، خوفاً من اعتداء البدو على الحجاج[٢٠].

---

(١٨) عبدالحميد أبو صيني: شرقي الأردن في ظل الحكم المصري ١٨٣٤-١٨٤١م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ - جامعة اليرموك، ١٩٩٥م، ص ٨٩-٩٠.

(١٩) أمين سامي باشا: تقويم النيل، ج ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨م، ص ٤١٥.

(٢٠) أبو صيني: شرقي الأردن في ظل الحكم المصري، ص ٨٧-٨٩.

وعـاد خطر البـدو يظهـر من جـديد، بعـد خـروج المصـريين من المنطقـة، حيث تمرد الشـيخ ابن رومي أحـد شيـوخ قبيلة حـرب على الشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة في عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)؛ بسبب رفض السلطات العثمانية دفع الإعانة المالية له، التي كان يأخذها مقابل عدم اعتدائهم على القافلة أثناء مرورها من منطقتهم، واستطاعت القوات العثمانية هناك القضاء على تمرد ابن رومي؛ وذلك بتدبير خدعة له ولرجاله من قبل الشريف محمد بن عون، تمثلت بأن يقوم ابن رومي بحماية مبنى قلعة رابغ ومستودع الذخيرة الملحق بها، مقابل تقديم الإعانات المالية التي كان يطالب بها، وبعد أن قبل هؤلاء بالعرض، قبضت عليهم قوات العثمانيين هناك، وكان عددهم (٢٥) رجلا[٢١].

كانت قبائل الشام كبني صخر على علاقة حسنة مع الحكومة العثمانية، خاصة بعد انتهاء الحكم المصري في بلاد الشام؛ فالرحالة الفلندي جورج أوغست فالين (G. Au.Vallin) الذي مرّ بمنطقة شرقي الأردن في عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ) لحظ هذا الأمر من خلال استفادة هذه القبائل من موسم الحج، خاصة عندما كانت القافلة تمكث في معان أربعة أيام؛ فتتجمع هذه القبائل عند ذلك للشراء والبيع، والمقايضة مع الحجاج، كما لحظ فالين أن بعض البدو كانوا يقدمون الماء العذب المتوافر في عين "بخاصة" للحجاج، مقابل مبالغ معينة[٢٢].

وعادت الحكومة العثمانية إلى استخدام سياسة القوة في التعامل مع القبائل البدوية، ففي عام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) قام والي دمشق رشيد باشا بحملة ضد قبائل شرقي الأردن في (الشمال والوسط) كبني صخر للقضاء على قوتهم، والحد من خطرهم تجاه القافلة، حيث أصبحوا يشكلون تهديدا لسلامة الحجاج. ورغم إجراءات

(٢١) دي غوري: حكام مكة، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢٢) العابدي: أجانب في ديارنا، ص ١٦٢-١٦٣.

الدولة السابقة إلا أن بني صخر ظلوا يفرضون مطالبهم على الدولة، التي كانت تضطر لتنفيذها، تفادياً لأية مواجهات معهم، قد تؤدي إلى تهديد سلامة الحجاج أثناء مرورهم بالمنطقة[٢٣].

كما عادت الحكومة العثمانية إلى استخدام أسلوب الحرمان من جديد للضغط على بني صخر، حيث قررت حرمان شيخها فندي الفايز من امتياز حماية طريق الحج بعد عام ١٨٦٨-١٨٦٩م (١٢٨٥هـ)؛ إذ استغلت موضوع نهب قبيلتي بني صخر والعدوان لمنطقة الرمثا؛ لأن أهلها رفضوا دفع الخوة "الخاوة" لهاتين القبيلتين[٢٤]. كما سيَّر والي دمشق محمد رشيد باشا قوة مؤلفة من كتيبة مشاة، و(٦٠٠) جندي غير نظامي، و(٨٠٠) فارس تحت قيادة شيخ عشيرة ولد علي، كما شارك إسماعيل الأطرش ومعه (١٦٠) درزياً في الحملة، لإخضاع بني صخر والعدوان، ونتيجة لتطور الأوضاع فقد طلب شيخ العدوان علي الذياب الأمان مقابل دفع (٢٥) ألف قرش، كما وقف إلى جانب العثمانيين ضد بني صخر. وبالمقابل تحالف بنو صخر مع بني حميدة للدفاع عن أنفسهم، لكن القوة العثمانية سيطرت على مصادر "منابع" الماء الرئيسة لبني صخر؛ فقام الشيخ فندي الفايز بطلب الأمان من المسؤولين مقابل أن يدفع مبلغ (٢٠٠,٠٠٠) قرش؛ بالإضافة إلى وضع أحد أبنائه رهينة لدى السلطات العثمانية، والتخلي عن امتياز تأمين قافلة الحج، وكان هذا الإجراء مؤقتاً؛ إذ بعد هذه الحادثة تحول امتياز نقل الحجاج من بني صخر إلى عشيرة ولد علي، الذين هزموا بني صخر، وأخذوا منهم ألفي رأس غنم، وثلاثمئة جمل[٢٥]. وعلى الأرجح أن عشيرة ولد علي هزموا بني صخر في عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، في منطقة شرقي الأردن.

(23) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, P.124; Abu-jaber: Pioneers Over Jordan, P.36

(24) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, P.125.

(25) Ibid., P.125.; Abu-Jaber: Pioneers Over Jordan , PP. 36-38.

لقد طرأت أمور عدة فيما يتعلق بقافلة الحج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أبرزها؛ تحول طريق سير عدد من الحجاج إلى الطريق البحري بدلاً من الطريق البري، بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)؛ أما الأمر الآخر فهو التبدّل الذي حدث في إمارة القافلة؛ إذ تمَّ الفصل ما بين منصب ولاية دمشق ومنصب إمارة القافلة، فلم يعد والي دمشق يقود القافلة بعد عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ)، حيث أسندت مهمة قيادة القافلة لأشخاص آخرين؛ ليتفرغوا إلى مهام القافلة وشؤون الحجاج. فقد كان والي دمشق يقوم بمهام ولاية دمشق مضافا إليها حماية القافلة، وتسييرها إلى الأماكن المقدسة لحين عودتها إلى دمشق؛ لذلك فضلت الدولة العثمانية فصل المنصبين عن بعضهما. ولكن رغم هذه التحولات، إلا أن بعض القبائل البدوية كبني صخر، استمرت تقدّم الجمال للقافلة، بل إن علاقة شيخها فندي الفايز مع الدولة العثمانية قد تقوّت بعد عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) بهدف الحصول على الأموال من العثمانيين؛ إذ لحظ الرحالة ترسترام (Tristram)، أثناء مروره بمنطقة شرقي الأردن في شباط (فبراير) عام ١٨٧٢م (ذي القعدة ١٢٨٨هـ)، أن فندي الفايز سار مع القافلة من حوران حتى الكرك، لمدة ستة أيام، حيث كان فندي الفايز ملتزما بتوفير (٧٠٠) هجان لنقل الحجاج وحراستهم[٢٦].

وكانت الدولة العثمانية حريصة على سلامة القافلة؛ لذلك اهتمت بمسألة الضغط على القبائل البدوية، والحد من قوتها؛ إذ كانت تتحين الفرص لتطبيق ذلك؛ ففي عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) قام متصرف نابلس بحملة ضد القبائل البدوية في البلقاء والكرك ومعان لتحقيق هذا الهدف[٢٧]، ولإخضاع قبيلة بني صخر بالذات، التي تعهد

---

(26) H.B. Tristram: The Land of Moab, Travels and Discoveries on the East side of the Dead sea and the Jordan, John Murry, London, 1873, P. 228.

(٢٧) نوفان رجا السوارية: عمان وجوارها خلال الفترة ١٢٨١-١٣٤٠هـ/ ١٨٦٤-١٩٢١م، جامعة آل البيت، عمان، ١٩٩٥م، ص ١٢٤-١٢٥.

زعماؤها بحماية الحجاج من الأخطار، ونقلهم على الجمال، التي كانت تستأجرها الحكومة العثمانية من بني صخر(٢٨).

وبقيت قبيلة الحويطات تقوم بمهمة نقل الحجاج من معان حتى شمال الحجاز، حيث أشار لذلك الرحالة الأمريكي هنري ردجواي (Henry B.Ridgaway)، الذي مرّ عبر منطقة شرقي الأردن عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ)، ولحظ بأن الشيخ عرار بن جازي - والد حمد بن جازي - جاء إلى معان في العام نفسه؛ لكي يستقبل قافلة الحج القادمة من دمشق آنذاك، بعد أن رافق الرحالة هنري ومن معه إلى معان(٢٩).

ونلحظ من خلال ما تقدم أن علاقة الدولة العثمانية بالقبائل البدوية، كانت بين مدّ وجزر، فأحياناً حسنة وأحياناً أخرى سيئة، انعكس كل ذلك على أمن القافلة وسلامتها، فهجوم بني صخر على القافلة عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) مثال واضح على ظاهرة التقلب في هذه العلاقة؛ إذ قام بنو صخر في هذا العام بمهاجمة القافلة أثناء مرورها من أراضيهم، حيث دار قتال بين بني صخر والجنود العثمانيين المرافقين للقافلة، استمر لمدة أربع ساعات كما يذكر داوتي (Doughty)(٣٠).

ورغم محاولات بعض القبائل البدوية الاعتداء على القافلة إلا أن وضع الحجاج قد تحسن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بالمقارنة مع الفترات السابقة، كما يشير لذلك سيلاه مرل (Selah Merrill) في رحلته المسماة "إلى الشرق من الأردن"، الذي لحظ أن نفقات القافلة قد انخفضت عن الفترات السابقة، حيث ذكر أن تمويل القافلة في عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) بلغ (٣٥٠,٠٠٠) جنيه، بينما انخفض إلى

(28) Charles M. Doughty: Travels in Arabia Deserta, Jonathan Cape, London, 1964, P. 15.

(٢٩) رحلات في الأردن وفلسطين، ترجمة: سليمان موسى، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤م، ص٧١، ٧٩.

(30) Doughty: Travels in Arabia, P. 19.

(٤٢,٥٧٥) جنيهاً في عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، وأصبح (٣٩,٠١٩) جنيهاً في عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ)؛ بالإضافة إلى توصل الحكومة العثمانية إلى عقد اتفاقات مع القبائل البدوية، التي كانت تعترض الحجاج في الفترات السابقة، على أن تقدم هذه القبائل الجمال لنقل الحجاج مقابل مبالغ مالية، كانت تدفع لها[٣١]. وهذا مؤشر على أن العثمانيين بدؤوا بضبط الأوضاع أثناء مرور القافلة، خاصة بعد فصل منصب إمارة القافلة عن منصب ولاية دمشق.

وأشار بعض الرحالة الذين زاروا المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر إلى مسألة نفقات القافلة، وأبرز هؤلاء لورنس أوليفانت (Laurence Oliphant)، الذي زار منطقة شرقي الأردن في عام ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ)، حيث ذكر أن مقدار ما كانت تدفعه الدولة للبدو في شرقي الأردن سنوياً وصل إلى ما يقارب (١٠٠,٠٠٠) آقجة، قسم كبير منه كان يعطى لبني صخر الذين وصفهم أوليفانت بأنهم مشهورون بشن الغارات على القافلة، كونهم يسكنون إلى الشرق من طريق الحج[٣٢].

واستمرت الدولة العثمانية في استخدام القوة ضد القبائل الكبيرة، التي كانت تعترض القافلة، ففي عام ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ) ردّت عشيرة الأحامدة من قبيلة حرب القافلة، بعد مسيرة يومين من المدينة المنورة باتجاه مكة، حيث مكان وجود قبيلة حرب؛ لذلك عادت القافلة إلى المدينة، ولم تتخلص من خطر الأحامدة إلا باستخدام القوة العسكرية الموجودة في المدينة، بالإضافة للقوة المرافقة للقافلة المؤلفة من (٨٠٠) فارس، ومدافع وذخائر كثيرة[٣٣].

---

(٣١) سليمان موسى: في ربوع الأردن من مشاهدات الرحالة ١٨٧٥-١٩٠٥م، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٤م، ص ٦٧-٦٩.

(٣٢) موسى: في ربوع الأردن، ص ١٣٥؛ وانظر:

Oliphant: The Land of Gilead. PP. 121-122.

(٣٣) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ج ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م، ص ٢٦٣، ٢٦٥-٢٦٨.

وشهدت فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر علاقة مميزة بين الدولة العثمانية وقبيلة بني صخر، خاصة بعد تولي سطام فندي الفايز زعامة بني صخر متوليا مهام والده الذي توفي في عام ١٨٨١م (١٢٩٨هـ)، حيث كانت له علاقة بوالي دمشق محمد سعيد باشا، وابتداءً من هذا التاريخ أصبح بنو صخر مسؤولين عن أمن طريق الحج ومنازله وحماية الحجاج، كما التزموا بتقديم جمالهم للقافلة، علاوة على تكفلهم بنقل المؤن والذخائر من المزيريب[٣٤] حتى القطرانة، مقابل مبالغ نقدية كانوا يتلقونها إضافة للصرة السنوية[٣٥]. كما تقربت الدولة العثمانية من عشيرة ولد علي[٣٦]، وأبعدت في الوقت نفسه الرولة، بهدف إيجاد نوع من التوازن بين قوة هذه العشائر، حيث أسندت مهام نقل الحجاج إلى عشيرة ولد علي؛ إذ تعهد الشيخ محمد بن دوخي بنقل الحجاج بعد خروجهم من دمشق، وتزويدهم بالجمال، كما تعهد الشيخ محسن وهو أيضا من عشيرة ولد علي، باستقبال الحجاج سنوياً عند المدينة المنورة، والالتقاء بأمير القافلة ومعه الصرّة[٣٧].

---

(٣٤) المزيريب: من منازل قافلة الحج الشامي، واد فيه قلعة عظيمة، يجتمع فيها الحجاج، وفي أطرافها قرى ونواح يسكن فيها الحوارنة، وعندها بحرة ماء ينتهي ماؤها إلى جسر الجوامع "المجامع"، تقع الآن في الأراضي السورية. انظر: ابن علوان: منازل الحج، ص ٢٧٧ب؛ ابن كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ٢٣١.

(٣٥) جريدة البشير "بيروت"، ع (٥٩٠)، ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨١م، ص ٣؛ السوارية: عمان وجوارها، ص ١٥١-١٥٢.

Doughty:Travels in Arabia Deserta, P. 54.

(٣٦) وصل عدد أفراد عشيرة أولاد علي - حسب تقرير سالنامة ولاية سورية - حتى عام ١٨٨٤م، إلى (٣,٠٠٠) نسمة، وكانوا يسكنون إلى الشرق من درعا في حوران، وكان الشيخ محمد الدوخي على علاقة قوية بالدولة العثمانية، حيث كان يملك الجمال التي تزود بها قافلة الحج الشامي، انظر: سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص ٢٢٩.

Doughty: Travels in Arabia Deserta, P. 55.

(٣٧) سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م، ص٢٤١.

Doughty: Travels in Arabia Deserta, PP. 55, 240.

وهكذا يتبيّن لنا أن الدولة العثمانية اتبعت سياسة التودد لبعض القبائل والعشائر، خاصة القوية منها كقبيلة بني صخر وعشيرة ولد علي، حتى إنها أنعمت على بعض شيوخ هذه القبائل والعشائر بالأوسمة، والخلع، وأحياناً الرتب، كما حدث مع سطام فندي الفايز أبرز شيوخ بني صخر(٣٨)، الذي عينته الدولة مديراً لناحية الجيزة "زيزياء"(٣٩)، بهدف كسب رضا بني صخر، ومحافظتهم على سلامة الحجاج. وهذا الإجراء ينسجم مع توجه العثمانيين آنذاك، بإسناد مناصب إدارية لشيوخ بعض القبائل.

وكان لقبيلة شمر - الموجود قسم منها في منطقة شرقي الأردن - دور في نقل الحجاج وتأمين القافلة، حين مرورها من مناطقهم، في نهاية القرن التاسع عشر، حيث ذكر الرحالة العثماني "سويلة مز أوغلي"، الذي زار بلاد الشام، أنه التقى أحد شيوخ شمر دريبي بن زبن، زعيم عشيرة زبن - الذي كان يسكن هو وعشيرته بالقرب من عين الزرقاء، وتتألف من ٣٠٠ خيمة - التقاه بالقرب من الرمثا في ٢٩ أيار (مايو) ١٨٩٠م (١٠ شوال ١٣٠٧هـ)، حيث استقبل ابن زبن القافلة هناك، بعد خروجها من المزيريب؛ إذ لحظ الرحالة "سويلة مز أوغلي" أن ابن زبن يحمل خاتماً فضياً، كان قد أهداه إياه إبراهيم باشا، يحمل تاريخ ١٢٦٣هـ/١٨٤٠م، كان يستخدمه ابن زبن عند تسلمه الأعطية السنوية المخصصة له من قبل الدولة العثمانية(٤٠).

---

(٣٨) ذكرت سالنامة ولاية سورية أن عدد نفوس بني صخر في قضاء عجلون في عهد الشيخ سطام فندي الفايز، بلغ (٥,٠٠٠) نسمة. سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص٢٢.

(٣٩) سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص١٨٠؛ وانظر: المصدر نفسه، عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص ٢٣٦.

(٤٠) سويلة مز أوغلي: رحلة سويلة مز أوغلي إلى بلاد الشام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، تحقيق وترجمة: فاضل مهدي بيات، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٠م، ص ١٣٥-١٣٦.

يلحظ أن الشيخ ابن زبن كان على علاقة حسنة مع السلطات العثمانية في دمشق؛ إذ لحظ "سويلة مز أوغلي" أن جماعة ابن زبن، قدَّمت الدعوات لأمين الصرة وأمير القافلة وبعض مرافقيها، لتناول الطعام عند الشيخ ابن زبن، كما لحظ "سويلة مز أوغلي" أن أبناء ابن زبن وإخوانه وأبناء عمومته، اهتموا بالقافلة وحموها طوال فترة استضافتهم لأمير القافلة ومن معه(٤١). ويمكن القول: إن قبيلة شمّر وخاصة عشيرة ابن زبن - في هذه الفترة - بحكم سيطرتها على المنطقة ما بين الرمثا شمالاً وعين الزرقاء جنوباً، قد حمت القافلة، وكانت تقوم على خدمة الحجاج.

وعادت بعض القبائل إلى عادة الاعتداء على القافلة، في بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، حيث هاجم بعض البدو من قبائل شرقي الأردن القافلة في عام ١٨٩٢م (١٣٠٩هـ) دون معرفة القبائل التي ينتمون إليها؛ لأن الدولة رفضت دفع المخصصات المستحقة لهم جراء حماية الحجاج في الفترة ما بين ١٨٨٠ - ١٨٩١م (١٢٩٧-١٣٠٨هـ)، وعاقبت الدولة هؤلاء البدو، حيث أرسلت لهم حملة تأديبية، وصل عدد أفرادها إلى مئات الجنود، لإخضاعهم وتأديبهم(٤٢).

إن خطورة الاعتداءات المتكررة ضد القافلة في منطقة شرقي الأردن دفعت المسؤولين العثمانيين إلى التفكير جدياً في إنشاء لواء في معان والكرك بين عامي ١٨٩١ - ١٨٩٤م (١٣٠٨-١٣١١هـ)؛ فبالإضافة إلى تحقيق أمر سلامة قافلة الحج الشامي والحد من اعتداءات البدو، فإن هناك أهدافاً أخرى سعى العثمانيون لتحقيقها، أبرزها: توفير مبالغ مالية كانت تدفعها الدولة للقبائل البدوية مقابل حماية قافلة الحج على طول الطريق ما بين دمشق ومعان؛ وذلك ببسط السيطرة

إن خطورة الاعتداءات المتكررة ضد القافلة في منطقة شرقي الأردن دفعت المسؤولين إلى التفكير في إنشاء لواء في معان والكرك

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.

(٤٢) السوارية: عمان وجوارها، ص ١٢٦.

على هذه المنطقة، والبعض كانت تخسره نتيجة الاعتداءات على القافلة، قدرت بـ "٩٠٠,٠٠٠" قرش(٤٣).

وتغيّر تعامل الدولة العثمانية مع القبائل البدوية بشكل فعلي، بعد إنشاء لواء الكرك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)، حيث سعت الدولة إلى توطيد العلاقة مع البدو بعد هذا الإنجاز الإداري؛ فخصصت رواتب سنوية لبعض شيوخ القبائل، لكسب ودهم ورضاهم، والمحافظة على سلامة القافلة، أثناء مرورها في مناطقهم(٤٤).

وكان بعض شيوخ منطقة شرقي الأردن يتلقى رواتب من الحكومة العثمانية، كشيخ مشايخ قبيلة بني صخر فندي الفايز، حيث بلغ مقدار راتبه عام ١٨٩١م (١٣٠٨هـ) أربع مجيديات(٤٥). ويمكن أن تعزى مبادرة الدولة السابقة، المتضمنة تخصيص رواتب سنوية لبعض شيوخ قبائل الشام - رغم أنها رواتب بخسة - إلى السعي لكسب ودّ هؤلاء إلى جانبها، وبالتالي التعاون ما بين الطرفين، وخاصة مع والي دمشق، الذي كان همّه المحافظة على القافلة، وتأمين الجمال للحجاج. ومما يلفت النظر قلة ما كان يصرفه العثمانيون لشيوخ القبائل البدوية.

وبقيت مشكلة تأمين القافلة قائمة لدى الحكومة العثمانية، خاصة عند اقترابها من الديار المقدسة؛ فقد ذكر الرحالة الروسي عبدالعزيز دولتشين، أثناء رحلته إلى مكة في عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ)، أن بعض البدو هاجموا الحجاج؛ لأنهم رفضوا إعطاء هؤلاء البدو بعض الأموال، في الوقت الذي كانت لديهم بضائع مغرية للبدو، خاصة أن الحجاج كانت لديهم "زنانير ضخمة جداً" يحفظون بها أموالهم الخاصة، لينفقوها أثناء موسم الحج، كانت تجذب أنظار البدو إليهم. وكان مكمن الخطر

---

(43) Engin Deniz AKarli: "Establishment of the Ma'an - Karak Mutasarrifiyya 1891-1894".

بحث منشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، م ١٣، ع ١، ١٩٨٦م، ص ٣١.

(٤٤) سالنامة ولاية سورية عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ص ٣٠١.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٠١.

في المنطقة الواقعة ما بين المدينة المنورة وينبع، حيث أشار دولتشين أن قبيلة حرب أغلقت طريق "ينبع – المدينة" لمدة ثمانية أشهر في عام ١٨٩٧م (١٣١٤هـ)، مما أدى إلى ارتفاع أسعار بعض السلع الضرورية، مثل: الشاي، والسكر، والطحين، وغيرها في الديار المقدسة(٤٦).

وكانت الدولة العثمانية تدرك خطورة قبيلة حرب؛ لذلك خصصت قوة في عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ)، رافقت القافلة مكونة من (٥٥٠) شخصا من الخيالة، من بينهم (١٥٠) شخصا على الهجن، و (٢٠٠) من الضبطية الخيالة؛ بالإضافة إلى مدفعين جبليين(٤٧). وكان هدف هذه القوة التصدي لأي اعتداء تقوم به قبيلة حرب ضد القافلة، خاصة بعد إغلاقها لطريق "ينبع – المدينة" في العام السابق.

ولم يقتصر الخطر على القبائل الحجازية، بل إن بعض القبائل الشامية ظلت تشكل ضغطاً في حالات كثيرة على العثمانيين؛ ففي عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ) عمدت قبيلة الحويطات في جنوب منطقة شرقي الأردن إلى العصيان ضد العثمانيين، حيث أعلنت نيتها الانضمام إلى مصر بدلاً من الدولة العثمانية؛ بسبب امتناع الأخيرة عن دفع المرتبات التي كانت تدفعها إلى شيوخ الحويطات، في الوقت الذي قلّ مردود قافلة الحج الشامي على القبائل البدوية في المنطقة، بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، حيث تحول كثير من الحجاج إلى مصر، وأصبحوا يحجون بحراً. لقد أجبر موقف الحويطات السابق الحكومة العثمانية على إعادة دفع مرتبات شيوخ الحويطات من جديد، يضاف إليهم شيوخ قبائل بئر السبع(٤٨).

---

(٤٦) عبدالعزيز دولتشين: الرحلة السرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨–١٨٩٩م، الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، رواية وصفية بديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والإدارة، المعروف بالحج قبل مئة سنة، ترجمة: يفيم ريزفان، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٢٤–١٢٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٤٨) رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٦٢–١٦٣.

ورغم ما تقدم، يتبيّن لنا من الجدول الآتي أن عدد مرات اعتداءات العشائر البدوية ضد القافلة قد تراجع في القرن التاسع عشر قياساً بالقرون السابقة[٤٩]، حيث لم يتجاوز عددهن خمسة اعتداءات، اثنان منها وقعا في منطقة شرقي الأردن، وآخران في منطقة الحجاز، بينما هناك اعتداء مكانه مجهول. ولم تكن هذه الاعتداءات مؤثرة على الحجاج، كما حدث في اعتداءات سابقة، بل كانت اعتداءات بسيطة، انتهت دون حدوث أية نتائج سلبية. وهذا يعود إلى أن العثمانيين استطاعوا إحكام سيطرتهم - إلى حد ما - على طريق القافلة، كما توثقت علاقتهم بالقبائل البدوية، وبالذات القوية منها.

جدول اعتداءات العشائر البدوية ضد قافلة الحج

السنة	المكان	جهة الاعتداء	النتائج
١٨١٥م (١٢٣٠هـ)	بين الكرك ومعان	العمران	نهب سرايا القافلة.
١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)	المنطقة الواقعة شرقي الكرك	بنو صخر	لم ينتج عن الاعتداء أية خسائر.
١٨٧٩م (١٢٩٦هـ)	المنطقة الواقعة بين المدينة المنورة ومكة	الأحامدة	ردّ القافلة إلى المدينة المنورة وزوال خطر البدو بوساطة القوة العسكرية الموجودة هناك.
١٨٩٢م (١٣٠٩هـ)	مجهول	مجهول	إرسال حملة تأديبية لإخضاع البدو وتأديبهم.
١٨٩٨م (١٣١٥هـ)	بالقرب من المدينة	حرب	مهاجمة القافلة، وأخذ بعض الأموال، وتسيير حملة ضد قبيلة حرب لإخضاعهم لسلطان الدولة العثمانية.

(٤٩) بلغ عدد الاعتداءات في القرون ١٦، ١٧، ١٨م (١٠، ١١، ١٢هـ) سبعة وعشرين اعتداء. انظر: إبراهيم الشرعة، الدراسة السابقة، ٢٠٠٢م، ص ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٤١.

موقف القبائل البدوية من مشروع الخط الحديدي الحجازي:

لقد تراخت قبضة الدولة العثمانية على منطقة شرقي الأردن في بداية القرن العشرين، رغم استحداثها للواء الكرك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)، حتى بلغ الأمر أن اضطرت إلى دفع الهبات النقدية للقبائل البدوية؛ كي تتكفل بحماية القافلة، عند مرورها بالمنطقة، التي كانت تقطن بها بعض القبائل(٥٠).

استمرت الدولة العثمانية في دفع مرتبات سنوية للقبائل البدوية وبالذات لقبيلة الحويطات مقابل حماية القافلة، حيث كان الشيخ كليب بن قبلان يتقاضى سنوياً مبلغاً وقدره "١٠٨" قروش ونصف أردب شعير(٥١). وهذا الأمر ينطبق على بني عطية؛ إذ كان بعض شيوخهم يتقاضى أيضاً مرتبات سنوية من الدولة للغاية نفسها، فالشيخ سالم بن علي بن رشيد كان يتقاضى "أردب الشعير في جردة(٥٢) الحج السنية من الإحسانات السامية في كل سنة"(٥٣)، حتى تنازل عن هذا الامتياز إلى الشيخ خليل أفندي الشراري مقابل "٢٠" مجيدياً في نهاية عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)(٥٤).

---

(٥٠) حبيب حنا البيتلحمي: "صفحات من حياة البادية في الأردن ١٩٠١-١٩٠٥م"، ضمن كتاب: رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٢٠.

(٥١) سجل شرعي معان ١، ج ٢، ٥ صفر ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ص ١٢٣.

(٥٢) الجردة (Jurde): تطلق على القافلة التي تحمل المؤن إلى قافلة الحج، وهي في طريق عودتها من الحجاز، وكان أميرها على الأغلب من باشوات حلب أو طرابلس أو صيدا، وأحيانا من غزة. وكان على أمير الجردة توفير الزيت والشعير والأرز والملابس، والعليق ليستفيد منه الحجاج. وكانت الجردة تقابل قافلة الحج في طريق عودتها عند هدية، ثم تسبق الجردة قافلة الحج عند العودة إلى دمشق، ويقدر الحلاق الوقت الذي تستغرقه الجردة بخمسين يوما ذهابا وإيابا. انظر أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية (١١٥٤-١١٧٥هـ/ ١٧٤١-١٧٦٢م)، تحقيق: أحمد عزت عبدالكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١١-١٢؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ق١، ص٦٥.

(٥٣) سجل شرعي معان ١، ج ١، ١٩ رجب ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ص ١٣٥.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ١٩ رجب ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، ص ١٣٥.

ولكن الدولة العثمانية عادت إلى استخدام القوة من جديد ضد القبائل البدوية التي كانت تسبب لها إزعاجات؛ ففي عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) طلب والي المدينة المنورة أحمد راتب باشا (٣٠٠٠) رجل من دمشق، حتى يخضع القبائل البدوية الموجودة بين ينبع والمدينة المنورة، وخاصة قبيلة حرب[٥٥].

وظهر تطور جديد لدى العثمانين في بداية القرن العشرين، وهو مد خط حديدي يربط دمشق بالمدينة المنورة، أصبح يسمى بالخط الحديدي الحجازي[٥٦]، كان وراء إنشائه دوافع عدة، أبرزها[٥٧]:

أولاً: أن رحلة قافلة الحج كانت تستغرق ما يقارب من الثلاثة شهور ذهاباً وإياباً، وما يرافقها من متاعب ومشاق عبر الصحراء.

---

(55) William.L. Ochsenwald:" Opposition to political Centralization in south Jordan and the Hijaz, 1900-1914",The Muslim World, "California", Vol. (LX III), No, (4). October, 1973, P. 299.

(٥٦) للتعرف على أهم محطات الخط الحديدي الحجازي والمسافة بين هذه المحطات وتاريخ بناء كل محطة، انظر:

Walter Pinhas Pick: "Meissner Pasha and the construction of railways in Palestine and neighbouring countries".

بحث منشور بعنوان:

Ottoman Palestine 1800-1914,Studies in Economic and Social History , edited: GAD.G.Gilber. University of Haifa, 1990, P. 203.

محمد الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية دراسة وثائقية، د. ن، د. م، ١٩٨٥م، ص١٩٨-٢٠٤؛ محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر سنة ١٣٢٧هـ، القاهرة، ١٩١٠م، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ مجلة مجلس المبعوثان، دورة انتخابية ٣، حجاز وعسكري تيمور يوللر وليمانلر- مديريت عمومية سي بودجه سي، ١٣٣٣هـ، ص ٣.

(٥٧) انظر محمد كرد علي: "سكة الحجاز"، المقتطف، ج ١١، م ٢٩، ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٤م، ص٩٧١؛ وليم أوكسنوالد "سكة حديد الحجاز"، رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٣٢-١٣٣؛ عبدالعزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٨١؛

Walid Kazziha: The Social History of Southern Syria (Trans - Jordan) in the 19th and Early 20 Century, Beirut Arab University , Beirut, 1972, P.22.

ثانياً: خطر القبائل البدوية شبه الدائم على القافلة، وضعف العثمانيين، وعدم امتلاكهم وسائل حديثة، كالقطارات والسيارات وأجهزة اللاسلكي لنقل الحجاج والتحكم بطريق الحج.

ثالثاً: توفير أسباب الراحة للحجاج، وتسهيل سفرهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم سالمين إلى بلادهم.

رابعاً: إلى جانب الغرض الديني، كان هناك هدف عسكري تمثل في إزالة الانطباع عن الدولة العثمانية وظهورها بمظهر العاجز أمام الدول الأجنبية، وخاصة تلك الدول التي تحكم شعوباً إسلامية، وأمام الثورات التي تقوم بها الشعوب المحكومة، وخاصة اليمن.

خامساً: إيجاد طريق بديل لقناة السويس التي سيطرت عليها بريطانيا عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، فكانت فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي هي البديل عن القناة(٥٨).

لقد عارضت القبائل البدوية مد الخط الحديدي الحجازي وقاومته، وشنت غارات عنيفة ضده؛ لأن مد الخط كان يلحق خسائر مادية كبيرة بالبدو، حيث كانوا يؤجرون في كل سنة آلاف الجمال للدولة، لنقل الحجاج، ويقبضون مقابل ذلك مبالغ كبيرة من الأموال(٥٩)؛ وكان أوسع تجمع قبلي عارض مد الخط الحديدي في الحجاز وذلك في بداية عام ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ)، مؤلف من أبرز قبيلتين هناك هما: حرب وعطية(٦٠). وفي عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) هاجم البدو الخط في المدينة، حيث كان هذا الهجوم نابعاً من خوفهم لفقدان ذلك المردود الاقتصادي المهم؛ بالإضافة إلى إدراك البدو بأن

(٥٨) وجيه الخيمي: الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره ومستقبله، مجلة الفيصل، ع ٣٢، صفر ١٤٠٠هـ، ص١٢.

(٥٩) خالد حمود السعدون: "مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز أسبابها وتطوراتها"، مجلة الدارة، ع ٢، السنة ١٤، ١٤٠٩هـ، ص٤٩؛ الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٣-٢٤٤.

(60) Ochsenwald: Opposition to political Centralization, P. 300.

الخط سيمنح الدولة العثمانية وسيلة آلية ضخمة وسريعة، لحشد الجنود ضدهم في مناطق كانت الدولة في السابق، تتحاشى دفع جنودها إليها[٦١].

وهاجم البدو في شرقي الأردن العمال الذين كانوا يعملون في مد الخط، بالإضافة إلى خطوط السلك البرقي[٦٢]، وكان الهدف من مثل هذه الاعتداءات وقف العمل بالمشروع، لإدراك هؤلاء البدو حجم الخسارة الناتجة عن مد الخط، وبالتالي توقفهم عن نقل الحجاج، وما يتبع ذلك من توقف الدولة عن دفع الهبات السنوية لشيوخ القبائل البدوية[٦٣]؛ لذلك أرسلت الحكومة العثمانية الإمدادات العسكرية إلى الحامية العسكرية العثمانية قرب معان في بداية عام ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ)، لحمايتها من الهجمات التي كان يقوم بها بنو صخر[٦٤].

واستمرت اعتداءات البدو ضد الخط الحديدي ومنشآته بغية إحباط المشروع، إلى ما بعد إنجازه وتشغيل الخط، حيث بلغت تلك الاعتداءات في عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) وحده (١٢٨) اعتداءً، كان يرافق هذه الاعتداءات قطع أسلاك البرق، ونزع القضبان، وإتلاف مباني المحطات، ونهب المسافرين؛ لأن الخط من وجهة نظرهم ذلك الشيء "الفرنجي النجس"، الذي يهدد مصالحهم التقليدية في نقل الحجاج[٦٥]. كما أطلق البدو على القطار اسم جحشة السلطان[٦٦].

---

(٦١) وليم أوكسنوالد: "سكة حديد الحجاز... القصة والمغامرة"، تقديم سليمان موسى، مجلة العربي، ع ٢٧٦، تشرين الثاني ١٩٨١م، ص١٤٧.

(62) Kazziha:The Social History of Southern Syria (Trans- Jordan), P.22.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٢٢؛ رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٦١-١٦٢.

(64) Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P.300.

(٦٥) الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٤؛ وانظر: دائرة المعارف الإسلامية، م ١٣، كتاب الشعب، القاهرة، ط٢، د. ت، ص ٣٣٥.

(٦٦) عبدالكريم غرايبة: عرب، "الجزيرة العربية"، القسم الثاني، كتاب تحت الطبع، ص ١٤.

لم تقتصر اعتداءات القبائل البدوية على الخط الحديدي ومعداته، بل تعدت ذلك إلى مهاجمة القوات التي كانت تقوم بحراسة مرافق الخط؛ ففي عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ)، شنّ بعض البدو من عوف إحدى فروع قبيلة حرب، هجوماً ضد قوة كانت ترافق المشرف العام على الخط الحديدي الحجازي والي المدينة المنورة المشير كاظم باشا، قتل خلال هذا الهجوم (١٠٠) فرد، كما ردّ هؤلاء البدو كاظم باشا والقوة التي كانت ترافقه، البالغة (١٥٠٠) فرد، من مكة إلى المدينة(٦٧).

وفي شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم ١٣٢٧هـ)، هاجم البدو الخط الحديدي في المنطقة الواقعة ما بين المدورة وحالة عمار، حيث عطلوا الخط الحديدي وقطعوا الأسلاك البرقية، وبسبب هذا الهجوم رفضت الحكومة العثمانية دفع الأموال "الجعل" المعتادة لهم؛ فأرسلت الحكومة العثمانية فرقة عسكرية بقيادة رائد (قول أغاسي) ومعه عدد من الجنود، من معان إلى هؤلاء البدو لتأديبهم(٦٨).

واستمر البدو في اعتداءاتهم ضد الخط الحديدي، حيث جاء في تلغراف من محطة العلا، أن البدو عادوا في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم عام ١٣٢٧هـ)، واعتدوا على الخط ثانية بين الجفيرة أو "الحفيرة" والمحيط؛ فقتلوا أحد الجنود العثمانيين هناك. وفي ٢٠ شباط من العام نفسه (٣٠ المحرم عام ١٣٢٧هـ) هاجموا الخط، وأحرقوا أعمدة الأسلاك البرقية، وسلبوا مبعوث الدولة العثمانية يوسف شحادة، الذي أرسلته للتفاهم مع البدو وتقديم النصيحة لهم(٦٩). ولكن المأمور المكلف بمفاوضة البدو المدعو يوسف

(٦٧) انظر إبراهيم باشا: مرآة الحرمين، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٣؛ السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص٥١-٥٢؛

Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 300.

(٦٨) جريدة البشير، ع ١٨٩٩، السبت ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٢.

(٦٩) جريدة العمران، ع ٣٩٧، السبت ٦ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٣٦٨؛ جريدة البشير، ع ١٩٠٢، الاثنين ١٥ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٢.

شـحادة، استطاع التوصل إلى اتفاق مع هؤلاء البدو، للحفاظ على الخط الحديدي ومنشآته؛ فضمن له البدو المحافظة عليه، فأصبح في مأمن من هجماتهم(٧٠).

وأرضت الدولة زعماء القبائل البدوية، بإعطائهم بعض الأموال للتخلص من إزعاجاتهم المتكررة، فقد ذكر أمير قافلة الحج عبدالرحمن باشا اليوسف أنه عقد صلحاً مع عشيرتي عوف وولد علي، بعد نهبهما القافلة. حيث قبل البدو بالصلح مع المسؤولين العثمانيين للحصول على مرتباتهم، "ومن أجل مصالحهم في الموسم الحالي (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)"، خاصة أعطياتهم من والي مكة بحري باشا، مقابل مساعدة الحجاج أثناء عودتهم من الحجاز إلى الشام(٧١).

وأوردت جريدة "المؤيد" القاهرية في شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم ١٣٢٧هـ) بأن بعض القبائل البدوية الشامية قد خربت الخط الحديدي بين تبوك ومعان، وقطعت الأسلاك البرقية؛ لذلك فقد صرف النظر عن إعادة الحجاج بالطريق الحديدي(٧٢).

وزادت اعتداءات القبائل ضد الخط الحديدي في نهاية عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) بهدف تدميره حتى مدائن صالح، حيث نجحت بعض القبائل في تخريب ما يقارب من كيلومتر واحد من الخط الحديدي، بالإضافة إلى قلع القضبان والعوارض الخشبية(٧٣)، حيث عطّل قسم من الخط، كما هجم بعض البدو على بعض الجنود الذين كانوا يحرسون الخط، ولكن تم طردهم عن طريق الخيالة المخصصة لمطاردة البدو(٧٤). ولا يعرف انتماء البدو المعتدين، ولا منطقة الهجوم.

---

(٧٠) جريدة البشير، ع ١٩٠٦، السبت ١٠ نيسان (أبريل) ١٩٠٩م، ص٣.
(٧١) جريدة العمران، ع ٤٠١، السبت ٦ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٤٢٩-٤٣٠.
(٧٢) جريدة المؤيد، ع ١٦٢٥، الأربعاء ١٧ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٥.
(٧٣) السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص٥٣-٥٤.
(٧٤) جريدة البشير، ع ١٩٢٢، الاثنين ٢ آب (أغسطس) ١٩٠٩م، ص٣.

واتخذت وزارة الحربية العثمانية بعض الإجراءات الفعالة "للضرب على أيدي أشقياء العربان"(٧٥).

ونتيجة لظهور خطر القبائل البدوية على الخط الحديدي الحجازي، وتهديد القافلة، فقد اتخذت الدولة العثمانية إجراءات عدة لحماية الخط الحديدي، أبرزها:

أولاً: إنشاء فرق الهجانة لمراقبة الخط وحراسته.

ثانياً: تأليف لجنة في مجلس المبعوثان "النواب" العثماني مكونة من: عبدالحميد الزهراوي، وشفيق المؤيد، وسليمان البستاني، لتولي أمور حسابات الخط، ومعرفة مقدار ما ينفق على الخط وتصليحه عند تخريب بعض أجزائه.

ثالثاً: الاكتفاء بوصول الخط الحديدي إلى المدينة المنورة، والعدول عن الخط المراد إنشاؤه بين جدة ومكة، بالإضافة إلى تحسين حالة البلاد الاقتصادية(٧٦).

رابعاً: تخصيص قوة عسكرية تجاوز عددها خمسة آلاف جندي نظامي لحراسة منشآت الخط الحديدي، حتى تم الانتهاء من تنفيذ المشروع بشكل كامل.

خامساً: بناء قلاع جديدة ملحقة بالمحطات وتزويدها بالجنود لحراسة الخط الحديدي وحماية منشآته من غارات البدو المتصلة.

سادساً: تخصيص مجموعة من الجنود المشاة لحراسة خطوط البرق، ابتداءً من معان إلى المدينة، ومن معان إلى العقبة، وإصلاح ما عطّل منها(٧٧).

(٧٥) جريدة البشير، ع ١٩٢٥، الاثنين ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٠٩م، ص٣.
(٧٦) جريدة البشير، ع ١٩٠١، الاثنين ٨ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٣.
(٧٧) الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٨-٢٤٩.

ونستطيع القول بأن القبائل البدوية كانت تعتمد بشكل أساسي على ما تجنيه من نقل الحجاج؛ فهذه القبائل تنتظر موسم الحج من العام إلى العام، ولكن مع تنفيذ الخط الحديدي الحجازي، فقد خسرت هذه القبائل مصدراً مالياً كبيراً، حيث قطعت أرزاقها، فلم تفكر الدولة العثمانية بأوضاع هذه القبائل بشكل جدي، بل تهاونت في حل مشاكلها، ولم تعمل على استقرارها، وتحضرها، والانتفاع من الزراعة مثلاً لتسهيل حياتها، إلا في أوقات متأخرة من عمر الدولة العثمانية؛ لذلك قاومت معظم القبائل البدوية الشامية والحجازية مشروع الخط الحديدي، بل حاولت الاعتداء على منشآت الخط مرات عدة، وهاجمت محطاته، وقطعت أسلاك البرق.

كانت القبائل البدوية تعتمد بشكل أساسي على ما تجنيه من نقل الحجاج

ورغم ما تقدم، إلا أن بعض هذه القبائل البدوية، خاصة تلك التي كانت تقطن في منطقة شرقي الأردن، لم تقاوم تنفيذ المشروع، كالحويطات وبني صخر مثلاً؛ لأن شيوخها ظلوا يتلقون مستحقاتهم المالية من والي دمشق، حيث ذكر ألويس موسيل (Alois Musil) بأن شيخ الحويطات عودة أبو تايه ومعه أربعون فارساً من وجهاء الحويطات، كانوا عائدين من معان في نهاية شهر أيار (مايو) عام ١٩١٠م (جمادى الأولى عام ١٣٢٨هـ)، بعد أن طالبوا المسؤولين العثمانيين في معان، بدفع الأموال المخصصة لهم، مكافأة على حماية الحج(٧٨). أما الشيخ طلال فندي الفايز، فقد أدرك هو وزعماء القبائل الآخرون أن العثمانيين يريدون وقف معوناتهم المالية؛ إذ كان بنو صخر يتلقون (٤,٠٠٠) ليرة عثمانية لحماية الخط الحديدي وحراسته، لكنهم أقنعوا المسؤولين العثمانيين بالاستمرار في الدفع، وبالمقابل فإنهم سيسهلون إنشاء الخط، ويقومون بحمايته؛ لذلك فقد

---

(٧٨) ألويس موزيل: الحجاز الشمالي، غربيون في بلاد العرب، ترجمة: سليمان موسى، وزارة الثقافة والإعلام، عمان، ١٩٦٩م، ص٣٥-٣٦.

تم إعطاء بني صخر مسؤولية حماية الجزء الممتد من الجيزة إلى القطرانة شرقي الكرك. ورغم هذه الوعود إلا أن الحكومة العثمانية لم تدفع رواتب الشيخ طلال الفايز مثلاً، كما لم تدفع المعونات المالية بصورة منتظمة، مما أدى إلى مهاجمة الخط الحديدي الحجازي(٧٩).

ولم تكن كل القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن تتلقى هذه الأموال؛ لذلك كان بعضها يهاجم الخط؛ ففي ٦ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٠م (٤ ذي الحجة عام ١٣٢٨هـ)، هاجم (١٥٠) فارسا (لا يعرف لأية قبيلة ينتمون) محطة القطرانة، ونهبوها، وقتلوا مأمورها، وجرحوا بعض العاملين فيها، وعددهم أربعة، كما هاجموا المحطات الواقعة بين القطرانة وضبعة، وخربوا الخط الحديدي، وقطعوا الأسلاك البرقية فيها. كما قطعوا أسلاك البرق في الكرك. هذا بالإضافة إلى اعتراض البعض للقطارات وإطلاق الرصاص عليها، الأمر الذي أدى إلى قطع المواصلات بين عمان ومعان في نهاية عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)(٨٠). كما جاء في برقية مرسلة من قائمقام السلط إلى دمشق في ٦ كانون الأول (ديسمبر) في العام نفسه (٤ ذي الحجة عام ١٣٢٨هـ)، أن قبيلتي بني حميدة والسليط، اشتركتا في الهجوم ضد مأموري تحرير النفوس والعسكر الموجودَين في ناحية مادبا. كما تمّ قتل بعض المأمورين والعسكر الموجودين في مركز لواء الكرك وملحقاته(٨١). ويبدو أن سبب ذلك هو وقف المعونات المالية، ونزع سلاح القبائل، وفرض التجنيد الإجباري على البدو.

---

(79) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, p.126; Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 302.

(٨٠) جريدة المقتبس، ع ٥٤٤، السنة الثانية، الأربعاء ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص٢؛ وانظر أيضا جريدة المقتبس، ع ٥٤٥، الخميس ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص ٢؛ جريدة البشير، ع ١٩٩٣، الجمعة ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص٢.

(٨١) جريدة المقتبس، ع ٥٤٥، الخميس ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص٢.

وحاولت إدارة الخط الحديدي الحجازي إتمام نواقص المحطات التي اعتدى عليها البدو حتى محطة جرف الدراويش[٨٢]، وبعد الاطلاع على ما جرى للعاملين في هذه المحطات، وجد أن بعضهم مقتول في محطته، ومن بين هؤلاء طبيب شعبة معان علي بك، حيث بلغ مجموع القتلى من مأموري الخط الحديدي، في هذه الفترة، ستة أشخاص[٨٣]. وقدرت الحكومة العثمانية حجم الأضرار بالخط الحديدي بحوالي (٨٠,٠٠٠) ليرة عثمانية[٨٤].

ولم تغض الدولة العثمانية النظر عن ممارسات البدو السابقة واعتداءاتهم على السكة ومحطاتها، التي كانوا ينفذونها تضامناً مع ثورة الكرك عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)؛ لذلك كلفت الدولة القائد العام سامي الفاروقي قيادة حملة سميت بالحملة الحورانية، ضد هذه القبائل، لتأمين حركة القطارات؛ فقام رئيس الهيئة الحربية في الحملة صلاح الدين بك بقيادة قوة نحو الكرك، وقوة أخرى بقيادة نورس بك باتجاه أم الرصاص؛ لتأديب القبائل التي هاجمت القوات العثمانية في المحطات الآتية: أم الرصاص، وعمان، والقطرانة، وضبعة[٨٥].

وكانت الحملة الحورانية مؤثرة، حيث استطاع قائد مفرزة التعقيب في أيار (مايو) عام ١٩١١م (جمادى الأولى عام ١٣٢٩هـ)، جمع بعض الأسلحة التي بحوزة البدو؛ إذ كان عددها (٨٨) قطعة سلاح تمّ جمعها من قبيلة بني صخر، وقطعتين من عشيرة العقيل. وتعقب قائد المفرزة عشيرة الخريشة بالقرب من الزرقاء، كما أدبت قواته عشيرتي: زيد والهقيش في أراضي الغليطة ووادي حزيم، حيث

(٨٢) جرف الدراويش "جروف الدراويش": إحدى محطات الخط الحديدي الحجازي، وهي منطقة تقع إلى الشمال من مدينة معان الأردنية، وترتفع عن سطح البحر بحوالي ٩٥٨م. انظر: الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، ص ٢٠٢.

(٨٣) جريدة البشير، ع ١٩٩٥، الجمعة ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص ٢.

(84) Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 302.

(٨٥) خليل رفعت الحوارني: "ماذا فعلت الحملة الحوارنية"، جريدة المقتبس، ع ٥٩٠، ٢ شباط (فبراير) ١٩١١م، ص٢.

استردت القوات العثمانية المنهوبات (أسلحة وأدوات تتعلق بالخط الحديدي) من هؤلاء البدو، وألقت القبض على شيوخهم(٨٦).

وانتهت مهمة القوات العثمانية، بعد تأديب قبيلة بني صخر وخاصة عشيرة الخريشة، واستردادها لجميع ما نهبه البدو؛ كما قبضت على بعض شيوخهم، مثل محمد دخيلان، وهزيمة بن حامد من بني صخر، وشيخي قبيلة بني خالد: طالب متعب، وفارس القاضي، وشيخ قبيلة السرحان محمد بن بالي، وسائل بن عبده من عشيرة "النخود"، وجميعهم من القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن، اشتركوا في الهجوم على معان ضد القوات العثمانية؛ لذلك أُدخلوا سجن دمشق، وعادت القوات العثمانية إلى درعا، بعد إنجاز مهمتها السابقة(٨٧).

واستطاعت الدولة العثمانية بعد سلسلة الإجراءات السابقة، إخضاع القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن لنفوذها، خاصة بعد تمكنها من القضاء على ثورة الكرك عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)؛ لذلك جددت بعض هذه القبائل علاقتها مع الدولة؛ فبنو صخر استمروا يتلقون الصّرة مقابل حماية الحجاج، رغم موقف بعض شيوخهم ومحاربتهم القوات العثمانية في المنطقة، حيث ذكر صاحب الرحلة التنوخية، الذي زار المنطقة في الفترة ما بين ١٩١٤-١٩١٦م (١٣٣٢-١٣٣٤هـ)، أنه حلّ ضيفاً على أحد شيوخ بني صخر شاهر الخريشة ابن عم حديثة الخريشة في عام ١٩١٤م (١٣٣٢هـ)، حيث كان يسكن هو وعشيرته بالقرب من الزرقاء، وأشار إلى أن شاهر الخريشة كان مسافراً إلى دمشق آنذاك؛ بهدف تسلّم الصّرة المخصصة لعشيرته سنوياً من السلطات العثمانية(٨٨).

---

(٨٦) جريدة المقتبس، ع ٦٨٥، ٢٤ أيار (مايو) ١٩١١م، ص٣.

(٨٧) جريدة المقتبس، ع ٦٨٩-٦٩٠، ٢٩-٣٠ أيار (مايو) ١٩١١م، ص ٢-٣.

(٨٨) عز الدين آل علم الدين التنوخي: الرحلة التنوخية - رحلة عز الدين التنوخي من الزرقاء إلى القريات، جمع وتحقيق: يحيى عبدالرؤوف خير، عمان، ١٩٨٥م، ص ١٥.

وحرصت القبائل البدوية في الحجاز على منع مد الخط الحديدي الحجازي إلى مكة وجدة، وتخريب الخط إن أمكن ذلك. وكان الخط هو العدو الأول لأصحاب الجمال من القبائل؛ فحطموا أجزاء منه تمر بديرتهم ما بين ١٩١٢-١٩١٤م (١٣٣٠-١٣٣٢هـ)[٨٩]؛ وذلك لعدم رضاهم عن هذا الخط الذي قطع مورد رزقهم من الحجاج إلى حد ما، وقد قام شريف مكة بإصلاحه. وازداد التخريب بعد إعلان الثورة العربية عام ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)، حيث قامت بتدمير الخط الحديدي، ونسفت أماكن عدة منه، وقد تعطل الخط الذي يبلغ طوله حوالي (١٣٠٣) كيلومترات في عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ)، وأصبح مجرد قضبان حديدية محطمة[٩٠].

الخلاصة:

يتبيّن لنا مما سبق أن القبائل البدوية، التي كانت تسكن بالقرب من طريق الحج الشامي، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، سواء كانت قبائل شامية أو حجازية، اهتمت بموسم الحج، وأولت القافلة حرصاً كبيراً للاستفادة من مردودها المالي، الذي كان ينعكس على البدو بشكل عام، سواء كان الذي يتقاضونه من مال الصرّة، أو من خلال تأجير الجمال للحجاج وخدمتهم، وبالتالي الحصول على المال مقابل هذه الخدمة، أو عن طريق نهب القافلة في حالات كثيرة كما مرّ معنا، لذلك أصبح البدو وتعاملهم مع القافلة يشكل هاجساً للعثمانيين، الذين تراوحت علاقتهم مع البدو في حالات كثيرة بين مدّ وجزر، والغالب على هذه العلاقة هو البرود، بل أحياناً النزاع ما بين الطرفين، لظروف القبائل البدوية الاقتصادية السيئة.

---

(٨٩) غرايبة، عرب، ق٢، ص٢.

(٩٠) أحمد عبدالقادر المهندس: سكة حديد الحجاز رحلة في الزمان والمكان، مجلة الدارة، ع ٢، السنة ١٣، ١٤٠٨هـ، ص ٩٢.

لقد أثبتت الدراسة أن الدولة العثمانية كانت حريصة في أغلب الأحيان، على استرضاء القبائل البدوية، والاستفادة من خدماتها أثناء موسم الحج، ولكن عندما كان بعض المسؤولين العثمانيين يمنعون الأموال التي كانت تخصص للقبائل، كان زعماء هذه القبائل يتعرضون لقافلة الحج، وتحدث مواجهات مع العثمانيين، وإن كانت قليلة مقارنة بالفترات السابقة (القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين).

كما أثبتت الدراسة أن مد الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة قد أثر على وضع القبائل البدوية المادي، لذلك رفضت القبائل مد الخط الحديدي الحجازي، بل قاومته، وشنت هجمات عدة على المحطات والعمال، وحاولت إعاقة العمل ما بين (١٣١٨-١٣٢٦هـ/١٩٠٠ - ١٩٠٨م)، الفترة الزمنية التي استغرقها إنجاز الخط. وهذا ينفي ما ذكره بعض الباحثين[٩١]، من أن القبائل البدوية في جنوب سوريا وشرقي الأردن، التي يمر الخط في أراضيها، لم تسهم في المقاومة، بل اقتصرت المقاومة المسلحة على القبائل المقيمة حول المدينة المنورة التي مدّ في مناطقها الخط. ورغم محاولات المسؤولين العثمانيين التي بذلت من أجل استرضاء زعماء القبائل، إلا أن الاعتداءات استمرت ضد الخط الحديدي ومرافقه؛ لذلك استخدمت الدولة العثمانية القوة مع هذه القبائل، فأدبتها، وعاقبت من تسبب في تخريب الخط الحديدي الحجازي.

(٩١) السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص ٥٦-٥٧.

تغير الأنماط السكنية

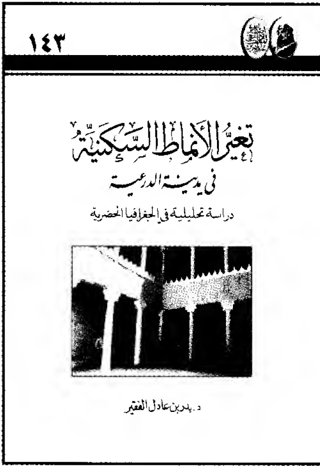
في مدينة الدرعية

دراسة تحليلية في الجغرافيا الحضرية

تأليف

د. بدر بن عادل الفقير

١٢٧ صفحة



يدرس هذا الكتاب تغير الأنماط السكنية في مدينة الدرعية موظفًا رؤية الجغرافيا الحضرية، ومستخدمًا المنهجين التاريخي والاستقرائي التحليلي المقارن لرصد الظواهر العمرانية، وتتبع خصائصها الشكلية والوظيفية.

ويحدد أيضًا العناصر العمرانية والمعمارية القديمة والحديثة للمدينة، ويعقد مقارنة تفصيلية بينهما، ويحاول أن يضع تصورًا لوضع العمارة في المستقبل.

وفي الكتاب إجابة عن عدد من التساؤلات، منها: هل يعبر العمران الحديث عن حياة المجتمع وبيئته؟ وهل قطع الصلة بالعمارة القديمة لمصلحة السكان والمدينة؟





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

صورة المجتمع المكي في كتابات الرحَّالة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري

د. عبداللطيف محمد الصبَّاغ
قسم التاريخ - كلية التربية للبنات بالأحساء

تسعى هذه الدراسة لرسم صورة المجتمع المكي من خلال ما اشتملت عليه كتابات الرحَّالة - الذين زاروا مكة في الفترة المذكورة - من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وفي مقدمة هؤلاء المستشرق الهولندي هورخرونيه، والضابط الروسي دولتشين، والياباني تاكيشي سوزوكي، وعدد من العرب المسلمين منهم البتنوني، وإبراهيم رفعت، وهيكل، والراعي.

وتدور الدراسة حول أربعة محاور أساسية يسبقها تمهيد؛ يقدم المحور الأول طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم، ويعرض المحور الثاني صورة الأسرة والعادات والتقاليد السائدة، ويلقي المحور الثالث الضوء على الأمراض الاجتماعية، أما المحور الرابع فعن المؤسسات الاجتماعية والترفيهية والتعليمية.

وتعتمد هذه الدراسة على كتابات الرحَّالة، ومن ثَمَّ تستمد المعلومات الواردة بعض أهميتها من مكانة هؤلاء الرحّالة، وطبيعة رحلاتهم، وفترة بقائهم في مكة، لذا كان لزامًا علينا أن نُعَرِّف بهؤلاء الرحَّالة في تمهيد مختصر، كما نُضَمِّن التمهيد صورة العمران في مكة إبان فترة الدراسة، بصفته مظهرًا لحركة المجتمع.

١ - أشهر الرحَّالة الذين زاروا مكة في فترة الدراسة

زار مكة المكرمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري عدد لا بأس به من الرحّالة العرب والأجانب، منهم من اقتصر في كتابته على مناسك الحج والعمرة، ومنهم من سجل كل ما وقعت عليه عيناه، والفئة الأخيرة هي المعنية بالدراسة هنا، ومن هؤلاء:

كريستيان سنوك هورخرونيه

مستشرق هولندي زار جدة ومكة في رحلة استمرت عامًا كاملاً ١٣٠١-١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤-١٨٨٥م. ولد هورخرونيه في ٨ فبراير ١٨٥٧م (١٤ جمادى الآخرة ١٢٧٣هـ). كان علمانيًا، أتقن اللغة العربية، وحصل عام ١٨٨٠م (١٢٩٧هـ) على الدكتوراه في الآداب السامية في موضوع "الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي"، وعُيّن مدرسًا في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية بجامعة ليدن، ومنها حصل على إجازة دراسية للسفر إلى شبه الجزيرة العربية، فنزل جدة، ومكث بها ستة أشهر، تعلم خلالها اللهجة المحلية، ثم دخل مكة باسم مستعار هو (عبدالغفار)، وبقي بها ستة أشهر(١)، ورصد هورخرونيه خصائص المجتمع المكي وعاداته وتقاليده رصدًا دقيقًا في الجزء الثاني من كتابه.

عبدالعزيز دولتشين

ضابط روسي مسلم، ولد في ٢٤ يونيو ١٨٦١م (١٦ ذو الحجة ١٢٧٧هـ)، تخرج في مدرسة الإمبراطور بافل العسكرية ببطرسبرج، أتقن لغات عدة، منها العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية. اختارته هيئة الأركان العامة للجيش الروسي لأداء فريضة الحج عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م، وبيان مدى خطورة الحج على مصالح روسيا السياسية والعسكرية

---

(١) أثبت المترجم أن هورخرونيه أسلم، وأخفى إسلامه عن الغرب. كريستيان هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة علي عودة الشيخ، تعليق محمد السرياني ومعراج ميرزا، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤١٩هـ)، ج١، ص ص ٢٧- ٣٥.

في الشرق. وكانت روسيا تعد الحج وسيلة لتسريب أفكار الجامعة الإسلامية إلى ممتلكاتها الإسلامية[٢]. كما خشيت روسيا من التقارب العثماني الألماني على مصالحها في المنطقة، فأرسلت البارون إدوارد نولده إلى وسط شبه الجزيرة العربية، لدراسة الأوضاع هناك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)[٣]. ومن ثم جاءت رحلة دولتشين لإكمال الصورة عن المنطقة أمام القيادة الروسية.

لبى دولتشين الدعوة، وأدى مهمته بتوازن بين الواجب الديني والمهمة القومية، وأتاحت له لغاته المتعددة الاستفادة من مصادر عدة، فضلاً عن ملاحظاته ومراقباته الشخصية، فقدم معلومات مفصلة في تقريره عن الحج وشعائره، والوضع الاجتماعي والاقتصادي والصحي في المدينتين المقدستين[٤].

إبراهيم رفعت

مصري ولد بمدينة أسيوط ١٢٧٣هـ، تخرج في مدرسة الفرسان الحربية عام ١٢٩٤هـ، ثم رقي في المناصب العسكرية حتى أصبح ياورًا للخديوي[٥] عام ١٨٩٩م (١٣١٦هـ)، وتم اختياره قائدًا لحرس المحمل المصري عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، ثم اختير أميرًا للحج أعوام ١٣٢٠ و١٣٢١ و١٣٢٥هـ، فسجل كل ما رآه في رحلاته الأربع[٦].

---

(٢) يفيم ريزفان، الحج قبل مئة سنة: الرحلة السرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨- ١٨٩٩م، (بيروت، ١٩٩٣م)، الطبعة الثانية، ص ص ٧-٣١.

(٣) عن تفاصيل هذه الرحلة راجع: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م، تعريب عوض البادي (دار بلاد العرب للنشر، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

(٤) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٣٢.

(٥) رتبة عسكرية تركية تعني قائد حرس الشرف المرافق (للخديوي).

(٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (دار المعرفة، بيروت، د. ت)، ج١، ص ص ٣ - ٥، ج٢، ص ٣٦٥.

وقد مكنه منصبه الرسمي من الوصول إلى دقائق الأمور، غير أنه لم يركز على الحياة الاجتماعية، وانصرف إلى وصف الحالة الأمنية والدينية.

محمد لبيب البتنوني

مصري من رجال الإدارة، اختاره الخديوي عباس حلمي الثاني مرافقًا له في رحلة الحج عام ١٣٢٧هـ، وبعد العودة كلفه بوضع كتاب عن الرحلة، فوضع الكتاب برؤية رحّالة مثقف، أتاحت له صفته الرسمية الاطلاع على ما لم يتح لغيره، فسجل كل ما وقعت عليه عيناه، من جغرافيا وعمران واجتماع. وزود الكتاب برؤية تاريخية منحازة ضد الدعوة السلفية (الوهابية)(٧)، وذيله بخرائط توضيحية مهمة(٨). والرحلة تقدم رؤية مصرية شبه رسمية للأوضاع في الحجاز.

مصطفى محمد الراعي

مثقف مصري قام بأداء فريضة الحج عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، ورصد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهالي مكة والمدينة، وقدم رؤية نقدية لهذه الأوضاع، أظهر خلالها إعجابه بالروح الدينية السائدة في ظل الحكم السعودي، ولكنه حمل على هدم المزارات(٩).

بالإضافة إلى الرحلات السابقة، فقد استعنت بعدد آخر من الرحلات تأتي في المرتبة الثانية؛ لأنها لم تكن على الدرجة ذاتها من

(٧) أطلق معارضو الدعوة السلفية عليها لفظة الوهّابية نسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بما يسهل عليهم الكيد لها بعد تجريدها من التبعية لله ولرسوله وربطها بشخص.

(٨) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي الثاني خديوي مصر، (مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ط٢، ص ص ١- ٥، ٣٨.

(٩) مصطفى محمد الراعي، في المملكة الروحية للعالم الإسلامي، رحلة إلى الأراضي المقدسة عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، (مطبعة المدينة المنورة، ١٩٣٥م).

الأهمية، أو أنها جاءت بعد الفترة الزمنية المحددة للبحث مباشرة، ومن ثَمّ فهي تلقي بمزيد من الضوء على صورة المجتمع المكي في العهد السعودي، ومنها على سبيل المثال رحلة الياباني سوزوكي (محمد صالح)(١٠)، ورحلة محمد حسين هيكل(١١)، ورحلة عباس متولي حمادة(١٢)، ورحلة عبدالغني الشهبندر(١٣)، ورحلة محيي الدين رضا(١٤)، ورحلة غريب الهاشمي(١٥)، وغيرهم.

---

(١٠) ياباني عاش في إندونيسيا فترة، واعتنق الإسلام، وأدى فريضة الحج ثلاث مرات في سنوات ١٣٥٣ و١٣٥٥ و١٣٥٦هـ، ثم دون كتابه عن تجربة الحج في عام ١٣٦١هـ، راجع: تاكيشي سوزوكي، ياباني في مكة، ترجمة وتعليق سمير إبراهيم وسارة تاكاهاشي، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٩٩م)، ص ص ٢٢- ٢٨.

(١١) أديب مصري، أسهم في الحياة السياسية المصرية من خلال الحياة النيابية، زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٥هـ، وانفعل بكل ما رآه انفعال الأديب الحاذق، فكتب أخبار هذه الرحلة راجع: محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، (دار الكتب المصرية، ١٣٥٦هـ).

(١٢) من أعضاء هيئة التدريس بالأزهر، سافر لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٤هـ، فحمل معه كاميرا، وسجل أحداث الرحلة كاملة بأسلوب دقيق ممتع. والكتاب يعد رؤية أزهرية للأوضاع في مكة في ظل الحكم السعودي. عباس متولي حمادة، مشاهداتي في الحجاز، (القاهرة، ١٣٥٥هـ)، ص ص ٥-٨.

(١٣) طبيب شامي مثقف، أنشأ مجلة الحكمة في بيروت، وفي عام ١٩٣٦م (١٣٥٢هـ) رافق بعثة الحج الشامي بوصفه طبيباً. وكانت هذه هي الرحلة الثانية للشهبندر، بينما كانت رحلته الأولى إلى مكة في عهد الشريف الحسين بن علي؛ ومن ثمَّ تكتسب كتاباته في هذه الرحلة بعداً آخر هو إيضاح الفوارق بين الأوضاع في مكة في العهدين الشريفي والسعودي. عبدالغني الشهبندر، رحلة الحجاز، (بيروت، ١٩٣٧م)، ص ص ١- ١٦.

(١٤) صحفي مصري يعمل محرراً بجريدة المقطم، وهو ابن شقيق محمد رشيد رضا صاحب المنار، قام برحلة لأداء فريضة الحج عام ١٣٥٣هـ، التقى خلالها الملك عبدالعزيز آل سعود، وسجل أخبار رحلته بأسلوب صحفي في كتاب بعنوان: محيي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز عام ١٩٣٥م، (مطبعة المنار، القاهرة، ١٩٣٦م).

(١٥) مثقف لبناني جاء إلى مكة لأداء فريضة الحج، رافقه والده، الذي سبق له أن عاش في مكة فترة في ظل الحكم العثماني، لذا استمد غريب كثيراً من أخبار مكة عن والده، فجاءت غير معبرة عن الفترة التي زار فيها مكة. غريب عجيب الهاشمي، سياحتي إلى الحجاز، حوادث واقعية، (بيروت، ١٩١٥م)، المقدمة.

٢ - صورة العمران في مكة خلال فترة الدراسة

تمتد منازل مكة المكرمة من الشمال إلى الجنوب آنذاك في وادٍ بطول نحو ثلاثة كيلو مترات، وبعرض يقرب من نصف ذلك، ويأتي الحيّز العمراني محصوراً بين سلسلتين من الجبال تكادان تتصلان عند أبوابه، مشكلة حماية طبيعية له. وتغطي البيوت كل سفوح الجبال من ناحية الحرم، ثم تتدرج إلى قلب الوادي، وقد بلغ تعداد بيوت مكة في عام ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م نحو سبعة آلاف بيت، يحتشد فيها زمن الحج ما يزيد على مئتي ألف نفس، وتكثر في منازلها الطوابق المقتطعة، ولا حوش لها في الغالب، إلا ما كان لكبرائها(١٦)، ومبانيها قديمة مشيدة بالحجارة الجيرية، وزينت واجهاتها بالرواشن (البلكونات) ونوافذها بالشيش المثقب (الأرابسك)(١٧).

وتتراوح بيوت مكة بين ثلاثة وخمسة طوابق، مطبوعة بهندسة معمارية شرقية، وملتصقة ببعضها البعض، وتغطي جدرانها صفوف من نوافذ (مشربيات) عليها ستائر دقيقة تتصدى لجيوش الذباب والناموس. والطابق الأرضي يقوم مقام الفناء، أما الأدوار العليا فمقسمة إلى شقق صغيرة، وعلى السقف سور عال، يشكل طابقا مكشوفا، يستخدم للراحة ليلاً، وللطهي نهارًا، تمرح فيه النساء بعيداً عن أعين الرجال(١٨).

والبيوت في مكة - على بساطتها - نظيفة جدًا، جدرانها مبيضة من الداخل والخارج، وغرفها مفروشة بتخوت منخفضة، تحتها سجاد أو حصير، معدة للجلوس على الأرض، أما زينة الجدران فمن آنية من البورسلين والمعدن ومرايات عدة، وأقوال مأثورة على ورق ملون ومركبة في أطر، أما لوازم النوم فيخفونها في غرف خاصة، إذ

---

(١٦) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٣٨.

(١٧) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٥.

(١٨) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٥.

يعدون عرضها ابتذالاً. والغرف والسلالم مكنوسة بعناية، والحمامات لها أرضية من الأسمنت نظيفة، تصرف ببراعة في خزانات بالشوارع محكمة السداد، وحمامات المنازل ليست لها رائحة، لبعدها عن الخزانات، أما الحمامات العامة على قلتها فلها رائحة كريهة لا تحتمل(١٩). وتجلب المياه للمنازل بوساطة سقائين من مجاري عين زبيدة(٢٠).

أما الشوارع في الأحياء القديمة فتتسع وتضيق وتنحني بشكل غير منتظم، وتتصل بها أزقة ضيقة جدًا. أما الأحياء حديثة البناء، مثل: أجياد وجرول والمعابدة فشوارعها أكثر انتظامًا، ومبانيها على جانب من الجمال(٢١)، ونظرًا لعدم وجود أفنية فإنهم يحلبون الأبقار والأغنام في الشوارع، ويربون فيها الدواجن، وهي مرتع للكلاب الضالة، وهي أيضًا غير مرصوفة ولا مضاءة ليلاً إلا بمصابيح جاز يعلقها الأهالي هنا وهناك، وتُكنس الشوارع الكبيرة مرة في اليوم؛ لكنها سرعان ما تمتلئ بالمخلفات، أما الأزقة فتبقى بها الزبالة مدة طويلة، وتتعفن بها الحيوانات النافقة، والسكان يعدون ذلك أمرًا عاديًا(٢٢). وأكثر ما يؤرق الحجاج انتشار الناموس ليلاً، والسبيل الوحيد للخلاص منه الاستتار بناموسية(٢٣).

وفيما يأتي محاور الدراسة:

---

(١٩) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٥، ١٥٦، ١٥٧.

(٢٠) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٥.

(٢١) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٤٥، ٤٦.

(٢٢) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٤٤، ١٥٧.

(٢٣) الناموسية: قماش خفيف يظلل السرير، ويحمي النائم من الناموس. الأمير شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، اختيار وتهذيب محمد حسن عقيل الشريف، (دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢١هـ)، ج٣، ص ١٠٢٧.

أولاً: طبقات المجتمع المكي وأنشطتهم

١- الطبقة الحاكمة

وتضم الأشراف والأتراك، أما في العهد السعودي فقد تغيرت الحال؛ ففي المرحلة الأولى تظهر الصورة العامة واضحة من خلال ما سجله الروسي دولتشين بأن مكة يحكمها الوالي (من الأتراك)، والشريف الذي يعين من الآستانة، ويعهد إلى المحتسب بحل الخلافات بكل الوسائل بما فيها الضرب. ولحفظ الأمن في الشوارع كانت هناك دورية عسكرية واحدة قرب الحرم. أما حل الخلافات في باقي مكة فيحكمه العرف بين الناس، فإذا حدثت سرقة يقوم الناس بمحاصرة السارق وإيصاله للسلطات[٢٤].

يعهد إلى المحتسب بحل الخلافات بكل الوسائل بما فيها الضرب

أما عن الأشراف فقد اعتادت الدولة العثمانية أن تعهد بإدارة مكة المكرمة إلى أحد الأشراف، فينظر في القضايا الكبرى على حسب نظام أربابها، إن كانوا من الأهالي أو من الأغراب. ومن عادة شريف مكة أن يجلس في دار الإمارة يوميًا، فتعرض عليه المسائل المهمة، ويخصص يوم الجمعة لمقابلة الوالي والأعيان وكبار الموظفين. ويسكن الأشراف في الغالب حي أجياد مع الأتراك، ويقضون الصيف في الطائف[٢٥].

وينقسم أشراف مكة قسمين، الأول: يعنى بالأدب والشريعة والتجارة، ويسمون الأسياد. والثاني: يحتكر السلاح والأمور العامة، ويلقبون بلقب الشريف[٢٦]. ومن عادة أشراف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم منذ نعومة أظفارهم إلى البادية، ولا سيما إلى قبيلة

---

(٢٤) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٩.

(٢٥) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٧- ٣٩.

(٢٦) شارل ديديه، رحلة إلى الحجاز في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، (١٨٥٤م)، ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي، (دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ)، ص ٢٢٠.

عدوان شرقي الطائف، فينشؤون على البداوة، ويتعلمون الفروسية، والطلاقة في الكلام، ثم يعودون إلى مكة بعد أن تشربوا أخلاق البادية(٢٧).

واحتل الأتراك مكانة عالية في مكة في ظل الحكم العثماني، فكان منهم والي الحجاز ومقره مكة، وله السلطة في الأمور العسكرية والمالية. كما استأثر الأتراك بالوظائف الكبرى في الولاية، والمؤسسات التعليمية والخيرية القائمة على أوقاف تركية. ويسكن الأتراك شعب أجياد لارتفاعه وسعة طرقه، وجاءت بيوتهم على الطراز التركي، وتظهر في مساكنهم علامات الثراء من الزخرف والزينة والبُسط العجمية النادرة(٢٨)، وقلت امتيازات الأتراك عندما رفع الشريف حسين راية العصيان في وجه الدولة العثمانية.

وبعد دخول السلطان عبدالعزيز مكة اجتمع بممثلي الأهالي من العلماء والأعيان والتجار قائلاً: "عليكم أن تختاروا ممثلين لكم بموجب أوراق تمضونها من المجتمعين بأنهم رضوا بأولئك النفر، لإدارة مصالحهم العامة، والنظر في شؤونهم، ويكونون الواسطة بين السلطان والأهلين، فهم عيون لي وآذان للناس"، وبهذا تَكَوَّن المجلس الأهلي بمكة المكرمة بناء على رغبة الملك عبدالعزيز(٢٩).

٢ - طبقة العلماء

احتل العلم الشرعي المكانة الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في المجتمع المكي. وفي مقدمة هذه الطبقة يأتي القضاة والمفتون، وفي العهد العثماني كان القاضي يرسل من الآستانة(٣٠)، وكان من مهامه النظر في القضايا الشرعية، كما يرأس حفلات تنصيب الأمراء، ويمثل

(٢٧) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ص ٢٠٣.

(٢٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٣٨، ٤٩.

(٢٩) جريدة أم القرى، عدد ٣، ٢٩ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، ص ٢.

(٣٠) يصرف له مرتب من مصر قدره ٣٦٦ إردب قمح عينًا أو نقدًا بموجب أمر سلطاني لخديوي مصر. راجع إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١٩٥.

سلطة الأتراك الدينية، ويتولى تقديم الخلع السلطانية للأمير. وهناك مفتٍ واحد عن كل مذهب من المذاهب الأربعة[٣١].

وشكل مشايخ الحرم المكي والمعلمون فيه طبقة متميزة، وهم من مختلف المذاهب، ويجرى اختيار شيخ العلماء في الحرم، من قبل الحكومة، من رجال الإفتاء غالبًا، ويتخذ لنفسه نائبًا، ومن مهامه اختيار المدرسين في الحرم، وتوزيع الموارد المالية عليهم وفق رؤيته الشخصية[٣٢]. وقد رصد البتنوني أثناء رحلته ثلاثين مُعلمًا بالحرم الشريف، ولحظ عدم عنايتهم بالتعليم؛ نظرًا لقلة العائد المادي، فالراتب من الحكومة العثمانية كان يتراوح بين مئة وخمسمئة قرش عثماني سنويًا[٣٣].

وكانت مكة ملجأ للعلماء المسلمين في عصر سيطر فيه المستعمر الغربي على معظم بلدان العالم الإسلامي. ومن أشهر علماء مكة في هذه الفترة الشيخ محمد بن سليمان حسب الله الشافعي (١٢٤٤- ١٣٣٥هـ) الذي أفتى بتحريم التدخين، وتعرض لهجوم كبير من العلماء الذين أفتوا بكراهيته فقط، ومنهم الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية، كما تصدى لمحاولة بناء ضريح على قبر أبي طالب[٣٤]. ومن علماء مكة السيد صالح بن بكري شطا، الذي ولد بمكة سنة ١٣٠٢هـ، وكان والده من علماء مكة أيضًا، وأصبح من أبرز علماء العهد السعودي، وكان عضوًا بمجلس الشورى عن مكة عام ١٣٤٥هـ، ثم عهد إليه بإدارة المعارف العامة، ثم عُين مساعدًا للأمير فيصل النائب العام[٣٥]. ومن

(٣١) أحمد السباعي، تاريخ مكة دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، (الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ)، ط٢، ج٢، ص ٦٦٦.

(٣٢) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢- ٤٩٤.

(٣٣) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠.

(٣٤) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٩٢- ٤٩٦.

(٣٥) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تهامة للنشر، جدة، ١٤٠١هـ)، ص ص ٦٣- ٧٤.

مشايخ مكة أيضًا أحمد ناضرين (١٢٧٠- ١٣٥٣هـ)، تعلم على يد السيد بكري شطا، وعُين في العهد السعودي عضوًا بمجلس الشورى، ورئيسًا للمحكمة الابتدائية، ثم قاضيًا في المحكمة الكبرى(٣٦).

٣ - طبقة العامّة

ازدحمت مكة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بعدد كبير من المسلمين الفارين من مختلف أقطار العالم الإسلامي إثر الهجمة الأوربية، فغدا في مكة من آثار ذلك جبل الترك، وجبل الهندي، وحارة السليمانية (الأفغان)، وزقاق المغاربة، وزقاق البخارية، ونقلت هذه الجاليات معها عاداتها وتقاليدها وأخلاقها، وكثيرًا من صناعاتها(٣٧).

بلغ تعداد سكان مكة عام ١٣٢٧هـ وفقًا لرواية البتنوني حوالي ١٥٠ ألف نسمة، ولم يقدم غيره من الرحالة إحصاء دقيقًا لسكان مكة(٣٨)، وقد أورد توزيعهم كما في الجدول الآتي:

العدد	الجنسية	العدد	الجنسية
٥٠,٠٠٠	أهالي مكة الأصليين	١٠,٠٠٠	أفغان وقندهار
٢٥,٠٠٠	عرب (وأغلبهم حجازيون ويمنيون وحضارم)	٥,٠٠٠	شوام
٢٠,٠٠٠	بخاريون	٥,٠٠٠	مغاربة
١٥,٠٠٠	جاوة (ماليزيون)	٨,٠٠٠	أجناس أخرى
١٢,٠٠٠	هنود		

(٣٦) حسن عبدالحي قزاز، أهل الحجاز بعبقهم التاريخي، (جدة، ١٤١٥هـ)، ص ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٣٧) أحمد السباعي، مرجع سابق، ج٢، ص ص ٦٣٩، ٦٤٠.

(٣٨) النسبة هنا حصل عليها البتنوني من رجال الإدارة في مكة، وهي تقريبية، إذ لم يتم تعداد حقيقي في البلدة.

أي أن أهل مكة الأصليين لا يمثلون أكثر من ثلث سكانها. وأكثر سكان مكة من الأغراب، وقد توطنوا مكة، وتعربوا كليًا بمر الزمن، ويمكن تمييز العائلات ومعرفة أصولها[٣٩].

ونتج عن الاختلاط والمصاهرة بين هذه الأنساب المختلفة أن تنوعت قسمات وجوههم وبشرتهم بدءًا من الأبيض تمامًا إلى البرونزي القاتم. وعرب مكة أذكياء لطيفو المعاشرة والتخاطب، مجاملون، متأدبون، مع احتفاظهم بشعور العزة والكرامة، وأغنياؤهم منعمون، يطيب لهم أن يلبسوا أفخر الثياب، ويفرشوا بيوتهم بالمفروشات الجيدة، وهم يحبون الأكل، يستضيفون ويضيّفون[٤٠].

ويأتي في المرتبة الثانية بعد العرب الماليزيون المعروفون بجاوه، وهم يشكلون خُمس سكان مكة، ويعرفون بملامحهم، على الرغم من أنهم يلبسون الثياب العربية، ويتحدثون لغتها، جاء بعضهم بدافع ديني، وبعضهم الآخر بدافع تجاري، ويتميزون بالطبع الهادئ المسالم، حتى صار المثل "طيب ومسالم مثل جاوه"، وهم محبون للعلم، مترابطون، متضامنون، ولهم كبير يدير شؤون الجالية. أما أبناء

---

(٣٩) من أشهر العائلات في مكة على سبيل المثال:

من الهنود: بيت خوقير، والدهلوي، والساب، وحكيم، والناقرو، والمفتي، وعبدالشكور، والمرزا، وكمال، وجان، وشلهوب، ونور، والطيب، وولي سنبل، وخوجة بكر، والمسكي، وإلياس، والزرعة، والقرع، والحجيمي.

ومن الماليزيين (جاوه): بيت البتاوي، ومنكابو، وزيني، وأرشد، والفنتيانا، والفلمبان، وقدس، ودوم.

ومن الحضارم: بيت باحارس، وباجنيد، وبانجا، وباحكيم، وبازرعة، وباعيسى، وباعشن.

ومن الشوام: بيت هاشم، والجبري، والخشيفاتي.

ومن الترك: بيت الدرابزنلي، والقرملي.

ومن المصريين: بيت القطان، والزقزوق، والرشيدي، والرواس، والقزاز.

ومن البخاريين: بيت كشك، والفاشقلي، والإنديجان.

راجع البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ١٢١.

(٤٠) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٥.

القوميات الأخرى فهم بوجه الحصر تجار أو نظار في التكايا التابعة لقوميتهم(٤١).

ويأتي المطوفون والتجار على قمة هذه الطبقة من حيث الثراء، ويستأثر المكيون بالطوافة، إذ لابد للحاج من مرشد يدله، ويقضي له حوائجه، فأكثر الحجاج يجهل المناسك، ناهيك عن الطرق. ولكل مطوف وكيل في جدة يستقبل الحجاج التابعين له، وقد يذهب المطوف بنفسه إذا كان بين الحضور شخصية مرموقة. وللمطوف صبيان(٤٢) وخدم يساعدون الحجاج في عمليات النقل والترحال والسكن، وأحيانًا ينوبون عنه في إرشاد الحجيج إلى المناسك، وأماكن الزيارة والنزهة والشراء. ويحصل المطوف على أجر لقاء الوساطة في تدبير المسكن، ودواب الترحال، وشراء لوازم الحجيج، وإحضار الأضاحي إلى منى(٤٣).

وللطوافة شيخ يحافظ على تقاليد المهنة، ويشرف على المطوفين، ويساعد الحكومة في تطبيق الأنظمة والتعليمات الخاصة بطائفته، ويقرر قبول أعضاء جدد في المهنة، ويتابعهم ويحدد صلاحياتهم، ويراقب سلوكهم وأخلاقهم. وتؤدي الوساطة، والعلاقات الشخصية، والهدايا دورًا بارزًا في قبول المطوفين الجدد، على الرغم من إظهار الشيخ العدل بين أفراد مهنته. ويقوم العضو الجديد بعمل وليمة لأفراد الطائفة، وأمام الجميع يطلب العضو الجديد من الشيخ أن يسمح له بممارسة الحرفة، ويتعهد بالسمع والطاعة، وأن يكون أخًا صالحًا لزملائه، ويقرأ الجميع الفاتحة بنية التوفيق والقبول. وينطبق ذلك على جميع الحرف في مكة(٤٤).

---

(٤١) المصدر نفسه، ص ص ١٤٧، ١٤٨.

(٤٢) يختار المطوف صبيانه من البلدان التي يقوم على خدمة حجاجها، ويسجلهم لدى الحكومة، ويحصلون على أجرهم من المطوف والحجاج، إضافة إلى الهبات والهدايا. راجع: سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٠١.

(٤٣) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٣٥- ٣٣٩.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٤١.

وقد سجل الرحّالة قبل عهد الملك عبدالعزيز جهلاً دينيًا لكثير من المطوفين، خاصة في مسألة المزارات، وما ينسج حول بعضها من أساطير، وينظر بعضهم للحجاج نظرة طمع لجني ربح وفير[٤٥].

سجل الرحّالة قبل عهد الملك عبدالعزيز جهلاً دينيًا لكثير من المطوفين

ويستبد المطوفون بالحجاج، ويرغمونهم على دفع ما يفرضونه من مكوس، لا يفرقون بين غني وفقير. ويقول أمير الحج المصري عام ١٣٢١هـ: "ليس بمكة من يرفع ظلم هؤلاء، فإذا كتبت إلى الشريف أو الوالي رسميًا كان جوابهما: إننا لا نتدخل في أمور الحج"[٤٦]، وقد يعقد المطوفون مزايدة على أغنياء الحجاج. ويسافر المطوفون بعد موسم الحج إلى الخارج؛ لزيارة من تعرفوا عليهم أثناء الموسم، ويعودون محملين بأموال البدل[٤٧] والهدايا[٤٨].

أما تجار مكة فلهم المكانة الأفضل، ومعظمهم من الهنود، والمنافس الحقيقي للهنود الحضارم، الذين جاؤوا إلى مكة دون أي ثروة، فيعملون في خدمة التجار، ثم ينتقلون للعمل لحسابهم، عندما يتقنون فن التجارة، ويجمعون قدرًا معقولاً من المال. ويكسب التجار أموالاً طائلة من التجارة، وإقراض المال للأهالي، ويتم إقراض المال بأن يبيع التاجر للمدين بعض حاجات بأسعار عالية جدًا، على أن يدفع ثمنها في وقت لاحق، ويأخذ صكًا بذلك، ثم يعود ويشتريها منه بثمن بخس، ويعطيه الثمن الأخير[٤٩]، ويعرف هذا البيع في الفقه الإسلامي ببيع العينة، وهو من البيوع المحرمة شرعًا.

---

(٤٥) محيي الدين رضا، رحلتي إلى الحجاز، ص ٣٣.

(٤٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ١١٩.

(٤٧) أموال يجمعها المطوف لأداء فريضة الحج نيابة عَمَّن لا يستطيع أداء الفريضة.

(٤٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٦٠، ٦٢.

(٤٩) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ص ٣١٢، ٣١٣.

وتؤدي مكة دور الوسيط في التجارة استمرارًا لدورها القديم، فتجبى إليها متاجر الغرب لبيعها للحجاج دون أن يكون للمسلمين دور فاعل في صناعتها، حتى إن ما يشتريه الحاج من سجاد للصلاة على سبيل التبرك إنما هو من صناعة الغرب، تضاف إليها الأطعمة، مثل: الجبن والبسكويت وما إليها[٥٠]. ولا تنتج مكة سوى أشياء قليلة، مثل: المسابح، والخواتم الفضية، والحناء، والآراك (السواك)[٥١]. وتنتشر محلات التجار في كل مكان، فهي تملأ حتى شارع المسعى. وتتحول مكة إلى سوق كبيرة في الحج، ويبدو ليلها كنهارها، الطرق تعج بالناس، فالباعة والحجاج والمتسولون الجميع خرج يلتمس الرزق[٥٢]. والأكثر رواجًا تجارة العملة، نظرًا لقدوم الحجاج من مختلف دول العالم، فيشتري التجار العملة بسعر منخفض، ويبيعونها بسعر مرتفع[٥٣].

ولا يتورع تجار مكة - شأن التجار في أي زمان ومكان - عن استغلال الظروف، واحتكار السلع الغذائية، وهذا ما حدث إبان حصار جدة في عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، حيث استمرت الأسعار في ارتفاعها رغم انتهاء الحرب، وفتح الموانئ للاستيراد، فاضطرت الحكومة السعودية إلى إصدار بلاغ لأهالي البلد الحرام كافة، بالتحذير من احتكار الأرزاق والأقوات، وتهديد المحتكرين بمصادرة السلع المحتكرة، وبالجزاء الرادع[٥٤].

أما عن العمال والحرفيين، فالفقراء من أهل مكة يعملون عند التجار الأجانب، يتجولون بالبضائع في الحارات والأزقة، يعرضونها

(٥٠) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣٥.

(٥١) محمد صادق باشا، رحلة كوكب الحج، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٦.

(٥٢) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٣٩.

(٥٣) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩.

(٥٤) جريدة أم القرى، عدد ٩، ١١ رجب ١٣٤٣هـ، ص ٣.

على الحـجـاج في المنازل، ولهم نظيـر عـملهم جـزء بسـيط لا يفي بحاجتهم(٥٥). وللحلاقة أهمية خاصة في بلد الله الحرام؛ لأن التحلل من الحج والعمرة يتطلب الحلق أو التقصير، لذا انتشرت محلات الحلاقة بجوار الحرم، وازدحم بهم شارع المسعى. كما مارس الحلاقون الحجامة والختان، ومداواة الجراحات البسيطة، وكان الحلاقون يتقاضون من الفقراء مقابلاً عينيًا مثل: قطع الخبز(٥٦). وهناك حرف البناء والنجارة وما يتعلق بهما، والعرب حرفيون مهرة في النقش على الخشب والحجر، ويمتلكون ذوقًا رفيعًا(٥٧).

والصناعة لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية وفضية، والحدادة بسيطة، لكنها دقيقة في عمل الأسلحة، وبمكة فرن لصناعة القلل والدوارق الفخارية، وكلها في يد الأجانب(٥٨). أما حرفة السقاية فيقوم بها بعض الفقراء، ومع موسم الحج يتوافد أعراب من المناطق المحيطة؛ فيشتغلون بالسقاية(٥٩). واختفت باقي الحرف من الصورة لدى الرحالة(٦٠). ويقوم أهل مكة بتربية الماشية والأغنام، وبيعها للحجيج؛ ليكون منها الهدي، إلى جانب تقديم الخدمات للحجيج(٦١).

---

(٥٥) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٨.

(٥٦) حسن قزاز، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٥٧) ريزفان، الرحلة السرية، ص ١٤٧.

(٥٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٦٠.

(٥٩) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٥.

(٦٠) ومن هذه الحرف صناعة السبح من اليسر المستخرج من البحر الأحمر، ومن مختلف أنواع الخشب المحلي والمستورد، ومن العود ونوى البلح. وفي جبال مكة صناعة تفتيت وتهذيب أحجار البناء. والحرف الخدمية، مثل: الخياطة، والحرف المتعلقة بالمأكل، ويقوم بها الجزارون، والطحانون، والخبازون، والسقاؤون، وصناع القرب، والحلوانية، ولكل طائفة شيخ يحكم بين أبناء طائفته راجع: حسن قزاز، مرجع سابق، ص ص ٦٨- ٧٧.

(٦١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٢٥٢.

ودعت هذه الحالة الاقتصادي طلعت حرب أن يلفت الأنظار إلى مشروعات عدة تخدم أهالي البلد الحرام، منها إنشاء شركة لتعبئة مياه زمزم في زجاجات معقمة، وبيعها في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وتزويد مكة بالكهرباء؛ لإنشاء مصانع نسيج ودباغة، ومسالخ صحية، وورش لتصليح السيارات. وأشاد بمصنع كسوة الكعبة الذي وفر فرص عمل للكثيرين(٦٢). وهذه نظرة عملية إيجابية تميز بها طلعت حرب رائد الاقتصاد المصري الحديث، وصاحب الشركات المتعددة آنذاك في مصر، مثل: مصر للغزل والنسيج، ومصر للطيران، ومصر للملاحة، وغيرها. وقد لقيت رؤيته رواجًا في مكة بعد ذلك.

٤ - الرقيق

اعتاد أهالي الحجاز على استخدام الرقيق، فمدار حركة النقل الشاقة على العبيد، إذ منهم الحمّالون والحطابون والجمّالون والسقاؤون والخدم. وفي مكة قلت تجارة الرقيق تدريجيًا، لكنها كانت تنتعش في موسم الحج، فقد يشتري الحجاج العبيد ليعتقوهم، إما كفارة أو إحسانًا، والرقيق المعتوق يحمل وثيقة بذلك من القاضي. وقد يشتري الحاج عبدًا أو أمَةً ويعود بها إلى بلاده، فعندما سافر الشيخ حسن الجبرتي (المصري) إلى مكة للحج اشترى جارية أهداها لزوجته، فأعتقتها، وأقامت لها منزلاً، وزوجتها من الشيخ حسن، ورزقت منه بأولاد(٦٣).

ويجلب الرقيق من الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، وهم على جنسيتين؛ الزنوج السود تمامًا، ويشتريهم الحجازيون رجالاً ونساءً

(٦٢) محمد طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٣٠٥- ١٣٠٧.

(٦٣) إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحّالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، (سلسلة مصر النهضة، عدد ٥١، ١٩٩٥م)، ص ٢٧٣.

للعمل فقط. أما الأحباش الأقل سوادًا فيشترون النساء منهم كمحظيات. وبعض الرقيق مستولد في مكة. وفي الحجاز يشترط أن يثبت رق العبد في بلاده قبل البيع بسؤال المشتري للعبد نفسه(٦٤). لكن هذه المسألة كان يشوبها كثير من الغموض، فمعظم الرقيق أولاد مخطوفون، يشتريهم تجار محتكرون ينقلونهم على سفن خاصة إلى سواحل الحجاز، حيث يباع الفتى منهم ما بين خمس وعشر ليرات عثمانية(٦٥)، والفتاة الزنجية الراشدة بحوالي عشرين ليرة، والفتاة الحبشية، والعامل الزنجي أو الحبشي ما بين ثلاثين وأربعين ليرة. وفي مكة لا يكاد يخلو بيت من عبد وأمَة يقومان بجميع أعمال المنزل. ويشك كثير من أهل الحجاز في شرعية هذا الرق، فيعتقون الرجال، ويعقدون النكاح على بعض النساء(٦٦).

ويعمل الرقيق النوبي (الزنجي) في الأعمال الشاقة من قطع الأحجار والأحمال والبناء، ويتعلمون حرفة كما يتعلمون شعائر الإسلام. ولكل مجموعة منهم شيخٌ يفض منازعاتهم، ويعاقب المذنبين. ولهم احتفالٌ شعبيٌ خاصٌ بهم من بعد ظهر الخميس حتى صباح الجمعة يعزفون فيه موسيقاهم على أدوات زنجية، مثل: الطنبورة(٦٧)، والطبول، ويغنون أناشيدهم، ويرقصون رقصاتهم الشعبية، ويحزم أحدهم بحزام معلق به حوافر الغنم، ويرقص، فيهز نفسه هزًا عنيفًا، ويحدث صوتًا قويًا، ويصطف الحضور حلقة دائرية

---

(٦٤) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ٤٩

(٦٥) الليرة العثمانية: عملة ذهبية كانت قيمتها مئة قرش ذهبي؛ أي: جنيهًا ذهبيًا، وهي تعادل أيضًا ١١٨ قرشًا فضيًا. عن قيمة العملات في هذه الفترة، راجع: عبدالله السبيعي، اقتصاد الأحساء والقطيف وقطر أثناء الحكم العثماني الثاني ١٢٨٨-١٣٣١هـ/ ١٨٧١-١٩١٣م، (الرياض، ١٤٢٠هـ)، ص ٨١.

(٦٦) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٥٢، ١٥٣.

(٦٧) آلة وترية لها ستة خيوط وعليها ريش. راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ٣٢١.

يغنون لساعات عدة ألحانًا رتيبة، ويتقدم شابان وسط الحلقة، فيتبارزان بالعصا، وبعد ظهر الجمعة يعودون لأعمالهم(٦٨).

وقد زار دولتشين سوق النخاسة في مكة، فوجده حوشًا ليس بالكبير، يطل على غرف لمبيت الأرقاء ليلاً، كان بالسوق آنذاك حوالي ثمانين نفسًا، معظمهم شابات حبشيات، منهن ثلاث معهن أطفال رضع، جميعهن مزينات ومصفوفات للعرض، والشباب مقصوص الشعر، والأطفال يلعبون، والتاجر عربي يعلن عن بضاعته، فيأتي المشترون، ويعينون البضاعة(٦٩). ويقبل المشتري شراء الرق بعد اقتناعه وبعد سؤاله: هل تقبل خدمتي؟ وإذا حاول الدلال خداع المشتري، فقد يظهر الرقيق الخدعة للمشتري حتى لا يجني هو عقباها. وقد تبكي الفتاة عند بيعها من قبيل الحزن على مفارقة الزميلات(٧٠). وفي بداية العهد السعودي وضعت الإماء حجابًا، فلا يرى وجههن إلا عند الشراء. وللأمة أن تبدي موافقتها بإيماءة أو ابتسامة تعلو وجهها(٧١).

ومعاملة الرق مرهونة بأخلاق السيد، ولكنها في الغالب معاملة حسنة، فكثير من المكيين يحسنون إلى الرقيق ويعدونه من أفراد الأسرة. وقد يتعرض الرقيق للضرب عقابًا، وهذه من أصول التربية حتى للأولاد في البيئة العربية، الأمر الذي يساء فهمه من قبل الأوربيين. ويضيف هورخورنيه قائلاً: "إن آلاف الزنوج الذين يحملون إلى ديار الإسلام حين يتذكرون حياتهم الأولى يعتبرون أنفسهم خُلقوا من جديد من خلال الاسترقاق، إنهم لا يريدون العودة إلى حياتهم الأولى"(٧٢).

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٦٩) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٥٣.

(٧٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٧١) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٧٢) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٣٢٥، ٣٣٠.

والإساءة الحقيقية للرقيق، والتي لا يقرها الإسلام، هي عملية الخصي، ويستخدم نتاجها في خدمة نساء الطبقة العليا، أو يقومون بالخدمة في الحرم، ويطلق عليهم الأغوات، وهؤلاء يستوردون مخصيين من الخارج، وقد تناقص عددهم مع بداية القرن الرابع عشر الهجري(٧٣).

وفي السادس من نوفمبر ١٩٦٢م/ ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ أصدر الأمير فيصل - رئيس الوزراء - أوامره بإنهاء الرق في المملكة، وعتق الرقيق، وتعويض أصحابه عن أثمانه، وذلك في عهد الملك سعود(٧٤).

ثانياً: الأسرة والعادات والتقاليد

المرأة

اتفقت آراء الرحالة على أن المرأة المكية أشد نساء العالم تمسكًا بالزي الإسلامي، وأعظمهن صيانة لشرفها، وأحفظهن لأنوثتها، فهي لم تنغمس في تيار المدنية الجارف، وهي بعيدة عن الاختلاط، حتى في التزاور لا يلتقي الجنسان، وتخرج من بيتها وقد غطت وجهها بغطاء كثيف لا يتخلله سوى فتحتين صغيرتين أمام العين، وقد نسجتهما نسجًا خفيفا، ولا يدخل على المرأة خادمها، وإنما يكلمها من وراء حجاب. ولا يدخل المنزل رجل قط إلا في حضور الزوج. ومن السلبيات أن بعض النساء يدخن النرجيلة، ويتركن شؤون المنزل للخدم، ويثقلن كواهل أزواجهن بالنفقات الباهظة(٧٥).

وملابس المرأة المكية في بيتها متنوعة، ومطرزة الحواشي بالذهب والفضة، وتشد على وسطها حزامًا ذهبيًا، وهناك غيرة بين النساء

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٧٤) صلاح الدين المنجد، فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأفعاله، (بيروت، ١٩٧٢م)، ص ٥٠.

(٧٥) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٠. وسوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٥١.

في الأزياء، الأمر الذي يرهق الرجال. والمرأة المكية طبيبة أسرتها بما لديها من خبرة في الوصفات من الأعشاب والتوابل(٧٦). وتتمتع نساء مكة بقدر كبير من الحرية في ارتياد الأسواق والمساجد وحدهن، وتعمل بعضهن بالتجارة في الشوارع، وقد تقع عليهن العين في المحكمة أمام القاضي حاملات الشكاوى ضد أزواجهن أحيانًا(٧٧)، فللمرأة أن تتقدم بطلب طلاق للقاضي لسبب ما، مثل: المعاملة السيئة، أو العجز عن النفقة، أو عدم توفير المسكن المناسب. والمرأة المكية لها حق تقليدي مكتسب يتمثل في عدم السفر مع زوجها خارج مكة. والأرامل والمطلقات منهن يرحبن بالزواج من الأجنبي إن كان غنيًا، وبقي في مكة(٧٨).

الزواج

تتناسب تقاليد المجتمع في الزواج مع طبيعته، فالاختلاط بين الأولاد والبنات حتى سن الثامنة فقط، وقد تبقى صورة الفتاة عالقة لدى الشاب، وتشكل أساسًا في اختياره. وفي الغالب يكون الاختيار في الزواج الأول لرغبة الأسرتين في المصاهرة، دون رغبة الزوجين، والأمر لا يكون فيه إكراه حيث يرضى الأبناء باختيار الأهل. ولا يستطيع الشاب رؤية وجه الفتاة التي يريد خطبتها إلا إذا نجحت أمه أو أخته في استدراجها إلى غرفة الحريم، فيراها من عين سرية تطل من غرفة خاصة على غرفة الحريم(٧٩).

وتبدأ مراسم الخطبة بزيارة سيدة من أهل الشاب لبيت العروس، فإن وجدتها مطابقة للمواصفات أعلنت رغبتها في المصاهرة، ويظهر الرد في حسن الاستقبال وعبارات الترحاب. ثم ترسل أسرة العريس

(٧٦) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١١، ٤١٣.

(٧٧) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ٤٦.

(٧٨) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٠٧- ٤٠٩.

(٧٩) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٧٠.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز، العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

متحدثًا لبقًا لتأكيد الرغبة في المصاهرة، وتقرأ الأسرتان الفاتحة لتأكيد الخطبة، ثم يقدم أهل العريس المهر على صينية من فضة، ومعه قطع من الذهب والحلوى والهيل والفل، والصينية مغطاة بقطعة من التل حواشيها مطرزة بالذهب، ثم يعقد القران في المسجد الحرام غالبًا، ويستكمل الحفل في منزل العريس(٨٠).

وتتحدد قيمة المهر وحفلة الزفاف طبقًا لمستوى الأسرتين، والمهر يضمن حياة كريمة للزوجة في حالة الانفصال أو وفاة الزوج، لذا تغالي أسرة العروس في المهور، كما تبالغ في مستوى حفلة الزفاف؛ الأمر الذي يؤخر سن الزواج(٨١). ويجامل أهل مكة بعضهم بعضًا في إطار تكافلي، فتتلقى أسرتا العريس والعروس الهدايا في ليلة الصنيع (الحنة) من أرز وسكر وشاي وسمن وخراف. وقد يستعير أهل العروس جملة من الحلي، لذا وجد من امتهن تأجير أنواع الحلي مدة الفرح(٨٢).

ويستمر حفل الزواج ثلاث ليالٍ، في الليلة الأولى تتزين العروس بالحناء والحلي، وتصفيف الشعر وما إلى ذلك على يد سيدة متخصصة، وتتوافد عليها الصديقات، فيغنين بالدفوف، ويستمر الحفل إلى منتصف الليل. وفي الليلة التالية يتم تجهيز كرسي الزفاف (الأريكة) بالستان (نوع من القماش)، والحلي في غرفة بالمنزل، وتعلق القناديل أمام المنزل، ويقدم الغداء من الأرز واللحم، ويرسلون صينية طعام لبيت العريس، ويستمر غناء الجواري إلى آخر الليل(٨٣).

---

(٨٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٤٥.

(٨١) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ص ١٦٧، ١٦٨.

(٨٢) محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، (منشورات نادي مكة الثقافي، ١٤٠١هـ)، ص ٨٧.

(٨٣) لا يختلف الوصف عمّا كتبه مؤرخو الحياة الاجتماعية في الحجاز. راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٣٧ - ٤١. ومحمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٨١- ٨٧.

وفي اليوم الثالث (الزفاف) تقرع الطبول طوال النهار، وتغني الجواري، ويفتح الجيران أبوابهم لاستقبال الضيوف، وتتزين النساء المدعوات بأجمل الملابس والمجوهرات، والشعر المضفر بقطع العملة القديمة ومغطى بيشمك[٨٤] مطرز بالذهب، بدلاً من المحرمة المعتادة، ويرتدين ثوبًا من الحرير الخفيف الشفاف فوق الصديري والسروال، وقريبات العروس يرتدين القلادة المتدلية من الرقبة إلى الركبة[٨٥]. بينما تقوم الماشطة بتزيين العروس بالحليّ والذهب واللؤلؤ، وترتدي العروس قلادة طويلة من حبات التفاح الصغير والورد والفل والقرنفل، ثم تقوم الجواري بزفافها[٨٦].

ولا تخرج العروس من منزل الزوجية لمدة سنة كاملة، تتدرب خلالها على بعض الأعمال المنزلية، بعدها يمكنها أن تخرج لزيارة بيت أهلها لأول مرة بعد الزواج، ويمكنها أن تذهب للتسوق[٨٧].

استقبال المولود

تأتي تسمية المولود ليلة السابع في حفلة يدعى إليها الأهل والأصدقاء، وقد يختار الوالدان اسم المولود أو يتركانه للشيخ العالم الذي يحضر الحفل، فيتسلم الطفل، ويؤذن في أذنه اليمنى، ويقيم في اليسرى، ويهديه بعض المال، ثم يعطي الحضور هداياهم للطفل، وبعد تقديم الحلوى ينصرف الحضور، ثم يعودون في اليوم التالي لحضور الوليمة، وتذبح فيها شاة أو اثنتان، وكثير من المكيين يقوم بهذه العادة دون إقرانها باسم العقيقة. أما حفلة النساء فتكون بعد أربعين يومًا، للاحتفال بالأم، وفيها يتناولن الطعام، ثم يتوجهن للحرم

(٨٤) اليشمك واليشمق كلمة تركية بمعنى خمار يغطي نصف وجه المرأة. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: جمال خياط، (بغداد، ٢٠٠١م)، ١١/ ٢٤١.

(٨٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٨٦) محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٨٧) سوزوكي، ياباني في مكة، ص ١٦٨.

عند المغرب معهن الطفل، ويسلمنه لأحد الأغوات، فيضعه على باب الكعبة قرابة عشر دقائق، ثم يعيده لأمه، ويتلقى منها هدية، ويعود الجميع إلى المنزل بعد صلاة العشاء[٨٨].

عادات الملبس والمآكل

تأثرت أزياء أهل مكة باختلاط أجناس سكانها، فترى مجموعة مختلطة من أزياء البلدان الإسلامية عمامة هندية، وجلباب مصري وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه في حزام الأشراف مفضضًا أو مذهبًا، وكثيرًا ما يكون مرصعًا بالأحجار الكريمة. وقد حافظت طبقة الأشراف على لباسها، فلا ترى فيه اختلاطًا. وتكثر في لباس أهل مكة الألوان الزاهية وخصوصًا الأحمر والأخضر والأزرق والوردي[٨٩].

وللمكيين ولع خاص بالتأنق في الملبس، فيلبس العلماء والتجار والطبقة المتعلمة فوق الملابس الداخلية شاية عبارة عن جبة مفتوحة تربط بحزام من الوسط لقفلها، وفوقها جبة واسعة فضفاضة بأكمام واسعة وعلى الرأس عمامة[٩٠]. ويظهر أولاد الحارة من العمال، وصغار الباعة، وأصحاب الحرف في زي بسيط مكون من ثوب يشدون عليه حزامًا في وسطهم؛ ليزيدهم قوة أثناء العمل، يضيفون إليه أحيانًا ميتانًا[٩١]. أما العامة فترى الرجال يوشون ملابسهم بالتطريز، حتى تجد السروال مشغولاً على حافة رجله، والجبة أو الجاكيت من ألوان زاهية، ويتعممون بشال مطرز وملون فوق طاقية من البفتة[٩٢]. أما الملابس في ظل الحكم السعودي فهي الجلباب

(٨٨) المصدر نفسه، ص ص ٤٣٢، ٤٣٣.

(٨٩) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٢، ٤٩.

(٩٠) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣٤٩.

(٩١) الميتان: معطف قصير (جاكيت)، السباعي، تاريخ مكة، ص ٦٤٥.

(٩٢) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٤٨.

الأبيض - في الغالب - وتحته سروال، وقد يلبس كبار السن وأصحاب المناصب عباءة، وتغطي الرأس طاقية بيضاء فوقها "غطرة" بيضاء أو "شماغ" أحمر وعقال(٩٣).

أما بالنسبة للمأكل فغذاء أهل مكة التمر مع السمن، واللحم مع العسل، وخبزهم من الحنطة، وذبائحهم من الجمال والأغنام، وقليل من الدجاج البلدي(٩٤). وتتمتع مكة برخص المعيشة، فاللحوم والخضراوات متوافرة لا يرتفع ثمنها إلا في موسم الحج(٩٥). ويهتم أهل مكة بالطعام الدهني المكون من الأرز واللحم والتوابل مرتين في اليوم ظهرًا ومساءً. والماء مبرد في أباريق وجرار مسامية فخارية توضع في مجاري الهواء في المشربيات(٩٦). ويتفنن المكيون في إعداد الطعام على الطرق العربية والهندية والشامية والمصرية والتركية. ويتفاخرون بكثرة الأطعمة، ويقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم ولا سيما في رمضان(٩٧).

والشاي من ضروريات الحياة في مكة، فالجميع يشربونه، ولهم اهتمام خاص به، فكل منزل به موقد للشاي، ويشربونه ثقيلاً جدًا ومحلى تمامًا وبمقادير صغيرة، وكثيرون يدخنون التبغ، وعلى الأغلب النرجيلة(٩٨).

ومن عادة أهل مكة أن توجه كل حارة على حدة الدعوة سنويًا للشريف، فإن قبلها أقيمت وليمة في المتنزهات خارج مكة، فيسير

(٩٣) إبراهيم فوزان الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، (الرياض، ١٤٠١هـ)، ص ٣٤٤.

(٩٤) محمد صادق، كوكب الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٦٤٨.

(٩٥) محمد رشيد رضا، رحلة الحج، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ٨٨٣.

(٩٦) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦.

(٩٧) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩.

(٩٨) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٦٧. وريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ١٤٦.

إليها في موكب فخم تجري أمامه خيالة العرب، والناس يهتفون (يعيش)، وبعد الطعام يلعب العرب ألعاب الفروسية بالخناجر والسيوف إلى آخر النهار، ثم يعود الشريف في موكبه أول الليل. كما كان من عادة أهل مكة الإفطار في الحرم في رمضان، لكن الشريف عون أبطل هذه العادة مراعاة لنظافة الحرم(٩٩).

وعامة أهل مكة يأكلون اللحم والثريد والأرز. أما صورة الحياة الحديثة في المأكل - التي سجلها هيكل في أول العهد السعودي - فيمثلها خاصة القوم، الذين يتكلفون في حضرة الأغراب فيجلسون على الكراسي، ويستخدمون الملاعق والشوك. ويحرصون على عادة انتقلت لهم مع أهل نجد، فما أن يمتلئ المجلس حتى يدور عليهم الخدم بالشاي والقهوة، ومباخر يحرق فيها عود ذكي الرائحة. فيحبسون عبقه تحت العباءة، ويستنشقونه(١٠٠).

ثالثاً: الأمراض الاجتماعية

تتعدد صور الأمراض الاجتماعية من سرقة وسحر وشعوذة وتسول إلى ارتكاب الفواحش. فما أبعاد هذه الصورة؟ وما دور السلطة السياسية في التصدي لها؟

وأول هذه الصور السرقة وقطع الطريق، وفي الغالب يكون سكان مكة والحجاج هم المتضررين، أما الفاعل فهو من البدو أو من القادمين من الخارج. فالبدو يتتبعون القوافل كالذئاب الجائعة التي تَتَبَع القطيع، متخفين نهاراً، وينشطون عندما يرخي الليل أستاره. ولم تستطع سلطة شريف مكة والوالي العثماني التصدي لاعتداءات البدو بأية وسيلة(١٠١). ولا يسلم أهل مكة من اللصوص، فيتخلف كثير منهم

(٩٩) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٤٩، ٥٠.

(١٠٠) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٩.

(١٠١) ريزفان، الرحلة السرية للضابط الروسي، ص ص ١٢٢ - ١٢٤.

عن أداء فريضة الحج، لحراسة بيوتهم، فيقطعون ليلهم سهرًا، ويطلقون نيران بنادقهم بين الحين والآخر، إعلانًا بأنهم يقظون(١٠٢).

أما في العهد السعودي فأصبح قطع يد السارق أمرًا ظاهرًا، لذا يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه، بل ربما مالوا إلى طريق غيره، حتى يمر شرطي فيحمله ويبحث عن صاحبه، وتنشر أخبار اللُقطات في جريدة أم القرى. أما العشائر التي اعتادت السطو، فينذرها الملك عبدالعزيز ثلاث مرات، فإن لم ترتدع، بعث عليهم أحد رجاله في فرقة من الإخوان لتأديبهم(١٠٣). ومن مظاهر هذه الصورة الإيجابية أن التجار يهرعون إلى الصلاة في المسجد، تاركين حوانيتهم مفتحة الأبواب وهم في مأمن من اللصوص. وتطبق الحكومة السعودية الحدود علنًا، وتعلن أسماء المجرمين وجريمة كل منهم والقصاص الذي لحق به، في لوحة معلقة على أسوار قسم الشرطة، كتب في أعلاها الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٠٤)، فأصبح استتباب الأمن في الحجاز حديث الناس وسمر العائدين من رحلة الحج(١٠٥).

يهرع التجار إلى الصلاة في المسجد، تاركين حوانيتهم مفتحة الأبواب دون حراسة وهم في مأمن من اللصوص

والصورة الثانية من صور الخلل الاجتماعي خاصة بالسحر والشعوذة الذي جاء إلى مكة المكرمة من وسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا. وتكمن الدوافع في محاولة إيذاء الآخرين لحقد أو حسد، وكان التصدي لهذه الشرور على الدرجة ذاتها من الجهل، فاضطر كثير من أهل مكة آنذاك أن يعلقوا الحجب والتمائم في أعناقهم، أو أن يلبسوا

(١٠٢) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٢.
(١٠٣) إبراهيم عبدالقادر المازني، رحلة الحجاز، منشور في المختار من الرحلات الحجازية، ص ص ١٠٥٨، ١٠٥٩.
(١٠٤) سورة البقرة، آية: ١٧٩.
(١٠٥) حمادة، مشاهداتي في الحجاز، ص ص ٥٣- ٥٦.

خاتمًا صغيرًا وقاية من أنواع الشرور، وعلق بعضهم حُجُبًا مغطاة بصفائح من فضة على صدور أبنائهم، وعلق بعضهم الآخر قطعًا من العملة القديمة. وانحرفت الرقية، فإذا مرض أحد أفراد الأسرة كانت المرأة تحرق البخور مع المستكة؛ لتخويف قوى الظلام، أو أن تحرق الفاسوخ مع الملح في مبخرة نحاسية للوقاية من الحسد، كما كانت تنذر النذور للموتى من المشايخ في حالة شفاء المريض. أو أن يأتي المريض أحد المشايخ، فيكتب بعض الحروف والكلمات على ورقة، ويحرقها، ثم يذيبها في ماء يشربه المريض. ويضع التاجر على باب المحل حذاءً قديمًا للوقاية من العين. وفقد المكيُّون كثيرًا من متع الحياة بسبب الخوف من العين والحسد(١٠٦).

وجاء انتشار هذه الخرافات العلاجية في غياب الوعي الطبي، وندرة الأطباء المتخصصين، ففي مكة - شأن معظم العالم الإسلامي آنذاك - كان الطب مهنة حلاق الصحة، الذي يقوم بالحجامة، والختان، والكي، ومعالجة الجروح، كما مارس الطب غير المتخصصين ممن ورثوه عن أهليهم، فيتحدث أحد الرحالة عن طبيب مشهور، مهنته الأصلية صهر الذهب والفضة، وتشكيل الحلي، وله خبرة في تقطير الزيوت العطرية، وتصليح الساعات والبنادق، ومع ذلك يمارس الطب العام بكفاءة، ويتعرف على المرض من خلال جس النبض، والنظر في العين واللسان، ويقدم وصفات مستخلصة من عند العطار(١٠٧).

وهناك أيضًا تلبس الجن، ويسمى الزار، والغريب أن معظم المصابين به من النساء، ويُعتقد أنه لا يطرد من الجسد إلا على يد شيخة الزار، وبمطالب معينة من ذهب وملابس فاخرة ومأكولات متنوعة، وبطقوس خاصة منها دق الطبول والغناء، وذبح شاة يلطخ بدمها أجزاء من جسد المريضة، مع ضربها ضربًا خفيفًا، وغيرها من

---

(١٠٦) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ص ٤١٧- ٤٢٣.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤١٤.

الممارسات الغريبة. ويحضر حفل الزار عدد من صديقات المريضة؛ حيث يتناولن الطعام والشاي والقهوة، وتستهويهم العملية، فتتصيدهن شيخة الزار واحدة بعد أخرى، ويجد الرجل نفسه مضطرًا لتلبية رغبة زوجته في دعوة شيخة الزار، وتكرار المأساة، وإلا صبغت حياته بنكد أسري لا حد له(١٠٨).

وتتمثل الصورة الثالثة في الفواحش والموبقات، إذ يشير أحد الرحالة إلى وجود موبقات بحجم طبيعي لا يُخرج المجتمع عن وقاره(١٠٩). وقد تصدت الدولة السعودية لمثل هذه الجرائم، فأشارت جريدة أم القرى إلى "وقوع حادثتين أو ثلاث - دون أن تحدد نوعها - من بعض أهل الفسق والفجور، مما لا يرضي الله، لذا دعا السلطان عبدالعزيز أعضاء المجلس الأهلي، وبعض الوجهاء، ومشايخ الحارات، وذاكرهم في اتخاذ الوسائل اللازمة للأخذ على يد السفهاء...، وأمر بنشر بيان عام بالترتيبات التي تقرر في شأن معاقبة من ينتهك حرمات الله في البلد المطهر وفق الشريعة الإسلامية، وما ليس فيه حد فرض فيه من التعزير ما يكفي لردع كل عاصٍ"(١١٠).

والصورة الرابعة للمتسولين أو المتطعين، الذين ينتشرون في مكة، وبخاصة في موسم الحج، وينتشرون في الحرم الشريف يستجدون الناس سواء من ذوي البشرة السوداء أو من دول وسط آسيا، حيث يفد المتسولون بوصفهم دراويش بملابس رثة، ويمرون على البيوت، يحمل الواحد منهم عصا بها قطع حديدية، تصدر أصواتًا تصاحب مدائح قصيرة مقرونة بطلب الإحسان. ومعظم هؤلاء لا يفكرون في العودة إلى بلادهم(١١١).

---

(١٠٨) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٢٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٤٠٦- ٤٠٩.

(١١٠) جريدة أم القرى، عدد ٣٧، ٢٢ صفر ١٣٤٤هـ، ص ٣.

(١١١) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٣١٢.

ويرى أحد الرحّالة أن زيادة نسبة المتسولين في مكة ترجع إلى عوامل عدة، منها الخلط بين التوكل والتواكل، وقد شجعت الدولة العثمانية عقلية التواكل، وعملت على تعميقها لضمان بقائها، بإجراء الأرزاق على الأغراب الذين توطنوا مكة، وشجعت الميسورين على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم. وأسهمت أموال الأوقاف المصرية التي تذهب سنويًا لهؤلاء في تعميق الفكرة ذاتها. لكن تم الاتفاق مؤخرًا بين الحكومتين المصرية والسعودية (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) على صرف هذه الأرزاق في مسارها الصحيح، مثل: تعبيد الطرق، وتعمير المنشآت الإسلامية. كما أدى النسيج المختلط للمجتمع المكي إلى عدم وجود الحمية الكافية لمنع التسول، حرصًا على مظهر بلدهم[١١٢].

ويظهر المدخنون في الصورة الأخيرة، فقد عرف المكيون - شأنهم شأن باقي العالم العربي - التدخين منذ القرن الحادي عشر الهجري، ثم تطور وانتشر وتعددت أنواعه، وفشي في مكة استعمال الجراك[١١٣]، وانتشر تدخين التبغ الملفوف (السجائر) بشكل مخيف، بحجة أنه ليس فيه نص تحريم، غير أنه ثبت ضرره بشكل قاطع، فمنعته الحكومة السعودية، وأعلنت حرمته، وتابعت لجنة الأمر بالمعروف تنفيذ الإعلان، فلم يجرؤ أحد من أهل البلد أو الحجاج على التدخين جهرًا[١١٤].

(١١٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ص ١٣٨- ١٤٠.

(١١٣) محمد عمر رفيع، مرجع سابق، ص ص ٧٨-٧٩.

(١١٤) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب "خمسة قرون من المغامرة والعلم"، ترجمة قدري قلعجي، تقديم الشيخ حمد الجاسر، (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٣م)، ص ٢٠٣.

رابعًا: المؤسسات الاجتماعية والترفيهية والتعليمية

المتنزهات والحمامات العامة

عادة أهل مكة بعد انقضاء موسم الحج أن يعلنوا أفراحهم، فيزوجون أولادهم، ويقيمون حفلاتهم ورحلاتهم في المتنزهات(١١٥)، وأكثرهم يقترض النقود بفائدة كبيرة؛ لينفق منها على تلك الرحلات على أمل أن يسددها في موسم الحج(١١٦). ومن عادتهم أيضًا إقامة الولائم في المتنزهات بضواحي مكة. وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر(١١٧) الذي يتضمن سماع بعض الأغاني على أنغام العود والربابة والقانون، كما تقام مسابقات رياضية في الجري، ولعب الكرة، والشطرنج، ثم ينصرفون(١١٨). وإن بقيت الولائم في العهد السعودي فقد اختفت حفلات السمر لما تتضمنه من محظورات شرعية.

وفي مكة حمامان على الطراز الروماني الموجود في مصر، يتغذيان من مجرى ماء عين زبيدة، أحدهما بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان عام ٩٨٠هـ، وثانيهما بالقشاشية، ويسمونه حمام النبي، ولا يعرف بانيه على وجه الدقة(١١٩).

المقاهي ودور السمر

تكثر في شوارع مكة المقاهي البلدية، وتمتد حتى تخالط الحوانيت ومحلات الحلاقين في شارع المسعى نفسه، وترى فيها دككًا وكراسي

---

(١١٥) انصرف بعض الناس من الموسرين في مكة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري إلى حياة اللهو والترف؛ فبنوا المتنزهات في ضواحي مكة. السباعي، تاريخ مكة، ص ص ٦٤٦، ٦٤٧.

(١١٦) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص ٦٣.

(١١٧) وأشهر ألعاب الكبار المزمار، وتتم في الخلاء بطبل وغناء ورقص ثنائي بالعصا، وهناك الصهبة، وهي من الموشحات، إضافة إلى الكوتشينا والدومينو. أما ألعاب الصغار فمنها الاستغماية والبربر والكبت والمدارية (المرجيحة) والمدوان. عن تفاصيل هذه الألعاب راجع: حسن قزاز، أهل الحجاز، ص ص ٩٠- ١٠٠.

(١١٨) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٤٩.

(١١٩) المصدر السابق، ص ٥٨.

خشبية مقاعدها من شبكة ليف أو خوص مجدول للجلوس، ويشربون فيها الشاي والقهوة (من البن اليمني) والسوبيا، وعصير الليمون، وكبراؤهم يضيفون على القهوة مكسبات الطعم واللون والرائحة، مثل: القرنفل، والعطريات، ويسمونها دوشا، ويتعاطون فيها النرجيلة بكثرة، ويمر بعض الهنود على المقاهي وهو ينادي (كابوس)؛ أي: رياضة التدليك(١٢٠)، فإذا طلبه أحد فرشه على دكة، وأخذ يكبسه نحو نصف ساعة نظير قرش أو قرشين(١٢١).

أما في العهد السعودي فقد اختفت النرجيلة، وغدا تدخين الشيشة والسجاير يتم بصورة خفية، نظرًا لمنعه من قبل الحكومة. أما المسكرات فلا تباع ولا تشترى، ولا أثر لها في أسواق مكة أو الحجاز عامة إلا في دور القناصل في جدة، ويحاول البعض ممن لا أخلاق لهم تهريب المخدرات والاتجار فيها بشكل سري(١٢٢).

وبالقرب من المقاهي كانت هناك دور سمر يقدم فيها بعض أناس - في الغالب من اليمنيين - أغاني تطرب نفوس الحاضرين، وكلها في مدح النبي ﷺ، وفي بعض الأحيان ترى بعض المغنين متنقلين في طرق مكة(١٢٣).

التكايا

والتكية تعني دار الضيافة والبر والإحسان، وفي مكة ثلاث تكايا، أكبرها وأكثرها تنظيمًا التكية المصرية بحي جياد، شيدها محمد علي باشا، وفيها مخازن للغلال التي تأتي من مصر، وطاحونة يتناوب على

---

(١٢٠) وبجانب الهنود تجيد النساء هذا الفن؛ لإرضاء الأزواج الذين اعتادوا عليه قبل النوم، وتقوم الخادمة بتدليك سيدتها، وتتبادل الخادمة التدليك مع البنات الصغار بالتناوب. راجع: هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢ ص ٤٢٨.

(١٢١) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٧.

(١٢٢) الشهبندر، رحلة الحجاز، ص ص ١٧، ١٨.

(١٢٣) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٥٨.

تشغيلها أربعة بغال، ومخبز ومطبخ ومكان لإدارتها(١٢٤). كما توزع التكية مرتبات وهدايا وعطايا لعائلات حجازية بقصد البر والإحسان، وللبدو كفًا لأذاهم عن المحمل المصري(١٢٥)، وغدت عادة استمر العمل بها(١٢٦).

وقد توقف نشاط التكية زمن الحرب بين آل سعود والأشراف بسبب انقطاع المواصلات، ثم عاودت نشاطها الخيري الذي يستفيد منه ثلاثة آلاف من الفقراء، حيث توزع عليهم الخبز والحساء كل صباح(١٢٧). وبعد أن استقر الأمر للملك عبدالعزيز تمامًا في الحجاز قررت وزارة الأوقاف المصرية إرسال الغلال التي اعتادت إرسالها إلى التكية المصرية في مكة والمدينة، وقدرها (٢١٠٠٠) إردب من القمح، وطلبت التكية من الحكومة السعودية كشوفًا بأسماء الفقراء الذين توزع عليهم هذه الحبوب، وعليه اختارت الحكومة لجنة من أهل الخبرة للنظر في الدفاتر المحررة زمن الأتراك، ومقابلتها بالدفاتر التي وضعت في زمن الأشراف، لتحديد المستحق الحقيقي لهذه الصدقات(١٢٨).

المدارس

اقتصر التعليم في مكة زمنا طويلاً على حلقات الدروس في المسجد الحرام، مقصورًا على العلوم الشرعية واللغوية، وسجل البتنوني أن في مكة عام ١٣٢٧هـ مدرستين هما: المدرسة الصولتية بناها الشيخ رحمة الله الهندي(١٢٩)، وهي قائمة على تبرعات أهل

---

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٢٥) عن ميزانية التكية المصرية ومرتبات الأشراف والفقراء والعربان من الصرة وأوقاف الحرمين في مصر. راجع: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج٢، ص ص ٣١٢- ٣٦١.

(١٢٦) الراعي، في المملكة الروحية، ص ٩٨.

(١٢٧) جريدة أم القرى، عدد ٣٢، ١٦ محرم ١٣٤٤هـ، ص ١.

(١٢٨) المصدر نفسه، عدد ٦١، ١٣ شعبان ١٣٤٤هـ، ص ٣.

(١٢٩) هو الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهاشمي، ولد بكيرانه بالقرب من دهلي بالهند، فكان من علماء الإسلام الذين تصدوا للمحاولات التبشيرية في الهند، فألف كتاب إظهار الحق، ورحل إلى مكة؛ فوهب نفسه لخدمة العلم وخدمة الحجاج الهنود، وأسس مدرسته في سوق الليل. راجع: محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، (تونس، ١٣٩٨هـ)، ص ص ١٠٥- ١١٥.

الهند[١٣٠]، ومدرسة أنشأها الشيخ يوسف الخياط من علماء مكة، واعتزمت الحكومة العثمانية إنشاء مدرسة جديدة عام ١٣٢٨هـ[١٣١]، ثم ظهرت مدارس أهلية، أهمها مدارس الفلاح التي أسسها تاجر اللؤلؤ محمد علي زينل عام ١٣٢٦هـ[١٣٢]، فكان لها دور ريادي في تخريج كوادر إدارية لدواوين الحكومة. وكادت هذه المدارس تغلق أبوابها إثر تعثر تجارة اللؤلؤ، لولا أن تداركها الملك عبدالعزيز، فتولى الإنفاق عليها[١٣٣].

وصور دولتشين الحياة الفكرية في العهد العثماني بأنها محصورة في تعليم أولي بسيط، متمثل في حلقة ضيقة من المدارس الدينية، وهذه المدارس معظم روادها من الأغراب المقيمين، ويشكل أهالي البلد استثناءً[١٣٤]. وتشكل الريشة والحبر والورق الوسائل الأساسية للتعليم في مكة. وقد يضطر طالب العلم إلى إعانة نفسه بالعمل في حرفة أو تجارة، لعدم انتظام الإنفاق على التعليم في العهد الهاشمي[١٣٥].

وسجل الأديب المصري محمد حسين هيكل أن أهل مكة في بداية العهد السعودي يقفون من تعلقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه في بلادهم، دون أن يتصوروا لونًا جديدًا للحياة العلمية يوائم مزاجهم، ولا ينكره تفكيرهم[١٣٦]. والواقع العلمي (التقني) في العالم

---

(١٣٠) كانت الهند آنذاك هي شبه القارة الهندية التي تضم باكستان والهند وبنجلادش وكشمير.

(١٣١) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ص ٥٩، ٦٠.

(١٣٢) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٢٢.

(١٣٣) طلعت حرب، بعض ما رأيناه في الحجاز، في المختار من الرحلات الحجازية، ص ١٣٠٧.

(١٣٤) ريزفان، الرحلة السرية، ص ١٤٦.

(١٣٥) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص ٤٨٥.

(١٣٦) هيكل، في منزل الوحي، ص ١٣١.

العربي حتى يومنا هذا يقف عند حد نقد الذات، دون أن يتعداه إلى مرحلة الخيال والإبداع. أما الواقع الثقافي فقد انخرط المجتمع المكي في عقد المملكة التي ارتضت لنفسها مظهرًا إسلاميًا، وأنشأت المدارس الحديثة، وأرسلت البعثات.

الخاتمة

وهكذا شكلت كتابات الرحَّالة معًا صورة واضحة المعالم للمجتمع المكي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وأظهرت نسيج المجتمع، وألقت الضوء على أنشطته وإيجابياته وسلبياته، كما أوضحت الفوارق بين العهود الثلاثة: العثماني والشريفي والسعودي، حيث تقلصت سلبيات المجتمع بشكل كبير في العهد السعودي، بعد أن غدت السلوكيات مراقبة من قبل السلطة السياسية والدينية، ونَعِم الحجاج بالأمن والأمان في أداء المناسك والتنقل بين الشعائر.

واستطاعت مكة في الفترة ذاتها أن تستوعب عناصر متنوعة من مختلف بلدان العالم الإسلامي، وصهرتهم في بوتقتها، واستفادت من خبراتهم وأموالهم في النشاط التجاري والسكاني، وإن تأثرت سلبيًا بعادات هذا القدر المتنوع من الأجناس وتقاليده، في ظل غياب الوعي الديني.

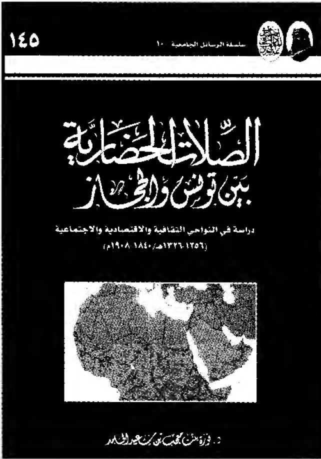
الصلات الحضارية بين تونس والحجاز

دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦-١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م)

تأليف

د. نورة بنت معجب الحامد

٤٣٨ صفحة



يتناول هذا الكتاب الصلات الحضارية بين تونس والحجاز في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٢٥٦ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٤٠-١٩٠٨م. ويعرض الكتاب التبادل الثقافي بينهما وكتابات العلماء التونسيين الذين زاروا الحجاز، كما يدرس التبادل الاقتصادي والتجاري بينهما، ثم يسرد السمات الاجتماعية في تونس والحجاز موضحًا أثر الحج في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

بعض علماء مكة المكرمة وعلاقتهم بالحركة العلمية في الطائف خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

د. سليمان بن صالح آل كمال
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

ظهرت العلاقة بين علماء مكة المكرمة والطائف منذ صدر الإسلام، حيث جمعت بين هؤلاء العلماء رابطة العلم، وقد أخذوا على عواتقهم تعليم أبناء مجتمعهم وتثقيفهم[١]. وتزداد هذه العلاقة بينهم في فصل الصيف حين تردد علماء مكة بعوائلهم على الطائف للاصطياف، لما تشتهر به من جو عليل، وبساتين غناء جميلة، أشجارها محملة بالثمار المشهورة بمذاقها اللذيذ، فما أن يقترب هذا الفصل من كل عام إلا ونراهم يحطون رحالهم في ربوعه - فتلكم كانت لهم عادة - وأثناء إقامتهم يجتمعون بعلماء الطائف وأدبائه؛ فيتبادلون معهم المعلومات والآراء العلمية مع استمرار دورهم وعطائهم العلمي بإقامة دروسهم التي كانت لهم بمكة المكرمة في مساجد الطائف المشهورة - كمسجد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وغيره من المساجد - وفي دورهم[٢].

(١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج ٣، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، ج٤، ص ١١٠ - ١٢٩، ج ٥، ص ١٦٥، ١٧٦، ١٧٧.

(٢) مرداد: أبو الخير عبدالله أحمد المكي (ت ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، اختصار وترتيب وتحقيق: محمد سعيد العامودي، وأحمد علي، ط٢، عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢٩٨.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

ومن خلال تراجم العلماء المكيين وطلابهم نقرأ العبارات الآتية(٣): "وحفظت عليه جانباً من القرآن الكريم، وذلك بالطائف"، "ثم صار يصيف في الطائف في بعض السنين"، "وذهب بعائلته إلى الطائف في صيف السنة المذكورة"، "ويصيف في بعض الأعوام بالطائف، ويشتغل شيخنا المترجم بنفع العباد"، "وطلع إلى الطائف في أوائل شعبان، فمرض هناك، وتوفي بالطائف"، "ورحل إلى الطائف في أيام الصيف"، "وما زال شيخنا ملازما داره التي هي ملاذ القاصدين، وملجأ الطالبين، داعياً إلى الله بحاله ومقاله، متردداً ما بين مكة والمدينة والطائف"، "وكان يتردد إلى الطائف بعائلته في أيام الصيف جملة سنين"، "ولم يرحل لغير مصر إلا في تردداته إلى المدينة المنورة، وإلى الطائف في بعض السنين، واجتمع بمشايخ أجلاء"، "وقرأت عليه جانباً من القرآن الكريم بالطائف ومكة".

ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه كان لا يخلو قرن من الزمان إلا ونرى فيه عالماً مكياً قد دَرَّس بالطائف، أو تولى قضاءه، أو ألف عنه أو زاره، أو مات فيه(٤). فمن ذلك ما ذكره العجيمي في ترجمة الشيخ أبي بكر أحمد الحرازي الخادم الطائفي أحد أئمة وخطباء مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - وقيم المكتبة الملحقة

---

(٣) الحبشي: أبو بكر أحمد بن حسين المكي (ت ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م)، الدليل المشير إلى فلك أسانيد الاتصال بالحبيب البشير ﷺ، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الصفحات الآتية ٣٦، ٤٣، ٥٠، ٥١، ٦٥، ٩٤، ٢٣٢، ٢٧٤، ٢٩٧، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٧٥.

(٤) لمزيد من الاطلاع ينظر: مرداد، المختصر، ص ٢٩٨، ٣٠٤، ٤٥٢، ٤٥٣، الدهلوي: عبدالستار بن عبدالوهاب الصديقي المكي (ت ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، نثر المآثر فيمن أدركت من الأكابر، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف برقم (٨١٠) عام، الورقتان (٣٢، ٣٣). عبدالجبار: عمر (ت ١٣٩١هـ/١٩٧٢م)، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، مكتبة تهامة، جدة، الصفحات الآتية ١١٧، ١٧٥، ٢٠١، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٣٤، ٢٧٨. آل كمال: محمد سعيد بن حسن (ت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، الطائف في كتب المؤرخين، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة، ص ٣٧ - ١٦١.

بالمسجد بما نصه(٥): "وكان صاحب الترجمة من المترددين على مولانا شيخ مشايخنا العلامة السيد عمر بن عبدالرحيم البصري المكي (ت ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧م)، أيام طلوعه إلى الطائف، وأخذ عنه، وحصل له به انتفاع".

أمَّا الشيخ أحمد باعنتر فعندما استوطن الطائف سنة ١٠٤٥هـ (١٦٢٥م) كان يحدّث عن الشيخ عبدالله سالم البصري الشافعي المكي المتوفى سنة (١١٣٤هـ/ ١٧٢١م)(٦). وممن تتلمذ على يده في الطائف بالمسجد المنسوب إليه (مسجد باعنتر) من المكيين الشيخ حسن العجيمي الحنفي المكي المتوفى بالطائف سنة ١١١٣هـ (١٧٠١م) صاحب كتاب "إهداء اللطائف من أخبار الطائف".

حيث قال عنه(٧): "ولم يزل متوطنا بالطائف من حدود سنة خمس وأربعين مشتغلاً بتعليم القرآن وتحصيل العلم، ثم ابتنى مسجداً بجنب داره، ولم يزل معمراً له بالأذان، وإقامة الصلوات، ومدارسة القرآن، ونشر العلم، ونفع الناس حتى نجب عليه جماعة، وداوم على ذلك، لم ير من زمان بالطائف مثله، وقد حضرت دروسه في التفسير الوسيط للواحدي، وشرح منهاج الأصول للبيضاوي، وشرح الألفية لابن عقيل، فرأيته حسن التقرير، مبارك الشيبة، واسع الصدر، ورأيت من حسن تقريره لمسائل صعبة ما يدل على مهارته، ثم استجزته، فأجاز لي لفظاً وكتابة جميع مروياته عن جميع مشايخه، وجميع ما كتبه من مجموع ومؤلف من ذلك مختصر ومطول متن وغيره، ولم يزل على كماله حتى مات".

(٥) كانت وفاة الشيخ الخادم بالطائف سنة (١٠٧٠هـ/١٩٥٦م)، العجيمي: حسن بن علي المكي (ت ١١١٣هـ/١٧٠١م)، خبايا الزوايا، نسخة مصورة عن مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٢٤١٠ تاريخ)، الورقة ٨٠. ولمعرفة المزيد عن الشيخ عمر البصري ينظر المصدر نفسه، الورقة ١٦٢ وما بعدها.

(٦) العجيمي، المصدر السابق، الورقة (١٠٠).

(٧) العجيمي، المصدر السابق، الورقة (١٠١).

بل تعدى الأمر إلى أن بعض العلماء المكيين كان يضفي على نفسه لقب الطائفي، كالعالم الشيخ محمد بن عبدالمنعم الشافعي المكي المتوفى بمكة سنة ١٠٥٢هـ (١٦٤٢م)، فعن ذلك أورد صاحب نشر النور والزهر[٨]: "ويقال له: الطائفي؛ لكثرة تردده إليه". وقد مدحه أحد أصحابه العلماء بقصيدة مطلعها[٩]:

والله إني مغرم بالطائفي لم لا وذلك كعبة للطائف

كما أطلق لقب العباسي على العالم الشيخ عبدالله بن محمد الطاهر بن محمد الشافعي المكي المتوفى بمكة سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٣م) فعنه قيل[١٠]: "المكي الشهير بعباسي لكونه ولد بالطائف، المعروف عند الناس بوادي العباس".

وفي المقابل كان علماء الطائف يتجهون نحو مكة المكرمة للاستزادة من التحصيل العلمي، ولنشر العلم والمعرفة في المجتمع المكي، ومنهم على سبيل المثال العلماء الفضلاء: أبو بكر بن علي آل كمال، وعبدالقادر السبحي (المتوفيان في نهاية القرن الثالث عشر الهجري تقريباً)، وعبدالحفيظ بن عثمان القاري (ت ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) وعبدالله بن بكر آل كمال (ت ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م)، وأحمد بن علي النجار (ت ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، ومحمد علي بن عبدالرحمن سراج (ت ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م) وغيرهم من العلماء الأجلاء[١١].

كان علماء الطائف يتجهون نحو مكة المكرمة للاستزادة من التحصيل العلمي

---

(٨) مرداد، المختصر، ص ٤٥٢، ٤٥٣.

(٩) تظهر البلاغة في البيت (الجناس)، والذي قام بمدحه الشيخ غرس الدين الخليلي المدني، المحبي: محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/١٦٦٩م)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ج ٤، ص ٣٣.

(١٠) قلت: نسبة إلى حبر الأمة عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - المتوفى بالطائف سنة ٦٨هـ (٦٨٧م). المحبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠. مرداد، المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(١١) مرداد، المختصر، ص ٢٧٣، ٣٢٠. عبدالجبار، سير وتراجم، ص ٢١، ٥١، ٦١، ١٦٣، ١٩٧، ٢٧٤.

ومن ضمن الأسباب التي جعلت الشيخ عمر عبدالجبار - رحمه الله - يقوم بتأليف كتابه سير وتراجم ما قاله في التمهيد عن بعض من سبق من علماء الطائف[١٢]: "فاشتركوا مع إخوانهم علماء المسجد الحرام في نشر التعليم والثقافة... وحيث إني حضرت حلقات الكثير من هؤلاء العلماء الأعلام، وسمعت دروسهم وطريقة أسلوبهم وإلقائهم؛ فقد رأيت من واجبي القيام بترجمة حياة كل منهم، فأوردت نموذجا من دروسه بالطريقة التي سمعتها أو بما في معناها"، وسوف يقتصر حديثنا عن العلماء المكيين وعلاقتهم بالحركة العلمية في الطائف خلال فترة الدراسة.

بعض العلماء المكيين ودورهم العلمي في الطائف:

الشيخ محمد طاهر بن محمد سعيد سنبل المكي[١٣]:

ولد بمكة المكرمة في بيت علم وفضل، وبها نشأ وتلقى علومه بالمسجد الحرام على يد كبار علماء عصره، فقد قال عن نفسه في بعض إجازته لأفاضل الروم[١٤]: "وأما مشايخي فكثيرون من أهل الحرمين، ومصر، والشام، وإسلامبول، والمغرب، واليمن، والطائف، والهند، وغيرها من البلاد الإسلامية" ثم أورد أسماءهم.

وهكذا نرى مدى تحصيله العلمي المتنوع الذي تمَّ له على يد كبار علماء عصره في بعض البلاد العربية والإسلامية، ومنهم علماء الطائف.

---

(١٢) عبدالجبار، المرجع السابق، ص ٢١.

(١٣) اسمه واسم والده مركب، فقد ذكر القشامي حول الأسماء المركبة في ترجمة محمد سعيد بن الشريف سرور: "كان من عادة أهل الطائف قديماً أن يسبق الاسم الأول لبعضهم اسم محمد، محمد سعيد، وهو اسم مركب الهدف منه التسمي باسم الرسول الأعظم ﷺ". قلت: وذلك ينطبق على باقي المدن الحجازية الأخرى. القشامي: مناحي بن ضاوي، تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، نادي الطائف الأدبي، (د. ت)، ص ١٣٤.

(١٤) الدهلوي، نشر المآثر، الورقة (٤٥).

ولقد تتلمذ على يده الكثير من طلاب العلم في الحرمين الشريفين والطائف وبعض البلاد العربية والإسلامية، فمن أشهر من درس عليه في الطائف الشيخ محمد عابد السندي (ت ١٢٥٧هـ /١٨٤١م) الفقيه والمحدث ورئيس علماء المدينة فيما بعد، فعندما قدم مع الحاج اليمني لأداء فريضة الحج وأثناء مروره بالطائف صادف به الشيخ محمد طاهر سنبل يدرس بمسجد عبدالله بن العباس رضي الله عنهما[١٥]، فقرأ عليه مرة أخرى أيام الحج بمكة المكرمة، فأجازه إجازة عامة، فعن ذلك قال[١٦]: "حضرت في ذي القعدة سنة ١٢١٠هـ في الطائف في مجلس الشيخ محمد طاهر سنبل ابن الشيخ محمد سعيد سنبل، وهو يقرأ في كتاب الجهاد من صحيح البخاري، ثم بعده حضرت في مكة أيام الحج، في حال تدريسه في كتاب الحج من الصحيح المذكور، وطلبت منه الإجازة في جميع مقْروءاته ومسموعاته، وما أجيز له فيه من مشايخه الأعلام، وأساتذته الفِخام، فأجازني إجازة عامة، وفي صحيح البخاري على سبيل الخصوص، فقد أخذتُ بعضه منه سماعاً، وبعضه إجازة".

كذلك درس عليه بالطائف الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن سراج الحنفي المكي الطائفي (ت ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م) رئيس علماء مكة المكرمة، وقاضي قضاتها ومفتيها، والمدرس بالمسجد الحرام فيما بعد[١٧]، فعنه

---

(١٥) بني هذا المسجد زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله أبو العباس أحمد المستضيء، الذي ولي الخلافة بين سنتي ٥٧٥ - ٦٢٢هـ (١١٧٩ - ١٢٢٥م). آل كمال: سليمان بن صالح، مساجد الطائف داخل السور تاريخ عمارتها ودورها العلمي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دار الحارثي، الطائف، ص ١٤ - ١٥.

(١٦) بكداش: سائد، الإمام الفقيه المحدث محمد عابد السندي الأنصاري رئيس علماء المدينة المنورة في عصره، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ص٢٠٥.

(١٧) سراج بكسر السين وتخفيف الراء، يعرفون الآن باسم بيت المفتي، وهم من أشهر عوائل الطائف القدامى ووجهائها، ظهر منهم العديد من العلماء، وسكناهم ما زال إلى يومنا هذا بحي شهار. آل كمال: عبدالحي بن حسن (ت ١٤١٢هـ/ ١٩٢٤م)، الطائف وأسماء أسره القديمة وبعض عاداتهم، دار الحارثي، الطائف، (د.ت)، ص ٤٥.

قال مرداد[١٨]: "إن صاحب الترجمة قبل أن يشرع في طلب العلم مرَّ ذات يوم على العلامة الشيخ طاهر سنبل وهو يدرس بالطائف بمسجد سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنه فاشتاقت نفسه للعلم، ودعا الله، وطلب منه تعالى بأن يجعله عالماً مثل الشيخ طاهر المذكور، فأجاب الله دعاءه فشرع في الطلب"، وقد حقق الله أمنيته. ومما سبق يتضح الآتي:

أولاً: حرص طلاب العلم على التتلمذ على يد الشيخ محمد طاهر سنبل المكي، وطلب الإجازة العلمية منه، وهذا يدل على مكانته العلمية آنذاك[١٩].

ثانياً: استفادة حجاج بيت الله الحرام من دروسه التي كانت تلقى بالمسجد الحرام ومسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - بالطائف في أشهر الحج وغيرها، مع ملاحظة عظم شأن من يقوم بالتدريس فيهما لكونهما المركز الحضاري العلمي عبر التاريخ الإسلامي.

ثالثاً: مواصلة تدريسه للحديث من صحيح البخاري بالمسجد الحرام من بعد مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - بالطائف.

وبما أنه كان على المذهب الحنفي وجُلّ مؤلفاته فيه، فقد كان يقوم بتدريس الفقه الحنفي مع ما يقدمه من فتاوى لأبناء المجتمعين المكي والطائفي[٢٠]، ولم تقتصر فائدته العلمية على التدريس، فقد أنشأ

---

(١٨) مرداد، المختصر، ص ٢٩٨.

(١٩) الكتاني: عبدالحي بن عبدالكبير (ت ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، طبع باعتناء وفهرسة إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤ - ١٤٠٦هـ (١٩٨٢م - ١٩٨٦م)، ج ١، ص ٣٦٤.

(٢٠) لمعرفة المزيد عن مؤلفاته ينظر: البغدادي: إسماعيل باشا (ت ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ (١٩٩٢م)، ج ٦، ص ٣٥٤. مرداد، المختصر، ص ٢٢٥. الزركلي: خير الدين (ت ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م)، ج ٦، ص ١٧٢.

نظماً ضابطاً يعرف به الزوال في جميع السنة، وذلك في مكة المكرمة والطائف وعرفة نصه[٢١]:

الفَيُّ في الجَـوزاءِ والسَّـرَطان بالضَّـبط رُبْع قَـدَم الإنسـانِ
وقـدمٌ فـي أسـدٍ والـثّـورِ لا غيـر فاحفظْه وقُل يا فخري
واجعَلْ له في حَملٍ الحوتِ والسُّنبله نصـفـاً مع اثنين وحـاذر تَحْـملِه
وقـد غَـدا في الحـوتِ والميـزان أربعـةٌ ونصفُ ياذا الشـانِ
وفَيْءُ عـقـربٍ كـذاك الدَّلي سـتـةُ أقـدامٍ على التَـوالي
وهو لبـرج قـوسٍ أيضـاً والجـدي سـبـعـة أقـدام بهـذا تهـتـدي
أعني بـه في مكة المشـرفـه ونحـوها كطائفٍ وَعَـرفـه
وزِدْ عليـه قـامـةً للعـصـرِ أو قـامـتين لإمـامِ العـصْـرِ

وهكذا أعان أهل عصره آنذاك بمكة والطائف والمشاعر المقدسة بهذا النظم لمعرفة الزوال الذي يترتب عليه دخول الوقت وخروجه لأداء شعيرة الصلاة، وأدركته المنية - رحمه الله - في مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) بعد أن دَرَّسَ وأفاد، وبلغ الغاية في نفع طلاب العلم والعباد[٢٢]. وترك العديد من المؤلفات منها في مكتبة الحرم المكي الشريف نحو (٦) مخطوطات[٢٣]. وفي مكتبة مكة المكرمة نحو (٤) مخطوطات[٢٤].

---

(٢١) مرداد، المختصر، ص ٢٢٦.
(٢٢) المصدر السابق نفسه.
(٢٣) هذا سوى ما فقد من مؤلفاته. المعلمي: عبدالله بن عبدالرحمن، معجم مؤلفي مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٢.
(٢٤) أبو سليمان: عبدالوهاب إبراهيم، وآخرون، فهرس مخطوطات مكتبة مكة المكرمة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٩٧.

أمَّا ما تركه بمكتبة مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - بالطائف[٢٥] من المخطوطات فهي على النحو الآتي[٢٦]:

١ - النفحة القدسية لحل ألفاظ المنظومة النسفية، في العقائد بخط نسخي جيد بتاريخ يوم الخميس سابع ذي القعدة الحرام سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م)؛ أي: أن هذا المخطوط كان بالمكتبة في حياته، وقبل وفاته بنحو (١٢) سنة.

٢ - الإفصاح المتين حاشية لإيضاح المبين، في الفقه الحنفي.

٣ - حاشية على منسك الدر المختار أسماه ضياء الأبصار، في الفقه الحنفي.

٤ - شرح الإرشاد على مختصر أكمل الدين محمد الحنفي، في الفقه الحنفي.

٥ - العوائد السنبلية على الفوائد الشنشورية، في الفرائض.

وهكذا استفاد طلاب العلم بالطائف من مؤلفاته لوجودها بمكتبة عامة بمسجد عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - والذي كانت تقام فيه حلقات العلم، فيسهل عليهم ارتيادها خلال العملية التعليمية لأخذ بغيتهم منها.

وقد كان مؤسس مكتبة ابن عباس بصفة رسمية الوالي العثماني محمد رشدي الشرواني من العلماء الأفاضل، كان محباً للعلم، فمنذ

---

(٢٥) بدأ تكوين هذه المكتبة بطريقة فردية منذ القرن السابع الهجري تقريباً، والقائمون عليها خدام المسجد من (آل الخادم)، وتمَّ تأسيسها بصفة رسمية وبطريقة منظمة من قبل الوالي العثماني على الحجاز محمد رشدي الشهير بالشرواني الدغستاني الأصل سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م. آل كمال: سليمان بن صالح، مكتبة عبدالله بن العباس ودورها الحضاري العلمي في الحياة الطائفية، جامعة طنطا، مجلة كلية الآداب، المجلد الأول، العدد الثالث عشر، ١٤٢١هـ/ يناير ٢٠٠٠م، ص ٢١٠ وما بعدها.

(٢٦) حسين: عثمان محمود، فهرس المخطوطات العربية بمكتبة عبدالله بن العباس بمدينة الطائف، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، الصفحات الآتية: ٩٧، ١٧٢، ١٩٥، ٢٠٩، ٢٩٠.

قدومه إلى الطائف اجتمع بالعلماء المكيين وغيرهم[٢٧]، كالسيد محمد الكتبي الحنفي المكي الخطيب والإمام والمدرس بالمسجد الحرام المتوفى بالطائف عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، والسيد أحمد زيني دحلان المكي مفتي الشافعية في عهده وأحد أئمة المسجد الحرام (ت ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) فقد لازمهما، ودرس عليهما، بالطائف صحيح البخاري، ومن المرجح أنهما أشارا عليه بتطوير المكتبة وتنظيمها، ويقيناً كان مجلسهم العلمي مقاماً في فصل الصيف بحكم وجودهم جميعاً في الطائف وقتئذ[٢٨].

وليس من المستبعد أنه استفاد من علمهما غيره من طلاب العلم، حيث نرى للشيخ دحلان في مكتبة مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - مخطوطاً في البلاغة مع أنه فقيه شافعي المذهب بعنوان "حاشية على متن السمرقندية"، وقد كتب بخط نسخي جيد يوم الأربعاء ربيع الأول سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) من قبل أحد علماء وقضاة ومدرسي الطائف المشهورين آنذاك، وهو الشيخ عبدالحفيظ بن عثمان القاري الحنفي[٢٩]، الذي قام بدوره بإنشاء مدرسة على نفقته الخاصة بمسجد شمس بالطائف، واستعان بأحد علماء مكة المكرمة الشيخ

---

(٢٧) آل كمال، المرجع السابق نفسه.

(٢٨) الحضراوي: أحمد بن محمد المكي (ت ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، اللطائف في تاريخ الطائف، نسخة مصورة عن مخطوط مكتبة مكة المكرمة رقم (١٩ تاريخ)، ورقة ٨٨. ولمعرفة المزيد عن حياتي الكتبي ودحلان العلمية ينظر: مرداد، المختصر، ص ٤٧٦. غازي عبدالله المكي (ت ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م)، نثر الدرر في اختصار نثر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، نسخة مصورة عن مخطوط مكتبة د. عبدالوهاب بن إبراهيم أبو سليمان الخاصة، الورقتان ١٤٨، ١٥٩.

(٢٩) لقد التبس هذا المخطوط على حسين (فهرس المخطوطات، ص ١٩٤، ١٩٥) في جعله إياه ضمن مخطوطات الفقه الحنفي، والصحيح ما ذكر بالمتن، ذكر لي ذلك الأخ أ. د. عبدالوهاب أبو سليمان حفظه الله. ويعد الشيخ عبدالحفيظ القاري من علماء الطائف المتأخرين، ولد ومات بالطائف، وأخذ العلم عن علمائها، ومنهم والده، وله العديد من المؤلفات، ولمعرفة المزيد عن حياته العلمية ينظر آل كمال: محمد سعيد بن حسن، الطائف جغرافيته - تاريخه - أنساب قبائله، جمع وتعليق د. سليمان بن صالح آل كمال، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، مكتبة المعارف، الطائف، ص ٢٣. الطائف في كتب المؤرخين، ص١٥٠.

أحمد عبدالله الشامي لإدارة المدرسة والتعليم فيها، والشيخ الشامي نفسه من مشايخه الشيخ أحمد بن علي النجار الطائفي، وهنا نلحظ مدى العلاقة بين علماء مكة المكرمة والطائف في الأخذ من بعضهم البعض، في تبادل الخبرات العلمية والتعليمية فيما بينهم(٣٠).

السيد عمر بن عقيل السقاف المكي:

لم تقتصر علاقة العلماء المكيين على علماء وطلاب العلم بالطائف، بل تعدت إلى بناء المساجد، حيث شرع الأثرياء منهم على هذا الفعل تقرباً لله، ولنشر علمهم من خلال عقدهم حلقاتهم العلمية فيها، فبذلك جمعوا بين الفضيلتين إعمار بيوت الله ونشر العلم(٣١). فكان من هؤلاء العلماء الأجلاء السيد عمر بن عقيل السقاف العلوي الشافعي المكي المتوفى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) أحد مدرسي المسجد الحرام والمقدمين لدى أمير مكة المكرمة الشريف عبدالمطلب بن غالب(٣٢) حيث قام ببناء مسجد بأسفل قرية الهضبة (محلة أو حي أسفل) من الطائف، فحمل المسجد اسمه (مسجد ابن عقيل)، وله من المؤلفات رسالة تتعلق بجمع القرآن الكريم(٣٣). وقد قام بالتعليم فيه من بعده العديد من العلماء المكيين(٣٤).

---

(٣٠) درس الشامي بالمدرسة الصولتية، وحفظ القرآن الكريم، وتخرج فيها في سنة ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م)، وأخذ العلم من أعلام وجهابذة عصره من علماء الحرمين الشريفين، والطائف، ومن مؤلفاته نظم في قراءة ابن كثير المكي أسماه "الجواهر النقية في القراءات المكية"، وبعض القصائد الشعرية، توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م). الحبشي، الدليل المشير، ص٤٣. آل كمال: سليمان بن صالح، مسجد شمس في الطائف وأثره الحضاري في الحياة العلمية، مجلة الدارة، العددان ١، ٢، السنة السادسة والعشرون، ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م)، ص ٥٣ - ٥٦.

(٣١) كبنائهم مسجد شمس، ومسجد السنوسي، ومسجد الهنود وغيرها من المساجد. آل كمال: سليمان، مساجد الطائف، ص ١٣ هامش (١٩)، ص ٣٥، ٣٧.

(٣٢) ابن مساعد ولي مكة المكرمة مرات متفرقة، كان أولها سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م)، وآخرها سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م). مرداد، المختصر، ص ٣٨٠، ٣٨١. راوه: عبدالفتاح بن حسين المكي (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام، مكتبة المعارف، الطائف، (د.ت)، ص ٣٦٤ - ٣٦٥، ٣٧٥ - ٣٧٨.

(٣٣) آل كمال، مساجد الطائف، ص ٣٩.

(٣٤) كالشيخ السناري وغيره. ينظر: المرجع السابق نفسه.

الشيخ عبدالستار بن عبدالوهاب الدهلوي المكي:

من علماء ومدرسي المسجد الحرام في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، عاش بمكة المكرمة، وفيها كانت وفاته، بين عامي ١٢٨٦-١٣٥٥هـ (١٨٦٩-١٩٣٦م)(٣٥).

وأخذ العلم عن كبار علماء ومشايخ الحرمين الشريفين والواردين عليهما، وعن علماء الطائف، فعنهم قال(٣٦): "وأما مشايخي من أهل الطائف فمن أجلهم العالم الفاضل شيخنا وموجهنا الشيخ عبدالمطلب الطايفي(٣٧) إمام وخطيب مسجد سيدنا عبدالله بن العباس رضي الله عنهما أخذت عنه بعض الأحاديث الواردة في الطايف... ومنهم العالم الفاضل العلامة شيخنا الشيخ عبدالحفيظ القاري الحنفي الطايفي، قرأت عنه بعض الأحاديث من الصحيح للبخاري في بيته، وأجازني، به وبسائر ما يجوز له روايته عن شيخه العلامة المفتي عبدالرحمن بن عبدالله سراج المكي الطايفي عن شيخه عبدالقادر السبحي الطايفي عن المرحوم المفتي عبدالله سراج بسنده عن العلامة السيد محمد السنوسي المكي، وهو موجود حفظه الله آمين(٣٨) إلى هنا مشايخي من أهل الطائف المأنوس".

وباستقراء النص السابق نستنتج الآتي:

أولاً: أخذ الدهلوي عن علماء الطائف ومنهم الشيخ عبدالحفيظ القاري، حيث درس عليه بداره التي كانت تحوي بين جنباتها أضخم مكتبة خاصة على مستوى مدينة الطائف آنذاك، قبل أن تُوَقَف وتُنقل

---

(٣٥) البكري الصديقي الحنفي، أبو الفيض وأبو الإسعاد. الزركلي، الأعلام، ج٣، ص ٣٥٤.

(٣٦) الدهلوي، نثر المآثر، الورقتان ٣٢ - ٣٣.

(٣٧) من آل الخادم كانت وفاته في الطائف سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، المصدر السابق نفسه.

(٣٨) أي: في عصر المؤلف، وهو أحد مقرئي ومدرسي المسجد الحرام، تخرج على يده العديد من الطلاب في سائر العلوم، وبخاصة في علمي الحديث والتفسير، له ثبت باسم "البدور الشارقة في إثبات ساداتنا المغاربة"، وله العديد من المؤلفات، كانت وفاته بمكة المكرمة سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م). مرداد، المختصر، ص ٤٤٣.

إلى مكتبة مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - على يد الشيخ عبدالحفيظ القاري بعد سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وبما أن القاري كان يسمح بإعارة الكتب والاطلاع والاستنساخ لمن أراد(٣٩). فمما لا ريب فيه أن الشيخ الدهلوي قد استفاد من هذه المكتبة، وبخاصة إذا علمنا أنه هو الآخر كانت لديه مكتبة خاصة بمكة المكرمة - كما سيأتي - عن طريق تبادل المعلومات والإهداءات والإعارة والنسخ للمخطوطات، فللشيخ القاري بمكتبة الحرم المكي الشريف رسالة عن الطائف تَمَّ نسخها من قبل تلميذه الشيخ عبدالستار الدهلوي المكي بعنوان "رسالة مختصرة ملتقطة من أربعة تواريخ"، جاء في آخرها ما نصه(٤٠): "هذا آخر ما اختصرته من تاريخ الطائف للفاكهي، وتاريخ ابن فهد، وتاريخ العجيمي، وتاريخ نور الدين علي بن عراق... وتمت على يد كاتبها الفقير أبي الفيض وأبي الإسعاد عبدالستار الصديقي الحنفي في ١٦ شعبان سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م)". وهكذا نجد أن المؤلفات السابقة حول تاريخ الطائف قد قام بتأليفها العلماء المكيون، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في العلاقة والأثر العلمي بين علماء مكة المكرمة والطائف.

ثانياً: نعت الدهلوي شيخ شيخه الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله سراج بلقب المكي الطائفي، وهذا يظهر الاشتراك بينهم حتى في إضفاء اللقب في النسبة إلى مكة المكرمة والطائف(٤١).

وقد ترك الشيخ عبدالستار الدهلوي بمكة المكرمة مكتبة خاصة كبيرة فيها نفائس المخطوطات وأمهات الكتب الدينية واللغوية أوقفها

---

(٣٩) آل كمال: سليمان بن صالح، مكتبات الطائف الخاصة، ودورها الحضاري في ازدهار الحركة العلمية خلال القرن الرابع عشر الهجري، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، العدد السادس عشر، ١٤٢٤هـ/ يناير ٢٠٠٣م، ص ١٤٤ - ١٥٢.

(٤٠) توجد ضمن مخطوطات مكتبة الشيخ محمد سعيد آل كمال الخاصة رحمه الله. آل كمال، الطائف جغرافيته، ص ٢٤. آل كمال، الطائف في كتب المؤرخين، ص ١٥٣.

(٤١) من أشهر تلامذة الشيخ عبدالرحمن سراج من المكيين، الشيخ عبدالقادر بن عبدالغني الفتني الحنفي المكي المتوفى سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) الذي كان يعد أحد علماء الحجاز الأكابر؛ حيث أخذ عنه الفقه والتوحيد، ولازمه ملازمة تامة، كما أخذ العربية عن الشيخ عبدالقادر السبحي الطائفي. مرداد، المختصر، ص ٢٧٣.

بوصية منه قبل وفاته على مكتبة الحرم المكي الشريف، وفيها من مؤلفاته نحو (٢٣) كتاباً[٤٢]، منها عن الطائف ملحقات وإضافات على كتاب إهداء اللطائف من أخبار الطائف للشيخ حسن بن علي العجيمي، قال في أوله[٤٣]: "وما وجدته مكتوباً بين قوسين في هذه النسخة فهو من زيادتي عليه لأجل الإيضاح أو لشيء حدث بعد المصنف"، وهكذا أسهم مع غيره من العلماء المكيين في التأليف عن الطائف.

الشيخ محمد علي بن حسين المالكي المكي[٤٤]:

ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) من أسرة علمية مشتهرة بالإفتاء على المذهب المالكي، عرفوا باسم مفتي المالكية، فتشرب منها حب العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره.

مشايخه:

أولهم شقيقه الشيخ عابد المالكي، فقد أخذ عنه العلم في شتى العلوم الدينية والعربية، وعليه تخرج في الفقه المالكي، وأجازه إجازة عامة، وهو يروي عن الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية، وعن شيخه السيد أحمد الزواوي، وعن شيخه الشيخ حسين إبراهيم الأزهري مفتي المالكية بمكة المكرمة والد المذكور، كما أخذ الفقه الشافعي عن السيد بكري شطا، وتلقى التفسير عن الشيخ عبدالخالق إله أبادي[٤٥]، حيث أجازه في التفسير وفي الفقه

(٤٢) بلغت كتب مكتبته نحو (١٧١٤) كتاباً بين مطبوع ومخطوط. ابن دهيش: عبداللطيف بن عبدالله، المكتبات الخاصة في مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. ص ٢٣، كحالة: عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت)، ج ٥ ص ٢٢.

(٤٣) توجد بخط المؤلف بمكتبة الشيخ محمد سعيد آل كمال الخاصة رحمه الله. آل كمال، الطائف جغرافيته، ص ٢٧. آل كمال، الطائف في كتب المؤرخين، ص ١٦١.

(٤٤) ينبغي مراعاة أن اسمه مركب. الحبشي، الدليل المشير، ص ٢٧١. عبدالجبار، سير وتراجم، ص ٢٦٠.

(٤٥) مؤلف كتاب الإكليل حاشية تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل).

الحنفي، وسمع في الحديث عن العلامة الشيخ محمد أبي الخضير بن إبراهيم الدمياطي المدني، وقرأ صحيح البخاري والفقه الحنبلي على يد الشيخ عبدالقدوس النابلسي، وأجازه بروايته، كما أجازه السيد عبدالحي الكتاني في الحديث المسلسل(٤٦).

وقد كان حريصاً على الاستفادة من أوقاته التي قضاها بين المطالعة في الكتب والتأليف، وتَمّ له إجراء اختبار من قبل هيئة كبار علماء مكة المكرمة، حيث أجازوه بالتدريس في المسجد الحرام، فاشتهر حينئذ بلقب سيبويه زمانه(٤٧)، وسكاكي أوانه(٤٨)؛ لتدريسه علوم اللغة العربية وآدابها، وتضلعه فيها مع ممارسته للإفتاء(٤٩).

وتقلد العديد من المناصب في العهد العثماني، والهاشمي، والسعودي، كعضوية مجلس التمييز، ورئاسة مجلس التعزيرات، ووكالة المعارف وعضوية مجلس الشيوخ، وعضوية رئاسة القضاء وتدريسه بدار العلوم الدينية(٥٠).

بالإضافة إلى قيامه برحلتين علميتين إلى إندونيسيا وسومطرة في سنتي ١٣٤٣ و١٣٤٥هـ/ ١٩٢٥ و١٩٢٧م، كان خلالها ينشر العلم والمعرفة بين الطلاب، مع الوعظ والإرشاد(٥١).

---

(٤٦) الحبشي، الدليل المشير، عبدالجبار، سير وتراجم.

(٤٧) عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر، الملقب سيبويه، إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، مات بالأهواز سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م). الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٨١.

(٤٨) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب سراج الدين، عالم بالعربية والأدب، اشتهر بعلم البلاغة، توفي بخوارزم سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)، الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٤٩) الحبشي، الدليل المشير. عبدالجبار، سير وتراجم.

(٥٠) الحبشي، المرجع السابق نفسه. عبدالجبار، المرجع السابق نفسه.

(٥١) المعلمي: عبدالله بن عبدالرحمن، أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٨٣٥.

كل هذه الأعمال الجليلة لم تثنه عن التأليف؛ إذ كان له ما ينيف على ستين مؤلفاً في مختلف العلوم والمعارف وبخاصة العلوم العربية، وجلها ما زال مخطوطاً، وقد ترجم له الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي وجمع أسانيده في رسالة سماها "المسك الجلي في أسانيد فضيلة الشيخ محمد علي"(٥٢).

أما علاقته بعلماء الطائف وطلاب علمه، فقد كانت تتأتى منه في فصل الصيف من كل عام، فقد كان يفضل قضاء شهوره فيه بعائلته - وتلكم كانت لديه عادة سنوية - فيقيم نشاطه العلمي بإلقاء دروسه التي كانت له بمكة المكرمة، ويجتمع بعلماء الطائف ومثقفيه(٥٣)، وأدركته منيته بالطائف في صيف عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م)، فدفن بالمقبرة المجاورة لحبر الأمة عبدالله بن العباس رضي الله عنهما(٥٤).

الشيخ محمد صالح بن إبراهيم قطان المكي(٥٥):

بدأ حياته العلمية في مكة المكرمة، ومن أشهر مشايخه الشيخ عبدالله حمدوه السناري(٥٦) وبعض علماء المسجد الحرام آنذاك، ولفطنته وسعة اطلاعه اختاره أستاذه الشيخ حسن يماني(٥٧) أحد

---

(٥٢) كانت وفاة الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي بمكة المكرمة سنة ١٤١٠هـ (١٩٨٩م)، الحبشي، الدليل المشير، عبدالجبار، سير وتراجم.

(٥٣) أبو سليمان: عبدالوهاب بن إبراهيم، المكيون والاصطياف بالطائف، تقرير بقلمه، ص ٢.

(٥٤) الحبشي، الدليل المشير، ص ٢٧٤.

(٥٥) اسمه مركب واسم والده إبراهيم بن أحمد الكيلاني المكي المشهور بالقطان. آل كمال: سليمان بن صالح، التعليم في الطائف وبعض رجاله في القرن الرابع عشر الهجري، دار الحارثي، الطائف، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ١٣٩. أبو سليمان، المرجع السابق نفسه.

(٥٦) كانت له شهرة علمية كبيرة، ومكانة عالية، توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، للمزيد ينظر: عبدالجبار، سير وتراجم، ص ١٦٤ - ١٦٦.

(٥٧) كانت ولادته بمكة سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، وبها نشأ، وتلقى تعليمه على يد والده ونخبة من علماء المسجد الحرام، ثم التحق بالمدرسة الصولتية، وتخرج فيها، فلازم علماء المسجد الحرام، فأجازوه بالتدريس، وكان يُعد إماماً في الفقه الشافعي في عصره بلا منازع، وتخرج على يده الكثير من طلبة العلم، توفي في سنة ١٣٩١هـ (١٩٧١م)؛ المعلمي، أعلام المكيين، ج ٢، ص ١٠١٩.

مدرسي المسجد الحرام مقرئا لدروسه، وقد كان لهدم المنطقة المركزية حول الحرم المكي الشريف لتوسعته أثر كبير في انتقال الكثير من المكيين إلى مدن أخرى، ومن هؤلاء العلامة الشيخ محمد صالح القطان، حيث استقر به المقام بالطائف، فأقام به دروسه صباح مساء(٥٨).

وأخذ في نشر العلم والمعرفة في المجتمع الطائفي، فكانت له ثلاث حلقات علمية، الأولى بعد صلاة الفجر بمسجد الحبر عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - (بمحلة فوق)، ويعلم فيها علوم الدين، والثانية بمسجد الهنود (بمحلة فوق) أيضاً، وتبدأ من بعد صلاة العصر، ويعلم فيها علوم العربية، والثالثة بمسجد الهادي (بمحلة أسفل) من بعد صلاة المغرب إلى العشاء، ويعلم فيها السيرة النبوية لابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير إلى أن أدركته المنية في الطائف سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، وقد أفاد منه مجتمع الطائف، وما زال أبناؤه مقيمين بالطائف إلى يومنا هذا(٥٩).

وهكذا ظهر أثره العلمي في الطائف الذي اختلف عمن سبقه من علماء مكيين بأنه كان مقيما بينهم طوال حياته، وكان يدرس طلبة العلم حسبة لله تعالى من دون أجر(٦٠).

الشيخ محمد يحيى أمان الكتبي المكي:

ولد بمكة المكرمة سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، وفي السابعة من عمره حفظ القرآن الكريم مع تجويده، ثم درس بالمدرسة الصولتية(٦١)،

---

(٥٨) أبو سليمان، المكيون والاصطياف بالطائف، ص ٤.

(٥٩) هم محمد جميل، ومحمد سعيد، ومحمد حسين، ومحمد جميل أيضا، آل كمال: سليمان، المرجع السابق نفسه.

(٦٠) كان لديه دكان صغير بمحلة فوق، يقتات منه هو وأسرته بإدارة أبنائه تحت إشرافه، هذا ما أخبرني به شقيقي الأكبر بحكم صداقته للوالد رحمه الله.

(٦١) أسسها الشيخ رحمة الله العثماني عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)، وتتألف من مراحل دراسية عدة، وقد انتظمت الدراسة فيها منذ تأسيسها حتى الوقت الحاضر، وتقع بحارة الباب بمكة المكرمة، وتشبه في اختيار موادها ومناهجها تقاليد الحرم المكي. الشامخ: محمد عبدالرحمن، التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣٩.

وبالمسجد الحرام على مشايخ عصره، وبعد أن تمكن من العلم قام بالتعليم، فعن ذلك قال[٦٢]: "في سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) قدَّمْتُ أنا ورفقائي في طلب العلم عرائض نطلب فيها الاختبار من مشيخة العلماء؛ لنعطى الإجازة بالتعليم والتدريس في المسجد الحرام، ونقيد في دفتر المعلمين والمتعلمين، فأجيب طلبنا، واختبرنا في علوم عدة، وهي: التوحيد، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، ونجحنا فيها والحمد لله، وأعطينا شهادة بذلك متوجة بإمضاء أمير مكة الشريف الحسين[٦٣]، ورئيس القضاة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن سراج، وقاضي مكة المكرمة وعلماء الحرم المكي".

من النص السابق نرى التنظيم الإداري المتبع الذي كان يجري للمتقدمين للتدريس في المسجد الحرام، والمواد التي كانوا يمتحنون فيها كالعلوم الشرعية، والعلوم العربية وغيرها.

وظائفه:

عُيّن في سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) مدرساً بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة[٦٤]، وعلَّم فيها العلوم الشرعية والعربية، لمدة (٢٨) سنة إلى ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م)، فانتقل بعدها عضواً بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة، ثم في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) عين عضواً برئاسة

---

(٦٢) ينبغي مراعاة أن اسم الشيخ محمد يحيى أمان مركباً. بيلا: زكريا بن عبدالله (ت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، الجواهر الحسان في تراجم الفضلاء والأعيان من أساتذة وخلان، مخطوط مكتبة د. عبدالوهاب أبو سليمان الخاصة، ويجري دراسته والتعليق عليه من قبل أ. د. محمد إبراهيم أحمد علي، و أ. د. عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان، ج ٢، ورقة (٧٥).

(٦٣) ولي مكة المكرمة سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، ثم أعلن نفسه ملكاً على الحجاز، وبقي إلى عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)؛ حيث تنازل لابنه علي بالملك، مات سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م). راوه، أمراء البلد الحرام، ص ٤١٢ وما بعدها.

(٦٤) أسسها الشيخ محمد علي زينل عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م)، وكانت الدراسة فيها تتألف من ثلاث مراحل، كل مرحلة فيها ثلاث سنوات، هي المرحلة التحضيرية، والمرحلة الابتدائية، والمرحلة الرشدية. الشامخ، التعليم، ص ٥٣، ٥٤.

القضاة إلى عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م)، حيث عين قاضياً للطائف إلى سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م)، ثم عاد بعدها مرة أخرى عضواً بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة، وله العديد من المؤلفات(٦٥)، وبالرغم من عودته إلى مكة المكرمة إلا أنه كان لا ينقطع في كل عام من قضاء فصل الصيف بالطائف، ولإجادته للفقه الحنفي والفتوى فيه أطلق عليه لقب (أبو حنيفة الصغير)، وقد استفاد من علمه وقضائه المجتمع الطائفي(٦٦) من حيث الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع بالأدلة الشرعية(٦٧).

أمَّا عن مجالسه العلمية في الطائف فقد ذكر الشيخ زكريا بيلا - رحمه الله - ما نصه(٦٨): "في صيف عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) ذهبت إلى منزله بالطائف قرب سوق الخضرة عند باب الريع(٦٩)، وقرأ علي في عدة مجالس رسالته في الرد على من يقول بعدم سنية الجمعة القبلية". وهكذا امتد نشاطه العلمي، وشمل طلاب العلم بالطائف.

وهناك العديد من العلماء المكيين الذين نلمس علاقتهم بعلماء الطائف وأثرهم في الحياة العلمية الطائفية - في الثمانينيات الهجرية بعد الثلاثمئة والألف - أثناء إقامتهم بالطائف في فصل الصيف من كل عام، كالعلامة القاضي الشيخ عبدالله بن أحمد المغربي المكي (ت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) الذي بدأ حياته الوظيفية مدرساً

---

(٦٥) الحبشي، الدليل المشير، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٦٦) أبو سليمان، المكيون والاصطياف بالطائف، ص ٣.

(٦٧) هذا ما عرَّف به الجمهور القضاء. عوض: إبراهيم نجيب محمد (ت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، القضاء في الإسلام تاريخه ونظامه، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، ص ٧.

(٦٨) الجواهر الحسان، ج٢، الورقة (٧٤) الهامش.

(٦٩) أحد أبواب سور مدينة الطائف، ويقع في الجهة الغربية للمدينة، وما زال الموقع يحمله بعد إزالة السور سنة ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م). آل كمال: سليمان بن صالح، تحصينات الطائف العسكرية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة والعشرون، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، ص ١٣٨، ١٤٠.

ومديراً لإحدى مدارس عقيق الطائف، وهي إحدى المدارس التي أسسها شيخه وأستاذه العلامة الشيخ أحمد النجار الطائفي(٧٠)، والشيخ محمد صالح بن عبدالرحمن قزاز (ت ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، الأمين الأسبق لرابطة العالم الإسلامي الذي حينما سُئِل عن حياته العلمية أجاب قائلاً(٧١): "درست شيئاً من العلوم على يد بعض علماء المسجد الحرام، وأخيراً التزمت دراسة فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر على فضيلة الشيخ أحمد النجار، وعلى أثر اختتامي للكتاب أجازني بتدريسه، فدرسته مدة وجيزة أثناء إقامتي بالطائف".

وكذلك الشيخ عبدالفتاح راوه (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) فعنه ذكر سفر بقوله(٧٢): "إذا حل وقت الصيف ذهب إلى مدينة الطائف فيقوم بالتدريس في مسجد سيدنا عبدالله بن العباس حبر الأمة وترجمان القرآن في العلوم الإسلامية من اللغة والفقه والفرائض، فيجلس إليه بعض الطلاب من أهل الطائف والمصطافين فيه من مدن المملكة، ومرة جلس في حلقة درسه رجل كبير من أهل الخليج، فاستهل الشيخ درسه في الفرائض، فقال هذا الخليجي صائحاً: وأيش الفرائض؟ هي الصلاة والصيام والحج والاعتمار!؟، فقال له الشيخ عبدالفتاح: قرِّبْ هنا، وعلمه مفهوم ومعنى الفرائض، فقال الرجل: والله يا شيخ فتاح، إنني ملازم درسك حتى الأفول إلى الديار، فضحك الجميع".

---

(٧٠) سفر: حسن بن محمد، وفيات الأعلام من علماء وقضاة البلد الحرام، جريدة عكاظ، الجمعة ١٣ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، السنة الخامسة والأربعون، العدد (١٣٤٣٩)، ص ٢٦.

(٧١) رفيع: محمد عمر (ت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، نشر نادي مكة الثقافي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٣٢٦.

(٧٢) سفر، وفيات الأعيان من علماء المسجد الحرام، مقال نشر بجريدة عكاظ، الجمعة ٢٧ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، السنة الخامسة والأربعون، العدد (١٣٤٥٣)، ص ٢٧.

وقد كانت أشهر الصيف فرصة لهؤلاء العلماء والأدباء المكيين أيضاً لملاقاة نظرائهم من علماء وأدباء الطائف في مكتبتي كل من العلامة الأديب الشيخ محمد سعيد بن حسن آل كمال(٧٣) والعلامة الأديب السيد محمد المؤيد(٧٤). وكان حضورهم في هذه المكتبات ليتداولوا في جلساتهم الموضوعات العلمية والأدبية والاجتماعية، ومن هؤلاء العلماء المكيين الأديب الأستاذ عبدالسلام الساسي (ت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، والعلامة الأديب الشيخ أحمد علي الكاظمي (ت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، والأديب الكبير الشيخ عبدالعزيز الرفاعي (ت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، وفضيلة إمام وخطيب المسجد الحرام الشيخ عبدالله عبدالغني خياط (ت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، وغيرهم من العلماء والأدباء، مما ينتج عنه تلاقح الأفكار وإثراء المعلومات فيما بينهم في مختلف العلوم والمعارف الذي ينعكس بدوره على طلاب العلم والمعرفة(٧٥).

أشهر الصيف فرصة لهؤلاء العلماء المكيين لملاقاة نظرائهم من علماء وأدباء الطائف

(٧٣) المتوفى بالطائف سنة (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، صاحب مكتبة المعارف بالطائف التي أسسها في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م). أبو سليمان: عبدالوهاب إبراهيم، العلماء والأدباء الورّاقون في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري، نادي الطائف الأدبي، ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م)، ص ٢٠٤.

(٧٤) المتوفى بالطائف سنة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م)، صاحب مكتبة المؤيد بالطائف أسسها في الستينيات الهجرية بعد الثلاثمئة والألف. المرجع السابق نفسه، ص ١٨١.

(٧٥) أبو سليمان، المكيون والاصطياف بالطائف، ص ٣، ٤.

موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية

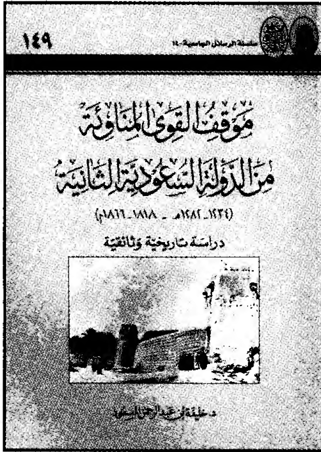
(١٢٣٤-١٢٨٢هـ/١٨١٨-١٨٦٦م)

دراسة تاريخية وثائقية

تأليف

د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود

٥١٢ صفحة



يستعرض هذا الكتاب القوى المناوئة للدولة السعودية الثانية، ويوضح الأنشطة التي قامت بها تلك القوى بهدف عدم تمكين الدولة السعودية من العودة إلى التأسيس مرة أخرى بعد سقوطها، وذلك بتسيير الحملات العسكرية المتتابعة من كل جهة.

وتنبع أهمية الكتاب من تناوله فترة مهمة من تاريخ الدولة السعودية الثانية تقل فيها المصادر والمعلومات، يضاف إلى ذلك أنه يبين بصورة جلية حاجة الجزيرة العربية الماسة إلى قيام الدولة السعودية الثانية لإنجاز المهمات الجليلة التي قامت بها الدولة السعودية الأولى من محاربة الجهل والتمزق، وتوحيد الصف، وإعلاء البنيان الحضاري المرتكز على نشر الأمن والعلم وتطبيق الشريعة الإسلامية السمحة.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

التواصل الحضاري بين الحجاز وأرخبيل الملايو

رحلة الحاج عبدالماجد زين الدين

إلى الأراضي المقدسة نموذجًا

د. أحمد إبراهيم أبو شوك
قسم التاريخ والحضارة - الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

استطاع الإسلام عبر مسيرته الدعويَّة المتواصلة أن يحدث تحولاً عقديًا في عالم الملايو، تجلت معالمه الرئيسة في الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، والإقرار بقدسية القرآن الكريم بوصفه أول كتاب سماوي حمل لشعوب الملايو الأمية ثوابت عقيدة التوحيد ذات الإطار الشمولي في تحديد ضوابط الحياة الإنسانية. ومن أهم الشعائر التعبدية التي أسهمت في توطين هذه القيم الحضارية في أراضي الأرخبيل هي شعيرة الحج، التي كانت وما زالت تُعدُّ بمثابة حلقة وصل جامعة، تجسد عطاؤها في توثيق عرى الترابط الروحي والمادي بين مهبط الوحي وعالم الملايو، والرحلة بين الطرفين كانت تمثل فصولاً مثيرة من التواصل الاجتماعي والتلاقح الثقافي في رحاب الهجرة في سبيل الله. أما أداء الشعيرة في حد ذاته فقد كان مزيجًا خلاقًا يجمع بين دفتيه مقاصد الإسلام المتمثلة في إقرار مبدأ التوحيد والإعلان الصريح بخاتمية الرسالة المحمدية، وفي أداء الصلوات الجامعة في الحرمين الشريفين، وفي بذل المال في مصارفه المشروعة. زد على ذلك أن تحلُّق المسلمين حول البيت العتيق كان يعني لجمهور الحجيج الملايوي تثمينًا حقيقيًا لقيمة التوحيد التي تسقط عندها التعددية والتنوع العرقي للشعوب الإسلامية، ويبقى

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

التوحد والتوحيد هما شعارا تلك التظاهرة الأممية التي تتجلى مفرداتها في نداء التلبية: "لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

وتثمينًا لماهية هذه الشعائر التعبدية ومقاصدها الشرعية المختلفة يحاول هذا البحث أن يعطي إطارًا عامًا لدور الحج في ترسيخ قيم التواصل الحضاري بين الحجاز وأرخبيل الملايو، ثم يقدم ترجمة عربية موثقة حواشيها للرحلة البديعة التي رسم معالمها الحاج عبدالماجد زين الدين الملايوي بعد أدائه شعيرتي الحج والعمرة عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م، ونشر وقائع هذه الرحلة في المجلة الملكية للجمعية الآسيوية[١] عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م بلغة إنجليزية رصينة، وعرض أدبي شائق. ولا تقل رحلة الحاج عبدالماجد إلى الأراضي المقدسة وملاحظاته الشخصية عن مآثر الحجاز أهمية عن رحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م) التي وثقها في "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وتماثل في طرافتها أيضًا رحلة عبدالله بن محمد العياشي (ت ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م) الموسومة بـ "ماء الموائد"، وتضاهي في موثوقيتها رحلة أمير البيان شكيب أرسلان (١٣٦٦هـ/١٩٤٦م) المدوَّنة في كتابه المشهور بـ "الارتسامات اللطاف". ولا يعني هذا الإطراء أن الرحلة الملايوية قد جمعت وأوعت كل مآثر الحج؛ لأن رسالة الحج إلى بيت الله الحرام رسالة متعددة الجوانب، ومتجددة الروح بتجدد الزمان والمكان، ولا يستطيع أي كاتب أن يوفيها حقها كاملاً غير منقوص. ولكن هذا التحفظ لا يمنعنا القول: إن رحلة الحاج عبدالماجد لها طعمٌ ومذاقٌ خاص؛ لأنها تعكس لنا جملة من قيم التواصل الحضاري بين الحجاز وعالم الملايو، وانعكاسات ذلك التواصل على الأصعدة الدينية والسياسية والاجتماعية.

---

(١) انظر:

Haji Abdul Majid, "A Malay's Pilgrimage to Mecca", Journal of the Branch of the Royal Asiatic Society, vol. iv, ii, PP. 69-87.

صدى شعيرة الحج في أرخبيل الملايو

كان أثر شعيرة الحج في بادئ أمره محصورًا في أهلية الدعاة الأوائل الذين حملوا لواء عقيدة التوحيد إلى أرخبيل الملايو، علمًا بأن العناصر الفاعلة من هذه النخبة كانت على صلة بالجزيرة العربية، إما انتسابًا إلى أرومة الرسول ﷺ، أو تأهيلاً معرفيًا ارتبط بأداء فريضة الحج وتحصيل العلم في أربطة الحرمين الشريفين. فلا شك أن هذه الصلة قد أكسبت هؤلاء الدعاة نوعًا من المكانة في نظر السكان المحليين الذين كانوا يكنون لهم الود والتقدير، اللذين يسَّرا انسياب نشاطهم الدعويّ، واستيعابهم اجتماعيًا في نسيج المجتمع المحلي[٢]. وبهذه الكيفية أسهم الحجاز بطريق غير مباشر في تأسيس معالم البنية التحتية للمجتمع الملايوي على هدي ثوابت عقيدة التوحيد، وأثار أيضًا شعورًا صادقًا في أوساط بعض قطاعات المجتمع المستنيرة، التي أضحى يراودها حنين تواق إلى مهبط الوحي، إما تلبية لنداء الحج، أو استجابة لطلب العلم. بيد أن صعوبة المواصلات قبل اكتشاف السفن البخارية في القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد قد ضيّقت قاعدة المشاركة الشعبية، وفي الوقت نفسه أسهمت المخاطر التي كانت تحف رحلة العودة إلى الوطن الأم وتكاليفها الباهظة في استقرار نفر من الحجيج الملايوي بالأراضي المقدسة. وبفضل هذا الاستقرار مهّدت شعيرة الحج الطريق لتواصل حضاري أوسع نطاقًا، وأبلغ عمقًا بين مهبط الوحي وعالم الملايو، وذلك بقيام جالية ملايوية (جاوية) كبرى في مكة المكرمة، قوامها الذين آثروا البقاء بحثًا عن مصدر رزق أفضل، أو منهل علم يرضي

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "الشيخ أحمد محمد السوركتي (١٨٧٦-١٩٤٣م) رائد حركة الإصلاح والإرشاد في إندونيسيا"، التجديد: مجلة نصف سنوية تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، العدد، ٢٠٠٠م، ص١١٨-١٢٢؛ "العرب والإسلام في جنوب شرق آسيا: قراءة تاريخية في مصادر التراث الإسلامي والأدبيات المعاصرة"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية: تصدرها جامعة الكويت، العدد ٨١، شتاء ٢٠٠٣م، ص٤١-٧٩.

طموحات الحادبين منهم. وبمرور الزمن أضحت الجالية الجاوية تمثل ثقلاً اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا لا يُستهان به في مجتمع أم القرى، الذي كان يعج بالحركة الثقافية، وتتقاطع أطرافه اجتماعيًا في مزيج خلاق يعكس سمات الوحدة الإسلامية. ومن ثم نلحظ أن الملايويين (أو الجاوى) كغيرهم من المجموعات الوافدة إلى الأراضي المقدسة قد استطاعوا أن يتأقلموا تدريجيًا مع ذلك المجتمع المضيف. فمثلاً نجد أن الرجل منهم يتزوج من حرائر المكيين، وبفضل هذه المصاهرة يصبح مكيًا. ويظهر هذا التحوّل جليًا في الأجيال اللاحقة لجيل المحافظين (أعني الذين ولدوا وتربوا في أرخبيل الملايو)، التي تلاشت عندها معظم عادات الآباء وتقاليدهم، وأضحى سلوكها الاجتماعي مماثلاً لسلوك المجتمع المكي، الذي تميز بالزي العربي، والتواصل بلغة القرآن في محيط بنيته الإثنية. وفيما يخص الجانب الاقتصادي فقد اعتمد أفراد الجالية الملايوية في معاشهم على عائدات الخدمات التي كانوا يقدمونها إلى ضيوف الرحمن، القادمين من أطراف العالم الإسلامي المختلفة، وذلك من خلال عملهم في المحال التجارية مع أصحاب رؤوس الأموال من المكيين، الذين كانوا ينعتونهم بالإخلاص والاستقامة في السلوك، وبجانب ذلك كانوا يقومون بأعمال الطوافة والإرشاد في أوساط الحجاج الملايويين، ولا شك أن عائدات هذه الخدمات كانت تدر على المحترفين منهم عطاءً مجزيًا(٣).

---

(٣) انظر:

Deliar Noer, The Modernist Muslim Movement in Indonesia, 1900 - 1942, Singapore. Kuala Lumpur. London. New York: Oxford University Press, P. 25; .C. Snouck Hurgronje, Mekka in the Latter Part of the of the 19th Century: Daily Life, Customs and Learning, (trans. by J. H. Monahan, Leiden: E. J. Brill, 1970, PP. 92-215.

نُقل كتاب سنوك إلى اللغة العربية بوساطة علي عودة الشيوخ ومحمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، تحت عنوان: صفحات من تاريخ مكة، مكة: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة المترجمة.

أما القلة من أفراد الجالية الملايوية فقد آثرت الالتحاق بحلقات العلم والمعرفة والتتلمذ على علماء الحرم المكي، الذين عرفوا بإلمامهم الواسع بأدبيات المذهب الشافعي، صاحب النفوذ الراسخ في أرخبيل الملايو. وبفضل هذه الدراسة المنتظمة في الحرم الشريف استطاع هؤلاء الدارسون أن يقفوا على نفائس أدبيات هذا المذهب الشافعي، المتمثلة في "كتاب الأم"، و"عمدة السالك وعدة الناسك"، و"منهاج الطالبين"، و"إعانة الطالبين"، و"السراج الوهاج". ثم نقلوا معارفهم الفقهية الشافعية إلى وطنهم الأم بوضع شروحات وملخصات مترجمة لهذه الأدبيات النفيسة. ونذكر منها كتاب "الصراط المستقيم" للشيخ نور الدين الرانيري (ت ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، الذي ألفه خلال فترة إقامته (١٠٤٧-١٠٥٤هـ/١٦٣٧-١٦٤٤م) في بلاط مملكة آشيه في شمال سومطرة، وظل هذا المصنف مرجعًا معتمدًا يُعوّل عليه في معالجة القضايا الفقهية في جنوب شرق آسيا(٤).

أما علم الكلام السني الذي وضع لبناته الإمام الأشعري (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)، وفصّل فيه القاضي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م) والإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، فقد وصلت مصنفاته إلى أرخبيل الملايو في شكل شروحات ومختصرات مترجمة، جسدتها "العقائد النسفية" للإمام النسفي (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م) و"كتاب أم البراهين" لمحمد بن يوسف السنوسي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، اللذان أضحيا يمثلان أساس الدراسات الكلامية المرتبطة بقضايا العقائد في أرخبيل الملايو(٥).

(٤) انظر:

H. M. J. Maier, "Malay and Indonesian Literature", in J. Espasito, ed., The Oxford Encyclopedia of Modern Islamic World, New York. Oxford: Oxford University Press, 1995, PP. 29-30.

A. H. Johns, "Islam in Southeast Asia: Problems of Perspective", in Ahmad Ibrahim and other, ed., Readings on Islam in Southeast Asia, Singapore, 1990,PP. 19-24.

(٥) محمد كمال حسن، التجديد، العدد الأول، يناير ١٩٩٧م، ص٥٠-٥١.

الحاج الملايوي: كسب في مهبط الوحي وعطاء في الأرخبيل

يرمز مصطلح "الحاج الملايوي" في هذه الدارسة المتواضعة إلى شخصيتين مختلفتين في الكسب المعرفي والعطاء الوظيفي تجاه مد جسور الترابط الحضاري بين مهبط الوحي وعالم الملايو، أحدهما هو ضيف الرحمن الذي كانت غايته أداء فريضة الحج ولوازمها، ثم العودة إلى الوطن الأم، وثانيهما هو طالب العلم الذي أدى الفريضة، وآثر البقاء بالأراضي المقدسة؛ بغية الدراسة، ثم العودة إلى الجذور في حلية عالم متبحر في أدبيات المذهب الشافعي، أو بغية الإقامة الدائمة في الحرم المكي من أجل التدريس والمُدارسة.

إن إطلاق لقب "حاج" - كما يرى المستشرق سنوك هورغرونية (١٢٧١-١٣٥٥هـ/ ١٨٥٥-١٩٣٦م) - على الشخص القادم من الأراضي المقدسة كان له وقع خاص في المجتمع الملايوي؛ لأن حامل هذا اللقب خلال إقامته بمكة المكرمة قد استطاع أن يجوّد معارفه التعبدية المتواضعة، ويلتقي رجال العلم المرموقين، ويحكي بعد عودته إلى وطنه الأم عن مشاهداته لمعالم الحضارة الإسلامية، وعن ثقافات الشعوب الأخرى التي التقاها في رحاب رحلة الحج. فلا عجب أن هذه التجربة كانت تجربة مفيدة بالنسبة للحاج نفسه؛ لأنه أصبح مميزًا بارتداء الزي العربي، ومجوِّدًا لأداء الفرائض والنوافل الملحقة بها، أضف إلى ذلك حضوره الدائم ومشاركته الفاعلة في تنظيم المحافل الإسلامية، مثل: تسمية المولود، وختان الذكور، ومراسم الزواج، وليلة القدر، ونزول القرآن، والإسراء والمعراج، ورأس السنة الهجرية(٦).

بذلك استطاع الحاج الملايوي أن يزوّد مجتمعه المحلي ببعض القيم الحضارية والمعارف الإسلامية التي اكتسبها خلال رحلة الحج. زد على ذلك أن الوضع المرموق الذي حصل عليه بين أهله وعشيرته قد

---

(٦) عبدالرزاق بن وان أحمد الندوي، المرجع السابق، ص٣٧-٤٢؛ عبدالوهاب بن الحاج كيا، المرجع السابق، ص١٣٧-١٤٢.

كان بمثابة حافز للقادرين منهم؛ ليشدوا الرحال إلى البيت العتيق، ويتزودوا بما تزود به الحجاج الذين سبقوهم في هذا الشأن. إلا أن لقب "حاج" بدأ في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة/ العشرين للميلاد يفقد بريقه ولمعانه، وذلك نسبة للزيادة المطّردة في أعداد الحجاج الملايويين، والاهتمام بالتدريس المنتظم للعلوم الدينية في مساجد أرخبيل الملايو ومدارسه الإسلامية، إضافة إلى الدور الإيجابي الذي قامت به حركات التجديد والإصلاح الإسلامية في مجال الدعوة والإرشاد في أوساط قطاعات المجتمع المحلي(٧).

أما طلاب العلم الذين آثروا البقاء في مكة المكرمة فقد أضحوا يمثلون جزءاً لا يتجزأ من نسيج مجتمعها الثقافي، وذلك بفضل عطائهم المتفرد في مجالي التعليم والإفتاء. فلا شك أن هذا الدور قد أكسب النابغين منهم تقديرًا واحترامًا خاصًا بين أفراد الجالية الجاوية وبقية فئات المجتمع المكي، وأهّلهم أيضًا ليكونوا عروة ثقافية تربط بين مهبط الوحي وعالم الملايو. فقد استطاعت الجمعية المحمدية أن تؤدي دورًا مهمًا في محاربة البدع والخرافات، ومنافحة الاستعمار الهولندي، وذلك من خلال عملها الدؤوب في مؤسساتها التعليمية والإصلاحية والدعوية التي انتظمت معظم مدن إندونيسيا وقُراها. وبجانب هذا النشاط المؤسسي للجميعة المحمدية ورصيفاتها الأخرى في إندونيسيا فقد برز تيار آخر يقوده نفر من العلماء الملايويين، الذين تدربوا في أربطة الحرم المكي، وأسهموا في تثقيف الوعي الإسلامي في بلادهم، ونذكر منهم الشيخ طاهر جلال الدين (١٢٨٥-١٣٧٥هـ/١٨٦٩-١٩٥٦م) والسيد أحمد الهادي (١٢٧٨-١٣٥٢هـ/ ١٨٦٢-١٩٣٤م) في ماليزيا(٨).

(٧) سنورك هورغرونية، المصدر السابق، ج٢، ص٦٢٩-٦٣٠.

(٨) انظر:

Deliar Noer, op. cit., PP. 33-34.

إلا أن هذا التواصل الحضاري بين مهبط الوحي وأرخبيل الملايو قد واجه انتقادات حادة من قادة العمل السياسي الاستعماري والمبشرين النصارى في جنوب شرق آسيا، تعللاً بأن شعيرة الحج قد أضحت تسهم بطريق غير مباشرة في إذكاء روح الثورة والتمرد على الأنظمة السياسية القائمة في المنطقة، وتعرقل أيضًا أنشطة المنظمات الكنسية. وفي هذا يقول المبشر بونسون:

"إن الجزيرة العربية لا تشكل فقط مركز توحد للحجاج الأتقياء، لكنها [مركز] يجتمع فيه السياسيون، وقادة الشعوب الإسلامية، ويناقشون قضاياهم وخططهم السياسية، ويتم هناك التشاور والتفاكر، ويُزوّد الحجاج العائدون بآليات الإثارة الدينية والتبليغ، التي يجب أن تعدّ ذات طبيعة مشكوك فيها تجاه الأمن والنظام الاجتماعي الخاص بالشعوب المسلمة المختلفة الخاضعة للسيطرة المسيحية"(٩).

وفي تعليق آخر يصب في ذات الاتجاه التحريضي ضد شعيرة الحج يصف المستشرق سنوك هورغرونية وضع الجالية الملايوية في مكة المكرمة ودورها في تمديد جسور التواصل مع أرخبيل الملايو بقوله:

"إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة؛ إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق في إندونيسيا. فهنا في مكة تبدأ خيوط الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الجاوى. ومن هنا تؤخذ الكتب التي تستعمل في المدارس الدينية هناك. ومن خلال أقرباء الجاويين وأصدقائهم في مكة ينضم عدد من أبناء الجاوى ويسهمون في سلك الحياة الإسلامية...؛ لهذا فإن من الأهمية بمكان

---

(٩) انظر:

Ibid., P. 25.

أن تعرف الحكومة (الهولندية) ماذا يجري في مكة، وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام. وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تضمن دعم الحكومة، وعلى الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر. ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه...، أو على الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي"(١٠).

وفي ضوء هذين النصين يمكننا القول: إن شعيرة الحج كانت تمثل مصدر قلق بالنسبة للنفوذ الاستعماري الأوربي في أرخبيل الملايو، والشاهد في ذلك أن القائمين بأمر صياغة القرار السياسي والديني قد حاولوا أن يعرقلوا مسار هذه الشعيرة بشتى السبل والوسائل، فمثلاً نجدهم قد وضعوا سقفًا ماليًا يجب أن يستوفيه كل مواطن ينوي أداء فريضة الحج، وذلك انطلاقًا من علمهم المسبق بمحدودية دخول هؤلاء المواطنين، وتوهمهم بأن هذا الإجراء سيقلل من تدفق الحجيج السنوي إلى الأراضي المقدسة. والشاهد الآخر هو اعتمادهم على إخضاع الحجاج القادمين من الأراضي المقدسة إلى عدد من الاختبارات الصورية، التي بموجبها يمكن أن يُسمح لهم باستخدام لقب "حاج" داخل أرخبيل الملايو. فلا شك أن هذه الإجراءات كانت مجرد عراقيل سياسية قُصد بها التقليل من فاعلية هذه الشعيرة، لكنها جميعًا سقطت أمام عزيمة الحجاج الملايويين التي فاقت تصور المستعمر الأوربي. ومن ثم ظلت رحلة الحج، كما يصفها الحاج عبدالماجد بن الحاج زين الدين بأنها قناة تواصل حضاري دائم بين مهبط الوحي وعالم الملايو، ومن خلالها يتنسم الحاج الملايوي عبق الوحدة الإسلامية، ويشعر بعالمية الرسالة المحمدية، وسمو عطائها الروحي، وبلاغة خطابها الإنساني.

(١٠) سنوك هورغرونية، المصدر السابق، ج٢، ص٦٣٠-٦٣١.

مدخل لقراءة رحلة الحاج عبدالماجد إلى الأراضي المقدسة

لفهم مغزى رحلة الحاج عبدالماجد زين الدين إلى الأراضي المقدسة، والإفادة من القيم الثقافية والعقدية التي حملتها بين طياتها يجب أن نتوقف قليلاً عند شخصية الراوي، وطبيعة الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي نشأ فيه، ثم بعد ذلك ننتقل إلى توثيق مشاهد الرحلة بوصفها ضربًا من أدبيات الحج والعمرة، المتجددة بتجدد الزمان، والمتفاعلة بقدسية المكان، والمتنوعة بتنوع التأهيل الثقافي للراوي ولجمهور الحجيج آنذاك.

أولاً: إن السؤال المحوري الذي يطرح نفسه في هذا المضمار يرتبط بماهية الحاج عبدالماجد بن زين الدين، مَنْ هو، ومِنْ أين أتى؟ الحاج عبدالماجد هو مثقف ماليزي من الطراز الأول، ومعلم ثبت أجاد فنون المهنة التي ينتمي إليها، وإداري حاذق أتقن مهارات عمله الإدراي الذي ارتبط بجمهور الحجيج الملايوي.

ولد عبدالماجد في ضاحية بودو بكوالالمبور عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م، من أسرة ذات جذور إندونيسية، وبدأ تعليمه الأولي بضاحية بودو عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، ثم بعد ذلك التحق بمعهد فكتوريا للغة الإنجليزية بكوالالمبور، وبعد عامين من التحصيل في معهد فكتوريا، حصل بجدارة على شهادة كامبرج للمدراس الصغرى. وقد جعله هذا التفوق الأكاديمي متنازعًا بين أمرين: رغبته الذاتية في دراسة الطب في إحدى الجامعات البريطانية، وتطلعات الأسرة في الحصول على وظيفة في مؤسسات الحكومة الاستعمارية، علها تمده بالدعم المالي لمواصلة تعليمه الديني بمكة المكرمة.

وإقلاعًا عن تطلعات "الأنا" وتحقيقًا لرغبة الآخر (الأسرة) التحق عبدالماجد بوظيفة كاتب بحكومة ولاية سلانقور لمدة عامين. وفي عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٥م قرر الالتحاق بمدرسة الملايو (كلية الملايو لاحقًا)

بولاية براق، المدرسة التي أُسست لتدريب العاملين في الدولة، ولتعليم أبناء الذوات ووجهاء المجتمع. وبعد سنتين من الكد والمثابرة أحرز عبدالماجد نتيجة متفوقة على أقرانه، جعلت إدارة المدرسة تعينه أول معلم ماليزي في هذه المؤسسة التعليمية الناشئة، التي ترقى عبدالماجد في سلمها الوظيفي إلى أن عُين عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م أول مساعد مفتش ماليزي للتعليم.

وفي عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م طلب الأستاذ عبدالماجد السماح له بأداء فريضة الحج، فأذنت له السلطات البريطانية، وتكفلت أيضًا بمصروفات رحلته إلى الأراضي المقدسة، شريطة أن يقوم بإعداد تقرير عن الكيفية التي تُؤدى بها مناسك الحج على محيط الواقع، وعن وضع بعثة الحج الماليزية في الأراضي المقدسة. وحسب رأي وليم روف أن التقرير الذي أعدَّه الحاج عبدالماجد في هذا الشأن قد نال إعجاب المسؤولين البريطانيين، وجعلهم يعينونه في وظيفة أول ضابط ماليزي يشرف على بعثات الحجيج الملايويين في الأراضي المقدسة. ولقد شغل الحاج عبدالماجد هذا المنصب إلى أن تقاعد عن العمل عام ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.

ولا شك أن الفترة التي قضاها في خدمة الحجيج الملايويين قد أسهمت في بلورة معارفه الإسلامية، وتفعيل نشاطه الدعوي في وطنه الأم، حيث أضحى داعية إسلاميًا نشطًا، وحلقة وصل فاعلة بين الثقافتين الغربية والشرقية.

وترسيخًا لهذا الدور نجده قد ألف عددًا من الإصدارات، أشهرها كتابه الموسوم بـ "عناصر السلام العالمي في الإسلام"، الذي ضاع إبان فترة الغزو الياباني لماليزيا، ومجلته الإنجليزية المعروفة بـ "النور الحديث"، التي كانت تهدف إلى ترقية عطاء المجتمع الماليزي المسلم. وكان الحاج عبدالماجد شخصية مرموقة، لها وزنها الثقافي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

والاجتماعي والسياسي في المجتمع الماليزي، في الفترة التي سبقت نيل الاستقلال[١١].

ثانيًا: إن الرحلة في حد ذاتها تتضمن عرضًا وافيًا لرحلة الحاج عبدالماجد من سنغافورة إلى جدَّة، وتعكس بصدق جوانب كثيرة عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والعمراني الذي كان سائدًا في الحجاز والملايو آنذاك. ومن ثم تُعدُّ هذه الرحلة مرجعًا مهمًا للمهتمين بالدراسات التاريخية، والجغرافية والاجتماعية، ومادة متميزة بطرافتها وحسن إمتاعها بالنسبة للقارئ غير المتخصص.

ثالثًا: إن الرحلة تحمل بين طياتها بعض الأنماط الفكرية والقضايا الاعتقادية التي تعكس تأثير أدبيات المذاهب الفقهية في الحجاز والملايو، لذا يجب على فقهاء هذا العصر وعلمائه ألاَّ يثمنوا هذه الرحلة من ناحية فقهية فحسب، بل يستحسن أن ينظروا إليها بصفتها سجلاً تاريخيًا يعكس واقع المجتمع المسلم في ذلك الزمان المحدد، والمكان الذي كان مثقلاً ببعض القيم المعرفية المتداولة في أوساط العامة. وإذا أخذنا في الحسبان هذا الواقع ببُعديه الزماني والمكاني نستطيع أن نقف بموضوعية على طبيعة المشكلات التي كانت تواجه المجتمعات المسلمة، ونضع الحلول المناسبة لها حاضرًا ومستقبلاً،

الرحلة تحمل بين طياتها بعض الأنماط الفكرية والقضايا الاعتقادية التي تعكس تأثير أدبيات المذاهب الفقهية

---

(١١) لمزيد من التفصيل عن سيرة الحاج عبدالماجد زين الدين انظر:

Haji Abdul Majid bin Zainduddin, The Wandering Thoughts of A Dying Man: the Life and Times of Haji Abdul Majid bin Zainuddin, (ed. William R. Roff), Kuala Lumpur: Oxford University Press, 1978; William R. Roff, "The Conduct of the Haj from Malay, and the First Malayan Pilgrimage Officer", in: Amin Sweeney, ed., Sari Terbitan Tak Berkala, Occasional Papers, no. 1, Institute of Malay Language, Literature and Culture, Kuala Lumpur: National University Press, 1975, PP. 81-112.

وذلك من خلال قراءة فاحصة تقارن بين أدبيات رحلة الحج في الماضي، والنقلة النوعية التي حققتها وزارة الحج في المملكة العربية السعودية في زماننا الحاضر.

رابعًا: أود أن ألفت انتباه القارئ الحصيف إلى أن العنوان الرئيس، والعناوين الجانبية الواردة في النص المترجم، والحواشي الملحقة ليست من صنعة المؤلف، بل وضعها المترجم لييسر متابعة حلقات هذه الرحلة الملايوية.

ترجمة النص

الحج إلى مكة هو الركن الخامس في الإسلام، وواجب ديني يجب أن يؤديه كل مسلم بالغ على الأقل مرة واحدة في حياته، وذلك بشرط أن يكون قادرًا على تحمُّل الرحلة. ويعني هذا بالنسبة للقروي الملايوي أن يكون في حوزته ما بين خمسمئة وستمئة جنيه إسترليني قبل أن يصبح أداء الحج واجبًا عليه، وبجانب ذلك ينبغي أن يكون خاليًا تمامًا من أية مسؤوليات تجاه أسرته؛ أي: أن يكون لديه في فترة غيابه مصادر رزق تغطي نفقات زوجه وأطفاله، إضافة للذين يعولهم (إنْ وجدوا)، وبالطبع يسقط عنه هذا الشرط إذا صحبهم معه. ولا يتوقع ذهاب النساء غير المتزوجات إلى الحج، إلا إذا كانت لديهن رفقة كافية من بنات جنسهن توفر لهن الحماية أثناء الرحلة، أو لديهن محارم من أهل عصبتهن. ولا يحتاج المرضى وكبار السن الذهاب للحج، لكن نسبتهم السنوية تقدر بنحو ٢٪ من جملة الحجيج. ويعزى هذا التشوق الواضح لسببين:

أولاً : أن هناك اعتقادًا في وسط المسلمين أن الموت في الحج شرف عظيم.

ثانيًا: أن هناك اعتقادًا أن المرض والضعف ليس من الضروري أن يؤديا إلى قصر الحياة، بل يموت الإنسان فقط عندما يأتي

أجله الـذي لا يتقـدم ولا يتأخـر ثانيـة واحـدة. وبالنسبـة لأولئـك الذيـن لا يستطيعون الرحلة إلى بيت الله يمكنهم أن يجـدوا السلوى في قـول رسـول الله ﷺ: "إن أداء الفـقيـر لصلاة الجمعة يساوي فضل أداء شعيرة الحج"(١٢).

الرحلة من سنغافورة أو بينانق إلى جدَّة

يبدأ موسم الحج في شهر رجب الذي لا يوافق دائمًا شهرًا محددًا في التـقـويم الميـلادي؛ لأن السنـة الهـجـرية فـيـهـا ثلاثمـئـة وأربعـة وخمسين يومًا مقابل ثلاثمئة وخمسة وستين يومًا في السنة الميلادية. وبين شهر رجب وشهر ذي القعدة خمسة شهور، يبدأ فيها الحجاج رحلتـهم من الملايو إلى مكة، وينتظرون هناك إلى مـجيء الميـقـات المحدد في شهر ذي الحجة، حيث تؤدى شعيرة الحج في العاشر من ذي الحجة، الذي يعرف عند الملايو "بعيد الحج الأكبر"، فهو حقيقة يوم مقدس بالنسبة للحجاج في مكة.

لا يذهب الملايوي - كقاعدة عامة - في أية رحلة أكثر خطرًا مثل رحلة الذهاب إلى مكة، التي يَعبُر خلالها البحار دون أن يستشير مُنجِّمًا يعينه في معرفة اليوم المناسب لبداية الرحلة من وطنه الأم، تفاديًا لمخاطر الطريق وصعابه(١٣).

وقبل المغادرة يقوم الحاج بإعداد وليمة، وهي بجانب الدعاء الذي يقال بشأن ذهابه وعودته بالسلامة، تكون بمثابة محفل لمقابلة أصدقائه وأقربائه. وبعد ذلك يجهز الحاج احتياجاته للرحلة من سنغافورة(١٤)

---

(١٢) لا أثر لهذا الحديث في كتب السنة، ويبدو أنه حديث موضوع.

(١٣) التنجيم واستشارة المنجمين عن الأيام المناسبة للرحلة مذموم شرعًا، وليس له أصل.

(١٤) كانت سنغافورة مستعمرة بريطانية في جنوب جزيرة الملايو، وتمثل نهاية الخط البحري الواصل بين بريطانيا وجنوب شرق آسيا، ونقطة انطلاق للسفن المتوجهة إلى الشرق الأوسط وبقية أجزاء العالم. استقلت عن ماليزيا عام ١٩٦٥م، وأضحت دولة قائمة بذاتها، ومركزًا تجاريًا وثقافيًا نشطًا في جنوب شرق آسيا.

أو بينانق إلى جُدَّة[١٥] – ميناء مكة – وتستغرق الرحلة مدة تقدر بثلاثة عشر إلى سبعة عشر يومًا. ويحدد الحاج مسار رحلته من أي من الميناءين اللذين ذكرا آنفًا، وذلك عن طريق سماسرة الحج الذين يستقبلونه عند وصوله إلى محطة السكة الحديدية، ويوفرون له السكن اللازم إلى حين حضور سفينة الحجاج التي ستبحر به وبأمتعته عندما يأتي دوره.

وفي يوم السفر يجب أن يُحصن الحاج طبيًّا قبل أن يصعد على متن السفينة، وهي مجرد احتياطات فرضتها السلطات للحد من انتشار داء الجدري. وينتشر هذا الداء وداء الكوليرا أحيانًا في أوساط الحجاج، وعليه يجب أن تزود كل سفينة تقل نحو ألف حاج أو أقل بطبيب، وتنحصر مهمة هؤلاء الأطباء في الحدِّ من انتشار مثل هذه الأمراض الوبائية على متن السفينة التي تقل الحجاج. وقبل أن تدخل السفن ميناء جُدَّة يجب أن ترسو في جزيرة كمران التي تبعد نحو خمسمئة ميل من جُدَّة، ثم يترجَّل كل حاج من على متن السفينة، ويذهب إلى مكاتب الحجر الصحي على الساحل، حتى لو كانت لديه شهادة براءة طبية تؤكد خلو السفينة من أي مرض، وتتمثل الخدمات التي يقدمها الحجر الصحي في: الحمام بالماء المالح، وتبخير ثياب الحجاج.

(١٥) هي مدينة ساحلية كبرى، تقع على البحر الأحمر، وتبعُد عن مكة المكرمة نحو (٨٠ كم). وهي مدينة تجارية عريقة، جعلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه خلفًا لميناء الشُّعيبة. وفي هذا يقول الأستاذ السباعي: "وفي عهده حوَّل الميناء من الشُّعيبة إلى جُدَّة، فقد كانت الشُّعيبة ساحل مكة في عهد الجاهلية وصدر الإسلام، إلى أن تحول الميناء في عهده إلى جُدَّة؛ وذلك أن أهل مكة كلَّموه في أن يحول الساحل من الشُّعيبة إلى جُدَّة، لقرب الأخيرة من مكة، فخرج عثمان، ورأى موضعها، وأمر بتحول الساحل إليها". وحاليًا تعد جُدَّة ميناء المملكة العربية السعودية الأول، وفيها مدينة الحجاج، وعدد من المراكز التجارية العالمية. أحمد السباعي، تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٩م، ج١، ص١٠١.

وترسو السفن على بُعد أربعة أو خمسة أميال من ميناء جُدَّة؛ لأن الميناء مملوء بالشعب المرجانية، ثم ينزل الحاج ومعه أمتعته من السفينة على قارب صغير (سَنْبك)، يقوده بحارة عرب إلى المرفأ، ثم بعد ذلك يترجَّل على رصيف ممتد من الساحل إلى البحر، وأمتعته على رصيف آخر. وينبغي أن يمر الحاج عبر بوابات عدة قبل أن يصل إلى مكان تسلُّم الأمتعة، ويُسأل في البوابة الأولى عن الجهة التي حضر منها، واسم شيخه. ويقصد بالشيخ مطوف الحاج في مكة[١٦]. وفي مكة نحو ستمئة أو سبعمئة شيخ (أو مطوف كما يسمونهم باللغة العربية)، ولابد أن يكون لكل حاج مطوف معين. ولهؤلاء المطوفين وكلاء في جُدَّة يهتمون بشؤون الحجاج خلال فترة إقامتهم هناك. وبعد أن يُصنَّف الحجاج في البوابة الأولى، يجب عليهم أن يذهبوا لتسلُّم أمتعتهم، بعد أن يفحصها ضباط الجمارك. وبعد التفتيش الجمركي ينقل الحمَّالون أو العربات التي تجرها الحمير كل الأمتعة إلى المخازن.

وصف مدينة جُدَّة

تظهر جُدَّة على مسافة من ساحل البحر، وهي مدينة جميلة جداً، وفيها مبان شاهقة ومتعددة الطوابق تشبه الصناديق، وتختلف في أطوالها وسعتها، وهي موزعة في نظام بديع[١٧]. وسقوف المباني المسطحة تترابط مع بعضها بعضا في شكل أعشاش للحمام،

(١٦) يذكر الأستاذ أحمد السباعي أن صناعة الطوافة ربما ابتدعت في عهد المماليك الشراكسة، بحكم جهلهم باللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، فكانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم، ويدلهم على مشاعر الحج، ويتلو أمامهم أدعيته. ويُذكر أن السلطان قايتباي حج عام ٨٨٤هـ، ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية، ولم يذكر المؤرخون مطوفًا قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة. انظر أحمد السباعي، المرجع السابق، ج١، ص٣٨٣.

(١٧) يبدو أن الحاج عبدالماجد يقصد بالصناديق الرواشين التي كانت وما زالت تمثل أبرز فنون العمارة التقليدية في مدينة جُدَّة، وهي عبارة عن غرف صغيرة شبه معلقة، مصنوعة من أنواع مختلفة من الأخشاب، وكانت تستخدم وحدات منفصلة، =

وجميعها تطل على ساحل البحر الأحمر، وخلفها الصحراء العربية القاحلة. لكن الشوارع في داخل المدينة معفرة ومتسخة وضيقة، وليس بينها شارع مستقيم خلاف شارع أو شارعين. والشوارع غير مرقمة والمنازل كذلك، وجميعها تبدو للزائر متشابهة، والاحتمالات كبيرة في أن يضل الزائر طريقه إذا بَعُدَ عن مكان إقامته، أو لم يصحبه دليل. والشيء الآخر الذي يلحظه الزائر هي حشود الذباب المنتشرة في كل مكان، بما في ذلك المنازل والمتاجر، وفي المساء يأتي الناموس في حشود تقدر بالآلاف. وبين الذباب والناموس يكون الحاج المجهد المرهق قلق المضجع طوال عشرين ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين. وفوق هذا وذاك فإن ماء الشرب الذي يدفع الحاج له بسخاء لم يكن على المستوى المطلوب. ومصادر المياه في جُدَّة لم ترق لمستوى المياه في المدن الكبرى في الملايو (أي: ماليزيا)، حيث توجد خزانات المياه العذبة التي تغذيها مساقط المياه المتدفقة من بعض الجبال والمرتفعات، وتوفر هذه الخزانات احتياجات السكان عن طريق خط أنابيب مياه رئيس أو أنابيب صغيرة في المنازل. ولا يوجد أيضًا أي نهر للمياه العذبة كما هي الحال في قرى الملايو. وفي جُدَّة أعداد كبيرة من الآبار خارج المدينة، تتغذى من مياه الأمطار لا المساقط المائية. ويستحسن أن نترك وصف المياه الراكدة في الآبار لأشهر عدة للخيال، لكن يجب أن نذكر أن المياه في كل مكان في الحجاز باردة ومنعشة، وبالأحرى مثل الماء المُثلَّج؛ لأنها تُبرَّد في دوارق فخارية تُستخدم بصورة واسعة في كل القطر.

= أو ترص رأسيًا فوق بعضها بعضًا، أو تصف أفقيًا، حسب احتياجات المنزل، وتقام على دعائم ناتئة (كوابيل) من الخشب، وتختلف في نوعيتها وحجمها تبعًا لإمكانات صاحب البيت وذوقه، وتوضع الدعامات الخشبية داخل جدران المبنى لحمل الرواشين، وبطبيعة الحال تظهر مهارات النجارين بشكل واضح في الأشغال الخشبية، مثل: القطاعات المتشابكة والطنف والأفاريز المائلة للسطح ومصاريع النوافد. لمزيد من التفصيل انظر: حسني عبدالحافظ، "رواشين جُدَّة... وعبقرية الفن في الحضارة الإسلامية"، مجلة الحج والعمرة، العدد الحادي عشر، المحرم ١٤٢٤هـ/ مارس- أبريل ٢٠٠٣م، ص٤٠-٤٣.

كقاعدة عامة لا يقيم الحاج أكثر من يومين في جُدَّة؛ لأن توفير احتياجاته لمدة أطول يكلف المطوفين مصاعب جمة، لذا نجدهم يحثونه على الذهاب إلى مكة فور تحصيل الضرائب وفحص الجوازات. وقبل مغادرة جُدَّة، يجب أن يزور الحاج قبة حواء[١٨] التي تقع في الجزء الشمال الشرقي من المدينة، وطول القبة يقدر بستين ياردة، ويقال: إن هذا الارتفاع يمثل ثلث ارتفاع قامة الأم حواء. ويجد الحاج في هذا الموقع عددًا كبيرًا من الرجال والنساء والأطفال الذين يحلِّقون حوله طالبين الزكاة[١٩]. ويُنصح الحاج أن يأخذ معه في هذه الزيارة كمية وافرة من الفئات النقدية الصغيرة؛ لأنه بخلاف ذلك سيجد صعوبة في السير نسبة لإلحاح الشحاذين المتطفلين.

الإعداد لأداء المناسك

يجب أن يغتسل الحاج ويتوضأ قبل مغادرة جُدَّة، ثم يرتدي الإحرام ويصلي ركعتين[٢٠]. ويتكون إحرام الرجال من قطعتي نسيج أبيض لا تحاك أطرافهما، وتستخدم إحداهما غطاءً للرجلين منسدلا من الوسط، مثل: "السارنق"، والأخرى غطاءً للجزء الأعلى من الجسم، مثل: "الباجو". ويجب أن يكون الرأس حاسرًا، بمعنى ألا تُلبس عليه أية طاقية، إلا أن ذلك لا يمنع من استخدام شمسية تقي رأس الحاج من الشمس. وبالنسبة للقدمين فيمكن أن يُغطي باطنهما وتظل الأصابع مكشوفة، وإذا كان الحاج لا يفضل السير حافي القدمين يمكنه أن ينتعل شبطًا مكشوفًا. وبالنسبة للنساء فالأساس في الإحرام أن يغطي كل الجسم عدا الوجه، وأن تكون ملابس الإحرام بيضاء ومخيطة. وعندما يكون الحاج مرتديًا الإحرام يجب

---

(١٨) زيارة قبر حواء ليست من الشعائر الدينية الواجبة، بل من البدع التي يمارسها بعض الحجاج.

(١٩) يقصد الكاتب الصدقة؛ لأن الزكاة لا تصرف إلا حسب مصارفها الشرعية.

(٢٠) جدة ليست ميقاتًا يلبس الإحرام فيه، إلا لأهلها فقط.

أن يبعد نفسه عن كل دواعي الجماع، وأي تجاوز لهذه القاعدة يفضي إلى بطلان إحرامه، ولا يجوز له تقليم الأظافر، أو حلق الشعر من أي جزء في جسمه، وكفارة أي تجاوز لهذه القواعد تقضي التصدُّق بكمية محددة من الذرة أو عدد معين من الأغنام يدفعه الحاج إلى الفقراء(٢١).

رحلة المعاناة إلى مكة

تتم الرحلة إلى مكة عن طريق الجِمَال، وهناك قاعدة عامة، هي أن يمتطي كل حاجين بعيرًا واحدًا. ويُوضع على ظهر البعير سرج خشبي محشو بسعف النخيل (يُعرف بالشُقدف)(٢٢)، ويركب فيه كل حاج من جهة، ويستطيع أن يجلس الحاج أو ينام بكل ارتياح في الشُقدف، لكن لا يمكنه أن يمد رجليه بطلاقة عندما يكون مضطجعًا. ويكون وقت السفر ليلاً، وذلك لشدة حرارة الشمس في النهار، وعلى مدار السنة عدا شهور فصل الشتاء. وتستغرق الرحلة من جُدَّة إلى مكة ليلتين، والاستراحة بينهما ليوم كامل في مكان

(٢١) كفارة تقليم الأظافر أو حلق الشعر أثناء الإحرام تكون بذبح شاة توزع على فقراء الحرم.

(٢٢) الشُقدف عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد متماثلين لا يستقل أحدهما بالوقوف دون الآخر، بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل، ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من أعواد الشوحط القابل للثني، بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال شكل القسمان قبة كاملة، يسدل عليها ستر للوقاية من الشمس نهارًا ومن البرد ليلاً. وعلى جانب كل شق من الشُقدف أجربة (مفردها جراب) يسمونها مخالي (مفردها مخلاة) يوضع فيها ما يحتاجه الراكب من مرافق. والشُقدف يستعمله اثنان واحد من كل جانب. وفي بعض الأحيان يتوسط بين هذين الراكبين راكب ثالث صغير السن على ظهر الجمل بين الشقين. وهذا المكان يسمى الوسك. لقد كانت الشقادف (مفردها شُقدف) تستعمل للتنقل بين جُدَّة ومكة والمدينة والطائف قبل ظهور وسائل المواصلات الحديثة. واستعمال الشقادف يبدو قديمًا فقد نوه به ابن جبير، وابن بطوطة، والعياشي في رحلاتهم إلى الحجاز. لمزيد من التفصيل انظر: حمد الجاسر، مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد)، الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٠٥، وأحمد السباعي، المرجع السابق، ج١، ٢٨٦-٢٨٧، وعبدالله محمد بكر، "الشقادف المكية... فنادق سياحية على ظهور الإبل"، مجلة الحج والعمرة، العدد السادس، شعبان ١٤٢٤هـ/ سبتمبر - أكتوبر ٢٠٠٣م، ص٧٠-٧٢.

يُعرف بـ "بحرة". وهذا المكان ليس سوى مجموعة من القطاطي، معظمها متاجر لبيع القهوة والشاي، إلا أن الحاج يستطيع أن يشتري أشياء أخرى، مثل: اللحم، والزبدة، والأرز، والدقيق، والسجائر. ولا يهتم الملايويون بأكل الأرز والمرق الذي يعرضه التجار العرب للبيع؛ لأنه ليس معداً بالطريقة التي اعتادوا عليها، فلذا يفضلون أن يعُدوا طعامهم بأنفسهم، وقد علم البدو بذلك؛ فأضحوا يتجرون في حطب الوقود في موقف قوافل الملايو. وبالطبع فإن هذا الموقف كان بعيداً من القرية، وبجانبه بعض الآبار التي يأخذ منها الحجاج حاجتهم من المياه، لكنها مياه مالحة.

وخلال الرحلة نفسها لم يكن الحجاج أحراراً طلقاء من الصعاب التي تعترضهم؛ لأن الجَمَّالة يطرقون على الشقادف طول الليل ويوقظونهم بقولهم: "ميزان... ميزان"؛ أي: احفظوا الوزن على جنبتي الشُقدف، ويبدو أنهم يريدون من ذلك أن يتأكدوا إذا كان الحجاج يغطون في نوم عميق، وبذلك يمكنهم أن يأخذوا شيئًا من زادهم؛ لأن الأشياء القيمة تكون مربوطة في جسم الحاج. وربما يكون أكثر شيء مزعج للحاج هو عندما تعتريه صحوة من النوم أثناء الليل، ويجد قارورة مائه فارغة، والماء قد سرقه أحد الجَمَّالة (أو الهجانة). ولسبب أو آخر، يكون زائر الصحراء العربية في حالة عطش دائم، ويود أن يأخذ جرعة ماء على رأس كل عشرين دقيقة أو نحو ذلك. ومن ثمّ تخيل الغم والكدر الذي يعتري الحاج عندما يجد قارورته فارغة! وربما تكون هذه التجربة أشد قسوة إذا كان الحاج لا يعرف لغة البدو، وحاول أن يستجوبهم بلغته الملايوية عن السارق، فلا يجد منهم سوى السخرية والضحك عليه[٢٣].

(٢٣) هذا هو حال الحج قبل عهد الملك عبدالعزيز، وهذه شهادة معاصرة تعكس حالة الأمن السيئة التي كانت تعيشها المنطقة بالنسبة للحجاج، أما في عهد الملك عبدالعزيز – رحمه الله – أمنت الطرق، وساد الأمن البلاد.

وبعد القدوم إلى مكة، التي يصل إليها الحاج في الصباح الباكر من اليوم الثاني، يجب أن يقوم الحاج بأداء الطواف، والسعي، وحلق شعر رأسه، وذلك قبل أن يخلع الإحرام ويرتدي زيه العادي مرة أخرى. ويؤدي الطواف حول الكعبة، التي تقع في منتصف المسجد الحرام (مسجد مكة)، سبعة أشواط، جاعلا كتفه الأيسر، الذي لا يماثله كتفه الأيمن، حيث إنه غير مغطى بإزار الإحرام، ويجب أن يكون الكتف الأيسر إلى جانب الكعبة. وتبدأ نقطة البداية في الطواف من موقع محاذٍ للحجر الأسود المعروف، الذي في الركن الشمالي الشرقي من مبنى الكعبة[٢٤]. وعندما يكون الحاج طائفًا يردد نداء التلبية المعلوم[٢٥]، وفي طريق العودة يقبِّل الحجر الأسود، أما إذا لم يستطع الاقتراب من الكعبة نسبة للزحام فعليه أن يلوح بيده عندما يحاذيه، وهذا أيضًا يعد فضيلة. ويوجد حجر آخر غير أسود لكنه يميل إلى الصُفرة، ويُعرف بالركن اليماني في الجزء الجنوبي من مبنى الكعبة، ويجوز للحاج أيضًا أن يقبِّله أو يلوح بيده عندما يحاذيه أثناء الطواف، إلا أن ذلك ليس واجبًا، كما هي الحال بالنسبة للحجر الأسود[٢٦]. ويكون السعي سبعة أشواط، سيرًا على الأقدام بين الصفا والمروة، وهما جبلان يقعان خارج صحن الحرم المكي في اتجاه الشرق[٢٧]، لكنهما يبعدان من بعضهما. وفي نقطة معينة من هذا السعي سواء كان ذلك قدومًا أو رواحًا يجب على

(٢٤) الحجر الأسود يقع في الناحية الجنوبية الشرقية، وليس الشمال الشرقي.

(٢٥) التلبية ذكر مخصوص يقوله الحاج أو المعتمر، والصيغة المروية عن رسول الله ﷺ: "لبيك الله اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

(٢٦) تقبيل الحجر الأسود ليس واجبًا كما أشار هنا، بل هو سنة، كما أن تقبيل الركن اليماني ليس واجبًا، بل إن الصحيح هو استلامه إن أمكن دون تقبيله، وإن لم يتمكن من ذلك فلا يلوح أو يشير إليه.

(٢٧) بعد توسعة الحرم المكي في العهد السعودي أصبحا ضمن بناء المسجد، ويكون السعي بينهما مشيًا، وهرولة بين العلمين الأخضرين.

الحاج أن يهرول(٢٨) لمسافة عشر ياردات. ويستطيع الحاج أيضًا أن يركب على ظهر حمار إذا كان مجهدًا وعاجزًا عن السير، ثم يوضع في شبرية(٢٩) يحملها أجراء متخصصون أثناء الطواف؛ لأنه يمنع استخدام الدواب داخل صحن المسجد. وبعد الصفا يأتي الحلاق، ويحلق شعر الحاج. وبعد ذلك يتحلل الحاج من الإحرام، ويرتدي ثيابه العادية.

ويُعرف هذا الإجراء بالعمرة وفي اللغة الملايوية بـ "حج كجيل". ويجوز للحاج أن يؤدي العمرة طوال أيام السنة عدا الفترة الواقعة بين الأول من شوال والثاني عشر من ذي الحجة(٣٠). فيذهب الحاج إلى التنعيم(٣١)، التي تقع عند ملتقى طريق المدينة الذي يفصل الأرض المقدسة في مكة عن باقي الأراضي الأخرى، ويحرم من هناك، ويسعى بين الصفا والمروة، ويحلق شعر رأسه. ويمكن أن تؤدى العمرة بصفة متكررة، لكن المُستَحَب بالنسبة للحاج هو أن يؤديها مع الطواف الذي يمكن أداؤه في أي زمان، وأي وقت من السنة دون ارتداء الإحرام(٣٢).

---

(٢٨) ليست الهرولة واجبة، بل مستحبة.

(٢٩) الشبرية هي على هيئة سرير مربع الشكل، يكون باطنها إلى أعلى، وظهرها إلى أسفل، يجلس الحاج في وسطها، ويحمله الحمالون من أطرافها البارزة. وتصنع الشبرية من أخشاب خاصة قوية مثل (الخشب الجاوي الأحمر)، وفي مقاسات تلائم أحجام جميع الناس، ويقوم بهذه المهنة بعض الأفارقة النيجيريين الذين يقطنون مكة منذ عقود طويلة من الزمن، فقد امتهنوا هذه المهنة، وورثوها لأبنائهم جيلاً عن جيل إلى يومنا هذا. لمزيد من التفصيل انظر: عبد محمد أبكر، "الشبرية المكية... الطواف فوق رؤوس الرجال"، مجلة الحج والعمرة، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/ مايو ٢٠٠٣، ص٥٢-٥٥.

(٣٠) هذا التحديد غير صحيح، والاستثناء الوحيد هو إذا تلبس الإنسان بالحج، فلا يدخل عليه عمرة وهو منشغل في أعمال الحج.

(٣١) التنعيم: أحد أحياء مكة على الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة، ويقع على بعد (٦ كم) شمالي المسجد الحرام. وبه مسجد السيدة عائشة، ويعد ميقاتًا مكانيًا لمن يريد العمرة من أهل مكة أو المقيمين فيها لفترات عارضة.

(٣٢) الكلام هنا عن أداء العمرة دون ارتداء لباس الإحرام غير صحيح: لأن العمرة الصحيحة تتم بنية، وتلفظ بالنسك، ولباس الإحرام المشروع.

تقدر مساحة مكة بنحو أربعة أو خمسة أميال مربعة، ويسكنها بصفة دائمة نحو ثلاثين ألف نسمة، وفي موسم الحج نحو مئة ألف من كل الجنسيات الموجودة تحت الشمس، وهي مبنية على أرض غير مسطحة، بل أقرب أن تكون جبلية، ويتوسطها واد. وقد بُنيت قباب على المواقع التي ولد فيها محمد ﷺ وخلفاؤه الأربعة، وما برح المطوفون يعرّفون الحجاج بهذه الأماكن(٣٣). وأم الرسول آمنة وزوجه الأولى خديجة مقبورتان بمكة في موقع يعرف بـ "المعلاة"(٣٤)، وهي مقبرة كبيرة في ضواحي المدينة. ومواقع دفنهما أيضًا من المواقع التي يزورها الحجاج. ومكة من حيث النظافة والصرف الصحي أفضل من جُدَّة، وتتماثل مبانيها في التصميم المعماري، وشوارعها معفرة وقذرة وضيقة. وفيها أيضًا مشكلة الذباب والناموس، كما هي الحال في جُدَّة(٣٥)، لكنه لحسن الحظ ماؤها جيد، وتوجد بها حفائر تنقل "الماء العذب" من المساقط المائية التي توجد على جوانب بعض مرتفعات الطائف على يمين مكة، ويقال: إن هذه الحفائر قد أنشأتها السيدة زبيدة إحدى نساء خليفة بغداد المعروف بهارون

---

(٣٣) هذه القباب المبنية تضمنت مخالفات شرعية: مما أدى إلى إزالتها عند دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - مكة.

(٣٤) تختلف الروايات التاريخية حول صحة وجود قبري السيدة خديجة بنت خويلد والسيدة آمنة بنت وهب بالمعلاة، حيث يقول تقي الدين الفارسي (ت ٨٨٢هـ): "لا يعرف قبر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في عهدنا سوى قبر أم المؤمنين ميمونة في سرف". وفيما يخص قبر السيدة خديجة الموجود بالمعلاة يقول ابن ضياء في كتاب "البحر العميق في العمرة إلى بيت الله العتيق"، نقلاً عن المرجاني: إنه في أول القرن الثامن رأى أحد الأولياء رؤيا، بأن الموضع الموجود في المعلاة هو قبر السيدة خديجة رضي الله عنها. ومن ثم فإن القبر الذي يُنسب إلى السيدة خديجة لا يثبت أمام التاريخ، والراجح أنه قد أسس في ضوء الرؤيا الوارد ذكرها، والله أعلم. وهناك روايتان بشأن السيدة آمنة، ترى إحداهما أنها دفنت في شعب أبي ذئب الخزاعي في الحجون، وتزعم الثانية بأنها دُفنت في دار رابعة بالمعلاة بثنية أذاخر، سنوك، ص ٣٧٢. والصحيح أنها دفنت في الأبواء بين مكة والمدينة.

(٣٥) هذه الأحوال والأوضاع تبدلت اليوم، ومنذ دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة عني - رحمه الله - بخدمة الأماكن المقدسة والمحافظة عليها.

الرشيد[٣٦]. وشوارع مكة مملوءة بالكلاب، والكلب بالنسبة للمسلمين مثل الخنزير في النجاسة، ولو لمسه الشخص يحتاج إلى وضوء خاص ليعود إلى طهره مرة أخرى[٣٧]. وهذه الكلاب كلاب ضالة وتوجد في أي مكان، إلا أنها غير مؤذية حسب قول سكان مكة القدامى، ولا يُعرف عنها السعر إطلاقًا، أو لا يُقال: إنها عقرت أي شخص. وقد أُخبر الكاتب أن السبب وراء تسامح الناس تجاه هذه الحيوانات القذرة هو أنها تقوم بحماية الكعبة من تلوث الكفار، وأنها مسلحة بقوة خفية تعينها على معرفتهم إذا حاولوا الدخول إلى الأرض المقدسة، فهي تنقض عليهم، وتعقرهم حتى يموتوا موتًا مشينًا يستحقونه[٣٨].

والمسجد الحرام هو السمة المميزة لهذه المدينة المقدسة، ويقع في قلبها حيث يطل على الوادي المذكور، وهو محاط بمجموعة من الجبال التي تنهض عند سفوحها منازل العرب الشاهقة. كما أنه مُسوَّرٌ من كل الجوانب، وسقفه يقوم على أعمدة داخلية بينها وبين الجدار نحو ستين قدمًا، وشكله مستطيل مع زوايا منفرجة تزيد قليلاً عن تسعين درجة في الركنين الجنوب الشرقي والشمال الغربي، وطوله حوالي أربعمئة وستين قدمًا من الشمال إلى الجنوب، وعرضه أربعمئة وأربعون قدمًا من الشرق إلى الغرب. ويُعرف هذا المسجد الشريف أحيانًا بـ "بيت الله"، ويظهر هيكله في شكل مسرح للأيام

---

(٣٦) يقصد الكاتب البئر أو العين التي أمرت بحفرها السيدة أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الملقبة بـ "زبيدة"، وزوج الخليفة هارون الرشيد. وقد أمرت هذه السيدة الخيرة بتنفيذ هذا المشروع في أواخر القرن الثاني للهجرة عندما سمعت بشح المياه في شعاب مكة. وتنفيذ هذا العمل الخيري تم نتيجة لعزمها الصادق الذي تجسد في قولتها المشهورة للمعماريين، التي يحفظها أهل مكة عن ظهر قلب: "افعلوها ولو كلفت ضربة الفأس دينارًا من الذهب". وتقع عين زبيدة هذه بين مزدلفة ومكة المكرمة، ويصل ماؤها إلى مشارف مكة وعرفات. لمزيد من التفصيل انظر: أيمن سلطان، "عين زبيدة: قصة امرأة هزمت الجبال بفأس الإصرار"، مجلة الحج والعمرة، العدد، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ يونيو ٢٠٠٣م، ص٨٣-٤١.

(٣٧) لمس الكلاب لا ينقض الوضوء، ويبدو أن الكاتب يقصد أن المسلم يحتاج إلى غسل يديه؛ نظرًا لنجاسة الكلب.

(٣٨) هذا الكلام غير صحيح، ولا أساس له.

الخوالي. وله أكثر من اثنين وعشرين بابًا[٣٩]، وأكثرها شهرة وأكبرها حجمًا هي: باب الصفا، وباب السلام، وباب الزيارة، وباب إبراهيم. وللمسجد سبع منارات[٤٠] ينادي من خلالها المؤذنون المسلمين للصلاة، وفي داخل المسجد أكثر من ثلاثمئة وأحد عشر عامودًا لتثبيت السقف، وهي على مسافة من الحائط الداخلي. وواحد من هذه الأعمدة بالقرب من باب الزيارة، ويُعرف بعامود الجن[٤١]. ويقال: إن الرسول ﷺ عندما كان يشيد في المسجد كان يحتاج إلى عامود واحد، وخلال بحثه هنا وهناك وجد أن العامود المعني بالأمر قد أخفاه ملك الجن، ورفض ألاَّ يرده إلا بعد أن تُدفع إليه كمية من الذهب تعادل وزن العامود نفسه. وقد كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة لهذا العامود، فوافق على أن يدفع ما طلبه ملك الجن، وقام بوضع العامود في واحد من الموازين وخاتمه في ميزان آخر. والشيء الذي سبب إزعاجًا عظيمًا لملك الجن هو أن خاتم الرسول ﷺ كان أثقل وزنًا من العامود. وفي ثورة غضب عارمة سدد الجان ضربة قوية بسيفه على العامود شظَّت جزءًا منه، وما يزال أثر هذه الضربة باقيًا إلى يومنا هذا. فلا شك أنها خرافة مقبولة، لكن مَنْ يستطيع أن يلقي ابتسامة إذا كان التاريخ يحكي لنا أن السلطان العثماني سليم الأول هو الذي بنى المسجد من ثلاثمئة وأحد عشر عامودًا[٤٢]،

(٣٩) عندما زار سنوك هورغرونية مكة في عام ١٨٨٥م كان عدد أبواب المسجد الحرام تسعة عشر بابًا، وبعد توسعة الحرم الأخيرة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله أصبح عدد الأبواب الحالية خمسة وتسعين بابًا.

(٤٠) بعد توسعة الحرم الأخيرة أصبح عدد المنارات تسعًا: اثنتان فوق باب الفتح، اثنتان فوق باب العمرة، واثنتان فوق باب الملك عبدالعزيز، واثنتان فوق باب الملك فهد، ومنارة واحدة على الصفا. لمزيد من التفصيل انظر: الشريف محمد بن مساعد الحسني، "منائر المسجد الحرام من العهد العباسي إلى العهد السعودي"، مجلة البلد الأمين، العدد الحادي عشر، المحرم - ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٦-١٩.

(٤١) هذه خرافة، ولا أساس لها من الصحة.

(٤٢) الذي بدأ ببناء المسجد الحرام هو السلطان سليم الثاني، وانتهت تلك العمارة في عهد ابنه السلطان مراد الثالث. انظر: السباعي، المرجع السابق، ج٢، ص٥٤٣-٥٤٤.

وليس الرسول ﷺ. وصحن المسجد ليس معروشًا، بل إن أرضيته مرصوفة بالحصى ومقسمة إلى أجزاء تربط بينها ممرات للمشاة من كل الجهات، تتجه صوب مركز المسجد الذي يشكل قاعدة الكعبة. وتظهر هنا وهناك أشياء تُشبه الفسطاط، أربعة منها تمثل مقامات أئمة المذاهب الأربعة السنية، حيث يؤمون الصلوات الخمس الجامعة. وواحد منها هو المنبر الذي تُلقى منه خطبة الجمعة أو العيد، وآخر على مقربة منه يُعرف بمقام إبراهيم، ويُسمى بذلك؛ لأنه هو الموقع الذي دعا فيه النبي إبراهيم ربه. وبجواره حائطٌ مُسوَّرٌ بداخله بئر زمزم الشهيرة(٤٣).

وتوجد الكعبة في وسط المسجد، وهي عبارة عن حجر مكعب الشكل ارتفاعه نحو ستة وثلاثين قدمًا، وطوله نحو اثنين وثلاثين قدمًا، وعرضه نحو ثلاثين قدمًا. وهي مكسوة بحرير أسود نسجت عليه آيات من القرآن الكريم، طرزتها وصيفات في مصر، التي كان يُرسل منها المحمل سنويًا(٤٤). وعلى مقربة من الركن الشرقي للكعبة باب يقدر ارتفاعه بسبعة أقدام، ويُفتح هذا الباب في أوقات معينة من السنة، عندما يُسمح للناس بغسيل بلاط الكعبة الذي يغطي كل

---

(٤٣) زمزم بئر عظيمة الأثر في الإسلام، يرجع تاريخ نبع مياهها إلى عصر نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، ويقال: إن هذا النبع تفجر بين رجلي إسماعيل عليه السلام عندما كانت تبحث أمه هاجر عن مصدر ماء بين جبل الصفا والمروة، وحينما تفجر النبع قالت هاجر مخاطبة ابنها الرضيع: الماء زمزم؛ أي: تجمع في مكان واحد، فلا تذهب عني بعيدًا، ومن هنا سمي هذا النبع ماء زمزم. وفي فضله وردت أحاديث كثيرة، نذكر منها ما رواه ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم"، وقوله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له".

(٤٤) المحمل قبة من خشب رائعة الصنعة، به شبابيك ملونة بأنواع من الأصباغ، وعليه تحمل كسوة الكعبة المصنوعة من الديباج المخوص بالذهب، ويُحمل على جمل أعظم ما يكون من السمن وحسن المنظر، خُضِّب جلده بالحناء، وزُينت رقبته وسائر أعضائه بجواهر نفيسة، ويقاد برسن محلًّى بالجواهر. وكانت تقام الاحتفالات بالمحمل يوم خروجه ويوم عودته، وعند وصوله إلى مكة يكون شريف مكة المكرمة دائمًا في استقباله. لمزيد من التفصيل انظر: إبراهيم حلمي، المحمل، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د. ت.

أجزائها، وارتفاع البلاط أيضًا سبعة أقدام من قاعدة الكعبة. ولا يوجد على هذا البلاط سجاد أو أي بساط من هذا القبيل، ولا توجد على الجدران أي نقوش. ولكن داخل الكعبة عامودان(٤٥)، وليس هناك مخرج إلى السطح العلوي إلا من الخارج(٤٦). وتُرى على السقف بعض آثار الأواني المنزلية القديمة معلقة، مثل: أباريق ماء نحاسية، وأحواض، وما شابه ذلك، ويقال: إنها كانت ملكًا للنبي إبراهيم عليه السلام والنبي محمد ﷺ. وقد سبق الحديث عن الحجر الأسود والحجر الأصفر(٤٧)، اللذين يوجدان في خارج جدار الكعبة، لكن الشيء الوحيد الذي لم يذكر هو الميزاب الصغير المصنوع من الذهب الخالص الذي يُستعمل في صرف مياه الأمطار من سقف الكعبة.

وقد بنى الكعبة النبي إبراهيم عليه السلام، وتمت صيانتها مرات عدة، آخرها كان قبل مئة عام من وفاة النبي محمد ﷺ. وصوب هذه الكعبة يُولي المسلمون وجوههم في كل بقاع العالم. وهناك اعتقاد بأن الحجر الأسود قد هبط من السماء مع آدم وحواء، والقصة تمضي وتقول: إن هذا الحجر كان أبيض اللون في بادئ الأمر، لكنه أضحى أسود، وحسب الرواية الخرافية فإن هذا السواد سببه الذنوب التي اقترفها الإنسان. لكن لا توجد قصة تُروى عن الحجر الأصفر(٤٨).

(٤٥) الصحيح أنه يوجد داخل الكعبة ثلاثة أعمدة. حسين باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة: عمارتها وكسوتها وسدانتها، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٩٩٩م، ص١٧٧.

(٤٦) الصحيح أنه يوجد داخل الكعبة سلم يفضي إلى سطحها. باسلامة، المرجع السابق، ص١٧٨-١٧٩.

(٤٧) يقصد بالحجر الأصفر الركن اليماني.

(٤٨) كلام الكاتب عن بناء الكعبة غير صحيح، فقد أعيد بناء الكعبة (١٢) مرة، وقد شهد الرسول ﷺ بناء الكعبة عندما احترقت قبل بعثته. باسلامة، المرجع السابق، ص٨٧-١٠٤. وكذلك عده أن سواد الحجر بسبب الذنوب رواية خرافية خطأ؛ إذ ورد إثبات ذلك في سنن الترمذي: ٣/٢٢٦، وصحيح ابن خزيمة: ٤/٢١٩.

والقصة التي تُروى عن زمزم، هي أن هاجر زوج إبراهيم عليه السلام عندما وضعت إسماعيل عليه السلام في الصحراء القاحلة، وقتها لم تكن مكة مدينة، ولا توجد فيها أية بقعة ماء لتغتسل به هاجر، لذا فإنها قد تركت الصبي حديث الولادة ملقى على الرمال، وذهبت تبحث عن الماء، وعند عودتها إلى الطفل وجدت نبعًا في المكان الذي كان الطفل يرفس فيه برجليه الصغيرتين، ويبدو أن هذا الحادث قد وقع استجابةً لدعائها.

ومن الحوض الصغير الذي وضع لتجميع مياه هذا النبع نشأت بئر زمزم الحالية، وعمقها الآن أكثر من عشرين قدمًا. وماء زمزم ليس حلوًا في مذاقه كالماء العذب، إلا أن عذوبته تُثبت للحاج بحجة أنه من عند الله سبحانه وتعالى.

أما سعي الحاج بين الصفا والمروة فهو مجرد تَذكُّر لتوسلات السيدة هاجر إلى الله سبحانه وتعالى في حالة كربها(٤٩)؛ لأنها كانت تتضرع بين هذين الموقعين إلى الله سبحانه وتعالى وتبحث عن الماء. ولا يمكن أن نعطي وصفًا كاملاً للمسجد الحرام دون ذكر الأعداد الكبيرة من الحمام التي تُرى هناك، ويُنظر إليها باعتبارها مقدسة(٥٠)، لم يسمع الكاتب أنها تعرضت لصيد أو طهي، ويعتقد الكثير أن هذا الحمام من الحيوانات الأليفة التي كانت ترعاها السيدة فاطمة البنت المحببة للنبي ﷺ، فهي تتكاثر، ويتضاعف عددها دون أي عوائق، ويرى الزائر أنها تطعم من حبوب الذرة أو الأرز في داخل صحن المسجد، كأنها في مزرعة للطيور الداجنة.

ومن الأماكن الأخرى الممتعة التي يزورها الحاج في مكة بجانب مواضع ميلاد النبي ﷺ وخلفائه الأربعة وقبتي السيدة آمنة والسيدة

---

(٤٩) السعي شعيرة من شعائر الحج والعمرة، وليس مجرد تذكر لدعاء السيدة هاجر لربها.

(٥٠) الحمام في الحرم ليس مقدسًا، لكن يحرم صيده.

خديجة هي: جبل قُبيس[٥١]، وجبل النور[٥٢]، وجبل ثور[٥٣]. ويطلق لفظ جبل في اللغة العربية على أية قمة شاهقة أو أرض مرتفعة. والموقع الذي يعرف بجبل قُبيس في الجانب الشرقي، وعلى مرأى من مكة، وتقدر مسافته من المسجد بنحو ميل تقريبًا. وفي الطريق المؤدية إلى هذا الجبل غار صغير يقيم فيه شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بـ "الطريقة النقشبندية"[٥٤]، وهو موقع معزول يقود زائره إلى ضرب من الحياة البائسة المتقشفة والمنقطعة عن باقي العالم. وهناك مرتفع يستطيع أن يحيي الحاج منه مريديه وأقرباءه الذين يقطنون في القرى النائية، ذاكرًا أسماءهم المشهورة عسى أن الله يَمُن عليهم بأداء فريضة الحج[٥٥].

(٥١) هو جبل مشرف على الصفا، وقد كان فيه مسجد بلال بن رباح رضي الله عنه، ومسجد انشقاق القمر، ويقال: إنَّ فيه قبر آدم عليه السلام، وعليه الآن بعض القصور الملكية. ولا تُعدُّ زيارته من شعائر الحج والعمرة. ويصفه العياشي (ت ١٠٩٠هـ) ضمن الأماكن التي تزار، ويقول إن: "الحجاج [كانوا] يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية، ويصعدون إليه، ويأكلونها فيه، ويزعمون أن من فعل ذلك أمن من وجع الأسنان والرأس". نقلاً عن حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٦٠.

(٥٢) هو جبل متوحد بأعلى مكة المكرمة يبعد نحو ثلاثة أميال منها، وعلى رأسه قبَّة تُرى من المسجد الحرام، وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبَّة، يصلي فيه الناس تبركًا، ويقع غار حراء من الناحية الغربية الموالية لمكة وأسفل القبَّة بين عدد من الصخور. وغار حراء هو المكان الذي كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل مجيء الوحي، وفيه تم اللقاء الأول بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ. حمد الجاسر، مرجع سابق، ص٥٣-٥٤.

(٥٣) هو الجبل الذي فيه غار الهجرة المعروف بغار ثور، وهو الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أعين مشركي مكة الذين كانوا يطاردونهما، ومنه انطلقا إلى يثرب. ويقع على بُعد ثلاثة أميال من مكة. حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٥٤.

(٥٤) الطريقة النقشبندية طريقة صوفية، تقوم على الذكر والمعارف الباطنية، أسسها محمد بهاء الدين بن محمد البخاري النقشبندي (ت ٧٩١هـ)، ولها أتباع ومريدون في تركيا، والأناضول، والهند، وجنوب شرق آسيا، وبدخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة تم القضاء على البدع، ومنها الصوفية وطرائقها المختلفة.

(٥٥) هذه البدع والخرافات انتهت في العهد السعودي.

ويقع جبل النور على نحو أربعة أميال شمال مكة، وكان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل نزول الوحي، وهنا ظهر له رسول الله جبريل عليه السلام ومعه الرسالة، وقرأ وطلب منه أن يقرأ أول آية من القرآن: "اقرأ باسم ربك...". إلا أن القصة التي تُروى للملايوي هي أن جبريل التقى النبي ﷺ في جبل النور عندما كان صبيًا، ثم نظف قلبه من الدم الأسود، وترك له فقط دم الفضيلة(٥٦). وعملية تنظيف القلب هذه قد كررها أيضًا الملك نفسه عند بئر زمزم وبمائها الطهور، وفي هذه الأثناء كان النبي ﷺ يريد أن يعرج إلى السماء في ليلة النصف من شعبان، حيث التقاه به جبريل، وغرس في قلبه نور الإيمان.

ويقع جبل ثور على بُعد عشرة أميال تقريبًا جنوب مكة، وعند سفحه يوجد الغار الذي لجأ إليه النبي ﷺ في رحلته الأولى إلى المدينة، حيث أنقذت العنكبوت حياته عندما نسجت بيتًا في مدخل الغار بعد قدوم النبي إليه(٥٧)، ولذلك لم يعتقد فريق الكفار الذي كان يبحث عن النبي بوجوده داخل الغار، بحجة أن دخول أي شخص إلى الغار يجب أن يفضي إلى تحطيم بيت العنكبوت. وتبين هذه القصة سبب عدم جرأة الملايوي على قتل العنكبوت؛ لأنه ينظر إليه بصفته صديقًا للنبي ﷺ. وهناك قصة أخرى حديثة عهد في الملايو إلا أنها لم تكن موثقة في الجزيرة العربية، وهي أن النبي عندما كان مختبئًا داخل هذا الغار ألقى أحد الباحثين عنه حجرًا داخل الغار، وضرب ذلك الحجر النبي على فمه، فشطر أحد فواطره إلى نصفين، وأن

---

(٥٦) لقد رويت حادثة شق الصدر هذه بطرق صحيحة، وعن كثير من الصحابة، منهم: أنس بن مالك رضي الله عنه فيما يرويه مسلم في صحيحه: "أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - مرضعته - ينادون: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون". وثبت في الصحيح تكرار حادث شق صدر الرسول ﷺ أكثر من مرة. انظر: صحيح مسلم، ١/١٠، ١٠٢.

(٥٧) حدث هذا بأمر الله تعالى وتقديره.

النبي كان لا يرغب في أن تُرى سنه مشطورة، فلذا قام بتسوية أسنانه الأخرى بمستوى السن المشطورة. وهذا هو السبب الذي يركن إليه الملايويون عندما يبردون أسنانهم أسوة بالنبي ﷺ(٥٨).

الرحلة إلى المدينة المنورة

زيارة قبر النبي ﷺ في المدينة واحدة من شعائر الحج التي يكون الحاج الملايوي متشوقًا لأدائها، بالرغم من أنها لم تكن ركنًا من أركان الحج(٥٩). ويعزى هذا التشوق إلى تذكر الشخص لقول النبي ﷺ: "الذين يروني حيًا أو ميتًا أحسبهم مثل أصحابي، وسيحظون يوم القيامة بشفاعتي"(٦٠).

وتُشد إلى المدينة ثلاث قوافل سنويًا، الأولى قبل شهر رمضان، والثانية بعد شهر رمضان، والثالثة بعد الحج. ويفضل الملايويون عمومًا الأولى والثانية، إلا إذا قصدوا الإقامة في الحجاز لموسم الحج القادم، حيث إنهم لا يرفضون الذهاب في القافلة الثالثة. وفي حالة الذهاب إلى المدينة لا حاجة لارتداء الإحرام، لكن في حالة العودة إلى مكة فهو واجب(٦١)؛ لأن القاعدة تقول: "يجب أن يكون الشخص عند دخول مكة في زي الإحرام". وفي المقابل، يجب على الشخص المغادر مكة أن يؤدي طواف الوداع، ويراد بالوداع مغادرة مكة.

---

(٥٨) هذا الكلام غير صحيح، وغير ثابت.

(٥٩) الزيارة المشروعة هي للمسجد النبوي والسلام على رسول الله ﷺ، وليست هذه الزيارة من شعائر الحج.

(٦٠) يبدو أن الكاتب قد حاول أن يجمع بين حديثي الرسول ﷺ بالكيفية التي أشار إليها. ويُروى الحديث الأول الذي أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر على الصيغة الآتية: "من زارني بعد وفاتي كأنما زارني في حياتي". أما الحديث الثاني فقد أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر، وصححه ابن السكن على هذا النحو: "من جاءني زائرًا لا تهمه إلا زيارتي كان حقًا على الله أن أكون له شفيعًا".

(٦١) لا يشترط لدخول مكة ارتداء الإحرام إلا لقاصد الحج أو العمرة.

وبعد طواف الوداع يبدأ الحاج رحلته إلى المدينة بالجمال، وتستغرق الرحلة إلى المدينة اثنتي عشرة ليلة، يتوقف فيها الحاج عند أحد عشر موقفًا مختلفًا، وهي مرتبة كما يأتي: وادي فاطمة، وعُسْفان، وسرف، والقديد، ورابغ(٦٢)، ومستورة، وبئر الشيخ، وبئر حسن، وبئر خليص، وبئر عباس، وبئر درويش. وتقع هذه المواقف المذكورة على الطريق السلطاني المعروف، الذي سلكه الكاتب عندما رافق القافلة الثانية عام ١٩٢٣م. ويُعرف الطريق الآخر بـ "شارع غير"، الذي يتفرع من رابغ، ويلتقي الطريق السلطاني عند بئر خليص. ويقال: إن هذا الطريق الثاني أقصر، إلا أن فيه بعض المرتفعات التي يجب أن يتسنمها الحاج.

وبالنسبة للرحلة من جُدَّة إلى مكة تتحرك القافلة في المساء دون النهار، حيث يبدأ التحرك حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ويتوقف السير عند الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا، ولا ينسى الكاتب إطلاقًا منظر الأعمدة المثبتة على الأرض أو الرمال، والمنصوب عليها قناديل(٦٣) زيتية لإضاءة مداخل المواقف المختلفة. ويظهر بريق هذه القناديل المعلقة من على البُعد، كأنها نجوم في فجر دامس، وتبدو هذه القناديل أكثر وضوحًا عندما تقترب القافلة. ومع صوت الموسيقا والغناء العربي والهندي، وصداهما ورجع الصدى في الفضاء الذي تغطيه كثبان الرمال، يكاد قلب الإنسان يذوب، ويتمنى السامع العودة إلى وطنه الأم على جناح السرعة؛ ليستمع إلى موسيقاه المحلية. ويبدو غريبًا أن الملايويين ليسوا كالهنود، لا يتغنون

---

(٦٢) هو ميقات اتخذه الناس في القرون المتأخرة بعد خراب الجُحفَة التي تعد ميقاتًا مكانيًا لأهل الشام والأردن وتركيا ومصر، كما حدَّده الرسول ﷺ في حديث المواقيت. وتبعد رابغ عن مكة نحو (١٨٣كم).

(٦٣) القناديل: آنية من الزجاج مشبوكة من ثلاث جهات في سلسلة تعلق منها، وفي جوف الآنية كأس يجعلون فيه الزيت والماء في وسطه ذبالة رفيعة يضيئها الموكلون بمشاعل يمسون بها الذبالة. انظر: أحمد السباعي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦٦.

بأغانيهم في مثل هذه الأماكن، وإذا شعروا بنوع من البهجة والسرور يعبرون عن ذلك بأنغام عربية، وليست ملايوية.

وعند انبلاج الصباح يظهر كل موقف من هذه المواقف كأنه مدينة صغيرة، حيث يتم بيع كل احتياجات الإنسان المتوافرة في الجزيرة العربية، والغريب في الأمر أن مباني هذه المتاجر مصنوعة من الصفيح، وليست ثابتة، عدا في رابغ التي تُعدُّ مدينة محصنة وميناءً متواضع الأهمية. وتُصنف عروض التجارة المختلفة عن بعضها بعضًا، ويوضع كل صنف في شكل حدوة حصان بداخل الشُقدف المحمول فيه، ويكون المدخل عند النقطة التي لا تكتمل فيها الدائرة. ويظل الحجاج مشغولين طوال اليوم بالشراء وإعداد الطعام، الذي يأكلون جزءًا منه في الموقف، ويحتفظون بالباقي معهم في الشقادف. وتقع هذه المواقف عادة في مواقع فيها آبار، ولكن الحجاج ليس مسموحًا لهم بسحب الماء من هذه الآبار؛ لأنها ملكٌ للبدو الذين يأتون بقِرَب جلدية مملوءة بالماء للبيع. ولكن يوجد في وادي فاطمة نُهير من الماء العذب، وحجمه أقل من حجم حفير واسع، يغسل فيه الحجاج أبدانهم، أو ثيابهم دون أجر. والماء في كل الآبار الواقعة في هذه المواقف جيِّد، إلا القديد ورابغ ومستورة فإن ماءها مالح؛ لأنها تقع على مقربة من ساحل البحر. وفي الحقيقة أن قُربها من البحر يُمكِّن الشخص من شراء سمكة حية، ومن رؤية البحر الأحمر بين القديد ورابغ.

وفي هذا المقام يستحسن أن أعطي وصفًا مختصرًا لكل المواقع التي رأيتها أثناء الرحلة، لكن لسوء الحظ هناك القليل الذي يذكر؛ لأن السفر كان معظمه في جنح الظلام. والذي يمكن أن يشاهده الإنسان في وضح النهار، معظمه عبارة عن سلاسل جبلية من الصخور الجرداء، تتخللها بعض السهول المنبسطة التي ينمو فيها البطيخ والذرة، وفي الأراضي المنخفضة شجر الدوم. ولا أثر لخيام

البدو على طول الطريق، والرأي السائد هو أن البدو في حالة ترحال دائم من مكان إلى آخر مع خيامهم، إلا أن هذا الرأي حسب ملاحظات الكاتب الشخصية ليس صحيحًا كل الصحة؛ لأنه لا يوجد بشرٌ تحت الشمس أكثر حبًا لمساكنهم وأوطانهم من البدو. وكما هو معلوم فإن البدو يمكن أن يسكنوا في منطقة معينة لمئات السنين دون أدنى محاولة للنزوح أو التفاتة للأماكن الغنية التي تقع على مقربة منها. وفي كثير من الأحيان أتحدث للبدو عن بلاد الملايو، معطيًا إياهم روايات مبالغًا فيها عن غناء الملايو وجمالها، وذلك مقارنة بأرضهم الجرداء التي تضاهي ندرة الماء فيها ندرة الذهب، وعندما أحكي لهم عن هذه القضايا يكاد لعابهم يسيل. وبعد سماعهم مثل هذا العطاء الإلهي غير المحدود يكون في خاتمة المطاف ردهم دون استثناء: "إن بلدك ربما يكون قد حصل على أفضل شيء يمكن أن يعطيه الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الدنيا، لكن لا يوجد شيء يقنعنا أن نترك منازلنا وأوطاننا".

وكما ذكرنا من قبل فإن الرحلة إلى المدينة تستغرق اثنتي عشرة ليلة، لكن في كثير من الأحيان يمكن أن تستغرق مدة أقل من هذه، والتأخير يتسبب فيه البدو الذين يتمهلون في سير القوافل لاستغلال أموال الحجاج. وهناك سر معلوم هو أن ذمم هذه القبائل البدوية الواقعة على طول طريق المدينة، وخاصة المنطقة الواقعة بين بئر حسن وبئر عباس، هي مرهونة بإعانات سنوية يدفعها حاكم الحجاز مقابل أن يكف هؤلاء البدو عن نهب الحجاج. وفي القافلة الثانية من مكة إلى المدينة عام ١٩٢٣م، التي صحبها الكاتب، توقفت القافلة فقط في بئر عباس تسع ليال، والقافلة الثالثة توقفت في المكان والزمان نفسه أكثر من ثلاثين يومًا، حتى أضحى الأرز نادرًا، وبلغ سعر كوب الشاي جنيهًا واحدًا. ولا توجد قافلة بلغت المدينة في عام ١٩٢٤م، لأن البدو اعترضوا كل القوافل عند رابغ، ومنعوها من

السير. وهذه هي السنوات التي تنحى فيها الملك حسين حاكم الحجاز(٦٤)، ونجمت هذه المشكلة عندما تفشى الخبر بأن حسينًا لم يكن قادرًا على دفع قيمة الإعانات المتفق عليها مع جملة من القبائل البدوية. بيد أن هذه الإعانات كانت تُدفع بانتظام في عهد الحكم التركي، لكن لا توجد أية قافلة ذهبت إلى مدينة دون أن تكون محروسة بمجموعة من الجند الأتراك، حتى إذا لم تتوقف القافلة في الطريق تحدث جرائم السرقة دائمًا والقتل أحيانًا من قبل الهجانة أثناء سير الرحلة(٦٥).

المدينة المنورة: بلدة طيبة ورسول كريم

بعد رحلة مجهدة وهجير شمس لافح يصل الحاج إلى المدينة. ويوجد هناك جبل صغير عند منعطف الطريق الذي يقود الحاج إلى مشارف المدينة، التي تقع على بُعد ميل واحد. وعند رؤية المدينة المقدسة وموضع قبر الرسول ﷺ تكون مشاعر الحاج دفَّاقة، تجعله ينسى المتاعب والمشاق التي عاناها خلال الأسبوعين أو الثلاثة الماضية، ويُستحسن أن يُترك ذكر ذلك للتجربة الشخصية بدلاً عن الوصف المجرد. ويتذكر الكاتب أن دموع الفرح بدأت تهطل من عينيه عند وصوله إليها، كأنه بعث من الموت إلى الحياة، وتسد العَبرة حلقه،

(٦٤) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين بن عون الحسني الهاشمي (١٨٥٤-١٩٣١م)، خلف عمه عبدالإله على إمارة مكة عام ١٩٠٨م، ووقف في الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية وألمانيا، وبمساندة البريطانيين أحكم قبضته على الحجاز، ثم وجَّه ابنه فيصل إلى بلاد الشام، فدخل سوريا، واحتلها عنوة بمعاونة الجيش البريطاني، وسيطر ابنه عبدالله على عمان، إلا أن نفوذه لم يدم طويلاً في الحجاز، حين دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة وحاصر جدة، حيث نصحه أهل مكة بالتنازل لابنه علي، ثم انتقل إلى جزيرة قبرص، حيث وافته المنية عام ١٩٣١م، فنقل جثمانه إلى القدس الشريف، ودفن في المسجد الأقصى. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٢، ٤٩-٥٠.

(٦٥) هذه هي الحالة الأمنية في الأماكن المقدسة والطرق المؤدية إليها، لكن هذا تغير عندما دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة، وأرسى الأمن والاستقرار في كامل المنطقة.

ويصعب عليه أن يمسح عينيه بيده ويزيل الدموع؛ لأنه يخشى أن يجعله مثل هذا السلوك أبله في نظر رفاقه المسافرين. ولكن العيب في النهاية هو أن يمسح هذه الدموع في وقت يشاركه فيه زملاؤه المسافرون المشاعر نفسها، وحقًا أن بعضهم كانوا ينتحبون بأصوات عالية، ويعيِّرهم الهجانة عديمو الخُلق.

والمدينة أصغر من مكة، ويقدر عدد سكانها المقيمين بنحو عشرين ألف نسمة، وهي تقع على واد، وفي أرض منبسطة تحفها الجبال. ونوع المباني وأنماطها تُشبه تمامًا مباني مكة وجُدَّة، لكن الشوارع ليست معفرة ومتسخة؛ لأن أرضها ليست رملية بل طينية. ويرى الشخص أشجار النخيل تنمو بكثافة، وحتى في بعض المناطق يوجد الموز وقصب السكر. وطقس المدينة في الصيف أكثر برودة من مكة، وماؤها يكاد يكون الأفضل في العالم كله. والسكان أكثر تهذيبًا وأفضل خُلُقًا من أي مكان في الحجاز. وحتى إن سوء خُلُق الهجانة وانفعالاتهم وغطرستهم التي يظهرونها أثناء الرحلة تتحول فجأة عند دخولهم المدينة إلى ظرف وحلم ولطف أكثر من لطف الحمل الوديع. ولا يوجد تهريج من بائعي القهوة، والمشروبات، وتجار العملة، كما هو في طرقات مكة. والجميع في حالة هدوء وسكينة، يبعثان الأمن والطمأنينة التي ينشدها المفكرون العظماء في توسلاتهم. وكل شخص يقول في همس: "إن المدينة هادئة ومطمئنة كما شهدها رسول الله ﷺ في حياته".

مسجد المدينة أصغر بكثير من مسجد مكة، ويقع في جنوب المدينة، ويولي شطره تجاه الكعبة، وشكله مستطيل، يقدر طوله بمئتي قدم من الشمال إلى الجنوب، وعرضه بمئة وخمسين قدمًا من الشرق إلى الغرب. وهو مرصوفٌ ومسقوفٌ من ثلاث جهات، مع وجود باحة في الجانب الغربي غير مرصوفة ولا مسقوفة، ومن خلالها تُرى بئر وبعض أشجار النخيل. وتقع في المقابل باحة مخصصة للنساء لأداء

صلواتهن. وفي جهة الجنوب باحة كبرى يؤدي الرجال فيها صلواتهم. ويقع قبر النبي ﷺ في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد. وعلى القبر قبة كبيرة، وبداخلها أيضًا قبرا أبي بكر وعمر، الخليفتين الأولين، وفي جوار قبر رسول الله ﷺ قبر ابنته الحبيبة فاطمة(٦٦). ولا يمكن مشاهدة هذه القبور الأربعة إلا عبر ثغرات في جدار القبة، وهي تحت رعاية الأغوات(٦٧) الذين عُينوا حرسًا خاصًا.

وللمسجد خمس مآذن، وجداره الجنوبي من الداخل منقوش بآيات قرآنية كُتبت بماء الذهب، وأرضية المسجد مكسوة بنوع من السجاد الفاخر في العالم. وهناك منبر يلقي منه الخطيب خطب الجمعة والعيد، وعلى مقربة منه يرى الحاج بقعة من التراب تقدر مساحتها ببضعة أقدام، ويقال: إنها مقدسة؛ لأن رسول الله ﷺ

(٦٦) يقصد الكاتب الحجرة النبوية الشريفة، وهي مقصورة مصنوعة من النحاس الأصفر، وتقع بالجهة الجنوبية الشرقية من المسجد النبوي، وفيها مدفن النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقدر طولها بـ (١٦م)، وعرضها بـ (١٥م)، وفي زواياها أربعة أعمدة كبيرة، أقيمت عليها القبة الخضراء، وأول من بنى هذه الحجرة الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز. ولهذه الحجرة النبوية أربعة أبواب هي: باب الوفود في الغرب، وباب التوبة في الجنوب، وباب التهجد في الشمال، وباب فاطمة في الشرق. ولا تعد زيارة هذه الحجرة النبوية شعيرة من شعائر الحج أو العمرة. أما من حيث وجود قبر فاطمة رضي الله عنها فذلك غير صحيح؛ لأنها دفنت في البقيع.

(٦٧) الأغوات مفردها أغا، ويقصد بالأغا في هذا السياق العبد الخصي الذي أُوقف لخدمة المسجد النبوي والحجرة الشريفة، وقد اختار المسلمون وقف الخصي دون غيره؛ لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغًا من الأشغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من الجنابة ومباشرة النساء. ويزيد عدد الأغوات في الحرم المدني، وينقص حسب كثرة الراغبين في الوقف وقلتهم، ويأتي رزق الكبار منهم من بيت المال، والبقية من الأوقاف المخصصة للأغوات في المدينة. وللأغوات نظم ضبط معلومة، ووظائف معينة، مثل: حمل مفاتيح الحجرة الشريفة، ونظافة المسجد والحجرة الشريفة وإنارتهما. ومعظمهم مالكية وأحناف حسب مذاهب ساداتهم الذين أوقفوهم، ولا يوجد بينهم شافعية وحنابلة؛ لأن الشافعية والحنابلة لا يقرون صحة وقف ذي الحياة. لمزيد من التفصيل انظر ما قاله العياشي في كتابه ماء الموائد، أو ما نقله عنه حمد الجاسر، مرجع سابق، ص١٧٧-١٧٨.

قد قال ذات مرة: إن هذه البقعة من التراب ستُرفع إلى السماء مع الخلق كافة يوم القيامة[٦٨]. ومن ثم يُنصح الحاج أن يؤدي صلاة قصيرة عند هذه البقعة، بحجة أنه سيصطحبها عندما يرفعها الله - سبحانه وتعالى - إلى السماء. وفي الوقت الحاضر لا يهم إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا، لكن يكفي أن راوي مثل هذا السر الديني القيِّم سيحصل على هبة (أو بخشيش) من الحاج غير المتشكك في روايته، ولا عجب أن هذا "البخشيش" سيساعده في جنته الدنيوية. وتوجد خارج المدينة من جهة الجنوب وعلى مسافة تقدر بمئة ياردة من حائط المسجد مقبرة تعرف بـ "البقيع"[٦٩]. وهي أيضًا من الأماكن التي يزورها الحاج؛ لأنها تضم عددًا من قباب وقبور الصالحين والشهداء الذين حظوا باحترام الرسول ﷺ وتقديره. وعلى بُعد ميلين من المدينة توجد مقبرة أخرى لشهداء واقعة أُحد الشهيرة التي تعد

---

(٦٨) لم يثبت ما يحتج به على صحة هذا الكلام، ويبدو أن الكاتب يقصد الروضة الشريفة التي قال فيها رسول الله ﷺ: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة". انظر: صحيح البخاري، ج٣، ص٤٩، وصحيح مسلم، ج٤، ص١٢٣. وهي المساحة التي تقع بين الحجرة النبوية ومنبر المسجد النبوي، وشكلها مستطيل، وامتدادها من الشرق إلى الغرب يقدر بـ (١٢م)، أما عرضها (١٥م). ويرجع تاريخ عمارتها على شكلها الحاضر إلى عهد السلطان عبدالمجيد الأول (ت ١٢٧٧هـ). ويختلف أهل العلم في المراد بقول الرسول ﷺ بأنها روضة من رياض الجنة، ويرى بعضهم أن المراد بقوله ﷺ هو انتقال هذا الموضع بعينه إلى الجنة، ويرى آخرون أن العبادة أو الصلاة في هذا الموضع تؤدي إلى الجنة.

(٦٩) البقيع (أو بقيع الغرقد) هو مقبرة أهل المدينة، يقع شرقي المسجد النبوي، وهو مقسم ثلاثة أقسام، يدفن في كل قسم مدة سنة، ثم يدفن في القسم الذي يليه، وبين هذه الأقسام طرقات يسير فيها الناس حتى لا يطؤوا القبور، ويحد كل طريق بسورين قصيرين، وقد رصفت الحكومة السعودية هذه الطرق بالأسمنت، وأنشأت سورًا مرتفعًا حول البقيع. وتكمن أهمية البقيع في ضمه بعض قبور صحابة رسول الله ﷺ، وبنات الرسول ﷺ وابنه إبراهيم، وأمهات المؤمنين. وكان الرسول ﷺ يزوره بانتظام ويحيي أهل البقيع بقوله: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، إنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية". لمزيد من التفصيل انظر: محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة: معالم وحضارة، ط ١، دمشق: دار القلم، ١٩٩٦م، ص٧٣-١٤٣.

من أعظم انتصارات الرسول ﷺ[٧٠]، ومن بين الشهداء الذين قُبروا في هذه المقبرة حمزة عم الرسول ﷺ، وهو مجاهد عظيم من قادة رسول الله ﷺ. وتقع هذه المقبرة عند سفح جبل أُحد. ويزور الحاج كل هذه المواقع مع المطوف، ويواصل إقامته في المدينة لحين حضور صلاة الجمعة، وبعدها يُخطر بإعداد التجهيزات اللازمة للعودة إلى مكة. ويصرف الحاج في هذه اللحظة كل مال ادخره؛ وذلك لشراء تمر المدينة الذي يقال: إنه أفضل تمر في العالم[٧١]، ثم يعود إلى مكة على الطريق نفسه الذي سلكه، ويواجه الصعاب والمشاق نفسها، إلا أن الاختلاف الوحيد هو أنه ليس في زي الإحرام.

الطائف: حديقة غناء وهواء طلق

الحاج الذي لا يستطيع زيارة المدينة المنورة يمكن أن يجني الفضائل نفسها بزيارة الطائف[٧٢]، كما يُذكر أن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ زيارة قبر عمي العباس في الطائف[٧٣] هي مساوية في الفضل لزيارتي[٧٤]

(٧٠) يبدو أن الكاتب قد خلط بين واقعة بدر الكبرى وواقعة جبل أُحد: لأن المسلمين انتصروا في الأولى، وهزموا في الثانية. ويقع جبل أحد في شمال المدينة المنورة، ويبعد عنها نحو (٥,٤كم)، ويقال: إنه سمي أحداً لتوحده وتفرده، فليست هناك جبال تتصل به، وإن خيل إلى من ينظر إليه أنه مكون من جبال عدة لكثرة ما يبدو من الرؤوس والشعب التي تتخلله. وهو يقع داخل حدود الحرم المدني؛ لأن جبل ثور الذي يمثل الحد الشمالي للحرم يقع خلفه. محمد السيد الوكيل، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٧١) يبدو أن الكاتب يبالغ بذكر أن تمور المدينة أفضل تمور العالم، إلا إذا كان يريد الإشارة إلى ما ورد في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: "من تصبح بسبع تمرات ما بين لابتيها – وفي رواية" من عجوة المدينة"– لم يضره يومه سم ولا سحر".

(٧٢) الطائف مدينة تاريخية عريقة، تبعد عن مكة نحو (٩٠ كم)، هواؤها طيب وماؤها عذب وأرضها خصبة، كانت مركزًا تجاريًا نشطًا في الجزيرة العربية قديمًا، وهي الآن مصيف، وبها عدد من المساجد العتيقة، أشهرها مسجد عبدالله بن العباس – رضي الله عنهما – ومسجد الكوع، ومسجد السنوسي.

(٧٣) العباس بن عبدالمطلب لم يدفن في الطائف، بل دفن في المدينة المنورة في مقبرة البقيع، وربما يقصد الكاتب ابنه عبدالله الذي عاش ودفن في الطائف. الخياري، تأريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٩م، ص٣٥٢.

(٧٤) قول المؤلف بأن زيارة الطائف مساوية في الفضل زيارة المسجد النبوي غير صحيح. ولم يرد أي حديث يدعو لزيارتها.

(أو زيارة قبري في المدينة)"[٧٥]. وفي الحقيقة أن حسنة هذا البديل تتمثل في أن المسافة بين الطائف ومكة تستغرق فقط ثلاث ليال مقابل اثنتي عشرة ليلة للوصول إلى المدينة. ويوجد حافز آخر في زيارة الطائف وهو أن طقسها أبرد من أي مكان آخر في الحجاز. وفي الحقيقة هي منتجع جبلي بالنسبة لمكة، وتُشبه كثيرًا في هذا الشأن سملا على طريق الهند.

وبعد الفراغ من موسم الحج وفي فترة شهور الصيف المحرقة يذهب وجهاء مكة وتجارها الأثرياء إلى الطائف. وبجانب أنها منتجع جبلي فهي أيضًا حديقة خضروات مكة، حيث يُزرع فيها الطماطم، والقرع، واليقطين، والجزر، والسبانخ، والبصل، من أجل الاستهلاك المحلي في مكة.

وربما لا يصح أن نطلق على الطائف مدينة؛ لأن فيها متاجر قليلة، أقل عددًا من المساكن الصيفية المشيَّدة في الحدائق، أو بالأحرى في حقول الكَرْم. وأحواش هذه المساكن الصيفية مملوءة بنبات الكَرْم الذي يختلج مع أشجار الرُّمان والشجيرات المزهرة. ولا حاجة أن نرسم لوحة لهذه الحدائق عندما يكون العنب ناضجًا والزهور متفتقة أكمامها، وأي شخص يمكن أن يُقدِّر ماذا يكون في مثل هذه الحدائق بعد رؤية الصخور والرمال في كل أرجاء القطر. وفي هذه الحدائق نلحظ أن البُرودة معززة بنهر من الماء العذب ينحدر مباشرة من الوسط. علمًا بأن الطائف ترتفع نحو أربعة آلاف وأربعمئة قدم فوق سطح البحر، فيمكن أن يرى الشخص أميالاً من مساحة القطر تحيط به، معطيةً إياه نوعًا من الشعور بالحرية فوق العديد من سلاسل الهضاب المتراصة. والمشهد من كل جوانب المنتجع الجبلي مشهد بهي رائع.

(٧٥) الحديث موضوع، ولا أثر له في كتب الحديث الصحاح.

هكذا هي الطائف في هيئتها المعهودة. بيد أن حاجنا الملايوي ليس مهتمًا بجمالياتها وطقسها المنعش، بل جاء لأداء شعيرة الحج فقط، لكن إذا حل موسم العنب والفاكهة الأخرى يكون هذا مجرد تزامن سعيد في مشروع متعدد الأغراض، حيث يستمتع الحاج الملايوي بهذه الثمار وأداء شعيرة الحج معًا. والسعادة من منظور الحاج الملايوي تقع بين أمرين، أولاً: أن يكون الإنسان شاكرًا لله سبحانه وتعالى عندما يمُن عليه برحمته ونعمائه التي يمكنه أن يستمتع بها. وثانيًا: أن يكون صابرًا عندما ينزل عليه ابتلاء.

والشيء الذي يهم الحاج في الطائف أساسًا هو قبر العباس(٧٦)، عم النبي ﷺ، ويوجد في مسجد الطائف أيضًا قبرا ابني رسول الله ﷺ، قاسم والطاهر(٧٧)، اللذين ماتا صغارًا.

ويستطيع الحاج أن يشاهد على أحد صخور الطائف المكان الذي صلى فيه الرسول ﷺ، طالبًا عون الله سبحانه وتعالى عندما طرده أهل الطائف في أيام دعوته الأولى. وفي مكان آخر وعلى صخرة أخرى يُعرض على الحاج المكان الذي استراح فيه النبي ﷺ بعد فترة طويلة من تبليغ مشركي الطائف آنذاك، وما يزال يوجد الأثر الذي يفترض أن الرسول ﷺ قد تركه عندما كان واضعًا يديه على الصخرة وساندًا جسمه المنبسط إليها. وكل هذه المواقع ومثيلاتها في أجزاء أخرى من القطر ذات قيمة معرفية فقط؛ لأنها صحيحة من الناحية التاريخية، ويوقرها الحاج الجاهل إلى حد يلامس أطراف التقديس، دون علم بأن الرسول ﷺ قد تعامل بحذر شديد، وحذر أصحابه من الاعتقاد في مثل هذه الممارسات.

تعامل الرسول ﷺ بحذر شديد، وحذر أصحابه من الاعتقاد في مثل هذه الممارسات

(٧٦) دفن العباس بن عبدالمطلب في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة، وليس في الطائف كما تقدم التنبيه عليه.

(٧٧) ابنا الرسول ﷺ لم يدفنا في الطائف، بل دفنا في مكة المكرمة.

موكب المحمل في مكة

تشهد مكة فرحًا عظيمًا في بداية شهر ذي الحجة، وذلك لوصول المحمل الذي يُحضر مرتين في العام قبل أن يُطرد الأتراك من الحجاز، إحداهما من مصر، والأخرى من سوريا (الشام). ويُعرف المحمل الذي يُحضر من مصر بالنسبة للحاج الملايوي بـ "شُقدف فاطمة" والذي يُحضر من سوريا بـ "شُقدف النبي". وكترتيب معمول به منذ صدر الإسلام فإن مصر كانت ترسل سنويًا كسوة مقدسة من الحرير الأسود لتُكسى بها الكعبة، وتبعث سوريا الأدوية الطبيَّة التي يحتاج إليها الحجاج في موسم الحج. وبمرور الزمن أسس عدد من التجار الأثرياء في مصر وسوريا أنماطًا مختلفة من الأوقاف النقدية والعينية (مثل: الذرة وغيرها)، التي كانت تُرسل إلى الفقراء في مكة، والأوصياء على هذه الأوقاف كانوا يغتنمون الفرصة ويرسلونها سنويًا مع المحمل. وفي ذلك الزمن لم يكن السفر ميسورًا عن طريق السفن كما هي الحال الآن، فكان الحجاج يفضلون مرافقة محملهم المقدس، حفاظًا على أمنهم وسلامتهم. وبذلك أضحى موكب المحمل موكبًا مهيبًا تحت إشراف أمير الحج. وكما يُعرف في الوقت الحاضر فإن المحمل عند دخوله إلى مكة يُشهل بالموسيقا والإنشاد، ويُستقبل ببهجة مماثلة من المكيين. وبعد أن تُسلم الهدايا والأوقاف إلى مستحقيها يظل موكب المحمل في حالة طواف حول الكعبة طيلة أيام الحج المقدسة، وتصحبه المزامير والدفوف، ويرافقه أيضًا جنود الحجاز البواسل بفرقهم الموسيقية[٧٨]. وبعد أن غادر الأتراك الحجاز، لسبب أو آخر أوقفت سوريا إرسال المحمل، وفي عام ١٩٢٣م أخذت مصر على عاتقها مسؤولية إرسال الأدوية الضرورية، إلا أن سوء الطالع دفع الملك حسين - حاكم الحجاز آنذاك - إلى رفض

---

(٧٨) هذا مما نهى عنه الإسلام، وعدَّه العلماء مخالفًا للشريعة؛ مما جعل الملك عبدالعزيز يمنعه.

هدية مصر، وعليه قامت مصر بإعادة الكسوة المقدسة[٧٩]. وفي الوقت الحاضر ترسل مصر الكسوة المقدسة والأدوية إلى مكة[٨٠].

الوقوف على عرفات: إلحاح في الدعاء ورجاء في المغفرة

بعد أداء الحج الذي يتم بالوقوف على عرفة في التاسع من ذي الحجة يمكن أن يُطلق على ضيف الرحمن لقب "حاج"، والقاعدة المتعارفة بين الحجاج أن الذهاب إلى عرفة يبدأ في الخامس من ذي الحجة[٨١]. وعرفة سهل واسع عند سفح جبل عرفات، ويعني الوقوف مجرد الحضور في هذا الموقع. وبالطبع توجد بعض الأدعية التي يرددها الحاج أثناء وجوده هناك، لكن السرَّين العظيمين عن عرفة هما: أولاً - أن عرفة هي المكان الذي تقابل فيه الأب آدم والأم حواء للمرة الأولى بعد هبوطهما من جنة عدن، ثانيًا - هي المكان الذي سيجتمع فيه الناس يوم القيامة. والحاج لا يدري سواء كانت هذه الاعتقادات موثقة في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ أم لا. وفي أثناء فترة إقامته يُعلم الحاج أن هناك أسرارًا دينية تتعارض صراحة مع تعاليم الرسول الذي أفصح أنه لا يوجد سر في الإسلام[٨٢]. وبشأن

(٧٩) يقصد الكاتب الخلاف الأول الذي حدث عام ١٩٢٣م (١٣٤١هـ) في عهد الملك فؤاد الأول، ويعرف هذا الخلاف بخلاف البعثة الطبية، وفحواه أن الشريف حسين بن علي ملك الحجاز آنذاك اعترض على وجود بعثة طبية مرافقة للمحمل؛ لأجل ذلك منع دخولها في مكة المكرمة، مما أغضب رجال المحمل المصري، ودفعهم إلى الرجوع إلى مصر بكل ما يحملون من هدايا كانت تهدى سنويًا إلى الكعبة المشرفة وسدنتها، مثل: كسوة الكعبة المشرفة، وصرة المال المخصصة للإنفاق منها على المرتبات والصدقات على الفقراء في الحرمين الشريفين. أما السبب الذي يحتج به الحجازيون فهو توزيع البعثة المصرية لبعض المنشورات المناهضة لحكومة الشريف حسين، وتحذيرها للحجاج من شرب ماء زمزم الذي يتبرك به المسلمون في كل مكان. لمزيد من التفصيل حول هذا الحادث وإفرازاته السياسية انظر: إبراهيم حلمي، المحمل، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د. ت، ص٢٣٥-٢٤٢.

(٨٠) بعد دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة أنشأ مصنعًا خاصًا بالكسوة تولى حياكتها وإعدادها، ولم تعد الكسوة القادمة من مصر تستقبل.

(٨١) هذا خطأ: لأن الذهاب إلى عرفة يكون في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة.

(٨٢) ليس صحيحًا أن هناك أسرارًا دينية تتعارض مع السنة.

الحديث عن موضوع هذه الأسرار يود الكاتب أن يوثق أسرارًا أخرى يذكرها المطوف للحاج البسيط الذي يرافقه، وهي: أن رفات آدم مدفون في مكان ما تحت الكعبة، وأن باب الجنة يقع تمامًا فوق باب الكعبة. ومن ثم يُحذر الحجاج من النظر إلى أعلى عند دخولهم الكعبة، وذلك خوفًا من رؤية "بورس"؛ لأنهم سيسحرون بجمالها، الشيء الذي ربما يُذهب عقولهم مدى الحياة. وأود أن أذكر حقيقة أخرى غير قابلة للشك، وهي أنه لا توجد أي حمامة من حمام المدينة (طيور فاطمة الأليفة) التي تجوب في كل أرجاء الحرم المكي تستطيع أن تحلق فوق الكعبة، وذلك احترازًا - كما يقال - من مدخل الجنة الذي يقع بين الكعبة والسماء[٨٣].

دعونا نعود إلى عرفات، حيث يتجمع كل الحجاج لحضور ليلة التاسع من ذي الحجة. وهم في زي الإحرام الذي ارتدوه عند مغادرة مكة، ويعيشون في خيام تُرى بالآلاف، ويوضع على كل خيمة علم خاص يعرفه فقط أعضاء المجموعة التابعون لمطوفين مختلفين. وفي هذا المقام لا يكون الحاج مشغولاً بإعداد طعامه؛ لأن القواعد المتعارف عليها هي أن المطوفين يجب أن يطعموا الحجاج في عرفة ومنى[٨٤] أيضًا. وفي منى يبقى الحجاج يومين أو ثلاثة. ولذلك يكون الحاج حرًا في توظيف كل وقته للعبادات الضرورية، وتكرار التلبية والدعاء بصفة مستمرة. وفي الساعة الثالثة ظهرًا يُضرب مدفع لإشعار الحجاج بأن خليفة رسول الله ﷺ سيلقي خطبة الحج على جبل عرفات المقدس، كما فعل الرسول ﷺ في فترة حياته. وهذه هي أهم مشاهد شعيرة الحج، كما فعل مؤسس الإسلام، ويفترض أن تكون

---

(٨٣) ما ذكره المؤلف هنا من أمور يمكن وصفها بأنها خرافات لا أساس لها من الصحة.

(٨٤) منى موقع بين مكة والمزدلفة، فيه مسجد الخيف، ومسجد الكبش، ومسجد البيعة، وفي واديه الجمرات الثلاث (العقبة، والوسطى، والصغرى). ويقضي فيه الحجاج نهار يوم النحر وأيام التشريق.

هذه الخطبة لتقييم سلوكيات المسلمين، وأخلاقياتهم، وتقدمهم السياسي الذي حققوه في السنة الماضية أسوة بإمامهم الروحي الرسول ﷺ وخلفائه من بعده، لكن الشيء المحزن، كما حدث في هذا اليوم، بأن ٩٠٪ من الحجاج لم يستمعوا للخطبة، ولم يعرفوا ما جاء فيها إلى أن أُعلنت إليهم نهاية الخطبة بإطلاق بعض الإشارات والعلامات النارية.

الطريق إلى مزدلفة ومنى

بعد غروب الشمس يبدأ الحجاج التحرك من عرفة إلى مكان يُعرف بمزدلفة[٨٥]، حيث يقضون الليلة هناك. وقبل أن يغادر الحاج مزدلفة يجب عليه أن يجمع عددًا من الحجارة الصغيرة لرجم الشيطان في منى، التي يصلها عادة في صباح اليوم العاشر من ذي الحجة. وفي هذا المكان ثلاثة أعمدة حجرية منصوبة على مسافة تقدر بثلاثمئة ياردة، ويجب على الحاج أن يرمي سبع حصيات في وقت واحد لكل جمرة على الأعمدة الحجرية الثلاثة، الواحدة تلو الأخرى، بدءًا بالعامود الحجري الأبعد من مكة، وانتهاءً بالأقرب إليها. وبعد الفراغ من هذه الشعيرة يجوز للحاج أن يتحلل من زي الإحرام، ويرتدي ثيابه العادية[٨٦]. وهذا هو اليوم العاشر من ذي الحجة وعيد الحج الأكبر، حين يظهر الحجاج في أبهى حللهم، ويكون المطوفون مشغولين بتطويف الحجاج واحدًا تلو الآخر، واضعين على

(٨٥) هو واد يقع بين منى وعرفات، ويبعد عن المسجد الحرام نحو (٩كم) تقريبًا، ويبتدئ حيث ينتهي وادي منى، وفيه المشعر الحرام، ويصلي فيه الحجاج صلاتي المغرب والعشاء قصرًا وجمع تأخير عند قدومهم من عرفات ليلة النحر، ثم يأخذون منها الحصى؛ لرجم الجمرات الثلاث. ويختلف أهل العلم في سبب تسمية هذا الوادي مزدلفة، فيرجع بعضهم أصل الاسم لاجتماع الناس فيه قياسًا على قولهم: أزلفت الشيء إذا جمعته، ويرجعه بعضهم إلى نزول الناس به في زلف من الليل، وقيل: لازدلاف الناس من منى بعد الإفاضة.

(٨٦) هذا غير صحيح؛ لأن الرجم في اليوم العاشر يكون فقط لجمرة العقبة، والطريقة التي ذكرها لأيام التشريق. كما أن الرجم ليس للشيطان، بل هو اتباع لسنة إبراهيم عليه السلام.

رأس كل حاج عمامة ومربِّتين على كتفه، وناعتين إياه بلقب "حاج". وهذا الاحتفال ضروري فقط؛ لأنه يدر على المطوف جنيهًا واحدًا عند تطويف كل حاج، والحاج البسيط سعيد بأنه قد أعطي اسمًا ذا موسيقة عربية بدلا عن اسمه القديم، الذي يكون في الغالب اسمًا لبعض الخضروات ومثيلاتها، مثل: كندور (شمام)، ولابو (قرع)، وبولات (كوسة)، وغيرها[٨٧]. ويجب أن نسجل في هذا المقام أن عرفات تبعد نحو ستة عشر ميلاً من مكة، ومن مزدلفة نحو ثمانية أميال، ومن منى نحو أربعة أميالٍ.

وسبق القول: إن الحاج يجب أن يقضي يومين أو ثلاثة في منى، ليرمي الجمرات الثلاث في يوم العاشر من ذي الحجة أو في يومي التشريق[٨٨]، ثم بعد ذلك يمكنه أن يعود إلى مكة. وفكرة رمي الجمرات سنة استنها إسماعيل عليه السلام[٨٩]، لأنه كان مُغرما بحصب الشيطان في تلك المواقع الثلاثة عندما كان مصاحبًا لأبيه إبراهيم، الذي نذر بذبحه قربانًا لله سبحانه وتعالى. فإبراهيم أمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح ابنه الوحيد قربانًا إليه، وبالرغم من أنه لم يكن نادمًا أن يقطع عنق ابنه طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى، إلا أنه كان متشككًا بعض الشيء: هل سيقبل الابن نفسه أن يُضحى به. وكان فرح إبراهيم عظيمًا عندما وجد ابنه ليس مُسَلِّمًا لإرادة الله سبحانه وتعالى فقط، بل محصنًّا من إغراءات الشيطان. وتضاعف

(٨٧) قد أشار سنوك إلى عادة تغيير الأسماء، ووضح أن هذه المهمة كانت تتم على أيدي ثلاثة أشخاص، هم: مفتي الشافعية، وإمام الحرم الذي يتعلم الجاويون على يديه قراءة القرآن وتجويدها، ثم رئيس المؤذنين الذي يقوم بالأذان من فوق مقام الشافعي الذي يعلو بئر زمزم. لمزيد من التفصيل انظر: سنوك هورغرونية، ص٥٦٦-٥٦٩.

(٨٨) في يوم العاشر ترمى فقط جمرة العقبة، وبعدها يقوم الحاج بأداء طواف الإفاضة الذي يعد ركنًا من أركان الحج، يأتي به الحاج بعد إفاضته من عرفة ومزدلفة ورمي جمرة العقبة، وبعدها يحل له الحلق والتقصير.

(٨٩) الصحيح أنها سنة إبراهيم عليه السلام.

الفرح عندما خَلُص إبراهيم من ذبح ابنه كما ينبغي، لكنه وجد أنه قد ذبح كبشًا بدلاً عنه، لأن الله بفضل رحمته العظيمة قد وضع الحيوان مكان الابن. ولذلك فإن المسلم يضحي في هذا اليوم بكبشٍ ليبيّن تسليمه لإرادة الله سبحانه وتعالى، التسليم الذي يمثل جوهر عقيدة المسلم. وتُذبح الأضحية في العاشر من ذي الحجة عند سفح جبل يُعرف بـ "جبل القربان" في منى. وتُذبح آلاف من الأغنام في ذلك اليوم، وعلمًا بأن لحم الأغنام لا يعد جميعه صالحًا كطعام في الجزيرة العربية(٩٠)، فإن أمعاء (أو أحشاء) كل هذه الأغنام تُرمى في العراء ويدفن بعضها في حفر، وبذلك تترك للنسور تفعل فيها ما تشاء(٩١). وفي منى أيضا يُعرَّف الحاج على جبل مشهور بـ "جبل الكوفيَّة"، ويقصد بالكوفية الطاقية. ويقال: إن الرسول ﷺ ذات مرة كان مُختليًا في الغار الذي يوجد عند سفح هذا الجبل، وعندما وقف استعدادًا للذهاب إلى مكان آخر ضرب سقف الغار برأسه، لم تُحدث

---

(٩٠) هذا غير دقيق، ولم يعرف في الجزيرة العربية أن بعض أجزاء لحم الغنم غير صالحة للطعام سوى الأحشاء.

(٩١) يعلق العياشي حول ذبائح منى بقوله: "قد ذبح في منى ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحسب الغني والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم، وأما الجلد الساقط والأكارع فلا ترى أحدا يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك، لم يمسه الناس، فمن الفقراء من يأخذ نحوًا من عشرة من الغنم، فيبيعون لحومها بأرخص ثمن، وييبسون ما قدروا عليه، ضيافة الله الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه سواه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام، فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبًا من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تُمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها". نقلاً عن: حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٦٧. ونستخلص من قول العياشي والحاج عبدالماجد أن هذه العادة كانت سائدة لزمن طويل، لكن بحمد الله قد استطاعت المملكة العربية السعودية أن تقضي عليها، وذلك بتوظيف لحوم الأضاحي توظيفًا عمليًا يوافق مقتضى الشرع، ويسهم في توفير الاحتياطات الصحية اللازمة لسلامة الحجاج، ويقدم الطعام للمحتاجين في أرجاء المعمورة.

هذه الضربة كسرًا في رأسه فقط، بل أحدثت تجويفًا في السقف الحجري للغار بحجم رأس رسول الله ﷺ(٩٢).

وأثناء إقامة الحاج في منى كجزء من الشعائر الدينية يُلحظ أن المكان يعج ببهجة وسرور آخرين في كل مساء، حيث يوجد موكب من زعماء القبائل على جمالهم، ووجهاء الدولة على صهوات خيولهم مرافقين للملك الذي يتوسط الموكب، والجند البواسل مترجلون، والجميع يسير في حركة تضبطها أنغام الموسيقا العسكرية الخاصة بجيش الدولة وفرقة المحمل، وكل ذلك احتفاءً بقدوم المحمل من مصر وسوريا. وحتى زعماء القبائل لديهم فرقهم الخاصة التي تعزف أنغامًا موسيقية تُشبه أنغام مزامير القرب الإسكتلندية. ويقدم المشاة عرضًا لجنود الخيالة أمام الشريف في منى، والإعجاب الدافق يظهر على وجوه الحاضرين. والحصان العربي حصان ذائع الصيت في كل أرجاء العالم، ومُروِّضه العربي لا تنقصه السمعة كخيَّال ماهر. وحوالي الساعة الثامنة مساءً يُجرى عرض للألعاب النارية، ينتهي في منتصف الليل.

العودة إلى مكة وطواف الوداع

وفي اليوم الثالث الذي يوافق الثاني عشر من ذي الحجة، وبعد رمي الجمرات على الشيطان، كما أوضحنا سابقًا، يعود الحاج إلى مكة؛ لأداء طواف الوداع، والسعي، وحلق شعر الرأس كما سبق(٩٣)، وبذلك تكتمل مستلزمات الحج. ورُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: "يصبح الحجاج بعد أداء فريضة الحج أحرارًا من الذنوب كمواليد جدد"(٩٤). ويوضح المفسرون معنى هذا الحديث بقولهم: "إن أداء

---

(٩٢) رواية خرافية غير صحيحة.

(٩٣) أغفل المؤلف هنا طواف الإفاضة، ولم يعتمد الترتيب الشرعي لهذه المشاعر.

(٩٤) يقرأ الحديث الوارد في كتب الصحاح كما يأتي: "من حج ولم يرفث ولم يفسق عاد كيوم ولدته أمه". انظر صحيح البخاري، ج٢، ص١٦٤، وصحيح مسلم، ج٤، ص١٠٧.

الحج يغفر كل الذنوب التي ارتكبها الحجاج في الماضي بشرط أن لا يقترفوها مرة أخرى". وحسب رأي بعض المفسرين المحدثين أن هناك نوعين من الحج، أحدهما حج مقبول(٩٥)، والآخر حج مردود. ويتمثل الأول في تحسن سلوك الحاج نحو الأفضل، والثاني في ترديه نحو الأسوأ.

رحلة العودة إلى أرض الوطن

لا يبقى للحاج بعد ذلك شيء يؤديه سوى أن يجهز نفسه لرحلة العودة. ويجب عليه أن يشتري عمامة وجلبابا، ليميز نفسه عن أولئك الذين لم يؤدوا فريضة الحج في بلده، وربما يحتاج إلى مسبحة (أو سبحة)، وقليل من ماء زمزم كهدايا لأقربائه وأصحابه في أرض الوطن، وربما يحضر إليهم أيضًا الأحجار الكريمة، وعيدان الأراك التي تستخدم في سواك الأسنان، والكحل، وعروق السحر؛ لأن لديها قيمة عظيمة وتقديرًا خاصًا في أوساط الملايويين. وبعد أداء طواف الوداع يستودع الحاج الأرض المقدسة بضمير صاف، وهو سعيد بأنه قد خدم الله حسب ما يقتضيه الطلب الخاص بأداء شعيرة الحج. وعند وصوله إلى قريته يُرحب به الترحيب الذي يليق بأي شخص قادمٍ من زيارة بيت الله، العظيم، الخالق، المنشئ، الرازق للعالم كله.

وهكذا تتبعنا الحاج في سياحاته، وقرأنا المشاق التي واجهته، وتتبعنا الأماكن التي زارها، والواجبات التي أداها، والأدعية التي دعاها، ولماذا فعل ذلك؟ وأمطنا اللثام عن الدروس والعبر التي تعلمها. وعليه دعونا نوضح ونثمن ما يفكر فيه الحاج بصورة مجملة. فيما يخص الجانب المالي، فهو ينفق بسخاء من مدخرات حياته، ويضحي بكل النعم التي وهبها إياه الوطن، ويصرفها دون اكتراث

(٩٥) يقصد بالحج المقبول الحج المبرور الذي قال عنه رسول الله ﷺ: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". صحيح مسلم، ج٤، ص١٠٧.

لفقر ذلك الوطن. وربما يكون الحاج قد أرهق بنيته الجسمانية بالطعام الغريب والطقس الذي لم يألفه من قبل.

وفيما يخص صحة الحاج فإن عام ١٩٢٤م كان أسوأ عام بالنسبة للحجاج الملاويين؛ لأن معدل الوفيات في أوساط الذين سُجلوا في القنصلية البريطانية بجُدَّة قد بلغ ١٥٪ خلال ستة أشهر(٩٦). ورغما عن ذلك فإن كل حاج يؤكد لك بإيمان صادق أنه سيعود بسعادة لأداء فريضة الحج للمرة الثانية إذا تيسرت له الوسائل، متحملاً كل ما يواجهه من مشاق وحرمان. إذا ما الحافز الذي يمد الحاج بهذا الدافع القوي ليضحي بكل ممتلكاته الدنيوية، وهناءته وسعادته في ربوع وطنه، وحتى بحياته نفسها؟ يجب أن يعترف الكاتب بأنه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال بخلاف هذه الكلمات القليلة: "سيفهم ذلك المسلم الراسخ الاعتقاد في الإسلام فقط".

---

(٩٦) يعطي تقرير القنصلية البريطانية في جُدَّة لعام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م قراءة إحصائية تختلف قليلاً عمَّا ذكره الحاج عبدالماجد، ويفيد التقرير أن عدد الوفيات من الحجاج الملاويين المسجلين بالقنصلية قد بلغ ١٧٪، أي حوالي ٤٥٠ من ٣٣١٧ حاجًا، وذلك خلال فترة ستة أشهر فقط. لمزيد من التفصيل انظر:

Records of the Hajj: A Documentary History of the Pilgrimage to Mecca, The Hashimite Period 1916-1925, vol. 5, London: Archive Editions, 1993, P. 592.

ويتضح من هذا التقرير ذلك التغيير الذي طرأ على الحج والأماكن المقدسة بعد دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - مكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، حيث تحسنت الأمور، وتطورت الرعاية الصحية، وانتشر الأمن، واتسعت الخدمات، وأصبح الحجاج يؤدون مناسكهم في يسر وطمأنينة وعافية.

البوتقة المكية وأثرها في صهر السكان

دراسة في الجغرافيا التاريخية للهجرة وتأقلم الجاليات الوافدة إلى العاصمة المقدسة

أ. د. محمد محمود السرياني

قسم الجغرافيا - كلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن

لقد عرفت مكة المكرمة منذ أحقاب تاريخية قديمة قبل عهد إبراهيم عليه السلام. غير أنه من المؤكد أن هجرة إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام يمكن عدها البداية الجليّة لتاريخ مكة، فوجود بئر زمزم، وبناء الكعبة، ساعد على ازدهار المكان، فسكنته القبائل، وأصبح مركزاً تجارياً، بالإضافة إلى كونه مركزاً دينياً. ولم تكن مكة في يوم ما في عزلة جغرافية، فقد مهر سكانها في التجارة.

ولما جاء الإسلام أصبحت مكة المكرمة البلد الحرام قاعدة الإسلام، وقبلة المسلمين، يقصدها الناس للحج والعمرة. ومنذ البعثة النبوية لم ينقطع سيل الهجرة إلى مكة المكرمة من مختلف مناطق العالم الإسلامي. وتنوع المهاجرون، وتعددت أغراضهم، وكانت الأسباب الجاذبة إلى القدوم إلى مكة هي أسباب في معظمها دينية، والقليل منها دنيوية، والمحصلة النهائية تغيير كبير ودائم للسكان، وزيادة مطردة في الاختلاط السكاني.

وقدم هؤلاء المهاجرون من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وهم يحملون ثقافاتهم المحلية، وأنماط وطرز حياتهم، وتقاليدهم وأعرافهم، وأنواع طعامهم وشرابهم ولباسهم التقليدي. وما أن يحط

هؤلاء رحالهم في مكة حتى تبدأ نواحي التغيير الاجتماعي تطرأ على حياتهم ليتواءموا مع معطيات الحياة الجديدة في العاصمة المقدسة. ومع مرور الزمن، وتوالي الأجيال ينصهر جميع هؤلاء في البوتقة المكية، بحيث تتشكل من مجموع هؤلاء الوافدين ثقافة مكية ونمط حياة مكي، قوامه الدين الإسلامي، وعماده اللغة العربية، ومظهره الطراز العربي، بحيث يتبنى هؤلاء الوافدون ثقافة البلد المضيف وحضارته.

مشكلة البحث وأهدافه ومنهجه:

عنوان البحث يلقي الضوء على المشكلة المطروحة، فمشكلة البحث تتلخص في ثلاث نقاط هي:

١ - استعراض سريع لتاريخ الهجرات الوافدة إلى العاصمة المقدسة.

٢ - كيفية استيطان الجاليات الوافدة داخل المدينة المقدسة.

٣ - اندماج هذه الجاليات في المجتمع المكي.

ويمكن القول: إن النقطة الأولى هي توطئة سريعة، تظهر التنوع الشديد في سيل الهجرة إلى العاصمة المقدسة(*). أما النقطة الثانية فتظهر كيفية انتشار هذه الجاليات في أحياء ومناطق المدينة المختلفة(**)، وهو ما يعرف بالتغطية المجالية للسكان، والنقطة الأخيرة تظهر كيفية تخلي هؤلاء الوافدين عن أنماط حياتهم، وتبني قيم المجتمع المضيف، بحيث يتخلى هذا (الموزاييك) العرقي ذي الأجناس المتعددة عن عاداته وتقاليده؛ ليتبنى العادات المكية

(*) انظر حول هذا الموضوع بحثنا بهذا الخصوص "مورفولوجية مكة الاجتماعية"، مجلة العواصم والمدن الإسلامية، ع٣ س٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ٤٣-٦٦.

(**) انظر حول هذا الموضوع بحثينا:

١ - مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٢ - مكة المكرمة - دراسة في تطور النمو الحضري، منشورات الجمعية الجغرافية الكويتية، عدد (٨٧)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

بشكل خاص وعادات الجزيرة العربية والعادات العربية بشكل عام، مما يعرف بالاندماج أو الانصهار، وهو الهدف الأساسي من هذا البحث.

أما المنهج المتبع فسيكون المنهج التاريخي في بعض جوانبه، حيث سنقوم باستعراض تاريخي موجز للهجرات الوافدة، خلال الأزمنة التاريخية المتعاقبة. أما فيما يخص الاستيطان، وتكوين المناطق الاجتماعية فسنلتزم بالمنهج الاستنتاجي (Inductive Approach)، وهو افتراض نسق معين لسلوك الظاهرة، سنضعه استناداً إلى النظريات السابقة في هذا المجال، بقصد مقارنته مع واقع الظاهرة الفعلي، بهدف المواءمة بين النسق المثالي والواقعي لمعرفة مدى صلاحية النظريات المتعلقة بهذا الشأن مع الواقع الذي جرت عليه الأمور في المدينة المقدسة.

لذا جاء أسلوب الدراسة في بعضه وصفياً قائماً على تتبع حركات الهجرة من مواطنها المختلفة، والظروف التي ساعدت عليها، سواء أكان ذلك ظروف الطرد الخاصة بمكان القدوم، أو ظروف الجذب الخاصة بمنطقة الوصول، أو العوامل المتداخلة بين مكان القدوم والوصول.

أما البعض الآخر فكان تحليلياً قائماً على تطبيق بعض النظريات المرتبطة بتكوين المناطق الاجتماعية، ومدى الاستفادة منها في تفسير الوضع الأثنواغرافي في المدينة المقدسة.

وسنعالج الموضوع تحت بابين أساسين هما:

١ - الهجرات الوافدة.

٢ - انتشار الجاليات وتوطنها وانصهارها في البوتقة المكية.

أولاً: الهجرات الوافدة

١ - الهجرات القديمة:

عرفت مكة المكرمة منذ أحقاب طويلة ممعنة في القدم، قبل عهد إبراهيم عليه السلام، ولا شك أنها بصفتها جزءاً من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة تعددت فيها أجناس المهاجرين تعدداً لا نستطيع تعيينه؛ لأن المصادر التي ذكرت ذلك لا يمكن التسليم بما كتب بها تسليماً قاطعاً، لأن كتابها عاشوا متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة، ولم يكن لديهم من المصادر التي تعينهم على مثل هذه الدقة المتوخاة(١). وكل ما يمكن قوله في هذا المجال: إن قوماً عرفوا باسم العماليق سكنوا مكة، قبل قدوم الخليل إبراهيم عليه السلام، وزوجته وابنه إسماعيل عليه السلام إليها.

من المؤكد أن هجرة إسماعيل عليه السلام، يمكن عدها البداية الجليّة لتاريخ مكة. وعند وصول إسماعيل كانت قبيلة جرهم قد حلت محل العماليق في ظروف ليست واضحة لدينا؛ وبذلك سكنت جرهم وادي مكة أو على مسافة قصيرة منها(٢).

لقد حددت العناية الإلهية موضع هذا المكان المقدس، وهيأت له أسباب الحياة والدوام، فكان بئر زمزم استجابة لدعوة أب، وغوثاً للهفة أم على وليدها. وقد منحت بئر زمزم أسباب البقاء والنماء لهذا المكان المبارك، ثم كانت الخطوة الثانية وضع قواعد أول بيت للتوحيد؛ مما جعل هذا المكان مهوى أفئدة الموحدين بالله. فنما المكان، واتسعت أطرافه، وسكنته قبيلة جرهم وأحفاد إسماعيل الذي تزوج من جرهم، وأنجب نسلاً أطلق عليه المؤرخون اسم العرب المستعربة.

---

(١) أحمد السباعي: تأريخ مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي (ط٤)، ١٣٩٩هـ، جزء (١)، ص ١٦.

(٢) أحمد السباعي: مرجع سابق، ص ١٨.

ويروي لنا التاريخ أنه بعد وفاة إسماعيل بقرنين من الزمن كان يسكن مكة تحت إمرة أحد أحفاد إسماعيل الجرهميون، الذين انقسوا قسمين: جرهم وقطورا، ولقد نازعتهم السيادة في أواخر القرن الثالث، أو أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلة قحطانية قدمت من اليمن إثر سيل العرم، وهي قبيلة خزاعة التي استولت على مكة، وورثت الحكم فيها، وطردت قبيلة جرهم منها.

أما أبناء إسماعيل فلم يناوئوا القحطانيين من خزاعة، وسكن بعضهم مع خزاعة في مكة. أما بعضهم الآخر فقد هاجر إلى مناطق الحجاز الأخرى، وإلى بلاد الشام والعراق، وسمي هؤلاء بالعدنانيين.

وكان من بين هؤلاء قصي بن كلاب الذي عاش بعيداً عن مكة موطن أجداده غير أنه قرر العودة إلى مكة والسكن فيها، وآلت إليه أمور مكة وزعامتها، وذلك قرابة منتصف القرن الخامس الميلادي. وجمع قصي قومه، فأنزلهم مكة بجوار قبيلة خزاعة التي بقيت تسكن مكة تحت إمرة قصي. ومنذ ذلك الحين انتشرت بطون قريش في شعاب مكة، وكانت مساكن قريش منحصرة في بطن وادي إبراهيم، وعند سفوح الجبال التي تحيط بالكعبة. واستناداً إلى ما ذكره الأزرقي في تاريخه[٣] نجد أن بطون قريش قد توزعت في جنبات الوادي، وعلى السفوح الدنيا للجبال المجاورة في قعيقعان (جبل هندي) وأبي قبيس وأجياد الكبير (بئر بليلة) وأجياد الصغير (أجياد السد)، ففي القرب من باب بني شيبة (باب السلام) كانت بيوت السفيانيين، وفي شعب أبي يوسف (شعب علي) تقع دور بني عبدالمطلب، وفي شعب عامر كانت ديار بني بكر، وأخرى لبني عبدالمطلب، وفي أجياد كان يسكن بنو تيم وبنو مخزوم مما يلي الحرم. وفي المسفلة مما يلي الحرم كانت تنزل بطون من آل صيفي

(٣) أبو الوليد الأزرقي: أخبار مكة، دار الثقافة، بيروت، (ط٣)، ١٩٧٩م، جزء (٢)، ص ٢٣٣-٢٦٥.

وجماعة من آل عبدالدار، وفي منطقة السوق الصغيرة كانت تنزل بطون من بني أسد.

وساعد مكة على الازدهار في هذه الفترة بُعْدٌ آخر تمثل في كون المدينة مركزاً تجارياً يقع على طريق القوافل بين دول الجنوب وممالك الشمال؛ إذ كانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين إلى الشام، أو هابطين إلى اليمن، فمهروا في التجارة، وتضخمت رؤوس أموالهم، وكانوا في ثراء ويسر كبيرين. فإذا أضفنا إلى ذلك المكانة الدينية لمكة، حيث كانت الكعبة المكان المقدس لعرب الجاهلية، يحجون إليها، ويودعون فيها أصنامهم أدركنا أن مدينة مكة نمت، وازدهرت في هذه الفترة من خلال كونها بؤرة للتجارة، بالإضافة إلى كونها عاصمة روحية(٤).

٢ - الهجرة في العهد الإسلامي:

اختار الله هذه البقعة لتكون الموطن الأول للدعوة إلى الإسلام الذي حمله الرسول الكريم ﷺ، كما كانت الموطن الأول لدعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وأشرق نور الإسلام من بطاح مكة، وزلزل أركان قريش، فقاومته في أول عهده، ثم لانت قناتها للإسلام، وحمله أبناؤها إلى بقاع الجزيرة العربية الأخرى، ثم إلى البقاع المجاورة، ليشمل الرقعة الأرضية للعالم الإسلامي اليوم، وأصبحت مكة المكرمة بؤرة الإسلام.

وفي أيام الإسلام الأولى، ابتداءً من البعثة النبوية، وحتى نهاية دولة بني أمية عام (١٣٢هـ/٧٤٩م) أصبح سكان مكة من الصحابة التابعين قادة وجنوداً في جيوش الإسلام في عهد الراشدين والأمويين، وانتقل العدد الكبير منهم إلى البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق والأقطار الإسلامية الأخرى، وشهدت مكة في عهد

---

(٤) السباعي: مرجع سابق، ص ٤٣.

النبوة وعهد الراشدين نوعاً من الهجرة النازحة إما إلى المدينة المنورة في أوائل البعثة، وإما إلى أمصار العالم الإسلامي مع الجيوش الإسلامية، أو لتولي المناصب القيادية في الأمصار المفتوحة.

أما في العهد الأموي فقد شهدت المدينة المقدسة نوعاً من الهجرة الوافدة، فقد غصَّت مكة في هذا العهد بجمهرة كبيرة من طلاب العلم وفدوا إليها من أقطار العالم الإسلامي؛ ليتلقوا العلم عن الصحابة والتابعين، كما شهدت مكة عودة بعض أبنائها ممن غادرها للاشتراك في الجهاد وحركات الفتوح. وفي الجانب الآخر حفلت مكة بمجالس الغناء والطرب، وكثر الشعراء والمغنون والمغنيات، وأغلب هؤلاء النسوة من الموالي. وبالجملة فقد عاشت مكة في العهد الأموي على هامش الحياة السياسية، وخاصة بعد انتقال مركز الخلافة إلى دمشق الشام، وقد شغل الزهد والعبادة والعلم جل سكانها، كما شغل اللهو والفن والغناء البقية الباقية منهم(٥).

وتضخمت الثروات في العهد المذكور عن طريق الأموال التي كانت تنقلها البيوت المكية، والتي كانت تضرب في البلاد المفتوحة، بالإضافة إلى أعطيات بني أمية السخية. فزاد النشاط التجاري، وتوسع المزارعون، وتنافسوا في حفر الآبار والزراعة، وفاضت أسواق مكة بمنتوجات ضواحيها من الحبوب والخضروات، وشاع الرخاء، فعم الحاضرة والبادية(٦).

بعد الحكم الأموي ساد مكة فترة من الركود تمتد من أوائل العهد العباسي، وتنتهي بحكم المماليك، وتشمل فترة ثمانية قرون (١٣٢-٩٢٣هـ) الموافق (٧٤٩-١٥١٧م)، وقد تعاقب على حكم مكة في هذه الحقبة العباسيون والفاطميون والأيوبيون والمماليك.

---

(٥) السباعي: مرجع سابق، ص ١١٥-١٢٢.

(٦) السباعي: مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٥.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

وكانت مكة نهباً للثورات، وعرضة لأطماع الكثيرين من الخارجين على الخلافة في بغداد الذين يجدون في احتلال مكة عنصراً مهماً في تدعيم معنوياتهم. ولهذا لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً إلا في سنوات قليلة في صدر العصر العباسي الأول، وخاصة أيام الرشيد، حيث قامت زوجته زبيدة بجر الماء إلى مكة من وادي نعمان. وقد ترتب على هذا أن عانت مكة من الضيق وغلاء الأسعار، الأمر الذي نجم عنه أن السكان قل عددهم، فقد تفرق أبناء مكة في الآفاق، واستوطنوا الأراضي المخصبة، واتخذوا أملاكاً لهم في مصر والمغرب والشام والعراق، حتى لم يبقَ في مكة من أهلها إلا القليل، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق، الذين هاجروا إلى مكة للتشرف بالجوار. لقد عرفت مكة في العصر العباسي الثاني هجرات شملت جاليات من الترك والموالي بجانب جاليات من الفرس والبربر، وبعض الأصقاع القريبة من جزيرة العرب(٧).

لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً في مكة المكرمة إلا في سنوات قليلة

لم يكن الأمر بأحسن حالاً أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك، إذ تركت الفتن أثرها في السكان، الذين قاسوا كثيراً من الجوع والقحط وقلة الماء، وعدم انتظام وصول قوافل الحجيج إلى مكة. إذ يذكر ناصر خسرو أنه هاجر في بعض سنوات العهد الفاطمي نحو (٣٥,٠٠٠) من سكان مكة، ولم يزد حجم سكانها في عام (٤٢٢هـ/١٠٣١م) عن (٢٥٠٠) نسمة، حوالي (٥٠٠) نسمة منهم من الغرباء والمجاورين(٨).

---

(٧) السباعي: مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٨) ناصر خسرو: سفرنامة، تعريب يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١١٢، ١٢٣.

٣ - الهجرة في العهد العثماني (٩٢٣-١٣٤٣هـ) الموافق (١٥١٧-١٩٢٤م):

في القرن العاشر الهجري آلت مقاليد المسلمين إلى آل عثمان في تركيا، الذين اتسعت فتوحاتهم، وشمل نفوذهم الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وطوال هذه الحقبة كانت الهجرة مستمرة إلى مكة، فقد بدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسوراً إلى مكة أكثر من ذي قبل، فكثر المجاورون، وتنوعت أصنافهم، فكان منهم المنقطعون للعبادة والزهد، ومنهم الراغبون في البطالة والخلود إلى ظلال التكايا، ومنهم العاملون الذين أغراهم الكسب في بلد مفتوح، ومنهم العلماء الذين طاب لهم أن يجاوروا بيت الله الحرام، وينشروا علومهم في أرجائه.

وفي هذا العصر تمت العمارة العثمانية الكبيرة للمسجد الحرام التي قام بها السلطان سليم الثاني، واستغرق بناؤها عشر سنوات (٩٨٠-٩٨٩هـ/١٥٧٢-١٥٨١م)(*)، وقد تم خلال هذه الفترة تعبيد كثير من الشوارع الرئيسة، إضافة إلى توسيع الطرق المحيطة بالحرم الشريف. وشيدت المساكن المتعددة الأدوار التي انتشرت في سفوح الجبال، واكتظت الشوارع والأزقة المحيطة بالمسجد الحرام بالسكان، وخاصة في العهد العثماني الثاني (١٢٥٦-١٣٤٣هـ/ ١٨٤٠-١٩٢٤م)، حيث زادت الهجرة إلى مكة من مختلف مناطق العالم الإسلامي، ونجد على سبيل المثال الرحالة السويسري بركهارت الذي زار مكة في عام (١٨١٤-١٨١٥م)، يقول: "إن كل سكان مكة غرباء أو نسل غرباء خلا قلة من بدو الحجاز أو سلالتهم المستقرين هنا... ففي موسم كل حج يتخلف بعض الحجاج. والمسلم إذا ما استقر في أي مكان لأي فترة زمنية اتخذ زوجة، وغالباً ما يدفعه ذلك إلى الاستقرار الدائم، وعلى هذا فمعظم أهل مكة منحدرون من أصلاب غرباء، أتوا من مناطق بعيدة من مختلف أنحاء المعمورة. وأكثر هؤلاء

(*) ذكر بعض المؤرخين استناداً إلى النقش المدون على هذه العمارة أنها بدأت عام ٩٧٩هـ، وانتهت في عام ٩٨٤هـ.

الغـرباء هم الذين قـدم آباؤهم مـن اليـمـن وحضـرمـوت، يليـهـم الهنود فـالمصـريون فـالسـوريون فـالمغـاربة فـالأتراك. وهـنـاك أيضـاً مكيـون من أصول فارسيـة وتترية وبخارية وكـردية وأفـغـانيـة، وباختـصـار فـإن في مكة عناصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي"(٩).

إن للمكيين تصنيفًا خاصًا بالجاليات الوافدة إلى مدينتهم. وهذا التـصـنيف أقرب إلى الواقـعـيـة مـن تقـسيم السكان بحسب الأقطار السياسية، فالهجرات التي وفدت إلى مكة كانت في عهود سابقة لم تكن معها الحدود والأسماء الحالية لهذه الأقطار معروفة. ولقد أطلق المكيون على هؤلاء الوافدين تعبيرات أقرب إلى النواحي الأثنوغرافية منها إلى الأقطار السياسية المستعملة حالياً. وجرياً على عادة المكيين سنستعمل المصطلحات التي يتداولها أهل مكة بهذا الخصوص. وسنلقي بعض الضوء على الجاليات التي استوطنت مكة، والأسباب التي دفعت هؤلاء إلى الهجرة إلى الديار المقدسة.

الهنود: وتطلق في مكة على القادمين من الهند والباكستان وبنغلادش وسريلانكا وبورما والنيبال، وهجرة هؤلاء حديثة نسبياً وتتزامن مع هجرة الجاوه كما يروي ذلك مؤرخ مكة الحديث أحمد السباعي، إذ قلما تجد في عهود مكة السابقة للعهد العثماني الثاني بينها مجاوراً من الهند أو من جاوه، لبعد المسافة بينهم وبين هذه البلاد، خصوصاً قبل استعمال السفن البخارية. ويذكر السباعي أن دافع الهجرة عند هؤلاء كان نشاطهم التجاري. غير أنه من المؤكد أن الحروب التي شنها الإنجليز على أمراء المسلمين في الهند، بالإضافة إلى تقسيم شبه القارة الهندية، وإجبار المسلمين على ترك أماكن سكناهم في الهند، واللحاق بالأراضي الباكستانية زاد في هجرة هؤلاء إلى المدينة المقدسة. وقد زادت هجرة هؤلاء حتى إنهم طغوا على الجاليات الأخرى.

---

(٩) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبدالعزيز الهلابي، وعبدالرحمن عبدالله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص ١٦٨.

ومن البيوت الهندية التي ما تزال موجودة في مكة عائلات الطيب وملائكة وشمس وقطب وجلال وخوج وعبدالخالق وحبيب وجستنية وخوقير والدهلوي والبوقرية وميره(١٠) وفدا ومرزا وحكيم والمفتي، وعبدالشكور، وجان والزرعة وغيرهم.

الجاوى: إن الحدود الجغرافية للجاويين في العرف المكي تشمل كلا من تايلند وماليزيا والجزر الإندونيسية كافة، وتنسب التسمية إلى جزيرة جاوه أكثف مناطق إندونيسيا سكاناً، ويلحق بهذا الاسم مجموعة من الإندونيسيين الذين هجرهم الهولنديون إلى رأس الرجاء الصالح، ويسميهم أهل مكة أهل الكهف، وهي تحريف لأهل الـ (Cape).

كانت منابع الهجرة من شبه جزيرة الملايو وجاوه وسومطرة وبورينو، وكان الوافدون يتسمون بأسماء المقاطعات التي قدموا منها. وليس أهل مكة المحدثين بأقل من العرب الأقدمين في تعريب الأسماء الجغرافية الأجنبية، ويظهر هذا بوضوح في الأسماء الجاوية عموماً، إذ أصبح اسم آكي: أشى، وبادانج: فادن، ولامبونج لمغون وبالمبانج: فيلمبان: وبارتافورا: باتوبارا، والبوجيون: بوقس(١١).

إن الأسماء الجاوية صعبة النطق على الشفاه العربية، لذلك كان هؤلاء يغيرون أسماءهم بمجرد وصولهم إلى مكة. وقد كان هذا العمل يتم بطريقة قانونية، إذ يمنح هؤلاء وثيقة من مفتي الشافعية في مكة بالاسم الجديد الذي سوف يعرف به. ومن لا يغير اسمه كلية يجري عليه بعض التعديلات تتلاءم والنطق العربي على نحو ما أسلفنا(١٢).

---

(١٠) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

(11) Hurgronje, C. S. "Makka in the Later Part of the 19th Century", Leiden, Brill, 1970, P. 230-232.

(12) Opct, P. 220.

إن الهجرة من جنوب شرق آسيا ليست قديمة جداً، وإنما هي حديثة ترجع في الغالب إلى النصف الثاني من العهد العثماني، وخاصة بعد استعمال السفن البخارية في المواصلات؛ الأمر الذي سهل القدوم إلى مكة.

وقد كانت دوافع الهجرة عند هؤلاء في أول عهدهم هي طلب العلم[١٣]. وكان لهم صيت كبير في التقوى، وكانت مكة الحلم الذي يراود الشباب من جنوب شرق آسيا بقصد طلب العلم. وقد برز من هؤلاء كثير من أجلّة العلماء بعضهم استقر في مكة، وبعضهم الآخر عاد ليذكي الحركة الدينية، ويشجع الثورة على المستعمر الهولندي. ولهذا كان الهولنديون يرون حتى في الذهاب إلى الحج خطراً كبيراً على مركزهم في البلاد.

ومن البيوت الجاوية في مكة نذكر عائلات البتاوي والسمباوا وزيني والمنكابو والقستي والبوقس والفلمبان وقدس والفطاني[١٤].

البخارية: إن مفهوم البخاريين في اصطلاح أهل مكة يندرج على المسلمين القادمين من أقطار الاتحاد السوفيتي السابق والصين الشيوعية. ويشمل مناطق انتشار المسلمين في القسم الآسيوي والأوروبي من الاتحاد السوفيتي، وكذلك مقاطعة سينكيانج وما جاورها في الصين الشعبية. مما كان يعرف في العهود الإسلامية ببلاد ما وراء النهر، ثم عرف باسم التركستان، وهي تسمية شملت مسلمي آسيا الوسطى؛ لأن معظمهم من أصل تركي، وبعضهم من أصل فارسي. ويوجد تنوع واضح في الأجناس التي ينتمي إليها هؤلاء المسلمون، فمنهم التركمان، والكازاخ (القازاق) والأوزبيك والقيرغيز. يضاف إلى ذلك المسلمون، القادمون من القوقاز، ويتبعهم الداغستانيون والشراكسة والشيشان وكذلك مسلمو القرم.

(١٣) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

(١٤) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

وقد نجم عن الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية قيام سلسلة من الحروب بين الدولتين، كان منها حرب القرم عام ١٧٨٣م (١١٩٧هـ)، حيث احتل الروس شبه جزيرة القرم، ثم رأت روسيا استئصال الوجود التركي الذي يحيط بها، فزحفت على قيرغيزيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ثم دارت الدائرة على تركستان، واحتلتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولما قامت الثورة البلشفية ثارت معظم المناطق الإسلامية. فقد ثار البشكير والقيرغيز، فقضي على ثورتهم بالقسوة عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ)، وشرد الملايين من المسلمين القازاق (الكازاخ) والقيرغيز الذين ماتوا جوعاً عام ١٩٢١م (١٣٣٩هـ)، وأعقبوها بثورة أخرى عام ١٩٢٦م (١٣٤٤هـ) حينما صادرت الحكومة ماشيتهم وأراضيهم. واستمرت المقاومة حتى عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) حين أعدم الروس أمير التتار علي أوغلي الذي نادى بفكرة جمع الأراضي الإسلامية في دولة واحدة تتحد مع الاتحاد السوفيتي على قدم المساواة. وكان إعدام علي أوغلي يمثل نهاية الثورات الإسلامية ضد الروس[١٥].

أما المسلمون في تركستان الشرقية فقد عاشوا فترة صراع دموي مع الصين، إذ احتلتها القوات المنشورية من عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) وحتى عام ١٩١١م (١٣٢٩هـ)، حيث انتزعت البلاد استقلالها لفترة وجيزة، أعقبها احتلال روسي قبيل الحرب الثانية، حيث عاد الصينيون لاحتلالها مرة أخرى لتدخل تحت حوزة الصين الشيوعية كمقاطعة صينية باسم (سينيكيانج)[١٦].

إن أوضاع الصراع بين هذه الشعوب المسلمة من جهة، وبين الروس والصينيين من جهة أخرى، وما أعقب ذلك من حروب دموية،

(١٥) السقا، محمد صفوت: أضواء على المسلمين في الاتحاد السوفيتي، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ، ص ٥٦-٧٦.

(١٦) ألب تكين، عيسى يوسف: قضية تركستان الشرقية، ترجمة إسماعيل حقي، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ١٣٩٨هـ، ص ٧١-١٦٨.

بالإضافة إلى تجريد هؤلاء من ممتلكاتهم ومواشيهم طبقاً لقوانين تحديد الملكية، ثم سن القوانين التي تبيح زواج المسلمات من الروس والصينيين، وما تبع ذلك من إغراق هذه المناطق بالمهاجرين الجدد، لتقليل نسبة المسلمين في أراضيهم، وفرض الهجرة على الكثير منهم إلى مناطق روسيا والصين، كل ذلك أدى إلى هجرة العديد من هؤلاء من أراضيهم وممتلكاتهم.

وقد استقبلت الدولة العثمانية الملايين من هؤلاء الذين استوطن بعضهم تركيا أو بلاد الشام والعراق ومصر، حيث نجد جاليات من البخاريين والشيشان والشركس والداغستانيين في كل المدن الكبرى من أقطار العالم العربي حالياً. ولم تبخل مكة أن تحتضن العديد من هؤلاء الإخوة الذين أضافتهم إلى رصيدها من الأجناس الأخرى.

ومن البيوت البخارية في مكة اليوم نجد الداغستاني، البشكيري، الانديجاني، القرمي (كرامي) والوشكلي.

الأتراك: من المرجح أن مكة بدأت تستقبل بعض العناصر التركية منذ العصر العباسي الثاني، فقد عرفت مكة في هذا العصر جاليات من الترك الموالي. وربما كان هناك استيطان لبعض المماليك الأتراك أيام حكمهم في مصر والشام وبلاد الحجاز في نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وما أن أطل عام ٩٢٣هـ حتى بدأت مكة بالدعاء لأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين السلطان سليم الأول العثماني، وبدأت الجسور تمتد بين دولة آل عثمان ومكة المكرمة؛ فقد عني العثمانيون بشؤون الحرمين، ورتبوا لها جراية سنوية من القمح، بالإضافة إلى الهدايا السنوية لأعيان مكة والصدقات لفقرائها[١٧].

وتولى العثمانيون مناصب القضاء والحسبة في مكة أولاً، ثم في فترة لاحقة وحوالي القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر

---

(١٧) السباعي: مرجع سابق، ص ٣٤٤-٣٤٥.

الميلادي) أخذت ترابط قوة عثمانية في المدينة المقدسة، وكانت المرابطة في السابق في جدة، غير أنه بمرور الزمن توطدت أركان العثمانيين، وازداد عدد الموظفين الذين يتولون مناصب المال، ثم شؤون البريد، ونظارة السوق، وأعمال الأوقاف وغيرها(١٨)، وقد اطرد عدد سكان المدينة نتيجة لمجاورة موظفي الأتراك وجندهم مع عائلاتهم خلال هذه الفترة.

غير أن إعلان الشريف حسين العصيان على الدولة العثمانية عام ١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٦م غيّر موازين القوى بالنسبة للجالية التركية المقيمة في مكة، فبعد حصار لجميع الثكنات العسكرية لمدة تقرب من أسبوعين استسلمت القوات العثمانية في مكة، الأمر الذي دعا إلى ترحيل هؤلاء؛ فترك مكة في هذه الفترة وما بعدها الكثير من المجاورين الأتراك الذين قل عددهم بشكل ملحوظ في الأصول السكانية للمدينة المقدسة، ويبدو أن هذه الأحداث وما تلاها كانت من أسباب تركهم لمكة، ونجد اليوم بعض العائلات التركية الأصل، مثل: الكوشك والقرملي وغيرهما(١٩).

المصريون: ويطلق عليهم أهل مكة اسم "المصارية"، ويمكن أن نتتبع خيوط الهجرة المصرية إلى مكة من خلال العلاقات المصرية الحجازية عبر التاريخ الحديث، إذ زاد اتصال المصريين بالجزيرة العربية أيام محمد علي باشا جد العائلة المالكة السابقة في مصر، حيث أمره العثمانيون بمحاربة السعوديين، الذين سيطروا على الحجاز، فيما بين سنتي ١٢١٧-١٢٢٨هـ؛ فأرسل جيشاً بقيادة ابنه أحمد طوسون باشا، يضم فرقاً من الأتراك والمصريين والشاميين وبعض المغاربة، غير أن الفشل كان مصيره، فأتبعه بجيش آخر استطاع به دخول المدينة وجدة ومكة، وقد قدم محمد علي باشا

(١٨) السباعي: مرجع سابق، ص ٤٥١-٤٥٣.

(١٩) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٠٨-٥٢٢.

بنفسه إلى مكة، وأجرى ترتيبات إدارية فيها، وقد احتفظ محمد علي باشا بحقوقه في السيطرة على مكة سيطرة تامة، لا يشاركه فيها نفوذ العثمانيين بموجب معاهدة بين الطرفين، غير أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، ففي عام ١٢٥٦هـ جرى الاتفاق بين محمد علي باشا والعثمانيين على ترك الحجاز، ليعود إلى الحكم العثماني ثانية[٢٠].

لقد ظلت مكة خلال هذه الفترة محكومة حكماً ثنائياً، قوامه هيمنة مصرية تحت التبعية العثمانية، لمدة تزيد على عشرين عاماً، ثم انفردت مصر بالإشراف المباشر لمدة سبع سنوات، حيث عادت مكة ثانية إلى العثمانيين الذين طلبوا ترحيل الجيوش المصرية من الحجاز، فكان لهم ذلك.

وعلى الرغم من أن المصريين كانوا وما يزالون من أقل الناس رغبة في الهجرة، لكن فتوحات محمد علي باشا في مكة شجعتهم على الانتقال إلى مكة، والاستيطان فيها، ولا يبعد أن يكون أكثر المجاورين من أصحاب العلاقة بجيش محمد علي باشا، وقد اختاروا الإقامة بعد صدور الأوامر العثمانية بترحيل هذا الجيش، فلا عجب أن وجدنا العائلات المنحدرة من أصل مصري لا تنتمي إلا إلى جد واحد بعد جلاء المصريين عن مكة إلا نادراً، ومن أشهر العائلات المصرية بيت القطان، والزقزوق، والرشيدي، والمنصوري، والدمنهوري[٢١].

المغاربة: إن الأقطار التي تنضوي تحت لوائها هذه الكلمة تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ويمكن أن تلحق بها أيضاً موريتانيا، على الرغم من أن أهل موريتانيا يطلقون على أنفسهم اسم (شناقطة) نسبة إلى شنقيط، الاسم القديم لموريتانيا، والذي تعرف به بعض قبائل المنطقة.

---

(٢٠) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٦٩.

(٢١) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٦٩.

وقد استقر المغاربة في مكة؛ لأن بعض الحاميات العثمانية التي كانت ترسل إلى الحجاز كانت من المغاربة، يضاف إلى ذلك الحروب والفتن التي خلفها الاستعمار الفرنسي والإيطالي، وما نجم عن ذلك من حركات التمرد، ومقاومة الغزو الأجنبي ساعدت على نزوح هؤلاء. فإذا ما أضفنا إلى كل ذلك ما يتخلف من حجاج هذه المنطقة في مكة أدركنا إسهام هؤلاء في المورفولوجية الاجتماعية للمدينة المقدسة. وتطالعنا من الأسماء التي تنحدر من أصول مغربية أسر المغربي والتونسي والمالكي وبيت حميدان.

الشوام: وتعني القادمين من أقطار سوريا الكبرى أو بلاد الشام، التي تشمل سوريا وفلسطين والأردن، ولبنان، وكانت هجرة هؤلاء لأسباب تجارية، وخاصة القادمين من المدن السورية كدمشق وحلب وغيرهما. وقد ساعد وجود الخط الحديدي الحجازي الذي كان يربط دمشق بالمدينة المنورة على زيادة الاتصال بين أقطار بلاد الشام وبلاد الحجاز، كما كان بعض موظفي الإدارة العثمانية من هذه الديار. فإذا أضفنا إلى كل ذلك قافلة الحج الشامي السنوية تصورنا أن بلاد الشام ستشترك أيضاً بسهم في سكان المدينة المقدسة. ولا ننسى أيضاً أن حرب فلسطين عام ١٩٤٨م (١٣٦٧هـ) قد دفعت بعض أبناء فلسطين وخاصة من قطاع غزة إلى مكة المكرمة، ونجد من العائلات ذات الأصل الشامي بيت هاشم والجبري والخشيفاتي وغيرهم.

السليمانيون: يطلق هذا التعبير في الاصطلاح المكي على العناصر المكية التي قدمت أصولها من أفغانستان. وليس بين أيدينا معلومات كثيرة تصور كيفية هجرة الأصول الأولى لهذه الجالية، غير أن ما يتردد على الألسن، أن أحد أمراء أفغانستان، واسمه محمد نادر شاه قد حج مع مجموعة كبيرة من جيشه قبل قرابة (٢٠٠) عام، فبقي بعض أفراد جيشه، واستوطنوا مكة، ثم زاد عددهم تدريجياً بمن يتخلف عن العودة بعد مواسم الحج.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

الحضارم: من الجاليات التي اتسعت هجرتها إلى مكة جاليات الحضرميين. ويذكر السباعي أن هجراتهم الأولى ومجاورتهم بمكة كان رائدها النشاط العلمي، ثم أضيف إليها فيما بعد النشاط التجاري، فازداد طلاب الرزق من كبار التجار إلى صغار الباعة والمستخدمين. ثم اتسعت هجرة هؤلاء، وأصبح المجاورون منهم يكادون يستقلون بأكثر الحوانيت التجارية، يشاركهم في هذه المهنة بعض الهنود وأهل الشام، وقد انتفع الأهالي بخدمة الصغار منهم في البيوت. ومن أشهر عائلات الحضارم بيت باجنيد وباحارث وباناجه وباناعمه وباحكيم وبازرعة وباعيسى وباعشن وغيرهم[٢٢].

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء بعض الجاليات اليمنية التي لا تنتمي إلى حضرموت، وقد كان لسوء الأحوال الاقتصادية في اليمن أثر كبير في هجرة هؤلاء، لا إلى مدينة مكة بل إلى جميع مناطق المملكة بلا استثناء، ونجد اليوم في مكة العديد من العائلات اليمنية التي تسهم بنصيب وافر في الأصول السكانية للمدينة المقدسة.

الأفارقة: ويطلق عليهم في المصطلح المكي اسم (التكارنة)، وهذا يشمل جميع العناصر السوداء التي تستوطن المناطق الواقعة بين الصحراء الكبرى والغابة الاستوائية، وتمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

وقد أطلق الجغرافيون العرب اسم بلاد السودان على نطاق السافانا المدارية في القارة الأفريقية بأسرها الذي يشمل دول السنغال، وموريتانيا، ومالي، وفولتا العليا، والنيجر، ونيجريا، وتشاد والسودان. ويشمل السودان الغربي المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي وبحيرة تشاد، أما السودان الشرقي فيشمل المنطقة الممتدة بين بحيرة تشاد والبحر الأحمر شاملاً السودان والحبشة والصومال.

---

(٢٢) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

وقد وصل الإسلام إلى السودان الغربي خلال القرن التاسع الميلادي، قادماً من المغرب، ولم يأت القرن الحادي عشر الميلادي حتى عم الإسلام جميع المنطقة. أما السودان الشرقي فقد انتشر الإسلام بين أبنائه في وقت مبكر، وتعود صلات سكان هذه المناطق بمكة إلى:

١ - الظروف القديمة التي لابست تجارة الرقيق قديماً.

٢ - الحروب التي وقعت بين سكان هذه المنطقة والمستعمرين الإنجليز والفرنسيين، الأمر الذي نجمت عنه هجرة العديد من هؤلاء.

٣ - رحلات الحج التي يقضي معظم السكان حياتهم في الادخار لها منذ وقت مبكر. وكانت رحلة الحج تستغرق سنوات عدة، يقطعها هؤلاء على الأقدام إلى السودان، ثم يقطعون البحر الأحمر إلى مكة. ومنذ الثمانينيات الهجرية زادت هجرة هؤلاء واستقرارهم خاصة بعد انتظام الرحلات الجوية من بلادهم إلى الديار المقدسة.

ونجد من الجاليات التكرونية التي تستوطن مكة حالياً أسماء مجموعات قبلية، مثل: الهوسا، والفلان، الذين يعرفون بالفلاته، والبرنو والبرقو والكمبيجي وغيرهم(٢٣).

جاليات أخرى: إن هجرة العراقيين إلى مكة قليلة، وربما يعود ذلك إلى خصب الأراضي العراقية، ويمكن أن يلحق بهم هجرة الإيرانيين أيضاً التي تبدو قليلة أيضاً، غير أن مكة لا تخلو من مواطنين تعود أصولهم إلى العراق أو بلاد إيران.

هناك أعداد كبيرة ممن نسوا أو تناسوا الأصول التي انحدرت منها عائلاتهم، وقد صنف هؤلاء بعدِّهم جاليات غير معروفة الأصول الأولى.

---

(٢٣) محمد محمود السرياني: رحلة الحج البرية من غرب أفريقيا إلى مكة المكرمة، مجلة الدارة، العدد (١-٢)، س (٢٦)، ص ١٩٧-٢٢٦ .

أسباب الهجرة الوافدة:

من استعراضنا لتاريخ استيطان الجاليات المختلفة نستطيع أن نحدد الأسباب العامة التي دعت إلى الهجرة إلى البلد الحرام. ويمكن أن نصنف هذه الأسباب جرياً على عادة الجغرافيين إلى:

- أسباب تتعلق بمكان القدوم.
- أسباب تتعلق بمكان الوصول.
- أسباب مساعدة.

الأسباب التي تتعلق بمكان القدوم:

كان العهد العثماني الثاني هو العهد الذي كثرت فيه الهجرة إلى المدينة المقدسة، ولو نظرنا إلى أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة لرأينا أن كل أقطار العالم الإسلامي كانت ترزح تحت نير الاستعمار، فنجد الهولنديين في إندونيسيا، والإنجليز في ماليزيا ودول القارة الهندية ومصر والسودان ونيجيريا، والروس في جمهوريات آسيا الوسطى وبلاد القوقاز. والمغرب العربي ودول غرب أفريقيا تحت السيطرة الفرنسية. وكان من نتيجة ذلك أن هبت هذه الشعوب لمقاومة المستعمر، فكانت الثورات التي قضى عليها المستعمرون بكل قسوة ووحشية، وكان من جراء ذلك تضييق الخناق على السكان، ومصادرة ممتلكاتهم، والزج بهم في السجون، وقد يصل الأمر إلى مستوى طردهم من بلادهم.

إن هذا كان من الدوافع القوية الطاردة لهؤلاء من بلادهم، والمشجعة لهم على الهجرة من بلادهم. ولذا يمكننا تصور أن الهجرات التي تمت إلى مكة من الخارج كانت هجرات قسرية فرضت على الكثيرين، وأمليت عليهم إملاءً، فليس لهم الخيار في ذلك.

الأسباب التي تتعلق بمكان الوصول:

أما الأسباب الجاذبة التي تتعلق بمكان الوصول فنلمسها في الأجواء الروحية التي تضفيها المدينة المقدسة على ساكنيها. بالإضافة إلى ما لهذه المدينة من قدسية واحترام في نفوس المسلمين جميعاً جعلت الأفئدة تهفو إليها دائماً، يضاف إلى ذلك الأجواء العلمية، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الشرعية والعربية، التي كانت متوافرة طوال عهود التاريخ في أروقة الحرم وجنباته. هذا في الجانب الديني، أما في الجانب الدنيوي فقد كانت مكة بلداً مفتوحاً للنشاط التجاري، والكسب المادي، وخاصة في مواسم الحج.

لذا يمكن إفراد النقاط الآتية عوامل خاصة بمناطق الوصول:

١ - الانقطاع للعبادة والزهد والعيش بجوار بيت الله العتيق.

٢ - طلب العلم، والتفقه في العلوم الشرعية والعربية، والاستفادة من حلقات العلم التي تعقد في الحرم المكي الشريف.

٣ - التجارة والكسب في بلد أسواقه التجارية مفتوحة للجميع.

كان الدافعان الأول والثاني رائدي الهجرة إلى المدينة المقدسة طوال عهود التاريخ، ويمكن أن نضيف إليهما الهدف الثالث عند بعض الجاليات كالحضارم والهنود الذين كانوا يشعرون بأن الأوضاع الاقتصادية في مكة؛ وعلى الرغم من كونها متواضعة إلا أنها أحسن حالاً من الوطن الأم. وفيما عدا ذلك لم يكن في مكة من أسباب الرخاء، وسعة العيش، والثروة الكبيرة، التي يمكن تحقيقها بسهولة، الأمر الذي يغري الناس بالقدوم، فقد قدم الكثير من هؤلاء بدينهم، والقليل بدنياهم.

لذا لا يمكننا أن نرى أن للعوامل الاقتصادية في مكة أثراً في جذب الفئات الأولى من المهاجرين، غير أن الظروف الاقتصادية الممتازة التي عاشتها مكة فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

بعد تدفق النفط في البلاد، جعلت العامل الاقتصادي هو المؤثر الأول في الهجرة بعد أن كان المؤثر الأخير، فأصبح الكثير من المهاجرين يأتون للأغراض الدنيوية، والقليل النادر للأغراض الدينية، وقد ضاعف هذا العامل من حجم الهجرة على المستويين الداخلي والخارجي. ولولا القيود المفروضة على الهجرة الخارجية، لزاد عدد سكان مكة إلى أضعاف ما هي عليه الآن.

الأسباب المساعدة:

أما الأسباب المساعدة على الهجرة من مختلف أرجاء العالم الإسلامي إلى مكة، فلم تكن ميسورة فيما مضى؛ نظراً لبعد الشقة من جهة، وعدم وجود وسائل المواصلات من جهة أخرى. غير أن وجود السفن البخارية ساعد على انتقال الناس من الأماكن القصية في العالم الإسلامي كإندونيسيا وماليزيا، ودول القارة الهندية، فزادت هجرة هؤلاء أكثر من ذي قبل. كما أن مد سكة حديد الحجاز ساعد أيضاً على الوصول بسهولة إلى الأماكن المقدسة من مختلف جهات آسيا الوسطى وتركيا وإيران والبلاد العربية في آسيا، فإذا ما أضفنا إلى ذلك وجود المواصلات الجوية في الفترة الحالية أدركنا مدى إسهام هذه الوسائل في تشجيع الهجرة وتكثيفها.

ومما يجب التركيز عليه ما يعرف بظاهرة الاتصال بين مكان القدوم ومكان الوصول، حيث لم تنقطع صلات المجاورين بمكة والأماكن التي قدموا منها. وهذا بدوره يساعد على الهجرة، ويزيد من تسارعها. فوجود قريب أو معرفة صديق في مكة له دور كبير في تشجيع الهجرة، لذا نجد في كثير من الحالات أن المهاجرين هم من منطقة واحدة في هذا القطر أو ذاك، والسبب في ذلك هو وجود أفراد من هذه المنطقة في بلد المهجر يساعد هؤلاء عند قدومهم، خاصة وأن الكثير منهم لا يعرفون لغة البلاد، ومتطلبات شروط

الحياة الجديدة؛ فيقومون بتأمين السكن، والعمل، وترتيب أمر الزواج، والاتصال بأبناء الجالية، وغير ذلك. ولقد أدى هذا العامل في السنين الأربعين الأخيرة دوراً بارزاً في زيادة الهجرة إلى المدينة المقدسة من الخارج، وكذلك أيضاً من مختلف أرجاء الجزيرة من الداخل.

٤ - الهجرة في العهد السعودي:

استمرت الخطوط العريضة لتيارات الهجرة التي كانت سائدة في أواخر العهد العثماني خلال الفترة الأولى من تاريخ مكة الحديث، حيث أصبحت الحجاز تتبع المملكة العربية السعودية. وخلال هذه الفترة استمر تيار الهجرة الخارجية من خلال المسلمين القادمين إلى العمرة أو الحج من مختلف مناطق العالم الإسلامي[٢٤].

وبالمقابل أسهمت مناطق المملكة المختلفة بنصيب وافر من حركة الهجرة إلى العاصمة المقدسة، حيث نجد تمثيلاً لمختلف مناطق المملكة الإدارية. ويبدو هذا التمثيل أكثر وضوحاً في قبائل الحجاز المختلفة التي استوطنت مكة أكثر من غيرها بحكم إحاطتها وجوارها للمدينة المقدسة.

أسهمت مناطق المملكة المختلفة بنصيب وافر من حركة الهجرة إلى العاصمة المقدسة

لم تكن العناصر القبلية سابقاً ترغب في الاستيطان في مكة على الرغم من قربهم منها. فهؤلاء في الغالب لا يفضلون سكن المدن على الرغم من أن صلاتهم كانت وطيدة مع المدينة المقدسة، حيث كانوا يعيشون في أطرافها البعيدة، ويؤجرون جمالهم في مواسم الحج، وينقلون حاصلاتهم إلى أسواق مكة.

ويروي البلادي أنه كان يتحضر بعض أفراد هذه القبائل بين الحين والآخر، ونظراً لظروف بيئتهم القاسية قد ينسى أو يتناسى المتحضر أصله القبلي، فينسب إلى مهنته، فيظن أنه من الوافدين.

(٢٤) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في تطور النمو الحضري، ص ٢٧.

غيـر أن سيادة الأمن على ربوع البـلاد قد أنهى عـمليات الغزو، كما أن قلة الأمطار سـاعـدت على جـفاف المراعي، فـاختـفت أعداد الثـروة الحـيـوانيـة. يضـاف إلى ذلك وجـود الأمـوال التي تدفـقت على المدن السـعودية كـافـة ومنهـا مكة، قد أغرى هـؤلاء باللجـوء إلى المدن، فكان من آثار ذلك أن استـوطنت مكة أعداد كـبيـرة من هـؤلاء الذين يمثلون مناطق المملكة كافة بلا استـثناء. وعلى الرغم من أن استيطان بعض هذه القـبـائل قديم، إلا أن غـالبيـة هـؤلاء القبليين قـد هـاجـروا حـديثـاً، وخاصة من مناطق الحجاز المجاورة[٢٥].

وفي سـبعينيات القرن العشرين (١٣٩١هـ/١٩٧١م) أظهـرت نتـائج المسح الاجتماعي - الذي أعد لمخطط المنطقـة الغربيـة من المملكة - أن (٥٩٪) من مـجـمـوع أرباب الأسـر المكيـة مـولودون خـارج مـدينة مكة المكرمـة، منهم قـرابة (١٨٪) مـن مـواليـد المملكة، والبـقـيـة وهـم (٤١٪) ولدوا خـارج المملكة العـربيـة السـعـودية في أقـطار عـربيـة وإسـلامـيـة أخرى[٢٦]. ويدل ذلك على أمرين أسـاسـيين هـمـا:

١ - تعاظم تيار الهجرة الخارجية الوافدة إلى المدينة المقدسة.

٢ - ارتفـاع ملمـوس في حـركة الهـجـرة الداخلية من مـخـتلف مناطق المملكة.

أصبح الدافع الاقتصـادي هـو المحرك للهجرة إلى المدينة المقدسة، سـواء أكـانت الهـجـرة داخليـة أم خـارجيـة، ولم يعـد الدافـع الديني هـو الذي يطبـع حركة الهجرة إلى المدينة، كما أن الهجرة الخارجية لم تعد استيطانية كما كانت في السابق، فقد قيّدت الحكومة حـركة الهـجـرة الخـارجية ونظمتها، وقصرتها على الهجرة المؤقتة التي تضم سيلاً من

---

(٢٥) مخطط المنطقة الغربية: الإستراتيجيات البديلة للمدن، ص ٤١، وزارة الداخلية، إدارة تخطيط المدن والمناطق، ١٣٩٣هـ.

(٢٦) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٣-٢٤.

العمالة الوافدة التي تحتاجها المدينة لمواكبة تطورها الاقتصادي. وبالرغم من حركة الهجرة غير النظامية فقد ظهر أثر السياسات الحكومية واضحاً في بيانات عام (١٤٠٣هـ)؛ إذ انخفض عدد أرباب الأسر المولودين خارج البلاد إلى أكثر من النصف. فهبطت النسبة إلى (١٩٪) بدلاً من (٤١٪) مقابل ذلك زيادة عدد المولودين داخل مكة الذين ارتفع عددهم إلى ما يقرب من (٧٣٪) عام (١٤٠٣هـ)، بالمقارنة مع (٤١٪) عام (١٣٩٤هـ)[٢٧].

وأوضح مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة (تقرير (٢) ج (٢) جدول ٣: ١) أن إجمالي الهجرة الوافدة (خارجية وداخلية) خلال الفترة (١٣٩٩-١٤٠٣هـ) قد بلغ ما يقرب من (١٢٧) ألفاً، منهم (٨٤) ألفاً من داخل المملكة (هجرة داخلية) و(٤٣) ألفاً من خارج المملكة (هجرة خارجية)[٢٨]. وهذا يعني أن حجم الهجرة الداخلية يبلغ قرابة (٦٦٪) معظمهم من الظهير الريفي للمدينة المقدسة. أما الهجرة الخارجية فتشكل (٣٤٪) من إجمالي تيار الهجرة العام، وتأتي الدول العربية وعلى رأسها مصر في مقدمة الدول المرسلة للمهاجرين، يليها أقطار باكستان وبنغلادش، وأقطار اليمن وبلاد الشام، ومعظم القادمين من أفريقيا السوداء يأتون من دولة نيجيريا الاتحادية[٢٩].

ومنذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري جفت منابع الهجرة الخارجية تماماً ما عدا الهجرة الخفية وغير النظامية، وأصبحت الهجرة هي عمالة وافدة لأغراض تقتضيها سوق العمل في مكة، ولم يعد لهؤلاء الوافدين أثر يذكر في المورفولوجية الاجتماعية للمدينة؛

(٢٧) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٣-٢٤.

(٢٨) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٧-٢٨.

(٢٩) محمد محمود السرياني: الهجرة الوافدة إلى المملكة العربية السعودية، مجلة كلية التربية، عدد خاص عن الجغرافيا، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، ص ١٤٥-٢١٣.

لأن مدة بقائهم محدودة، ومرهونة بانتهاء الحاجة إليهم. وهذا يجعل الهجرة مقصورة على العناصر الداخلية من أبناء المملكة المختلفة.

والخلاصة أن الهجرة الوافدة الخارجية الاستيطانية أصبحت قليلة جدًا، وحتى العمالة الوافدة الخارجية، قد تقلصت إلى حدودها الدنيا في ظل سياسة السعودة التي تتبناها السلطات المحلية، لإفساح المجال للأيدي العاملة الوطنية، لتمارس دورها الطبيعي في مسيرة العمل التنموي.

ثانياً: انتشار الجاليات ومناطق توطنها وانصهارها في البوتقة المكية

تمر الجاليات الوافدة المهاجرة من الخارج بثلاث مراحل متباينة قبل اندماجها في المجتمع المضيف، وهذه المراحل هي:

- دخول الجاليات واستيطانها.
- تكوين المناطق الاجتماعية المختلفة داخل المدينة.
- مرحلة الاندماج الكلي في المجتمع المضيف.

١ - دخول الجاليات واستيطانها:

ليس بين أيدينا ما يعين على رسم الصورة الحقيقية لعملية انتشار الغطاء السكاني على الرقعة الأرضية للمدينة المقدسة من قبل الجاليات المختلفة. ويمكن أن نستعير ما كتب في هذا الصدد عن انتشار الجاليات في مناطق أخرى من العالم. وقد حظيت في هذا المجال نظرية الاجتياح والتعاقب (Invasion - Succession Theory) باهتمامات الجغرافيين وعلماء الاجتماع في تفسير توطن الجاليات في قطاعات المدن المختلفة. ومدلول كلمة الاجتياح (Invasion) يشير إلى الاستيطان الأول لبعض أفراد جالية في أي رقعة أرضية من المدينة، أما كلمة التعاقب

(Succession) فتعني الاستيطان، بحيث تحل جالية محل جالية أخرى في بقعة من بقاع المدينة أو في المدينة بأسرها. ولعل أشهر من بحث في هذا الموضوع (Mckenzie)[٣٠] و(Duncan & Duncan)[٣١] و(Gibbard)[٣٢] و(Burgess)[٣٣] و(Darden)[٣٤] و(Deskins)[٣٥] و(Meyer)[٣٦] و(Rice)[٣٧] وكثير غيرهم. وقد وضع هؤلاء مراحل عدة لهذا التوطن والاستقرار. ولعل ما كتبه (Duncan & Duncan) بهذا الخصوص يرسم لنا الطريق لمحاولة تتبع خيوط الهجرة لهذه الجاليات إلى المدينة المقدسة، ونستطيع أن نضع ثلاث مراحل لدخول أي جالية واستيطانها في ضوء نظرية الاجتياح والتعاقب.

---

(30) Mackenzie, R.D. "The scope of Human Ecology" in E.W. Burgress (ed). The Urban Community, Chicago, University of Chicago Press, 1926.

(31) Duncan & Duncan, "The Negro Population of Chicago: A study of Residential succession", Chicago, University of Chicago Press, 1957.

(32) Gibbard, H. A. "The Status Factor in Residential Succession". The American Journal of Sociology, Vol. 46, P. 853-62.

(33) Burgess, E. W. "Residential Segregation in American Cities", The Annals of the American Academy of Political and Social Sciences, Vol. 140, November, 1928, P. 105-115.

(34) Darden, J. The Residential Segregation of Blacks in Medium Size Cities of Maickigan, Journal of Social and Behavioral Sciences, Vol. 22, (Spring) 1976.

(35) Deskins, D. Residential Mobility of Negros in Detroit 1837-1965, Ann Arbor, Mickigan, Dept. of Eeogranphy, University of Mickigan, 1972.

(36) Meyer, D. "The Changing Negro Residential Patterns in Lansing, Mickigan 1850-1869, Mechigan State. University, Unpublished Ph. D. Desecration, 1970.

(37) Rice, R. R. "An Analysis of Invasion - Succession and Areola differentiation as ecological process operative in the development of ecological variation within a Negro Community. A. thesis, Mackegan state university, East Lansing 1962.

المرحلة الأولى: وتبدأ بوصول بعض أفراد جالية من الجاليات إلى مكة، حيث تبدأ عملية البحث عن مناطق السكن والاستقرار، ضمن أحيائها المعمورة، أو في أطراف الأحياء المعمورة، ذات الإيجارات البسيطة. وقد يكون السكن مؤقتاً يتبعه بالتأكيد السكن الدائم إذا كان الهدف هو الاستقرار النهائي، وليس أداء الشعائر الدينية كالحج أو العمرة أو العمل المؤقت. وبالاستقرار النهائي لهؤلاء الرواد، تبدأ مرحلة الدخول إلى المنطقة المعينة داخل المدينة، أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم الاجتياح (Invasion). ويجب أن نلحظ أن المنطقة المختارة قد لا تكون مسكونة ابتداءً فيعمرها هؤلاء لأول مرة.

ومن استقصاء جوانب التاريخ المكي وجدنا أن أحياء شعب عامر وشعب علي والنقا والشامية والقرارة وحارة الباب والشبيكة وأجياد وأطراف المسفلة فيما يلي الحرم كانت مسكونة منذ بداية تاريخ مكة. لهذا فإن الجاليات التي استوطنت هذه المناطق كانت تشترك مع جاليات أخرى تعيش معها جنباً إلى جنب.

في حين نجد أن هناك أحياء أخرى من المدينة لم تكن مسكونة ابتداءً، أو أن إعمارها كان محدوداً، فعمرتها الجاليات القادمة لأول مرة. وينطبق هذا القول على أحياء السليمانية وأطراف المسفلة القصية وجرول والتنضباوي. وفي هذه الحالة يضيف المهاجرون رقعة أرضية جديدة، وبعداً سكانياً جديداً للمدينة القديمة. أما أولئك الذين استوطنوا القطاعات المعمورة؛ فإنهم لا يضيفون رقعة أرضية، ولكنهم يضيفون بعداً سكانياً جديداً فقط، وتستمر هذه المرحلة أي مرحلة الاجتياح أو الغزو، ما دام عدد المهاجرين الجدد إلى المنطقة لا يزيد عن (١٠٪) من حجم سكان منطقتهم.

المرحلة الثانية: وتبدأ حينما يصبح للجالية وجود محسوس على الرقعة الأرضية. فالنواة التي وجدت في المرحلة الأولى تأخذ في النمو والزيادة. وهنا تؤدي الهجرة دوراً كبيراً في ذلك. فإذا كان حبل

الهجرة متصلاً زاد عدد أفراد الجالية، واتسعت الرقعة المكانية التي يشغلونها. ويجد المهاجر الجديد الملجأ والملاذ في هذه المنطقة بين أقربائه وأبناء جلدته، لا سيما وأنه لا يعرف لغة المجتمع ولا تقاليده وعاداته، ولابد له من الاعتماد على معارفه وأقربائه في كثير من أمور حياته في المراحل الأولى لقدومه.

لهذا يفضل المهاجرون الجدد العيش بجوار المهاجرين القدامى من الجالية نفسها، وبهذا يزداد عدد أفراد الجالية، ويزداد تبعاً لذلك تأثيرهم في المجتمع المجاور. ويطلق الجغرافيون على هذه المرحلة اسم النماء والزيادة (Infiltration) حيث يتوالى قدوم المهاجرين تباعاً، وتبعاً لذلك تزداد أعدادهم، وفي هذه المرحلة يمكن أن يتراوح عدد أفراد الجالية بين (١٠-٥٠٪) من سكان المنطقة[٣٨].

المرحلة الثالثة: وتعرف باسم مرحلة التركز لأفراد الجالية (Concentration) حيث ترتفع نسبة هؤلاء ارتفاعاً يتزايد عن (٥٠٪) من سكان المنطقة، وهنا تبدو سيادة الأنماط الحياتية الخاصة بأفراد الجالية، حيث نجد الملابس التقليدية، والمطاعم التي تقدم الوجبات الوطنية، وكذلك استعمال اللغة الوطنية.

إن المراحل السابقة للاستيطان - يغلب على الظن - أن الجاليات التي استوطنت مكة قد مرت بها؛ لأن هذه الجاليات لم تأت فجأة بل جاءت هجرتها متدرجة على مدى سنين عدة. لذا فقد حلت هذه الجاليات بالتدرج محل عناصر سكانية قديمة كانت تسكن هذه المناطق. وقد بدأت كل جالية أقلية، ثم زاد عددها بالتدرج إلى أن سادت ربوع حي من أحياء المدينة المقدسة. وهذا ينقلنا إلى الجزء الثاني من النظرية، وهو التعاقب (Succession) الذي ينجم عن تغير اللاندسكيب الحضاري للمنطقة، إذ تحل جالية محل جالية أخرى، أو أن تصبح جالية أقلية بعد أن كانت تشكل الأغلبية في حي من

(٣٨) محمد محمود السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٥.

الأحياء. وعملية التتابع تحدث جنباً إلى جنب مع العملية الأولى، وهي عملية الاجتياح (Invasion)[٣٩].

وإذا ما استعرضنا واقع أحياء مكة المكرمة كما يصفها بيركهارت عام (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)[٤٠]، أو كما يصفها هورخرونية عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م)[٤١] نجد أن عملية التتابع في هجرة الجاليات قد غيّرت كثيراً في اللاندسكيب الحضاري، لمختلف مناطق مكة وأحيائها.

فمثلاً حي أجياد كان يسكنه شريف مكة وجنده وعبيده، وبعض الأشراف، وبطون قريش. وقد اندثرت هذه المورفولوجية لتحل محلها جاليات سكانية جديدة تستوطن كل جالية جزءاً من ذلك الحي. ففي أجياد المصافي وبئر بليلة نجد غلبة العناصر البخارية تليها العناصر الهندية. أما في أجياد السد فتأتي الأصول الهندية في المرتبة الأولى تليها الأصول الجاوية، ولا نجد من السكان الذين تحدث عنهم بيركهارت سوى منطقة صغيرة يسكنها بعض بطون قريش (شعبة قريش).

وإذا أخذنا الشبيكة والشامية والقرارة فقد كانت هذه الأحياء من أجمل أحياء مكة. ففي الشبيكة كانت منازل الأشراف، وعلية القوم من حكام مكة وأمرائها. أما الشامية والقرارة فكانت موطناً للعلماء والتجار والأغنياء، وخاصة القادمين من بلاد الشام ومصر. وقد تغير ذلك ليحل محل هؤلاء سكان من أصول جاوية وهندية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن بقية أحياء مكة القديمة، مثل: شعب عامر، والقشايشة، وحارة الباب، والنقا، وغيرها.

---

(٣٩) السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٠.

(40) Burckhardt, J. L. "Travels in Arabia" Libriric Du Leban, Beirut, 1972, PP. 180-219.

(41) Hurgroje, C. S. "Makka in the Later Part of the 19th century Leiden, Brill, 1970 m, PP. 6-15.

إن مفهوم التعاقب لا يقتصر على الصورة التي عرضناها آنفاً، وهي المرور بالمراحل الثلاث قبل أن تسود الجالية في إحدى مناطق المدينة. فهناك صورة أخرى تنجم عن سيادة الجالية على المنطقة ابتداءً، وخاصة إذا كانت تعمرها لأول مرة. وهنا تكون عملية التعاقب ليس لأفراد هذه الجالية، وإنما للجاليات التي تأتي بعدها، وتستوطن بجوارها، ثم تبدأ بالسيادة تدريجياً على المنطقة المعمورة.

ففي التنظباوي - على سبيل المثال - كان الأفارقة أول من سكن هذا الحي واستوطنه ابتداءً، لذا لم تمر الجالية الأفريقية في مكة بالصور الثلاث التي عرفناها سابقاً، وإنما شكل هؤلاء أكثرية منذ البدء غير أن المنطقة لم تقتصر عليهم وحدهم، بل جاورهم في السكن بعض العناصر من أصول يمنية وهندية وبرماوية. ولذا فإن القادمين الجدد بدؤوا المرحلة الأولى من مراحل الاجتياح، ولكنهم لم يصلوا إلى المرحلتين الثانية والثالثة؛ لأن عددهم ما يزال ضئيلاً أمام الوجود الأفريقي(٤٢).

٢ - تكوين المناطق الاجتماعية المختلفة داخل المدينة:

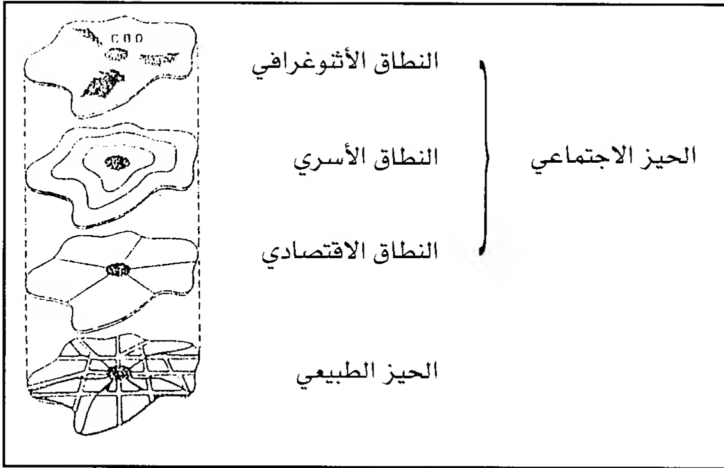
تشكل المرحلة الثالثة من مراحل نظرية الاجتياح والتعاقب المرحلة الأولى في تكوين المناطق الاجتماعية داخل المدن (Social Areas). والمنطقة الاجتماعية هي حي أو منطقة أو قطاع من المدينة له صفات مميزة قد تكون إثنية عرقية، أو دينية، أو اقتصادية، أو أسرية بمعنى أن مفهوم المنطقة الاجتماعية مبني على تقسيم سكان المدينة إلى مناطق جغرافية تبعاً لأوضاعهم الاجتماعية - الاقتصادية.

لقد طور العالم شفكي (Shevky)(٤٣) وعدد من علماء الاجتماع الآخرون مفهوم المناطق الاجتماعية داخل المدن، ثم تلاهم الجغرافيون الذين أسهموا إسهامًا فاعلاً في تطوير هذا المفهوم، ونخص بالذكر

(٤٢) محمد محمود السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٧-٥٨.

(43) Shevky & Bell, "Social Area Analysis", Stan-Ford Unviersity Press, 1955.

كلاً من (Rees)[٤٤] و(Brian Berry)[٤٥] و(David Harvey)[٤٦]، وكثير غيرهم. وقد لخص شفكي المؤشرات التي تستخدم في تحديد النطاقات الاجتماعية بثلاثة مؤشرات هي المؤشرات العرقية، والمؤشرات الأسرية، والمؤشرات الاقتصادية. وهذه المؤشرات الثلاثة تشكل ما يعرف بالحيز الاجتماعي، ودراسة هذه المؤشرات الثلاثة أو بعضها يجب أن يكون ضمن حيز أرضي في المدينة، حيث يمكن تحديد الإطار الذي يشغله الحيز الاجتماعي على الرقعة الأرضية للمدينة (الحيز الطبيعي) (انظر شكل ١).



شكل رقم (١)

مكونات النطاق الاجتماعي في المدينة

---

(44) Berry, B. & Horton (eds). Geographic Perspectives on Urban Systems, Prentice Hall, 1970.

(45) Harvey, D. "Social Processes and Spatial Forms: an Analysis of the Conceptual Problems of Urban Planning" Papers of the Reigned Science Association, 25, 1970, PP. 47-69.

(46) Rees, P. H. "Concept of Social Space: Toward an Urban Social Gergraphy in Berry and Horton (eds)". Geographic Perspective on Urban Systems Printice Hall, 1970, PP. 306-399.

وليس هدف هذا البحث دراسة الأوضاع الأسرية، أو الأوضاع الاقتصادية، وإنما الهدف دراسة الناحية الإثنية المرتبطة بالجاليات الوافدة إلى العاصمة المقدسة؛ لمعرفة مدى انتشارها على مختلف أحياء مكة، وعلى تركز بعض الجاليات في بعض المناطق دون غيرها، وحتى وقت قريب عرفت بعض المناطق في مكة بأسماء من سكنها من الجاليات، وذلك لغلبة سكان الجالية على مناطق الحي المختلفة. ونجد من آثار ذلك جبل الترك، وجبل هندي، وحارة السليمانية (الأفغان)، وزقاق المغاربة، وزقاق البخارية، وغير ذلك من الأسماء التي تظهر الغلبة السكانية لجالية دون أخرى على منطقة معينة، الأمر الذي يدعو إلى إطلاق اسم الجالية عليها.

وفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م أجريت دراسة شملت (١٦٤٢) استبانة وزعت على أحياء مكة المكرمة آنذاك، البالغة (٢٤) حياً، وكان من بين أسئلة الاستبانة سؤال واحد هو: "من أين أتت الأصول الأولى للعائلة؟". وكان السؤال مفتوحاً بحيث يسجل الشخص أي اسم يختاره وأي مكان قدم منه. وبتحليل الإجابة على هذا السؤال ظهر لنا أن العنصر الغالب من سكان هذه الأحياء كان على الشكل الآتي:

بتحليل الإجابة على هذا السؤال ظهر لنا العنصر الغالب على سكان الأحياء بمكة

١ - الأحياء المحيطة بالحرم من الشمال والشرق يغلب على سكانها الأصول الجاوية القادمة من إندونيسيا وماليزيا، وهذه الأحياء تشمل القشاشية، وشعب علي، والقرارة، والنقا، والشامية. تليها إلى الشمال منطقة السليمانية التي تعد منطقة تركز للسكان الذين تنحدر أصولهم من العناصر الأفغانية، ويجاورهم خليط من السكان من أصول جاوية وهندية ويمنية في شعب عامر.

أما الأحياء المحيطة بالحرم من الجنوب والغرب فتغلب على سكانها الأصول القادمة من شبه القارة الهندية. وهذه الأحياء تشمل

أجياد، والمسفلة، والشبيكة، وحارة الباب. ويتخلل هذه الأحياء جيوب من العناصر البخارية الذين يتركزون في أجياد المصافي، كما يوجد بعضهم في المسفلة. وكذلك العناصر القادمة من المغرب (المغاربة) الذين يسكنون في المسفلة والشبيكة على حد سواء.

والأحياء السابقة تمثل حدود مكة القديمة الممتدة على طول وادي إبراهيم، والجبال المحيطة به من المعلاة إلى المسفلة. وهذه الأحياء هي التي بقيت تشكل الرقعة التي تقوم عليها المدينة المقدسة منذ أقدم عصورها حتى توحيد المملكة العربية السعودية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري. وتغلب على سكان هذه المنطقة العناصر الوافدة من الخارج.

٢ - هناك نطاق آخر يحيط بهذا النطاق المركزي، ويشمل أحياء الملاوي والمعابدة في الشمال الشرقي، والعتيبية وجرول في الغرب، والتنضباوي والهنداوية في الجنوب الغربي. ونشاهد أن الأحياء الأربعة الأولى (الملاوي، والمعابدة، والعتيبية، وجرول) تغلب على سكانها العناصر القبلية من قبائل الحجاز وبعض البطون النجدية. أما المنطقة الجنوبية الغربية والتي تشمل التنضباوي والهنداوية فأغلب سكانها من أصول تنتمي إلى القارة الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى، ويتخلل هذه الأحياء جيوب من العناصر القادمة من اليمن (حضرموت) الذين يسكنون في أحياء جرول والجميزة وأطراف العتيبية والتنضباوي.

وهذه الأحياء الستة السابقة تشكل المنطقة الانتقالية. وقد تأخر إعمار هذا النطاق إلى ما بعد توحيد المملكة، وكانت هذه المناطق قبل ذلك تشكل المنتجعات وأماكن النزهة والاستجمام لسكان مكة، وكان يسكنها بعض قبائل البدو في بعض مواسم العام من أجل تأجير جمالهم للحجيج، أو من أجل نقل المحاصيل وبيعها. وقد أدت الظروف التاريخية دوراً مهمًا في إعمار هذا النطاق من قبل أبناء

البوادي الحجازية، وبعض القبائل النجدية على النحو الذي ذكرنا سابقاً. فوجدت أحياء جديدة، مثل: الملاوي والمعابدة والعتيبية، وتوسعت منطقة جرول لتشمل مناطق أكبر مما كانت عليه.

وإذا استثنيا منطقة التنضباوي والهنداوية فإن جميع أحياء هذا النطاق قد أعمرتها الهجرة الداخلية من مناطق المملكة المختلفة على عكس النطاق المركزي الذي أعمرته الهجرة الخارجية من مختلف بقاع العالم الإسلامي. ومن المعلوم أن هذه الهجرة حديثة لا ترجع في الغالب إلى أبعد من (٤-٥) عقود مضت.

٣ - يأتي بعد النطاق الانتقالي نطاق ثالث يشمل أحياء العزيزية والفيصلية في الشرق والزاهر والزهراء، والنزهة والرصيفة في الغرب، وقد ظهرت هذه الأحياء ابتداءً من عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، وذلك حينما بدأت التوسعة السعودية الأولى للحرم المكي الشريف التي فرضت إزالة الكثير من مساكن المنطقة المركزية، وقد تزامن ذلك مع قيام أمانة العاصمة المقدسة بتخطيط هذه الأحياء الجديدة في الفيصلية والعزيزية والنزهة والزهراء والزاهر والرصيفة، وتزويدها بالخدمات والمرافق، الأمر الذي شجع على الاستقرار بها. ولما كانت التعويضات التي أعطيت لهؤلاء عن مساكنهم القديمة مجزية بالإضافة إلى أن معظم هؤلاء ذوو دخول عالية؛ فقد فرضوا نمطاً سكانياً متميزاً عن جميع أحياء مكة السابقة، يتمثل في البيوت المبنية على شكل فلل تحيط بها الحدائق، وتضم في الغالب أثرياء مكة من ذوي الدخول العالية.

والملفت للنظر في هذه الأحياء، هو أن سكانها هم خليط من أصول عرقية مختلفة، ولا نجد سيادة لأي جالية على أخرى في أحياء الفيصلية والعزيزية والنزهة والرصيفة، في حين نجد زيادة في العناصر القبلية في أحياء الزاهر والزهراء، فرضها قرب هذه الأحياء من المناطق الأولى التي استقر بها هؤلاء في النطاق الثاني خاصة في العتيبية وجرول.

إن سكان هذه المناطق لا يدينون بوجودهم لا إلى الهجرة الخارجية من بقاع العالم الإسلامي، ولا إلى الهجرة الداخلية من مناطق المملكة، وإنما إلى الهجرة المحلية التي تتم داخل المدينة نفسها؛ وذلك من المنطقة المركزية والانتقالية إلى هذه المنطقة؛ لذا نجد أن سكان هذه المنطقة يمثلون جميع الأصول السكانية دون استثناء. (انظر جدول رقم ١).

جدول رقم (١)

أسماء الجاليات المسيطرة في أحياء مكة المختلفة

الحي	اسم الجالية المسيطرة
أجياد، الشبيكة، حارة الباب، المسفلة، القشاشية، شعب علي، الشامية، القرارة، النقا	الهنود
السليمانية	الأفغان
التنضباوي، الهنداوية	الأفارقة
الجميزة، المعابدة، الملاوي، جرول، العتيبية، الزهراء، الزاهر	العناصر القبلية
شعب عامر، الفيصلية، العزيزية، النزهة، الرصيفة	خليط (لا يوجد غلبة لأي أصول سكانية)

٤ - بعد اكتمال التوسعة السعودية الأولى التي استغرقت قرابة عقدين من الزمن وضعت أمانة العاصمة المقدسة خططا لتطوير المنطقة المحيطة بالحرم، التي تشمل النطاق المركزي، فأجري المزيد من الهدميات حول الحرم، لأغراض التجميل وفتح الطرق وشق الأنفاق وإنشاء مواقف السيارات، وإيجاد المساحات المكشوفة لأداء الصلوات، ووضع مزيد من الخدمات لتلبية الاحتياجات الوظيفية البارزة التي تقوم بها مكة المكرمة بصفتها عاصمة روحية للمسلمين يقصدها أعداد متزايدة من الحجاج كل عام، ثم جاءت التوسعة

السعودية الثانية (توسعة خادم الحرمين الشريفين) للمسجد الحرام، الأمر الذي فرض مزيداً من الهدميات وأعمال الإزالة في المنطقة المركزية؛ فقد استوعب الحرم مساحات واسعة من أراض المنطقة المركزية بحيث اختفت بعض الأحياء تماماً، لدخولها ضمن التوسعة (السوق الصغير، والقشاشية، وسوق الليل وغيرها)؛ مما قلل عدد سكان المنطقة المركزية.

لقد تزامنت أعمال تطوير المنطقة المركزية مع عدد من الأمور الأخرى، منها:

١ - زيادة الهجرة الداخلية من الأرياف والمناطق المجاورة إلى المدينة المقدسة.

٢ - قدوم أعداد كبيرة من الوافدين للعمل في مشاريع التنمية الطموحة التي تبنتها المدينة في ظل زيادة العائدات النفطية، وازدهار الوضع الاقتصادي.

٣ - التعويضات المجزية لأصحاب العقارات بعد تنازلهم عن ملكيتها، لأغراض تطوير المدينة المقدسة.

٤ - منح الأراضي التي أقطعتها الدولة للمواطنين.

٥ - القروض التي منحتها الدولة للمواطنين؛ لأغراض إنشاء المساكن عن طريق صندوق التنمية العقاري.

٦ - السيولة النقدية لدى المواطنين الناجمة عن انتعاش الحركة الاقتصادية في المدينة بشكل خاص والمملكة بشكل عام.

أدت العوامل السابقة إلى زيادة رقعة المدينة المقدسة، فقد أسهم العاملان الأول والثاني في زيادة عدد السكان زيادة كبيرة، فرضت حاجة ماسة لمساكن جديدة، لإيواء هذا العدد الكبير من الوافدين الجدد إلى المدينة المقدسة. أما العوامل الأخرى فقد شجعت المواطنين على الإقبال على سوق العقار، وبناء المساكن؛ إما لأغراض السكن أو الإيجار أو كليهما.

ونجم عن ذلك أن شهدت المدينة طفرة في العمران فاقت كل التوقعات، وظهرت امتدادات سكنية جديدة في أحياء العزيزية والزهراء والرصيفة والشرائع والتنعيم وغيرها، وتعدت مكة الجبال المحيطة بها، وانتشر العمران على طول الطرق الرئيسة للمدينة المقدسة.

فقد امتد العمران على طريق المدينة شمالاً لأكثر من (٢٢كم)، ووصلت مخططات الأراضي إلى بلدة الجموم. ومن ناحية الغرب اتسعت مناطق التنضباوي والهنداوية غرباً على طريق جدة السريع إلى الرصيفة ومخطط البركة، وعلى طريق جدة القديم باتجاه حدا، وأقيمت مخططات في بلدة بحرة. وفي الجزء الجنوبي امتد العمران إلى أكثر من (١٥كم) على طريق الليث واليمن وجنوب المسفلة. ومن الناحية الجنوبية الشرقية شمل العمران كل منطقة العزيزية، وتعدى الطريق الدائري الخارجي إلى العوالي وحدود المشاعر المقدسة على طريق الطائف - الهدا، وغطى منطقة الشرائع بأكملها، على طريق الطائف - السيل. ويمكن عدّ هذه المناطق الضواحي الحديثة لمدينة مكة، وقد استوعبت هذه الضواحي حركة النزوح من المنطقة المركزية والمنطقة الانتقالية، كما شكل الكثير منها مناطق سكن للوافدين الجدد.

والذي يهمنا هنا في هذا البحث أن هذه الأحياء لن تصطبغ بأي صبغة إثنية؛ لأنها تحوي خليطاً سكانياً قدم من مختلف مناطق وأحياء مكة الأخرى، وخاصة أحياء المنطقة المركزية والوسطى. ولذا ستكون خصائصها الإثنية شبيهة بأحياء العزيزية والفيصلية والزهراء والرصيفة التي لم نلمس فيها وجوداً محسوساً لجالية بعينها، بل كان سكانها خليطاً يشمل الفئات كافة.

٣ - مرحلة الاندماج الكلي:

لدى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافيا العديد من المصطلحات التي تشير إلى تأقلم واندماج وذوبان الجاليات الوافدة في المجتمع المضيف، فقد طور علماء الاجتماع الأمريكيون مفهوم بوتقة الانصهار (Melting Pot)؛ ليشير إلى أن المدن أشبه بالوعاء الذي تمزج فيه مجموعة من الأشياء مزجاً جيداً، بحيث يتكون في النهاية خليط متجانس من جميع هذه الأشياء، يمثل مادة جديدة لا تحمل خصائص الأشياء التي تشكلت منها أولاً.

وقد طبق علماء الاجتماع الأمريكيون هذا المفهوم على المهاجرين الذين وفدوا إلى العالم الجديد من مختلف مناطق القارة الأوروبية، وهم يحملون قيماً وعادات وتقاليد وأعرافاً وألواناً ومذاهب ولغات مختلفة. هؤلاء جميعاً حينما يدخلون البوتقة الأمريكية ينصهرون فيها؛ ليشكلوا في النهاية المجتمع الأمريكي الجديد، الذي يختلف بقيمه وعاداته وتقاليده عن أي من المجتمعات التي وفد منها هؤلاء المهاجرون.

وبجانب هذا المفهوم ظهر مصطلح التأقلم الثقافي (Acculturation)، وهو مصطلح يشير إلى أن أي مجموعة بشرية تأخذ بعض العناصر من ثقافة مجموعة أخرى إذا حصل احتكاك بينهما. وقد استعمل علماء الأنثروبولوجيا الذين طوروا هذا المفهوم؛ ليشير إلى التغيرات التي تطرأ على الجاليات المختلفة حينما تعيش معاً في مجتمع واحد، الأمر الذي ينجم عنه تغيير في المعطيات الحضارية والثقافية لإحدى هذه المجموعات أو جميعها(٤٧).

(47) Mahammad Siryani, "Residential Distribution, Spatial Mobility and Acculturation in an Arab - Muslim Community" Ph. D dissertation, Michigan State University, 1977, PP. 136-140.

أما المفهوم الثالث فهو مفهوم الاندماج (Assimilation)، ويعني تفاعل الجاليات الإثنية ذات الأصول العرقية والدينية المختلفة مع المجتمع المضيف دون أن تشعر هذه الجاليات بأدنى حرج بسبب الطابع الإثني لها. والاندماج الكلي يعني أن تذوب الفوارق بين هذه الجاليات والمجتمع المضيف بحيث تتبنى هذه الجاليات اتجاهات وأحاسيس هذا المجتمع، ويعدها المجتمع المضيف جزءاً منه، وتشترك معه في معطيات حياته الثقافية والحضارية العامة[٤٨].

وقد عرّف معجم العلوم الاجتماعية الاندماج بأنه العملية التي يصبح فيها الفرد أو الجماعة متماثلاً ومشابها للمجتمع المضيف، وذلك من خلال اندماج الأقلية عن طريق الاتصال المتبادل. ويكون ذلك بالطبع حينما تختفي العادات والقيم القديمة للجالية، وتحل محلها عادات وقيم جديدة، وذلك في عملية تغير تدريجي تصل في النهاية إلى الذوبان الكلي[٤٩].

لقد حدد (Gordon)[٥٠] العديد من المتغيرات التي يقاس الاندماج من خلالها، وأهم هذه المتغيرات هي:

١ – تغير الأنماط الثقافية لدى الجالية الوافدة نحو أنماط المجتمع المضيف.

٢ – مشاركة الجاليات في الأندية الثقافية والاجتماعية للمجتمع المضيف.

٣ – الزواج المختلط بين أفراد الجالية والمجتمع المضيف.

٤ – غياب التعصب ضد أفراد الجاليات الوافدة من قبل المجتمع المضيف.

---

(48) Dacquelyn Bass, "The Southwest Spanish - Speaking Minority: A Study of Assimilation and boundary Maintenance", Michigan State University, Unpublished M. A. thesis, 1970, P. 10

(49) Dictionary of Social Sciences, 1964, P. 38.

(50) Lleard Gordan, "Assimilation in American Life", New York Ford University Press, 1964m, P. 70-71.

٥ - غياب التمييز العنصري من قبل المجتمع المضيف.

٦ - انعدام صراع القوى بين أفراد الجالية والمجتمع المضيف.

٧ - حرية الجالية في السكن والانتقال من وإلى أي بقعة في المدينة دون أن تمارس عليها ضغوط معينة من المجتمع المضيف.

إن المصطلحات الثلاثة التي استخدمها الجغرافيون وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيها الكثير من التداخل فبوتقة الانصهار (Melting - Pot) في حقيقة الأمر هي الاندماج الكلي (Assimilation) مع فارق واحد أن بوتقة الانصهار تحتاج إلى وقت طويل حتى تتغير. ومع أن علماء الاجتماع قالوا بأن الجيل الثالث للجالية تختفي لديه قيم المجتمع القديم، وتحل محلها قيم المجتمع الجديد إلا أن ذلك لم يكن على إطلاقه؛ فقد أثبتت الدراسات التي أجريت على الجاليات الأمريكية أن الجيل الثالث يحتفظ ببعض قيم وتقاليد وعادات المجتمعات التي وفدوا منها مع غلبة طابع القيم الجديدة المتبناة.

أما مصطلح الاندماج الثقافي (Acculturation) فهو لا يعدو كونه أحد مراحل الاندماج الكلي، المتمثل في تغيير الأنماط الثقافية لدى الجالية الوافدة نحو أنماط المجتمع المضيف.

وقبل أن ننظر في معايير الاندماج الكلي عند (Gordon) لابد لنا أن نذكر أنه بالرغم من وجود الشبه الكبير بين تيارات الهجرة الوافدة إلى مكة، وتيارات الهجرة الوافدة إلى المدن الأمريكية، بحيث تلقت مكة - كالمدن الأمريكية - خليطاً سكانياً يمثل العديد من دول العالم وشعوبه، غير أن الفرق يكمن في أمرين أساسيين بين تيارات الهجرة المكية وتيارات الهجرة الأمريكية هما:

١ - أن تيارات الهجرة الوافدة إلى مكة تقتصر على المسلمين فقط دون غيرهم، وهذا يبعد نزعة التعصب الديني سواء عند الجاليات أو عند المجتمع المضيف.

٢ - أن نظرة التمييز العنصري والعرقي التي اتصف بها المجتمع الأمريكي لم يكن لها نظير في العاصمة المقدسة، لذا لم يكن اللون أو الجنس في يوم من الأيام مشكلة بالنسبة إلى الوافدين إلى المدينة المقدسة، كما كان عقبة كأداء في المدن الأمريكية. ويرجع ذلك إلى أن المسلمين عموماً ليست لديهم هذه النزعة العرقية.

وكان من السهل على أفراد الجاليات الوافدة إذا تخطوا حاجز اللغة الذي يقف دائماً حجر عثرة بين أفراد الجاليات والمجتمع المضيف. وبمجرد إتقان اللغة العربية - وهي لغة المجتمع المضيف - يشعر المرء بأنه جزء من هذا المجتمع، فأبواب المشاركة والأنشطة الثقافية والاجتماعية مفتوحة، ولا توجد أي صعوبة في الزواج الذي يعد من العناصر المهمة في تأقلم الجاليات المختلفة. والمجتمع المكي مجتمع منفتح لا نجد فيه التعصب والكره للأجناس الأخرى. كما أن المجتمع لا يمكن أن يمارس ضغوطاً معينة مهما كان نوعها على أفراد أي جالية وفدت إلى المدينة المقدسة.

إن الشيء الوحيد الذي يقلل من فرص الاندماج مع المجتمع المضيف هو تقوقع الجاليات ضمن أحياء خاصة بهم، فوجود أبناء جالية ما، وتركزهم في حي معين له آثار سلبية على الاندماج، منها:

١ - عدم الاختلاط الكلي مع المجتمع المضيف.

٢ - استعمال اللغة الوطنية في التعامل اليومي.

٣ - الاحتفاظ بالمظاهر الاجتماعية المختلفة للجالية، كاللباس الوطني، والطعام الوطني، وزيادة فرص الزواج من أفراد الجالية.

٤ - عدم المشاركة في فعاليات ونشاطات الحياة المختلفة في المجتمع المضيف.

والسؤال المطروح الآن هو: هل تخطت الجاليات المكية هذا الحاجز الأخير الذي يفضي إلى الاندماج الكلي في المجتمع المحلي؟

وإذا كان الجواب بالنفي، فما العوامل التي تساعد على الإسراع في هذا الاندماج؟

إن ديناميكية تطور المدينة المقدسة ساعدت على إزالة الحواجز، وعلى اختلاط السكان، وعلى زوال بؤر الجاليات من معظم أجزاء المدينة، وخاصة المنطقة المركزية التي كانت منطقة التركز الأول للجاليات الوافدة من الخارج،

ديناميكية تطور المدينة المقدسة ساعدت على إزالة الحواجز. وعلى اختلاط السكان

فتوسعات الحرم المكي الشريف، وتنظيم وتطوير المنطقة المحيطة به، وتغير استعمالات الأرض حول الحرم للأغراض التجارية، وأغراض سكن الحجاج قد عمل على إزالة الكثير من مساكن المنطقة المركزية من مختلف الأحياء المحيطة بالحرم كأجياد والقشاشية والشامية والمسفلة والسليمانية، وبموجب تقديرات أمانة العاصمة المقدسة فإن المنطقة المركزية ستنخفض فيها أعداد السكان إلى الحد الأدنى، لغلبة الطابع التجاري والخدمي عليها. ومن المعلوم أن هذه الأحياء هي البؤرات التي يوجد فيها الوافدون، مما يعني زوال التركز السكاني للجاليات الوافدة من وسط المدينة، الأمر الذي يفضي إلى هجرة هؤلاء إلى المنطقة الثالثة أو الرابعة، التي تتصف أساساً بأن سكانها خليط من جميع عناصر مكة المختلفة.

وهكذا أسهم تطوير المدينة في زيادة فرص الاندماج السكاني في المنطقة المركزية، أما مناطق تركز الجاليات في النطاق الثاني، وهو نطاق المنطقة الانتقالية، فتستمر غلبة العناصر القبلية في الملاوي والمعابدة والعتيبية، كما تستمر غلبة العناصر الوافدة من أفريقيا في التنضباوي والهنداوية، غير أن قرب هذه المناطق النسبي من الحرم المكي الشريف، وظهور الأسواق المختلفة على طول الشوارع الرئيسية لهذه المناطق سيقلل من التركز السكاني فيها. وتشير تقارير المخطط الرئيس للعاصمة المقدسة أن عدد سكان الهنداوية والطندباوة

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

سينخفض إلى (٦٩٪) مما هو عليه؛ نتيجة أعمال التنظيم والتطوير المختلفة، ويمكن القول: إن الجاليات كافة التي استوطنت العاصمة المقدسة قد اندمجت في البوتقة المكية، تلك البوتقة التي ظهر جميع سكانها مكونين المجتمع المكي المعاصر الذي جمع إلى طبعه كما قال أحدهم: "وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وسكون الصيني، وحدة المغربي، وبساطة الهندي، وصلابة الشركسي، وحركة السوري، ولون الحبشي".

الخلاصة:

إن العرض التحليلي السابق لموضوعات الهجرة، ومراحل الاستيطان، والتأقلم أظهر أن سكان مكة المكرمة تنحدر أصولهم من جاليات تنتمي إلى جميع بقاع العالم الإسلامي، موزعة بين الأصول الهندية والجاوية والأفغانية والبخارية والتركية والمصرية والشامية والمغربية واليمنية والأفارقة والعناصر القبلية، بالإضافة إلى سكان مكة المكرمة من الأشراف والسادة والقريشيين.

والمتتبع لتاريخ الاستيطان في الحيز المكاني للمدينة المقدسة يجد أن مراحل الاستقرار تبدأ بالدخول إلى المنطقة (الاجتياح) (Invasion)، ثم النماء والزيادة (Infiltration)، ثم التركيز (Concentration)، وما تبع ذلك من حلول جالية محل جالية أخرى على مدى زمني معين (التتابع) (Succession).

إن وصول الجالية إلى مرحلة التركز تساعد على وجود المناطق الاجتماعية في المدينة (Social Areas)، والمناطق الاجتماعية هي أحياء تتصف بغلبة جالية معينة على سكانها، بحيث تسود أنماط هذه الجالية الاجتماعية من حيث الملابس والطعام والعادات الاجتماعية، وحتى استعمال اللغة الوطنية في بادئ الأمر.

تعرض هذا التركز السكاني وتكون المناطق الاجتماعية للعديد من المؤثرات التي ساعدت على تغييره، أهمها: مشاريع التنمية المحلية لقطاعات المدينة المختلفة، ثم توسعات الحرم المكي الشريف المتعاقبة التي ساعدت على انتقال الناس من وسط المدينة إلى أطرافها، فهجرت الأحياء القديمة، وتقلص عدد سكانها، وكثرت عمليات الهدم والإزالة لبعض المباني، حيث اقتضتها عمليات التطوير للمدينة المقدسة، وذلك ساعد على انتقال السكان إلى الأحياء الجديدة التي تعهدتها السلطات بمزيد من الاهتمام والرعاية، وأهم مميزات هذه الأحياء أنها خليط سكاني يشمل الأعراق والجاليات المختلفة كافة سواء أكانت وافدة من الخارج، أو قادمة من الداخل؛ مما أضفى وحدة سكانية واحدة، قوامها الدين الإسلامي، وعمادها اللغة العربية، والتقاليد والعادات العربية.

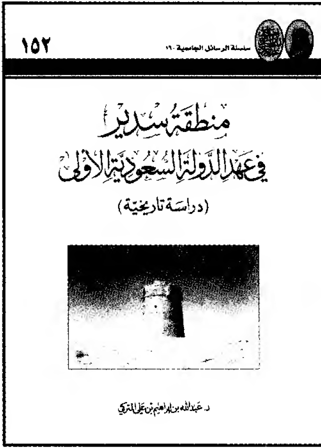
منطقة سدير
في عهد الدولة السعودية الأولى

دراسة تاريخية

تأليف

د. عبدالله بن إبراهيم التركي

٤٢٣ صفحة



يتناول هذا الكتاب تاريخ منطقة سدير قبيل قيام الدولة السعودية الأولى وأثناءها من خلال إبراز الجوانب السياسية والعلمية والاقتصادية.

ويركز الكتاب على منطقة من مناطق وسط الجزيرة العربية لتكون مثالاً على بقية المناطق الأخرى، وكيفية تفاعلها مع الأحداث والتاريخ.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

مشاهد وانطباعات وزير عدلية المغرب الخليفي عن الحجاز سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م

أ. د. محمد الشريف

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبدالمالك السعدي - تطوان - المغرب

دأب المغاربة على توالي الحقب والأعصار على زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز، وأفرزت تلك الزيارات فنا أدبيا تاريخيا، هو فن الرحلة. وأسهم علماء المغرب إسهاما ملحوظا في تدوين الرحلة على مختلف أصنافها، وعلى رأسها الرحلة الحجازية، أو الرحلة الحجية. ولا يتسع المجال لإيراد عناوين مختلف الرحلات التي وصلتنا، ولكن لا بأس من الإشارة إلى أقدمها، مثل: رحلة ابن جبير، ورحلة ابن رشيد السبتي المسماة: "ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة"(١)، ورحلة أبي القاسم التجيبي السبتي "مستفاد الرحلة والاغتراب"(٢)، ورحلة محمد العبدري "الرحلة المغربية"(٣).

ولم ينقطع هذا الصنف من التدوين في العصور الحديثة، بل زاد غزارة، فلدينا عشرات النصوص الرحلية، مثلا "الرحلة العياشية" لأبي سالم عبدالله العياشي، و"الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية"

---

(١) صدرت أجزاء منها بتحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة. وعن أهمية هذه الرحلة المكية، انظر د. أحمد حدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المغرب)، الرباط، ٢٠٠٣م.

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ١٩٧٥م.

(٣) العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد الحيحي، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م.

للحسن بن محمد الغسال، و"دليل الحج والسياحة" لأحمد بن محمد الهواري، و"الرحلة الناصرية" لمحمد بن ناصر الدرعي، و"الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية" لأبي العباس أحمد بن حسون الوزاني، و"لمحة بصر على البلاد المقدسة" لمحمد بن عبدالسلام السائح.

وكان لمدينة تطوان إسهام ملحوظ في هذا الأدب الرحلي، وتأتي "الرحلة المكية"(٤) للفقيه العلامة أحمد الرهوني على رأس ما ألفه علماء تطوان، وإن لم تكن أقدمها(٥).

صاحب الرحلة

هو الفقيه العلامة أبو العباس أحمد الرهوني التطواني، أحد أبرز علماء تطوان في القرن الرابع عشر الهجري. كانت له مشاركة ملحوظة في التأليف والتصنيف في أغلب العلوم القديمة المتداولة؛ فقد ألف في النحو والصرف والبلاغة، والسيرة والمناقب والتراجم، والفقه والنوازل والمنطق والتاريخ، والكلام والأدب؛ وكتب المقالة الصحفية. وأغلب مؤلفاته ما تزال مخطوطة، وما طُبع منها كان على عهد الحماية الإسبانية بتطوان، ومن مؤلفاته القيمة الشهيرة نذكر بالخصوص كتابه عن تاريخ تطوان، وعنوانه "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، ويقع في عشرة أجزاء(٦). وقد تقلد أحمد الرهوني مناصب حكومية عدة، فكان قاضي تطوان على عهد الحماية الإسبانية بالمنطقة

---

(٤) أحمد الرهوني، الرحلة المكية ١٣٥٥-١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية، مطبعة الأحرار، تطوان، ١٩٤١م، ٢٤٧ص.

(٥) لعل أقدم رحلة تطوانية في العصر الحديث هي تلك التي دونها الفقيه أبو عبدالله محمد بن علي الرافعي التطواني الذي حج عام ١٠٩٦هـ، وعنوان رحلته "المعارج المرقية في الرحلة المكية المشرقية"، وتوجد مخطوطة في الخزانة الداودية بتطوان. انظر عنها د. حسن الوراكلي، "أصداء من حياة تطوان العلمية خلال القرن الحادي عشر الهجري في رحلة حاج تطواني"، ضمن كتابه: شذرات تطوانية، منشورات جمعية تطاون أسمير، الرباط، ٢٠٠٢م، ص ٧٩- ٩٦.

(٦) صدرت أجزاؤه الأربعة الأولى تباعا عن منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان (١٩٩٨- ٢٠٠٤م)، بتحقيق الدكتور جعفر بن الحاج السلمي.

الخليفية (١٩١٢- ١٩٥٦م/١٣٢٠-١٣٧٥هـ)، ووزير عدليتها، وشيخ جماعتها. إلا أنه قضى السنوات الأخيرة من عمره منبوذا من أصحاب السلطة والجاه، مبعدا عن الوظائف العلمية، منزويا في بستانه خارج تطوان، بعيدا عن الخلق، منقطعا لعبادة الله، إلى أن وافاه الأجل في ١٥ ربيع الثاني لعام ١٣٧٣هـ، الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٥٣م(٧).

الظروف التاريخية للرحلة

لقد فرغ أحمد الرهوني من كتابة رحلته - كما يقول - "يوم الثلاثاء تاريخ ٢٥ شوال الأبرك عام ١٣٥٩هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٠م"؛ أي: بعد مرور أربع سنوات على رجوعه من أداء فريضة الحج. ولم يكتب لهذه الرحلة - التي تولى معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية، طبعها بتطوان سنة ١٩٤١م - أن تنال حظها من الانتشار، بل إنها مفقودة من ساحة المكتبات، لكون الأعداد المطبوعة كانت محدودة، ولا تباع للعموم، وبقيت تبعا لذلك في حكم المخطوط.

ولقد أبرز الرهوني في مقدمة رحلته كيف تم اختياره رئيسا للوفد الخليفي(٨) المتوجه لأداء مناسك الحج لسنة ١٩٣٧م (١٣٥٥هـ)، قائلا: "فإني منذ اثنين وثلاثين من الأعوام، معلق القلب بقضاء فريضة حج بيت الله الحرام، وزيارة ضريحه [كذا في الأصل] عليه السلام، متضرعا لله عز وجل في الحصول على هذا المرام، إلى أن قضى الله الكريم - جل جلاله - في هذا العام، وهو عام ١٣٥٥هـ. وذلك أني كنت جالسا بجناني في ليلة الرابع أو الخامس من شهر شوال، إذ سمعت الفقيه سيدي محمد أبا العسل بصوته الجهوري في المذياع التطواني: "إن

(٧) ترجمة العلامة أحمد الرهوني مفصلة تجدها مع ذكر مصادرها في مقدمة تحقيق الجزء الأول من عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ١٩٩٨م، ص ١٦-٣٠.

(٨) أطلق على المنطقة الشمالية من المغرب التي كانت تحت الحماية الإسبانية ما بين ١٩١٢ و١٩٥٦م، اسم "المنطقة الخليفية"، وكان يحكمها خليفة للسلطان، أما المنطقة التي كانت تحت الحماية الفرنسية فسميت بـ "المنطقة السلطانية".

فخامة الجنرال فرنسيسكو فرنكو قد هيأ باخرة جميلة لركوب الحجاج المغاربة من سبتة إلى جدة، وأن الحجاج المذكورين سيكونون تحت رئاسة العلامة سيدي أحمد الرهوني"، فكاد عقلي يطير فرحا من هذا الترشيح الكريم لهذا المنصب الفخيم الذي صدر من الخليفة الأعظم، سيدنا ومولانا الحسن بن المهدي العلوي". ثم استقبل في اليوم التالي من قبل المقيم العام الأسباني (بيكبيدير)، فأبلغه بهذا الترشيح، وأن فرنكو "أنعم بالمركب المذكور على الحجاج المغاربة بمناسبة إخلاصهم في مساعدته على الانتصارات الباهرة التي نالها على أعدائه"، ثم أعلمه بترشيحه أولا قبل السفر للحج "للطواف على مستشفيات إسبانيا، وزيارة مجاريح المغاربة الذين بها وتسليتهم، وشكرهم نيابة عن سيدنا الخليفة وفخامة الرئيس فرنكو على ما قاموا به من الأعمال الشريفة الجليلة..."[٩].

كاد عقلي يطير فرحا من هذا الترشيح الكريم لهذا المنصب الفخيم

ترتبط الرحلة - التي قام بها الرهوني إلى البقاع المقدسة سنة ١٩٣٧م (١٣٥٥هـ) - بظروف سياسية أملتها مصالح إسبانيا آنذاك؛ للتقرب إلى مغاربة الشمال خاصة، والعالم الإسلامي عامة بعد سلسلة من الانتصارات التي حققها الجنرال فرنكو ضد أعدائه الجمهوريين منذ سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م. وقد عرفت إسبانيا بين هذه السنة وسنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م أزمة اقتصادية خانقة، كان الجنرال فرنكو خلالها مجرد قائد لفيلق عسكري بتطوان، يخضع لأوامر الجيش الجمهوري. وسرعان ما أعلن في ١٨ يوليو ١٩٣٦م (٢٩ ربيع الآخر ١٣٥٥هـ)، عن قيام الحركة الوطنية الإسبانية، فانحازت لجانبه كل من ألمانيا وإيطاليا، مقابل انحياز روسيا لجانب الحاكمين اليساريين؛ لتندلع حرب أهلية إسبانية طاحنة بين الطرفين، جُنّد فيها عدد كبير من المغاربة إلى جانب قوات فرنكو. وكان هذا الأخير يعتقد أن أمر

---

(٩) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٦.

الحرب سرعان ما ينتهي، ولكنها طالت ثلاث سنوات، ولم تضع أوزارها إلا بعد اندحار القوات الجمهورية، ودخول جيش فرنكو مدينة مدريد، في شهر أغسطس ١٩٣٩م (جمادى الثانية ١٣٥٨هـ).

لقد تمت "الرحلة المكية" إلى الديار الحجازية في ظرفية تاريخية مطبوعة بالحرب الأهلية الإسبانية، وتندرج ضمن حملة إعلامية خطط لها فرنكو لتهدئة القواعد الخلفية للجيوش الإسبانية بشمال المغرب(١٠) من جهة، ومن أجل كسب عطف العالم الإسلامي وهو يخوض الحرب الأهلية ضد من يصفهم بالشيوعيين الجمهوريين أعداء الكنيسة والإسلام من جهة أخرى. وقد جهز باخرة "من أجمل طراز وأحدثه، مشتملة على كل المرافق التي يتوقف عليها الحاج في ذهابه وأوبته"(١١)، سماها (المغرب الأقصى)، ووضعها رهن إشارة الحجاج المغاربة بالشمال، ووضع أثمانا رمزية للسفر، "لا يمكن أقل منها في هذا الزمن، مع التسهيلات التي لا أعلى منها"(١٢) حسب تعبير الرهوني، وذلك ليستقطب أكبر عدد من المسافرين، وأرسلهم إلى ميناء سبتة - القريب من تطوان - لتكون انطلاقتها من هناك نحو الحجاز، وخرجت هذه الباخرة من ميناء برشلونة أواخر شهر ديسمبر ١٩٣٥م (رمضان ١٣٥٤هـ)، تحت وابل من القنابل كانت ترسلها الحربية الجمهورية للنظام الحاكم، فسلمت من قذائفها. وكان مقر فرنكو أثناء الحرب هو مدينة (صلامنكا) المتحصنة جبليا، والواقعة وسط الأندلس، منها يوجه تعليماته العسكرية. ومن أجل أن يوسع فرنكو الدعاية الكافية لهذه الرحلة، انتدب مجموعة من أعيان مدينة تطوان، وعلى رأسهم الفقيه أحمد الرهوني؛ للإشراف على أمر الرحلة بما يستدعيه الموقف الديني من وعظ وإرشاد وشرح

(١٠) أحمد إحدوثن، "حفريات معرفية في ذاكرة الشمال المغربي"، حوليات الريف (مجلة)، العدد الثاني، (الحسيمة، المغرب) ١٩٩٩م، ص ١٤٥.

(١١) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٤٢.

(١٢) نفسه، ص ٢٠.

مناسك الحج، وتيسير ظروفه على أحسن حال. وشاع الإعلام في المدينة، وفرح الرهوني فرحا كبيرا برحلة الحج، وهو بعد لم يؤد الفريضة كعالم وفقيه ومربي الأجيال العلمية. وللمزيد من كسب التأييد لنظام فرنكو وموقفه التضامني مع قضايا الأمة العربية الإسلامية، نظم للرهوني زيارة باسم وفد الخليفة السلطاني بتطوان، إلى مستشفيات إسبانيا الأندلسية التي يرقد بها المرضى والجرحى المغاربة الذين أصيبوا في الحرب الأهلية في كل من إشبيلية وقادس وقرطبة، وغيرها من المدن(١٣)، كما أمر بتخصيص استقبالات شعبية منقطعة النظير للفقيه الرهوني، كانت في بعض الأحيان تصل إلى حشود ملأت كل الأزقة والساحات. ولم يفت فرنكو أن يستقبل شخصيا الفقيه الرهوني يوم ١٩ يناير ١٩٣٧م (٨ ذو القعدة ١٣٥٥هـ)، ويعقد معه جلسة لتبادل الكلمات، وتبليغ رسالة المحبة والاحترام إلى جلالة الملك عبدالعزيز، مع هدية عبارة عن سيارة فخمة؛ لتوطيد العلاقة بين إسبانيا والمملكة العربية السعودية(١٤).

وقد ارتجل الفقيه الرهوني بين يدي الجنرال فرنكو كلمة، مما جاء فيها:

"يا فخامة الرئيس، إن سعادة نائبكم المقيم العام، ضون خوان بيكبيدير، قد انتدبني باسمكم وباسم مولانا الخليفة الحسن لرئاسة الحجاج الذين يحجون في هذا العام تحت إحسانكم؛ كي أبلغ العالم الإسلامي الذي يقصد تلك الأراضي المقدسة وجلالة ملك المسلمين مولانا عبدالعزيز بن سعود سلامكم الخصوصي المقرون بكل احترام واعتبار، وأعرفهم بمقدار محبتكم وتعظيمكم لجميع المسلمين الذين يبلغون الآن أربعمئة مليون، وبالأخص مسلمي المنطقة الخليفية، وعلى رأسهم سمو الخليفة المعظم"(١٥).

---

(١٣) نفسه، ص ٢٠-٣٦.

(١٤) نفسه، ص ٤٣.

(١٥) نفسه، ص ٣٦.

ويفصح الرهوني جليا عن مرامي إرسال فرنكو للوفد الخليفي للديار المقدسة وأهدافه قائلا: "فلا شك أن هذا العمل العظيم سيعود عليه [فرنكو] وعلى أمته بكل خير، وأنه سيرنّ صداه الحسن الجميل في آذان المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، وسيزرع في قلوبهم حبه والدعاء له ولجنوده الأبطال، بكل خير وانتصار"(١٦).

لقد قسم الفقيه رحلته قسمين: قسم يتعلق بزيارته إلى أسبانيا وملاقاته لفرنكو وما شاهده هناك (وهو القسم الذي لخصناه سابقًا)، وقسم يتعلق بمهمته رئيسًا لوفد الحجاج، وما قام به من دور الإرشاد والوعظ، ومقابلة الملك عبدالعزيز بعد أداء الفريضة، والرجوع إلى ميناء سبتة.

ومن نافلة القول: إن الفقيه أحمد الرهوني الذي كان يتمتع بملكة علمية واسعة قد سجل في الرحلة كل المعلومات التي شاهدها، بل شد انتباهه إلى أن يقارن بكل جرأة بين العالم المتحضر الذي يزوره (خاصة إسبانيا وإيطاليا)، وعالمه ومحيطه المغربي، فيستخلص العبر، ويوجه النصائح، ويدعو لتدارك العلم بالقضاء على الجهل، والانكباب على المعرفة والتعلم(١٧). ولا يتسع المجال للتطرق إلى مجمل مشاهدات الرهوني ومضمون رحلته، لذا سنكتفي في هذه الدراسة بإيراد نصوص معبرة تسلط الضوء على نقطتين أساسيتين هما:

الأولى: وصف الرهوني لحفاوة الاستقبال الذي خصصه الملك عبدالعزيز آل سعود للوفد المغربي.

الثانية: وصف الرهوني لمعالم التطور العمراني الذي لفت انتباهه بالمملكة العربية السعودية آنذاك.

---

(١٦) نفسه، ص ٢١.

(١٧) نفسه، ص٢٧-٢٨؛ وانظر: محمد الحبيب الخراز، الفقيه أحمد الرهوني، من أجل الذكرى، جريدة العلم (المغرب)، العدد ١٩١٦٥، الاثنين ٩ ديسمبر ٢٠٠٢م (٥ شوال ١٤٢٣هـ).

١ - الوفد الخليفي في ضيافة الملك عبدالعزيز آل سعود

أ - هدية الخليفة سمو الأمير مولاي الحسن ورسائله إلى الملك عبدالعزيز آل سعود

يقول الرهوني في رحلته إن: "مولانا الأمير، هيأ لنا هدية فاخرة من الآثار المغربية؛ لنصحبها في يدنا لصاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، ملك الحجاز ونجد والمملكة العربية السعودية، وتلك الهدية هي: ٢ زرابي صنعت بدار الصنعة بتطوان، ٣ فنارات طول كل واحد منها نحو المطر في العرض ٧٠ سنطيمترا، في غاية الجودة والحسن، مكحولتان بلديتان من عمل تطوان القديم مخططة أسرتهما وزنادهما وجعابهما بخطوط الذهب والفضة، ٣ خناجر أغمدتها مذهبة مفضضة من أعلى ما يوجد في الدنيا، كساءان رفيعان جدا جلبا من فاس، ٤ سلاهم من عمل السوسدي، سرجان مغربيان، هذه لخصوص جلالة الملك معها عشرون ألف فرنك، عشر تفرق على العلماء والفقراء من أهل مكة، وعشر تفرق على أهل المدينة المنورة"(١٨).

وبعد ذلك يورد الرهوني نص الرسالة، التي بعثها سمو الخليفة السلطاني للملك عبدالعزيز آل سعود، ونصها:

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

جلالة الملك السلطان، سلطان المسلمين، سيدي عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، أعزك الله ونصرك، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإننا بمعونة من بيده الحول والقوة، وجهنا لجلالتكم صحبة مندوبنا الفقيه السيد أحمد الرهوني ما بين طرته، فالمرجو من فضلكم

(١٨) الرهوني، الرحلة المكية، ص ٤١.

إحلال ما هو لجلالتكم محل القبول؛ لأنه كتذكرة من أخ محب مخلص أو ولد مرضي، وإحلال ما هو للحرمين الشريفين محله.

والمولى سبحانه يبقيكم ويرضيكم، وعلى المحبة والسلام

في ١٢ ذي القعدة الحرام عام ١٣٥٥هـ.

أما الرسالة الثانية لجلالته أيضا، فنصها:

"من عبد ربه المتوكل على الله الخليفة السلطاني بعاصمة تطوان، الحسن بن المهدي بن إسماعيل العلوي، أيده الله وأرشده، إلى صاحب المقام الرفيع والجناب المنيع، جلالة ملك الديار الحجازية وسائر الأقطار العربية النجدية، السلطان عبدالعزيز آل سعود، السلام عليكم ورحمة الله، وبعد.

فرغبة منا في القيام بإظهار شعائر الإسلام، وإحياء رسومه في سائر الربوع والآكام، قد قمنا ببذل المجهودات الممكنة في ترغيب رعيتنا في الحج إلى الكعبة المشرفة، وزيارة البقاع المقدسة، بعدما أعددنا لهم باخرة من أجمل طراز وأحدثه، مشتملة على كل المرافق التي يتوقف عليها الحاج في ذهابه وأوبته، وانتخبنا من بين أجلة علمائنا ونخبة فقهائنا العلامة النبيل، والمحدث الجليل الفقيه السيد أحمد الرهوني، وعيناه مرشدا للحجاج وواعظا، وجعلناه رئيسا عليهم وناظرا، وإننا قد وجهنا الجميع، وفوضنا أمرنا فيهم إلى الله ثم إليكم، لعلمنا بأنكم ستشملونهم بحفظكم ورعايتكم، والله يطيل حياتكم، ويؤيد ملككم، والسلام.

تطوان، في ١١ ذي القعدة الحرام عام ١٣٥٥هـ، موافق ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧م"[١٩].

(١٩) نفسه، ص ٤٢. ونجد لهذه الرسالة الخليفية مثيلاتها، كتلك الصادرة عن السلطان محمد الخامس، يوصي فيها بالوفد الرسمي للمنطقة السلطانية الذي حج سنة ١٩٤٧م (١٣٦٦هـ)، ونجد نصها في رحلة محمد بن عبدالسلام السائح، ومما جاء فيها: "من عبدالله المتوكل على الله أمير المؤمنين... ملك المغرب الأقصى =

ب - في ضيافة الملك عبدالعزيز آل سعود

والواقع أن الوفد المغربي الخليفي كان محطّ ترحيب وحفاوة وإكرام كبير من مختلف الدوائر الرسمية السعودية، حيثما أقام وارتحل، "حتى كنا - يقول الفقيه الرهوني- بشهادة الله، كأننا بين آبائنا وإخواننا وأبنائنا، ولذلك كنا نلفت أنظار العالم الإسلامي الذي حج هذا العام المبارك إلينا، وكنا ككعبة القصاد للسلام علينا، والسؤال عن أحوالنا، كل ذلك نشأ عن اعتبار جلالة الملك ورجال حكومته، وإنزالنا في دور ضيافته الخاصة، وإركابنا المراكب الرفيعة مجانا وإحضارنا في جميع محافله التشريفية، وإحلالنا في الأماكن الرفيعة، والتنويه بنا بين الخاصة والعامة"(٢٠).

وقد ترك لنا الرهوني شهادات متفرقة عن هذه الحفاوة وذاك التكريم، نذكر منها مثلا قوله حين وصول الباخرة إلى ميناء جدة: "بعد ذلك صفى المركب أوراقه مع المكلفين، ومن جملتها لبرة ذهب عن كل حاج، ضريبة الحجر الصحي، التزم الكمندار أداءها، وضمنه المعتمد السياسي الإيطالي، ولما التقينا جلالة الملك ودفعنا له المكاتب الشريفة

= محمد بن يوسف بن الحسن... إلى حضرة الأخ الهمام سليل الأمراء العظام الحائزين من الفضائل أسناها، ومن مراتب العز أعلاها، المحلى بكل وصف محمود، جلالة الملك أبي فارس عبدالعزيز آل سعود، دامت شموس سعده في إشراق.

وبعد... هذا وبمناسبة سفر رعايانا حجاج المغرب الأقصى لتلك البقاع الطاهرة، أوفدنا لحضرتكم السامية أحد كبار العلماء بمملكتنا المغربية، قاضي عاصمتنا الفاسية الفقيه العلامة المتضلع السيد محمد السائح، بصفته رئيسا للوفد المغربي المؤلف من ستة أعضاء من سراة مملكتنا، وقلّدناه فخر النيابة عنا في إبلاغ جلالتكم أسمى عواطفنا وخالص مودتنا مع ما نتمناه لشخصكم السعيد من الهناء والعمر المديد. فالمؤمل أن يحظى منكم بمزيد التقدير والعناية، والاعتبار والرعاية، ووجهنا معه نصيبا من المال منه ما هو معين للحرمين، ومنه ما كلفناه بتوزيعه على فقراء البلدين... ونلتمس من أخوتكم الدعاء لنا تجاه البيت الحرام والملتزم والمقام. أبقاكم المولى في عزّ لا تفنى ملابسه ولا يحيد عن المجد والسؤدد ملابسه. صدر بمدينة الرباط، عاصمة المغرب الأقصى في ثامن عشر ذي القعدة الحرام عام خمسة وستين وثلاث مئة وألف". محمد بن عبدالسلام السائح، لمحة بصر على البلاد المقدسة، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، الرباط، ١٩٩٥م، ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢٠) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٨٨.

الخليفية، أصدر عفوه عن تلك الضريبة التي تبلغ نحو ٢٠٠ ليبرات، ثم أذنوا الحجاج فنزلوا ونزلنا..."(٢١). وقبل وصول الوفد المغربي إلى مكة، وضع وكيل وزارة الخارجية الحجازية رهن إشارته "سيارة فخمة جديدة"، وأرسل برقية "إلى من يلزم لإنزالنا في أوتيل الحكومة الحجازية بمكة، على نفقة جلالة الملك نصره الله، مدة إقامتنا بمكة وما حولها"(٢٢). وحينما أهدى جلالة الملك جهة كاملة من حزام كسوة الكعبة المشرفة لسمو الخليفة السلطاني الحسن بن المهدي، أهدى الملك للرهوني قطعة منها مطروزة بسورة الإخلاص، واشترى الفقيه قطعة أخرى بنحو ستين ريالا، أهداها للزاوية التيجانية بتطوان(٢٣).

جـ - صورة الملك عبدالعزيز آل سعود في رحلة الرهوني

إن الصورة التي تركها لنا الفقيه الرهوني عن الملك عبدالعزيز آل سعود هي صورة تسطر تاريخ هذا الملك اعتمادا على مصدر كتابي، ومن جانب آخر هي صورة كوّنها الرهوني من خلال مشاهدته العيانية، وهو بين يدي هذا العاهل.

"فجلالة الملك هو إمام المسلمين سيدي عبدالعزيز الإمام بن عبدالرحمان بن الإمام الفيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، ينتهي إلى أسد بن ربيعة بن نزار. ولد ١٠ الحجة عام ١٢٩٩هـ/ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢م(٢٤). دخل المكتب وعمره سبع سنين، وختم القرآن الكريم وهو ابن ١١ سنة، ورافق والده في غزواته، وكان يحضر مجالسه، وتعلم حينئذ التوحيد ومبادئ الفقه في كراسة أعدها له والده. وفي ٣ شعبان عام ١٣١٩هـ(٢٥) ابتدأ انتصاره حيث

---

(٢١) نفسه، ص ٧٠.
(٢٢) نفسه، ص٧٣.
(٢٣) نفسه، ص٩٣.
(٢٤) الراجح هو أن مولد الملك عبدالعزيز كان في سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٧م.
(٢٥) الصحيح هو ٥ شوال ١٣١٩هـ.

انتصر على ابن الرشيد، وأخرجه من مدينة الرياض وحازها، ولم يزل في انتصار إلى أن استولى على الحجاز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢١م[٢٦]، ولم يزل ملكا بها إلى حيث يشاء الله. وهو رجل عالم عاقل شهم شجاع مقدام عزيز النفس عالي الهمة، بار بوالديه، رحمهما الله، كثير الصلاة بالليل والنهار، كثير الأذكار قليل النوم عزوف عن لذة الأكل والشرب إلا ما لا بد منه، كريم النفس، سخي اليد إلى أقصى درجة، فصيح اللسان، مفوه يتكلم ويخطب على البداهة كأنه طالع ليالي عديدة، يستحضر الآيات والأحاديث كأنها مكتوبة أمامه، ملابسه بسيطة جدا نظيفها ونظيف البدن، يكثر الاغتسال حتى ربما يغسل في يوم الصيف ست مرات، له خاتم فضي فصه من عقيق، ويلبس النظارات على عينيه، ولكن يقرأ بدونهما. يعتني بالسيوف والخيول ويعرف أصنافها وجيدها، وله منها عدد ويستغني بها عن البندقيات، وإن كانت له بندقية من نوع موزر. وهو قليل النوم، يكتفي بنوم ست ساعات، وله عدة أولاد يزيدون على ٢٥ أجلهم وأكبرهم وولي عهده سعود، الذي ولد عام ١٣٢٩هـ[٢٧]، ويليه النائب العام وولي الحجاز ووزير الخارجية والداخلية فيصل المولود عام ١٣٢٤هـ، وعند كل واحد منهم أوسمة فاخرة من دول عظمى. ولما استولى على الحجاز ضمه إلى نجد وأطلق على الكل اسم المملكة العربية السعودية، ونظم لها أنظمة كفيلة بمصلحتها الدينية والدنيوية"[٢٨].

لقد نقل الرهوني بعض هذه المعلومات عن كتاب شبه رسمي، هو كتاب "البلاد العربية السعودية" لمعالي وكيل الخارجية السيد فؤاد حمزة. على أن الصورة التي يقدمها الرهوني من خلال ما شاهده ودونه هي صورة أكثر حيوية، وأعمق دلالة، كما يتضح من هذه المقتطفات.

---

(٢٦) الصحيح هو عام ١٩٢٤م.

(٢٧) الصحيح هو عام ١٣١٩هـ.

(٢٨) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٠٩- ١١٠.

د - الوفد الخليفي بين يدي جلالة الملك عبدالعزيز

"جرت عادة هذا العاهل العظيم والملك الجليل أن يحج كل عام، ويتفقد أحوال المسلمين، ويتعرف إلى جميع أصناف المسلمين، ويتعرفوا إليه، فيكرمهم إكراما عاما، ويحضر الصيني إلى جانب العربي والمغربي، ويسأل البعض عن البعض، ويخطب الخطباء، وينشد الشعراء، ويخطب جلالة الملك فيهم خطبا كلها نصائح ودلالة على وجوب اتحاد المسلمين في الدين، في التوحيد، في العمل بالكتاب والسنة، في التباعد عن البدع والمحدثات، وتطير تلك النصائح في صحف العالم التي يهمها أمر الإسلام، ولذلك لما كان غروب يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من عام ١٣٥٥ دوت القلعة في إحدى وعشرين طلقة من مدافعها إعلاما بوصول جلالة الملك آتيا من الرياض، فاهتزت أرجاء المدينة من ذلك الإعلام، وشرع الناس عموما وخصوصا يستقبلون جلالة الملك عبدالعزيز فرحين مستبشرين، ولما كانت الساعة الثالثة من ليلة الأربعاء خامس ذي الحجة نزل إلى المسجد محرما بالعمرة بعد العشاء بساعة ونصف...

وفي صباح يوم الأربعاء ٥ ذي الحجة برز للناس في جلالته ومهابته، تحفه العائلة الكريمة وتحيط به وزراؤه ورجال دولته العزيزة، فصار الناس حجاجا وغيرهم يفدون عليه جماعات وفرادى لتحميده بالسلام، والتمتع بطلعته البهية، وقد استدعانا وكيل معالي وكيل الخارجية السيد فؤاد حمزة للسلام عليه، ووجه لنا سيارة فخمة توجهنا عليها في ضحى يوم الخميس ٦ حجة، ودخلنا عليه، فقام لنا، ورحب بنا، وسلمنا عليه واحدا بعد واحد، ثم أجلسني معه على المصطبة التي هو جالس عليها، وأصحابي جالسون في مصطبة أخرى، فقلتُ له:

السلام عليكم يا إمام المسلمين، يا صاحب الجلالة إننا وفد المغاربة أوفدنا إلى الحرمين الشريفين أميرنا المحبوب المفدى منا

بجميع القلوب، مولانا الحسن بن الخليفة مولانا المهدي، بن مولانا إسماعيل، بن سلطان المغرب الأقصى، سيدي محمد بن عبدالرحمان الحسني العلوي، وأمرنا بإهداء عاطر تحياته، وأطيب سلامه إلى جلالتكم المعظمة، فنرفع إليكم، يا صاحب الجلالة، نائبين عن سموه، وعن جميع إخواننا المغاربة، وباسم وفدنا الخاص سلام الجميع وتحياته، وننهي إلى جلالتكم أن جميع المسلمين مخلصون في محبتكم لما أنعم الله به عليكم من استقامة أحوالكم، وعدلكم في الأحكام، وقيامكم بشريعة خير الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وإقامتكم الحدود، وسدلكم الأمان التام على جميع رعاياكم، وخصوصا من التجأ إلى بلد الله الحرام، فلتهنأ يا صاحب الجلالة بفضل الله عليكم، وبهذه المناسبة أتشرف بأن أرفع إلى جلالتكم تحية رئيس الدولة الإسبانية الجنرال فرنسيسكو فرنكو، الذي بينه وبين سمو مولانا الخليفة وداد خاص، وله محبة تامة في المسلمين عموما، وفي جلالتكم خصوصا، أدامكم المولى قائمين على السنة النبوية وأحياها بكم، وأحياكم بها أنتم وأنجالكم الكرام إلى يوم القيامة، والحمد لله في المبدأ والختام"(٢٩).

هـ - الملك عبدالعزيز مخاطبا الوفد الخليفي: "إني أحبكم، معشر المغاربة، محبة خاصة..."

"ثم جلست وجلس هو كما مر، ونادى على القهوة على عادته، فإن قرى الضيف عندهم شرب القهوة، ثم قال:

مرحبا بكم وبوفدكم وبسلام سمو الخليفة وبتحية الجنرال فرنكو. وإني أشكركم على هذه العبارات التي فهتم بها، ثم سألنا عن حالتنا الدينية، فأجبناه بأنا على غاية ما يكون، ثم سألنا عن حال سمو الخليفة، فأجبناه بأن حالته حال شريفة مبنية على أسس الدين

(٢٩) نفسه، ص ١١٢.

والسنة... ففرح بذلك غاية الفرح، ودعا له بكل خير وقال لنا: إني أحبكم، معشر المغاربة، محبة خاصة؛ لأنكم متمسكون بدينكم غاية التمسك، لا تأخذكم في ذلك حيل ولا ترهات، ولما فيكم كمال الرجولة؛ لأني رجل بمعنى الكلمة، فأحب الرجال كذلك. ثم سألنا عن أحوال الجنرال فرنكو، فأجبناه بأنه قائم على ساق الجد في مقاتلة الشيوعيين اللادينيين، هو وأعوانه، فأثنى عليه خيرا، وتمنى له الانتصار، على الشيوعيين، قائلا: لأن الشيوعية أقبح خصلة ظهرت في عوالم هذا العصر، ويجب على كل من قدر على محوها من الوجود أن يبذل كل ما في وسعه لمحوها... ثم أوصانا على المحافظة على الدين وقواعده، وقال كما قال سيدنا عمر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "نحن قوم أعزنا الله بالدين، فإذا تعززنا بغيره أذلنا الله".

وبتمام هذه المذاكرة كنا شربنا القهوة، فقمنا وقام معنا وودعناه بتقبيل يده الكريمة، وخرجنا مسرورين أعزاء، كما دخلنا ولله الحمد وله المنة"(٣٠).

و - حفلة عشاء مع جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود

وصلت للوفد المغربي دعوة للعشاء مع جلالته في الغروب، "وقد كان عادته منذ استولى على الحجاز أن يقيم احتفال عشاء لأعيان الحجاز، فيجتمع على مائدته نحو الخمسمئة نفر، ويجلسون على مائدة واحدة طويلة، ولكن هذا العام الذي كثر فيه الحجاج حتى كان عدد الحجاج القادمين في البحر خمسين ألفا، أما عدد حجاج البر فبلغوا ما يقرب من مئة وخمسين ألفا، فصار الجميع تقريبا من مئتي حاج، حسبما صرح لنا بذلك نائبه العام، ولده سيدي فيصل - حفظه الله - فقد اقتضى نظره الأسد أن يقسم ذلك إلى عدة أقسام، فجعل إكراما للهنود والأعاجم، وإكراما للمصريين خصوصا، وإكراما للعرب، لذلك كان عشاؤنا مؤلفا من المغاربة الأربعة: طرابلس وتونس والجزائر

(٣٠) نفسه، ص ١١١- ١١٣.

ومراكش، ومن يمن وحضارم وشوام، وبقية أراضي المغاربة، فكان ذلك العشاء شاملا لأكثر من مئة نفر... فدخلنا القصر العالي فوجدنا جلالة الملك وجميع المدعوين في صالون عظيم رفيع، ولما رآنا قام من موضع جلوسه، وسلمنا عليه، على عادته الكريمة مع كل داخل عليه، ثم جلس وجلسنا معه في المحل المعد لنا. ثم نودي على القهوة، فشربنا، وهي عبارة عن إبريق نيكل يحمله أحد الخدمة بيمينه، ويحمل في اليسرى عدة فناجين، فيبدأ الملك ويصب له قطرة من قهوة البن اليمني مرة بدون سكر، فيشربها في شربة واحدة، ثم يناول الفنجان خادما آخر يكون وراء الأول، وهكذا يمضي عن يمين الملك إلى أن ينتهي، ويكون عدد هؤلاء القهواجية عدد يطوف على الناس عدة مرات، والفناجين التي تكون بيده، أظنها ستة إلى عشرة.

فلما فرغنا من القهوة، قام جلالته فقمنا جميعا وراءه إلى أن دخلنا إلى قاعة الطعام، فإذا مائدة طويلة آخذة من أول القاعة إلى آخرها وعليها كراسي بعدد المدعوين، والمائدة مملوءة بصحون كثيرة كبيرة وصغيرة، بعضها عليه أكباش مشوية، وبعضها عليه دجاج مشوي، وبعضها عليه أرز مطبوخ باللحم، وبعضها عليها خضر وشلاظات وفواكه؛ من ليشين وتفاح وإجاص وموز ودلاح وغير ذلك، وأمام كل كرسي صحون فارغة وسكاكين وكؤوس ماء، فجلس جلالته على رأس المائدة من الجهة الشمالية، وعلى يمينه ويساره أبناء الإمام يحيى اليمني، ثم العلماء، ومنهم الشريف سيدي أمين الحسيني، مفتي القدس وجماعة، وكنت أنا في الطبقة الرابعة.

ثم شرعنا في الأكل، وصار كل واحد يغرف في صحنه من الصحون التي أمامه كل ما يشتهيه، وجلالته يتحدث مع الجميع بصوت جهوري مرخم، ولسان فصيح، ويتذاكر في العلم والعمل، ويقول: إن العلم النافع هو الذي يكون معه العمل، وإلا فهو ضرر على صاحبه. ويستدل على ذلك بالآيات والأحاديث، والكل يتجاذب معه

أطراف الحديث، إلى أن فرغ من الأكل، وعاد الجميع إلى صالون القهوة والراحة، فأديرت القهوة ثم الشاي الأسود على جميع الحاضرين. ثم خطب بيروتي خطبة لطيفة أثنى فيها على جلالة الملك بما هو أهله"(٣١).

ز - وداع جلالة الملك وإهداؤه الوسام الشريف المهدوي

في ليلة الجمعة ١٥ حجة عام [١٣٥٥هـ] موافق ٢٦ فبراير عام [١٩٣٧م] استدعى جلالة الملك الرهوني بوساطة معالي وكيل الخارجية لوداعه، فذهب إلى قصره العامر صحبة معالي الوكيل المذكور، وبيده الوسام المهدوي من نوع السمو، الذي كان هو أعلى وسام في المنطقة الخليفية، ليقلد جلالته إياه، ودخل عليه وهو وحده في صالونه الأكبر، وليس معه غيرنا، فلما دخل الرهوني قام له الملك، فقبل يده، وسلم عليه، ثم قال للملك:

" أنا ورفاقي قائمون يا جلالة الملك، قد أكثر الخطباء والشعراء من مدحك بما أنت أهل له ولأكبر منه، وفاتهم أن يشيروك بشيء أكرمك الله به في كتابه العزيز؛ (فتشوقت نفسه لسمع ذلك واشرأب إليه) فقلت: ألا وإن الله عز وجل يحبك (فازداد تشوفه)، فقلت: يحبك لأنه أكرمك بالقسط، وقد قال جل من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال عليه السلام: المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمان، فاستنار وجهه لهذه البشارة، ثم تماديت في كلامي وقلت: ومن المعلوم أن الله إذا أحب عبدا نادى مناد في السماء والأرض: إن الله يحب فلان، فأحبوه. فلذلك أحبك أهلٌ الأرض وأهل السماء حتى ملأ حبك وحب التقرب إليك ما بين السماء والأرض، ومن جملتهم أميرنا المحبوب مولانا الحسن أيده الله، فإنه يحبك محبة خالصة، والبرهان على ذلك أنه وجه معنا بموافقة الجنرال فرنكو هذا الوسام الشريف، الذي هو أعلى درجات السمو. فتفضل - أيدك الله - بقبوله وتقلده، ولكم الشرف كله،

(٣١) نفسه، ص١١٥ - ١١٦.

وليكن هذا برهانا على تنازلكم إلى قبول تبادل أسباب الوداد بين الملوك والأمراء. وفي الختام نضرع لجلالتكم قبول فائق احترامنا في كل ساعة، وخصوصا في هذه الساعة التي نودعكم فيها، ونطلب صالح أدعيتكم لنا ولجميع المسلمين، أدام الله عزكم، وختم عليكم بالسعادة والسلام.

ثم قرأ الرهوني الظهير الذي كان بيده، المتضمن الإنعام عليه بالوسام المذكور، ثم ناوله الظهير والوسام، فقبلهما بيده الكريمة، ومدهما لمعالي وكيل الخارجية، وقد أظهر السرور بهذه الهدية الثمينة، وصرح للوفد المغربي بوصول الهدايا السابقة المذكورة طرته إلى حضرته العالية، وبقبولها من جنابه العالي بالله وسروره من أجلها. ثم دعا لسمو الخليفة السلطاني ولفخامة الجنرال فرنكو وللوفد ولجميع المسلمين(٣٢).

ولما صلينا الجمعة من غده، ذهب الرهوني لزيارة نائبه العام وولده الأمير فيصل في إدارته العالية وإهدائه وسامه أيضا، "فدخلنا عليه - يقول الرهوني- وسلمنا وقام لملاقاتنا وصافحنا وعانقنا وأظهر الفرح والسرور بملاقاتنا قدرا عظيما، وهنأنا بالحج والزيارة، ثم سألنا عن سمو مولانا الخليفة وعن الجنرال فرنكو، وأثنى كثيرا على سموه وعلى الجنرال فرنكو وخصوصا بتيسير هذا الوفد المغربي الذي هو غرة جمال في وجه هذا العصر، وتمنى أن تكون هذه العادة جارية مدى الأبد، وقال لنا: إن من فضل الله أن هذا العام خرج سالما حتى إنه حج فيه ما يزيد عن مئتي ألف حاج، ومع ذلك لم يمت في أيام الحج كلها إلا نحو عشرة أشخاص، ماتوا موتا عاديا. فأجبناه بأن الفضل في ذلك راجع بعد الله إلى التدبيرات الحسنة التي يتخذها سموه في هذه البقاع الشريفة"(٣٣).

---

(٣٢) نفسه، ص ١٢٨- ١٢٩.

(٣٣) نفسه، ص١٣٠.

ح - هدايا الملك عبدالعزيز إلى الخليفة السلطاني

وقبل مغادرة الوفد الخليفي الديار المقدسة عائدا إلى المغرب، توجه لزيارة حاكم جدة، السيد محمد عيد الرواف، "قائم مقام نائب جلالة الملك الذي هو ولده السيد فيصل". وهناك وجد الرهوني أن وكيل الخارجية السعودية السيد حمزة، الذي كان قد سافر إلى بيروت... قد ترك للوفد المغربي "المكاتيب والأجوبة" فضلا عن "التحف التي أتحفنا بها جلالة الملك سمو مولانا الخليفة، والتي أتحفنا بها أيضا"، وهي - حسب وصف الرهوني "عبارة عن قطعة من حزام كسوة الكعبة المشرفة قدرها ٦ أمطار مطرزة فيها آية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] إلى قوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومعها كسوتان عربيتان مقصبتان بالذهب والفضة كل واحدة بعقالها وعبايتها، كما أهدى لكل واحد من الوفد قطعة من كسوة الكعبة الشريفة وكسوة عربية على الطراز السابق، وقطعتي من كسوة الكعبة دائرة مطروزة بسورة "الإخلاص" بالبسملة بحروف ذهبية كبيرة أخذ من سترة باب الكعبة المشرفة، فحُزنا ذلك كله وشكرنا جلالة الملك والوسائط، وجعلنا كل هدية في صندوق خاص، وصحبنا الكل في يدنا حتى دفعنا هدية مولانا الخليفة بيده الشريفة مع أجوبة جلالة الملك له على مكاتبه الشريفة"[٣٤].

٢ - ملامح من التطور العمراني بالمملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز

ثمة مجموعة من التدابير والإصلاحات العمرانية التي عرفتها المملكة العربية السعودية لفتت انتباه الرهوني وسجلها في رحلته. ويمكن القول: إن أهم تلك الإصلاحات هي التي نالت الحرمين الشريفين، خدمة للحجاج والمعتمرين.

(٣٤) نفسه، ص١٨٧.

أ - كسوة الكعبة

يقول الرهوني بعد أن تطرق لتاريخ كسوة الكعبة: "... ولم تزل كسوة الكعبة تأتي من مصر إلى أن قطعت عام ١٣٤١هـ، فكساها الشريف حسين بكسوة تركية كانت موضوعة بالمدينة المنورة، ثم وردت من مصر، إلى أن وقعت الوقعة المشهورة عام ١٣٤٥هـ بين المصريين وجنود جلالة السلطان مولاي عبدالعزيز السعودي، فانقطعت تلك الكسوة، وصار يعملها جلالة السلطان مولاي عبدالعزيز من خزينته، وأسس لها معملا جليلا بمكة المكرمة في هذا العام ١٣٥٥هـ الذي حججنا فيه"(٣٥).

ب - بئر زمزم

أما بخصوص بئر زمزم، فبعد أن يتطرق لخبر بدئها، وأصل تسميتها، ومن أصلحها في القديم من الخلفاء المسلمين، وما ورد في شرب مائه، يسجل أن: "جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود قد أحدث سبيلين ملازمين لمقصورة بئر زمزم، وجدد سبيلا آخر، وكتب عليه اسمه، جزاه الله خير الجزاء"(٣٦).

جـ - أول ساعة في الحجاز: الساعة المكانية

ومن مآثر الملك عبدالعزيز إدخاله أول ساعة إلى الحجاز، سماها الرهوني بـ "الساعة المكانية"، أضافها الملك إلى تجهيزات ببئر زمزم، فيقول: "وكان فوق زمزم ساعة شمسية تسمى المزولة، والآن بالمسجد ساعة مكانية ترى حركاتها من مكان بعيد، ويسمع صوت دقاتها كذلك، وهي مضبوطة موضوعة في برج فوق دار الحكومة، تشرف على المسجد الحرام وعلى جميع مكة، وهي من مآثر جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود، وضعها عام ١٣٥٣هـ، وهي أول ساعة بالحجاز، فجزاه الله خير الجزاء"(٣٧).

---

(٣٥) نفسه، ص٨٩-٩٠.

(٣٦) نفسه، ص٩٩.

(٣٧) نفسه، ص١٠١.

د - إنارة المسجد الحرام

لقد وقعت في المسجد الحرام إصلاحات وترميمات وعمارات في مدة جلالة الملك، الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل سعود، ومن بين هذه الإصلاحات هناك تلك المتعلقة بالإنارة. فقد كان المسجد ينور بقناديل معلقة على خشب موضوعة بين أساطين الحرم إلى أن أناره الشريف حسين بمنارات الغاز عام ١٣٣٥هـ، ثم أدخل إليه نور الكهرباء في ١٨ رجب عام ١٣٣٨هـ، "ثم أتى بمكينة قوة ثلاثة كيلو وات، ثم في سنة أربعين أتى بمكينة قوة ست كيلووات ونصف، وفي سنة ١٣٤٦هـ تبرع الحاج داود أتابا، أحد تجار الهنود بمكينة ذات قوة ٣٠ كيلووات وجعلت في المحل الذي هي فيه الآن، وأمر جلالة السلطان مولانا عبدالعزيز بن السعود بإبلاغ اللمبات ألفا موزعة على المطاف وبقية المسجد الحرام، وأضاف إلى ذلك فنارات اللوكس زيادة في الإنارة، وفي عام ١٣٥٩هـ أمر جلالته بزيادة مكينة أخرى وبإحداث عدة قناديل كهربائية، وفي سنة ١٣٥٣هـ أهدى الحاج محمد خان الهندي لمكة مكينة كبيرة قوتها ٣٤ كيلووات وزيدت أضواء ومصابيح وثريات"، وكان من نتائج هذه الإصلاحات أن "صار ليل المسجد الحرام نهارا" حسب ارتسام الفقيه الرهوني[(٣٨)].

هـ - الصفا والمروة

لقد لحظ الرهوني أن المسعى؛ أي: الشارع الذي بين الصفا والمروة، قد ظل على حالته من غير تظليل ولا غيره، إلى أن جعل عليه الشريف حسين مظلة عام ١٣٣٩هـ تظل من باب العباس إلى المروة، إلا أنه يستطرد ويقول: "وقد أصلحت في مدة جلالة الملك الحالي، وقد رصف الشارع المذكور في مدته أيضا عام ١٣٤٥هـ، وفي هذا العام؛ أي: عام ١٣٥٦هـ، بعدما وردنا من الحج بلغنا أن الشارع المذكور سيبلط بالحجارة، جزى الله الجلالة المولوية خير الجزاء"[(٣٩)].

(٣٨) نفسه، ص ١٠٢- ١٠٣.

(٣٩) نفسه، ص ١٠٣- ١٠٤.

و - توحيد إمامة الصلاة

ومن الإصلاحات المهمة التي أدخلها الملك عبدالعزيز تلك المتعلقة بتوحيد مقامات الأئمة؛ فقد لحظ الرهوني أن "بالمسجد الحرام أيضا مقامات الأئمة الأربعة، وقد أحدثت بين القرن الرابع والخامس، وقد ذكرها ابن جبير في رحلته التي كانت عام ٥٧٨هـ، منها مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومنها مقام الشافعي، وهو خلف مقام سيدنا إبراهيم... ومنها مقام مالك، وهو قبالة الركن اليماني، ومنها مقام الحنفي، وهو قبالة الميزاب، ومنها مقام الحنبلي، وهو قبالة ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، وكان يصلي أولا الشافعي، ثم المالكي والحنبلي في آن واحد، ثم الحنفي إلا المغرب، فكان الأئمة الأربعة يصلونها في آن واحد، فيقع في ذلك من الاختلاط والسهو ما لا يخفى، ولذلك وحد جلالة الملك مولاي عبدالعزيز بن سعود إمام الصلاة وجعله حنبليا، جزاه الله خير الجزاء، كما جعل إمام الجمعة والأعياد إماما واحدا حنبليا، ولم يبق ذلك الاختلاط وكثرة الأئمة"(٤٠).

ز - البنية التحتية وطرق المواصلات

من النصوص الطريفة التي يقف عليها قارئ رحلة الرهوني تلك المتعلقة بظروف السفر برا بين مكة والمدينة؛ فالمسافة الفاصلة بين المدينتين تبلغ ٥٢٥ كم، وهاك وصف هذا الطريق الذي كانت السيارة تقطعها في ١٤ ساعة، وهو وصف قد يشتم منه شيء من السخرية والتهكم: "تقطعه السيارة... في جبال رمال رخوة وفي داخل بعضها الحجارة لا يشعر الإنسان إلا والسيارة قد اصطدمت بتلك الحجارة فارتفعت وارتفع من فيها، أو توعرت في تلك الرمال حتى كادت تغيب، أما كراريطها [جراراتها] فتغيب عدة مرات، وتضطر للنزول والاستعانة بالبوادي على إخراجها بإعطاء بعض

لا يشعر الإنسان إلا والسيارة قد اصطدمت بتلك الحجارة فارتفعت وارتفع من فيها

---

(٤٠) نفسه، ص١٠١- ١٠٢.

هلالات، هذا والسائق لا يبالي بالسيارة ولا بمن فيها، بل يسرع إسراع السائر في الطريق المعبدة، فيسير بسير الستين والسبعين والثمانين كيلومطر في الساعة، ونحن معه في حالة شديدة، وكثيرا ما نغلظ له في القول، وهو يذكر الله، ويسوق السيارة على جهدها، ولكن من لطف الله وبركة تلك البقاع الشريفة لم يقع لنا ما يؤذينا، ولم نسمع بوقوع آفة لأحد من الحجاج، بل الكل مسرور بكل ما يقع له، وكيف لا يكون مسرورا وقد كان يقطعها على ظهر الجمال في ١٠ أيام، مع أنها لو كانت معبدة لأمكن السفر فيها في نحو ٧ أو ٨ ساعات"(٤١).

على أن الطريق البري لم يكن الوحيد الرابط بين المدينتين المقدستين؛ فقد عاين الرهوني "طيارات مصرية تقل الحجاج من جدة إلى المدينة في ظرف ساعة ونصف، ومنها إلى جدة في مثلها، وأنهم يتفقون مع الحجاج إن شاء الله على ست ساعات؛ ثلاث ذهابا وإيابا، وثلاث زيارة ويرجع لمحله، وهي نعمة عظيمة لمن قدر عليها؛ لأن أجرة الركوب ذهابا وإيابا باللبرات ١٧ ورقا، ولكن إذا زيد عليها الكوشان، وهو عبارة عن ضريبة الحكومة، صار الجميع ٢١ لبرات ذهب، وهذا قدر فادح، ومع ذلك لما كنا بالمدينة المنورة وعزمنا على القفول، وقف بين أعيننا ذلك التعب، فبحثنا عنها فأخبرنا أن مدة النقل بالطيارات انقضت؛ لأنها كانت خاصة بمقام أغنياء المصريين من الحجاج، وقد رجعوا، والحمد لله على كل حال"(٤٢).

والجدير بالذكر أن وضعية الطريق البري بين مكة والمدينة كانت تستدعي إصلاحا مستعجلا، وهذا ما اقترحه أحد البيروتيين على جلالة الملك عبدالعزيز خلال استقبال وفود الدول الإسلامية لموسم ١٩٣٧م، كما اقترح عليه أن "يستخدم فيها أهل الحجاز الذين أبدى تأسفه على حالتهم التعسة من الجوع والعري وغير ذلك". وقد أجاب

(٤١) نفسه، ص١٦٢.

(٤٢) نفسه، ص١٦٢- ١٦٣.

جلالة الملك بأن "الحكومة قائمة بكل ما يجب عليها وأنه لا مداخيل عندها تكفيها لكل شيء، وأن الطريق المقترحة يجب أن يقوم بها المسلمون في أقطار الأرض كلها؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وعلى الحكومة أن تساعدهم بكل ما أمكن"(٤٣).

على أن الرغبة في إصلاح هذا الطريق كانت عامة لدى الحجاج من مختلف البقاع الأرضية، وهو ما عبر عنه الرهوني حينما زار بالمدينة المنورة "أميرها السيد عبدالله السديري، أحد أصهار جلالة الملك وأخواله... استدعانا للإكرام نحن وأعيان المغرب والجزائر وتونس، ومد لنا سماطا عظيما...، ثم انصرفنا عنه شاكرين بعدما تذاكرنا معه في عدة أمور؛ أهمها طلب إصلاح طريق المدينة ومكة، وحتى إن لم يكن إصلاح الجميع الآن يصلح الموضع المسمى بأبي كراع قرب رابغ؛ لأنه بسبخة تسيخ فيها السيارة حتى تغيب كراريطها، ويقع للناس فيها ضرر عظيم، فأجابنا بأنه يتمنى ذلك أيضا، ولكن الأمور بيد جلالة الملك"(٤٤).

ولم يتأخر الشروع في إصلاح هذا الطريق كثيرا، وبدأت الدراسات الفنية التمهيدية لذلك، فقد بلغ لعِلْم الفقيه الرهوني وهو بمكة "أن بنك مصر وجه المهندسين لتصميم الطريق بين مكة والمدينة، وأنهم قدروا لها ثلاثمئة ألف وستين ألف لبرة مصرية، وأنهم عازمون على الاتفاق مع جلالة الملك على تعبيدها، يسر الله ذلك في أقرب وقت، وهيأ أسباب الراحة كلها لحجاج بيت الله الحرام، وربما إلى عرفة". وبالفعل، ما أن عاد الرهوني إلى المغرب حتى بلغه "بطريق يقين أنهم شرعوا هذا العام في تعبيد طريق جدة إلى مكة، وأنها في الموسم القادم عام ١٣٥٦هـ تكون تامة إن شاء الله، جزى الله المحسنين خيرا(٤٥).

(٤٣) نفسه، ص١١٥- ١١٦.
(٤٤) نفسه، ص١٦٨.
(٤٥) نفسه، ص١٦٢.

وفي يوم الخميس المذكور وهو ٢٨ من الحجة عام ١٣٥٥هـ موافق ١١ مارس ١٩٣٧م أقام الوفد المغربي بالباخرة حفلة شاي لرجال الحكومة السعودية الحاضرين بجدة، وللوزير المفوض لدولة إيطاليا وقنصلها، ورجال مفوضيته ورجال القنصلية...، ولما تم الأكل والشرب قام الفقيه الرهوني، وألقى كلمة مما جاء فيها:

"إخواني سادتي، إن المقصود من هذه الحفلة التي أقيمت بهذا المركب الفخم والحامل لها ولاء الوفود لبيت الله الحرام وزيارة قبره[٤٦]... هو أولا: توثيق العلائق الرابطة بين سمو الخليفة ورعيته من جهة، وبين جلالة الملك المنصور المؤيد مولانا عبدالعزيز بن عبدالرحمان آل فيصل السعودي من جهة أخرى، ورعيته توثيقا تاما مبنيا على الأخوة الإسلامية التي لا تنفصم عراها بحول الله، ما دامت الليالي والأيام، حتى نلقى الله جميعا فنكون من المتحابين في الله...، وثانيا: نقدم لحضراتكم هذه الحفلة كبرهان ساطع على ما تكنه صدورنا، وتنطق به ألسنتنا من الشكر الواجب علينا شرعا وطبعا لجلالة الملك، ورجال حكومته، وسائر رعيته الكريمة، على ما أسدى إلينا الجميع من حسن المقابلة والحفاوة والإكرام، حيث أقمنا وارتحلنا، حتى كنا بشهادة الله كأننا بين آبائنا وإخواننا وأبنائنا، ولذلك كنا نلفت أنظار العالم الإسلامي الذي حج هذا العام المبارك إلينا، وكنا ككعبة القصاد للسلام علينا، والسؤال عن أحوالنا، كل ذلك نشأ عن اعتبار جلالة الملك ورجال حكومته، وإنزالنا في دور ضيافته الخاصة، وإركابنا المراكب الرفيعة مجانا وإحضارنا في جميع محافله التشريفية، وإحلالنا في الأماكن الرفيعة، والتنويه بنا بين الخاصة والعامة"[٤٧].

(٤٦) لا يجوز السفر لغرض زيارة قبره ﷺ فقط.

(٤٧) الرهوني، الرحلة المكية، ص ١٨٨.

خاتمة:

خلاصة القول: إن رحلة أحمد الرهوني أتت في ظروف سياسية خاصة كانت تمر منها الدولة الإسبانية الفارضة حمايتها على المنطقة الخليفية من المغرب، وعاصمتها تطوان، وكان غرض الجنرال فرانكو من تنظيم تلك الرحلة الحجية، وإسناد رئاستها إلى أحد أشهر علماء المدينة، هو كسب الرأي العام المغربي، وتلميع صورته أمام المسلمين قاطبة، وتأليبهم ضد خصومه الاشتراكيين، وهو يخوض حربا أهلية طاحنة ضدهم بإسبانيا، وقد انعكست هذه الخلفية في نصوص الرحلة. من جهة أخرى قيد الرهوني في رحلته عددا مهما من الشهادات الحية، والارتسامات الشخصية حول الحياة العامة بالحجاز (مجتمعا وحكومة وتطورا عمرانيا)، وبصفة خاصة حول شخصية الملك عبدالعزيز آل سعود.

ومن نافلة القول: أن "الرحلة المكية" ما تزال زاخرة بالنصوص التاريخية القيمة التي تبرز مدى متانة الروابط الأخوية التي جمعت المملكة العربية السعودية بالمغرب، فضلا عن أنها غنية بالإشارات الحية، سواء تلك المتعلقة بمشاهدات الرهوني بالأراضي المقدسة، أو بمصر أو بالبلدان الأوربية (إسبانيا أو إيطاليا). ولعل الفرصة تتاح لنا أو لغيرنا، للانكباب على تحقيق نص هذه الرحلة وإعادة طبعها، لتصبح في متناول الجمهور الواسع من القراء والمثقفين.

لمحات من مظاهر التطور العمراني لمكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز

أ. د. عادل بن محمد نور غباشي
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية - كلية الشريعة - جامعة أم القرى

مكة المكرمة البلد الحرام، أحب بلاد الله إلى الله، وأحبها إلى رسول الله ﷺ، قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، ومأوى حجهم، ومجمع وفودهم، وملتقى جموعهم، حرمها الله تعظيماً وإجلالاً يوم خلق السموات والأرض، بها الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله على الأرض. وللبيت العتيق جعل الله حرماً لتعظيمه، فجعل فيه الأمان حتى شمل ما فيه من الشجر والنبات فلا يقطع، وما فيه من الطير فلا ينفر ولا يصاد، وجعل ثواب الأعمال فيه أفضل من ثوابها في غيره، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة. ومن عظمة البيت أخذت مكة المكرمة عظمتها، ومن حرمته كانت حرمتها، ومن أمانه كان أمانها، أقسم الله بها لينبه على عظمة قدرها(١).

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مكانة مكة المكرمة وحرمتها انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة المكرمة وما جاء فيها من الآثار، ط٤ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ج٢، ص ١٢١-١٣٢، الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حقق أصوله وعلق حواشيه لجنة من كبار العلماء والأدباء (مكة المكرمة: مكتبة الباز، د. ت)، ج١، ص ٦٧-٩٠، المالكي، محمد بن علوي بن عباس، في رحاب البيت الحرام، ط٣ (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، مطابع سحر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، البلد الحرام فضائل وأحكام، ط١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، سلسلة الرسائل التوجيهية، ١٤٢٤هـ)، ص ٩-٩٦، المباركفوري، الشيخ، صفي الرحمن، تاريخ مكة المكرمة، ط١، (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٨-١٩.

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن إبراهيم عليه السلام بعد أن أسكن ولده إسماعيل وزوجه هاجر عليهما السلام دعا لأهل هذا البلد وسكانه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٢).

وقد أجاب الله سبحانه وتعالى دعوة إبراهيم عليه السلام، فأخذ البلد الحرام المكانة السامية، والمرتبة العالية، والدرجة الرفيعة عند الله ورسوله محمد ﷺ والمسلمين كافة، وأخذ عمرانه في التطور عبر عصور الإسلام إلى أن جاء عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، فواصل المسيرة في الاهتمام والعناية بالبلد الحرام، مما جعل عمرانه يتسع ويتطور عما سبق. وهذا ما سوف نتتبعه عبر محاور هذا البحث.

أولاً: عوامل التطور العمراني لمكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز

يسّر الله سبحانه وتعالى للملك عبدالعزيز ضم مكة المكرمة إلى حكمه عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م(٣)، وقد أولاها عناية واهتماماً خاصاً، وظهر أن هذه المدينة المقدسة قد اتسعت وتطور عمرانها، وزادت مرافقها بشكل كبير عما كانت عليه في نهاية العصر العثماني(٤)، مما يتطلب تتبع عوامل تطورها والكشف عنها، وربما يكون أهم هذه العوامل ما يأتي:

أ- الأمن:

اعتمد عمران مكة المكرمة عبر تاريخها على تحقق الأمن فيها إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

---

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٣٥-٣٧.

(٣) السباعي، أحمد، تأريخ مكة، ط ٦ (مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ٦٤٠.

(٤) انظر ما ورد في المحور الثاني والثالث والرابع من هذا البحث.

اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[٥]، وأكرم الله قريشاً سكان مكة المكرمة بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[٦]، قال تعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[٧].

ويستدل من هذه السورة الكريمة أن الله سهل على قريش ويسر لهم القيام برحلاتهم التجارية، وهم آمنون مطمئنون من أن يتعرض لهم أحد بسوء؛ لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه، وهم أهل الله؛ لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم. ولما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحورهم ازداد وقع أهل مكة المكرمة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم[٨].

وهكذا فإن ما خص الله البلد الحرام من تكريم وتعظيم وحرمة[٩] قد شكّل أساس الأمن الذي أثر كثيراً في اجتذاب الناس للاستقرار بالبلد الحرام، ومن ثم تنامي عمرانه[١٠].

ومعلوم أن ثمة عوامل أخرى كانت تؤثّر في بعض الفترات التاريخية سلباً على عمران مكة المكرمة، فيقل عدد سكانها، وتتعطل

---

(٥) سورة إبراهيم آية ٣٥.

(٦) الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ط٤ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م)، ج٣، ص ٦٠٦.

(٧) سورة قريش.

(٨) الصابوني، صفوة التفاسير، ج٣، ص ٦٠٦.

(٩) راجع ما ورد عن ذلك في مقدمة الدراسة.

(١٠) لمزيد من المعلومات عن أهم العوامل المؤثرة في زيادة ونقصان عدد سكان مكة المكرمة وحجاج بيت الله الحرام انظر: غباشي، عادل بن محمد نور، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني دراسة حضارية (رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة أم القرى، ١٤١٠هـ)، ص ٥٣-٦٣.

دورة نموها الحضاري، ومن ذلك أن الفترة السابقة على العهد العربي السعودي شهدت بعض الاضطرابات خاصة في الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، هذا إلى ما ذكره البتنوني عن الوضع السائد في أيامه (قبل العهد السعودي)، إذ أشار إلى أنه كثير ما تحدث في أوقات تحميل القافلة وتنزيلها سرقات من الجمّالة أنفسهم، وقد يتفق جمّالك مع جمّال آخر، يحضر في هذا الوقت الذي يلهيك فيه بصريخه وصياحه، في حين ينقض الآخر على (عفشك)، ويسرق منه ما تصل إليه يده، حتى إذا هدأ روعك شعرت بما نقص من متاعك، وهناك يعود الصياح... وهكذا بعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم إلى الله(١١)، أما ما لاقاه الحجاج في طريقهم إلى مكة المكرمة فالأمثلة عليه كثيرة منها ما ذكره الضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين في رحلته السرية إلى مكة المكرمة عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، إذ أشار إلى اضطراب الأمن في الطريق بين مكة المكرمة وجدة، وأن قطاع الطريق قتلوا اثنين من الجنود القائمين على حفظ الأمن، مما زرع الذعر في قلب رفيق لهم؛ فهرب وأخبر بما حدث، هذا علاوة على حوادث السلب والقتل المتكررة(١٢)، وما أخبر عنه اللواء إبراهيم رفعت الذي حجّ في أعوام ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، ١٣٢١هـ/ ١٩٠٤م، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م(١٣).

وبعد ضم مكة المكرمة إلى حكم الملك عبدالعزيز بدأ عهد جديد من العناية بالبلد الحرام لتأكيد تحقيق أمنه، فأعلن القضاء على

---

(١١) البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ط٣ (الطائف: مكتبة المعارف، د. ت)، ص ٢١٨.

(١٢) ريزفان، يفيم، الحج قبل مئة سنة، ط١ (بيروت - لبنان: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٢٠٥-٢٠٦، ولمزيد من الأمثلة عن اضطراب الأمن انظر: الأحيدب، عبدالعزيز بن محمد، ظاهرة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: مطابع الإشعاع، التجارية، د. ت)، ص ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٠.

(١٣) رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (القاهرة، ١٩٢٥م) ج١، ص ٦٤-٧٤، ج٢، ص ٧٠-٧٦، ٢١٠.

الرشوة والفساد والاستبداد[١٤]، ووضع سياسته لتأمين الناس واستقرار الأوضاع وتطبيق الشريعة[١٥]، فجاء في خطابه الأول قبل دخول مكة: "إني مسافر إلى مكة المكرمة مهبط الوحي لبسط أحكام الشريعة وتأييدها"[١٦]، وقال في خطابه الأول بمكة المكرمة: "إني أبشركم بحول الله وقوته أن بلد الله الحرام في إقبال وخير وأمن وراحة، وإني إن شاء الله تعالى سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة، ويجلب الراحة والاطمئنان لها"[١٧].

واستناداً إلى ذلك فقد أخذ الملك عبدالعزيز منذ حكمه لمكة المكرمة مباشرة ببعث الجنود للمحافظة على أمنها، ونظّم أعمال الشرطة بقيام مجلس الشورى بوضع المواد الخاصة بها ووظائفها، واجتمع مع وفود القبائل لأخذ التعهد عليهم بالتزام الأمن وعدم التعرض للحجاج[١٨]. وأعلن نداءً إلى جميع المسلمين لإعلامهم باستقرار الأمن في الحجاز، والترحيب بقدومهم لأداء فريضة الحج، ضامناً سلامتهم وراحتهم بأمر الله[١٩]. وعندما قامت بعض القبائل بقطع الطرق في عسفان بعث لهم سرية عسكرية لتأديبهم، وأعلن منع حمل الأسلحة ونقلها في مكة المكرمة[٢٠].

(١٤) الفوزان، إبراهيم فوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة (الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، ص ٩٦.

(١٥) عسه، أحمد، معجزة فوق الرمال، ط ٣ (د. ن، ١٣٩١-١٣٩٢هـ/ ١٩٧١-١٩٧٢م)، ص ٩١، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤.

(١٦) الزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ج١، ص ٣٣٥.

(١٧) الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص ٣٣٥.

(١٨) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، القسم الأول: ١٣٤٣-١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤-١٩٥٣م، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، جـ١، ص ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٦.

(١٩) صحيفة أم القرى، السنة الأولى العدد (١٢) بتاريخ ٣/٨/١٣٤٣هـ الموافق ٢٧/٢/١٩٢٥م.

(٢٠) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص ٢٠، ٢٦.

وشعوراً بالأمن الذي تحقق بفضل الله، فقد نشرت صحيفة أم القرى مقالاً عن الأمن في الحجاز ماضيه وحاضره ومستقبله لأحد كتّابها، ومما ورد فيه(٢١):

وانطلاقاً من مواصلة الملك عبدالعزيز في العناية بالأمن في البلد الحرام والطرق المؤدية إليه وتحقيق المساواة للجميع، فقد عمل عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م على استدعاء رؤساء القبائل في الحجاز، وقسم عليهم طرق الحج، وألزمهم بحفظ أمنها، وأمرهم بمنع التهريب في المناطق الساحلية، وقام مجلس الشورى في هذا العام نفسه بتشكيل لجنة للنظر في تنظيم جنود الشرطة ومعاقبتهم في حال مخالفتهم للنظام(٢٢). وتتابعت العناية بالأمن في عهده محققة إنجازات عظيمة لخدمة سكان مكة المكرمة وحجاج وعمار بيت الله الحرام(٢٣)، مما أسهم بشكل كبير في زيادة وفود الحجاج لشعورهم بالراحة والأمن، وازدياد عدد السكان، وهو ما تطلب زيادة رقعة النسيج العمراني، وزيادة عدد المرافق المخصصة لخدمة السكان والوافدين في البلد الحرام.

ب - الوازع الديني في شخصية الملك عبدالعزيز:

ولد الملك عبدالعزيز وعاش المرحلة الأولى من طفولته في الرياض، وقد عهد به أبوه الإمام عبدالرحمن إلى القاضي عبدالله الخرجي، من علماء الخرج فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن الكريم، وقرأه كاملاً على الشيخ محمد بن مصيبيح، ثم تلقى بعض أصول الفقه والتوحيد على يد الشيخ عبدالله بن عبداللطيف(٢٤)،

---

(٢١) صحيفة أم القرى، السنة الأولى العدد (٥) بتاريخ ١٤/٦/١٣٤٣هـ الموافق ٩/١/١٩٢٤م.

(٢٢) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ١، ص ٥٦، ٥٧، ٨٠، ٨١.

(٢٣) لمزيد من التفصيل في ذلك انظر: الأحيدب، ظاهرة الأمن، ص ٥٥-٨٧، ١٠٦-١١٣، ١٣٥-١٧٩.

(٢٤) الزركلي، خير الدين، الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م)، ص ١٧.

وتنقل مع أبيه في بعض المناطق الصحراوية والمدن، وخالط الحكام والساسة والمفكرين والعلماء والفقهاء[٢٥]، فنشأ متخذاً من عقيدة الإسلام منهجاً لأعماله كافة، متأسياً بسيرة الرسول ﷺ في محبة مكة المكرمة[٢٦] التي اختصها الله ببيته الحرام ومشاعره المقدسة. وما ورد عن فضلها كثير، منه قول الرسول ﷺ لعتّاب بن أسيد حين ولاه أمرها: "عن ابن جريج قال: أخبرني معاذ بن أبي الحارث أن النبي حين استعمل عتاب بن أسيد رضي الله عنه على مكة المكرمة قال: "هل تدري على من استعملتك؟ استعملتكم على أهل الله".

وقال ابن أبي مليكة: إن النبي ﷺ قال: لقد رأيت أسيداً في الجنة وأنى يدخل أسيد الجنة، فعرض له عتاب بن أسيد، فقال: هذا الذي رأيت، ادعوه لي، فدعاه فاستعمله يومئذ على مكة، ثم قال لعتاب: أتدري على من استعملتك، على أهل الله فاستوص بهم خيراً، يقولها ثلاثاً"[٢٧]. وقوله ﷺ مخاطباً مكة المكرمة يوم الهجرة: "حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن عقيل عن الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن حمراء (الزهري) قال رأيت رسول الله واقفاً على الحزورة،

---

(٢٥) الشهيل، عبدالله بن محمد، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣-١٣٥١هـ/ ١٩١٥-١٩٣٢م): دراسة تاريخية تحليلية، ط١ (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٤٤-٤٧.

(٢٦) لمزيد من التفصيل في بيان اعتماد الملك عبدالعزيز على منهج الإسلام في أقواله وأعماله انظر: التميمي، محمد أمين، لماذا أحببت ابن سعود (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٩٣-١٠٢، ١٠٦-١١١، الشيخ، رأفت، تاريخ العرب المعاصر، ط٣ (جمهورية مصر العربية: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ص ٧٥-٧٧، ٨٢، ٨٣، ياسين، يوسف، الرحلات الملكية (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ص ١٧-٢٣، ٦٨، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩١، الخضيري، محمد بن سليمان بن عبدالعزيز، جذور الإدارة المحلية في المملكة العربية السعودية، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار السابع، صفر ١٤٢١هـ/ مايو ٢٠٠٠م)، ص ٣٩ - ٥٢.

(٢٧) الكردي، محمد طاهر، التاريخ القويم لمكة المكرمة وبيت الله الكريم، ط١، ج١ (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ)، ص ٥١٠.

فقال: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرِجت منك ما خرجت"(٢٨).

ومن هذه السيرة العطرة لسيدنا ورسولنا محمد ﷺ تظهر محبة الملك عبدالعزيز لمكة المكرمة، وبذله الجهود كافة لتطوير عمرانها، حيث قال في خطاب له عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م: "إن هذا الوطن المقدس يوجب علينا الاجتهاد فيما يُصلح أحواله، وإننا جادون في هذا السبيل قدر الطاقة حتى تتم مقاصدنا في هذه الديار، وتكمل للمسلمين جميعاً راحتهم وأمنهم، وتتم لجميع الوافدين لمنازل الوحي المساواة في الحقوق والعدل"(٢٩).

وأخذت مراحل التطوير العمراني تتتابع بإتقان منطلقة من المتابعة الدؤوبة، فها هو يقول في شهر ربيع الأول عام ١٣٤٦هـ/ ديسمبر ١٩١٧م في خطاب ألقاه في اجتماع بالموظفين في الديوان الملكي بأجياد بمكة المكرمة: "تعلمون أن أفضل الأعمال كلمة حق تقال، وأن أضل الأعمال معرفة الحق وإهماله، والمجالس يجب أن تكون للنصيحة والإرشاد، نحن نريد أن نسير إلى الأمام ولكن بأقدام ثابتة وعلى ضوء النهار، إن رأينا واعتقادنا وآمالنا في السير إلى الأمام يجب أن يكون وفق ما كان عليه نبينا عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه السلف الصالح، فما كان موافقاً للدين في أمور الدنيا سرنا عليه، وما كان مخالفاً للدين نبذناه. والموظفون هم المكلفون بتبيان هذه الحقائق، بيد أن ذلك لا يكفي، وإنما يجب أن يقرن القول بالعمل"(٣٠).

حظيت مكة المكرمة بمكانة سامية جعلت تطورها العمراني يحتل مكان الصدارة

وبذلك حظيت مكة المكرمة بمكانة سامية جعلت تطورها العمراني يحتل مكان الصدارة؛ ليحقق راحة سكانها والوافدين إليها من كل فج عميق.

(٢٨) الترمذي، محمد بن عيسى، جامع الترمذي، باب في فضل مكة، رقم الحديث ٣٩٢٥، ط١، (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، محرم ١٤٢٠هـ)، ص٢٠٥٢.

(٢٩) دارة الملك عبدالعزيز، مختارات من الخطب الملكية، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، جـ١، ص٣٢.

(٣٠) دارة الملك عبدالعزيز، مختارات من الخطب الملكية، جـ١، ص٣٨.

ج- الوحدة:

إن الحديث عن سيرة الملك عبدالعزيز وجهوده الخيرة في تحقيق الوحدة لشبه الجزيرة العربية حظي بعشرات المؤلفات، فهو غني عن التعريف، ونكتفي هنا بذكر لمحة مختصرة للتعريف بجهوده الكبيرة في تحقيق الوحدة، مما يبرز علاقتها بمكة المكرمة وتطورها العمراني.

فقد بدأ مسيرته الحضارية لتوحيد أرجاء شبه الجزيرة العربية باسترجاعه الرياض في ١٣١٩/١٠/٥هـ الموافق ١٩٠٢/١/١٥م[٣١]، ثم تابع أعماله العسكرية خارج مدينة الرياض إلى أن استطاع - بفضل الله - لمّ شمل المملكة العربية السعودية، فأصبحت حدودها شرقاً الخليج العربي وغرباً البحر الأحمر وشمالاً العراق والأردن وجنوباً اليمن[٣٢].

وخلال تلك المسيرة كان ضمه لمكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م منطلقاً لتوحيد مختلف أرجاء الحجاز، مما أثمر الخير - بفضل الله - في إفادة البلد الحرام من واقع هذه الوحدة، حيث بدأت الوفود من رجال قبائله ومدنه بالوفود على الملك عبدالعزيز معلنة الطاعة والانضمام إلى وحدته، لقيام كيان أمة مستقل يشكل منطلقاً جديداً لعطاء الحضارة في شبه الجزيرة العربية، وكان منها وفد ابن مبيريك صاحب رابغ، ووفد من قبيلة حرب المقيمين بين رابغ وجدة، واستجاب الشريف عبدالله بن حمزة أمير القنفذة والليث للأمر، فأعلن طاعته وتوجه إلى مكة المكرمة، وأعلنت قبائل العرب المقيمة حول المدينة المنورة انضمامهم إلى الملك عبدالعزيز والدخول في طاعته[٣٣]. وتجسيداً للوحدة والعمل على تحقيقها؛ فقد أمر الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م بتعيين عبدالعزيز بن إبراهيم أميراً على الطائف، وضم تربة ورنية وبيشة إلى

---

(٣١) الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، ط٦ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م)، ص ١٢٦.

(٣٢) وهبة، حافظ، خمسون عاماً في جزيرة العرب (الرياض ١٣٨٤هـ)، ص٢٦.

(٣٣) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ١، ص٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩.

الليث ضمن حدود الطائف، ووصله في هذا الوقت وفود من قبائل زبيد وبني عمر والأشراف بني حسن معلنين عهدهم بالتزام السمع والطاعة. وفي عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م التقى الملك عبدالعزيز بعض مشايخ قبيلتي حرب وجهينة الراغبين في الانضمام إلى وحدته والدخول في طاعته، وقد قدموا العهود والمواثيق لتأكيد رغبتهم، ووصله خبر رغبة الحامية العسكرية المقيمة في المدينة إلى الدخول في الطاعة له والانضمام إلى حكمه، فوافق على ذلك وبعث ابنه محمداً لتسلم المدينة المنورة[٣٤]. وفي يوم الخميس ١٣٤٤/٥/١هـ الموافق ١٩٢٥/١٢/١٧م وقع الملك عبدالعزيز على اتفاقية تسلم جدة وضمها إلى حكمه سلماً[٣٥]، فتلاها باقي مدن الحجاز ينبع والوجه والعلا[٣٦].

وفي ١٣٤٤/٥/٢٢هـ الموافق ١٩٢٦/١/٧م، عقد أهل الحجاز مؤتمراً ضم أعيان مكة المكرمة وعلماءها وأهل جدة ووجهاءها، وقرروا فيه بإجماع الرأي مبايعة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملكاً على الحجاز، وعرضوا عليه نص البيعة، فأجاب الطلب، وتم اجتماع الناس عند باب من الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة، ووصل السلطان عبدالعزيز، وتقدم الخطيب، وتلا نص البيعة على مسامع الحاضرين: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبايعك يا عظمة السلطان عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود على أن تكون ملكاً على الحجاز على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والسلف الصالح، والأئمة الأربعة رحمهم الله"[٣٧]، ثم

---

(٣٤) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص٣٠، ٦٤، ٦٥.

(٣٥) سعيد، أمين، تاريخ الدولة السعودية، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، جـ٢، ص١٧٧-١٨١.

(٣٦) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ١، ص٧١-٧٣.

(٣٧) هذلول، سعود، تاريخ ملوك آل سعود، ط٢ (د. ن، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص١٥٠، سعيد، تاريخ الدولة السعودية، جـ٢، ص ١٨٢-١٨٤.

أخذ عدد من الدول كالاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا في الاعتراف بالملك عبدالعزيز بوصفه ملكاً على الحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها(٣٨). واستمر في أعمال وحدته إلى أن تم ضم عسير ومدن تهامة كنجران وجازان، وصدر مرسوم سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م بتوحيد أجزاء المملكة، وأن تسمى "المملكة العربية السعودية، ويكون ملكها ملك المملكة العربية السعودية"(٣٩).

وبذلك أضحت مكة المكرمة ضمن وحدة سياسية وجغرافية شملت معظم أرجاء شبه الجزيرة العربية، متخطية بذلك عوامل التفرقة السابقة(٤٠)، مستفيدة من معطيات هذا الوضع الجديد، الذي سهل على السكان التنقل والاتجار والتوسع في العمران، وبدأت التجارة في التوسع مع مناطق نجد وعسير(٤١)، مما عاد بمردود مادي أسهم في مرحلة التطور العمراني، وهذا ما سوف نناقشه في الفقرة الآتية.

د- تطور الحركة التجارية والإفادة من ثروة النفط:

يظهر من تتبع تاريخ التجارة بمكة المكرمة منذ عصر ما قبل الإسلام أن أهلها اعتمدوا على التجارة موردًا أساسيًا في الحصول على الأموال التي حققت لهم العيش في البلد الأمين، وكان من أهم أسباب نمو التجارة بها وجود الأمن وتأمين الحجاج وإكرامهم، فإذا اختل أحد هذين الشرطين أو كلاهما تختل موازين التجارة، ويشيع

---

(٣٨) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ١، ص٨٢، ٨٤، ١٢٣، ١٢٥.

(٣٩) هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، ص ١٦٧-١٧٧، ١٨٠-١٨٤، سعيد، تاريخ الدولة السعودية، جـ٢، ص١٨٤، ١٨٩-١٩٣، ٣٦١-٣٨٩، دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ٢، ص١٢٣، ١٣٢، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٢٠.

(٤٠) عن صفة أوضاع شبه الجزيرة العربية عقب أحداث الحرب العالمية الأولى انظر: الشهيل، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة، ص٢٧-٤٠.

(٤١) صحيفة أم القرى السنة الأولى العدد (٢٥) في ١٣٤٣/١١/٢٠هـ الموافق ١٩٢٥/٦/١٢م.

الغلاء، وتتجمد دورة رأس المال[٤٢]. وقد أدرك الملك عبدالعزيز ذلك، فعمد إلى تحقيق الأمن والعناية بالحجاج، وعمل منذ دخوله مكة المكرمة على توجيه قوافل الأغذية إليها، وأصدر أمره على التجار بمنع احتكار البضائع لرفع أسعارها، مما لقي صدًى طيبًا لدى الأهالي الذين انتهزوا هذه الفرصة، وبدؤوا في تكريس جهودهم لخدمة ضيوف الرحمن، بشكل أفضل مما كان في العهود السابقة[٤٣].

وانطلاقاً من اهتمام الملك عبدالعزيز بربط مكة المكرمة بالمناطق والمدن المجاورة لتعود عليها بالنفع، فقد اهتم بإعادة فتح الطرق المؤدية إليها، وعمل على تطويرها، فازدادت الحركة التجارية نشاطاً. وعمل عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م على تشكيل لجنة من مجلس الشورى للنظر في أمور التجارة، وخفض الرسوم الجمركية على البضائع كالأرز والدقيق، ومنح امتياز تسيير السيارات بين مكة المكرمة وجدة على أن يتم لاحقاً تشكيل شركة مساهمة وطنية لها يشارك فيها المواطنون. ولم يكتف بذلك فنجده يقوم بجولات ميدانية لتفقد أسواق مكة المكرمة[٤٤]، فانعكست آثار تلك الأعمال خيراً على تطور الحركة التجارية بها، مما جعل أهلها يتجهون إلى الإفادة من تطور موارد البلاد في مجال الزراعة والثروة الحيوانية والصناعات البسيطة ثم المتقدمة[٤٥].

وفي الفترة المعاصرة لأحداث الحرب العالمية الثانية التي احتدمت خلال الفترة ١٣٥٨-١٣٦٥هـ/ ١٩٣٩-١٩٤٥م[٤٦]، عانت مكة المكرمة

---

(٤٢) الزهراني، ضيف الله بن يحيى وعادل بن محمد نور غباشي، تاريخ مكة المكرمة التجاري، ط١، (مكة المكرمة: الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة، ١٤١٨هـ)، ص٥٢.

(٤٣) صحيفة أم القرى، السنة الأولى، العدد التاسع ١٣٤٣/٧/١٢هـ الموافق ١٩٢٥/٢/٦م، العدد العاشر ١٣٤٣/٧/١٩هـ الموافق ١٩٢٥/٢/١٣م.

(٤٤) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، جـ١، ص٥٥، ٥٦، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٨٣..

(٤٥) الزهراني، تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص٥٢-٥٥.

(٤٦) لاوند، رمضان، الحرب العالمية الثانية عرض مصور، ط٧، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ص٢٤، ٥٧٩، ٥٨٤، ٥٨٥.

من نقص الواردات وقلة الموارد المالية(٤٧)، وبفضل الله تمكنت المملكة من اجتياز تلك المرحلة بكل ثقة إلى أن يسر الله اكتشاف البترول وتصديره بكميات إلى الخارج، فأثر ذلك على الحركة التجارية وتطورها، ولم يكن الأمر قاصراً على مكة المكرمة، وإنما شمل مختلف مدن المملكة، فبدأت الواردات تزداد عما كانت عليه من قبل، وبدأت حركة رأس المال في النمو، لوجود السيولة النقدية الخاصة بالصرف على مصالح الدولة وعلى إقامة المشاريع(٤٨)، فنهضت التجارة بمكة المكرمة إلى درجات لم تصل إليها من قبل، وكان من آثار ذلك نمو الأعمال التجارية والمنجزات الصناعية لتشمل تجارة الساعات والحلي والمواد الغذائية ومزارع الدواجن، وظهور البنوك(٤٩). ونتج عن ذلك تطور عمراني في البلد الحرام. وهذا ما سنتتبعه في الفقرة التالية.

ثانياً: التطور العمراني

أ - امتداد النسيج العمراني بمكة المكرمة:

قدّم إبراهيم رفعت الذي حج سنة ١٣٢٥هـ تحديداً تقريبياً لمساحة مكة المكرمة في عهده بقوله: "مكة... طولها من الشمال إلى الجنوب ميلان، وعرضها شرقاً من جبل أبي قبيس إلى أسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد، يقطع الماشي طولها في نحو نصف ساعة، ومع كون عرضها دون طولها يقطع في زمن أكثر مما يقطع في الطول، وذلك لوجود أماكن على تلال في كل من جانبيها"(٥٠).

(٤٧) الكردي، محمد طاهر، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط١، (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، الأجزاء من ١-٤ عام ١٣٨٥هـ، والجزءان ٥، ٦ عام ١٤١٢هـ)، ج٥، ص١٦٠.

(٤٨) الزركلي، شبه الجزيرة، جـ٢، ص ٦٩٠، ٧٠٢، ٧٠٨، ٧٠٩. ولمزيد من المعلومات عن جهود الملك عبدالعزيز في تطوير موارد البلاد والإفادة من النفط ليعود بالخير على المملكة بإذن الله انظر: عسه، معجزة فوق الرمال، ص٣٢٨-٣٦٣.

(٤٩) الزهراني، تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص٥٦-٦٠.

(٥٠) رفعت، مرآة الحرمين، جـ١، ص٢٧٨.

ومع نهاية العصر العثماني يرجح أن عمران مكة المكرمة قد تخطى منطقة بئر طوى إلى ما يُعرف حالياً بالبيبان(٥١).

وبالنظر إلى ذلك على خارطتي مكة المكرمة التي أعدت إحداهما عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، والأخرى عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨م يظهر أن النسيج العمراني بمكة المكرمة قد زادت سعته في عهد الملك عبدالعزيز، حيث أخذت المدينة في الامتداد عبر بطون الأودية والشعاب، وازداد العمران في سفوح الجبال، وبدأت المساكن تعم حي المعابدة إلى الأبطح ووادي الصدر في الجهة الشرقية، ويبرز فيها قصر المعابدة الملكي وقصر الأمير (الملك لاحقاً) فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله، وفي الجهة الغربية امتد النسيج العمراني ليشمل أحياءً جديدة لتشمل منطقة جبل الكعبة، والتنضباوي، والهنداوية، أما في الشمال فامتد العمران ليتخطى ريع الكحل وصولاً إلى منطقتي الزاهر والشهداء، وبرز فيها مستشفى الملك عبدالعزيز، ودار الضيافة، وبستان الشهداء. وفي الجهة الجنوبية عم العمران المسفلة وشمل الجبال المطلة على أجياد، وبدأت تظهر على الخارطة شوارع المدينة بشكل واضح يبرز تطورها في العهد السعودي عما كانت عليه الحال من قبل.

وقد تحدث السرياني عن ملامح ذلك التطور بقوله: "لقد كانت المدينة المقدسة خلال هذه الفترة مثلاً للمدينة الإسلامية التي تلتف حول مركزها الديني (الحرم الشريف)، وعُرفت بأزقتها العتيقة الضيقة التي تصب من جميع الجهات في اتجاه المسجد الحرام، إضافة إلى الأسواق التي انتشرت من حول الحرم لخدمة الحجاج. ولكن حدودها لم تشهد توسعاً كبيراً عما كانت عليه في السابق، غير أن ملامح التغيير بدت واضحة، فلقد أدى ظهور السيارات في مدن المملكة عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م إلى توسيع الطرق الرئيسة خصوصاً في مكة المكرمة التي أصبحت تقصدها قوافل السيارات المستمرة،

---

(٥١) غباشي، المنشآت المائية، ص٤٧، ٤٨.

خصوصاً في أيام الحج، مما دعا إلى توسيع كثير من الطرق الرئيسة، إضافة إلى بدء السكان في تعمير الأراضي الخارجية للمدينة بدلاً من التكدس في الحارات القريبة من الحرم، التي ضاقت بالكثافة السكانية العالية. وتبع هذا الانتشار السكاني انتشار كثير من المدارس في أنحاء مكة المختلفة سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م إضافة إلى ظهور مساجد الأحياء، وإنشاء المستشفيات العصرية لرعاية السكان والحجاج. ولقد كان لظهور الإسمنت والخرسانة المسلحة أثر كبير في ظهور الكثير من القصور والفلل الراقية في أطراف المدينة"(٥٢).

كما تحدث الفارسي عن مظاهر التطور العمراني في ذلك العهد بقوله: "نمت مدينة مكة المكرمة في الاتجاهات التي لا تعترضها جبال، من خلال الفتحة المعروفة بجبل الكعبة إلى حارة الباب وجرول في اتجاه الشمال الغربي، ومن خلال المعلاة إلى السليمانية والحجون والجميزة والمعابدة في الشمال الشرقي، وإلى المسفلة في الجنوب. وكانت عمارة البيوت في هذه الأحياء امتداداً للعمارة القديمة، واتباع أساليبها وخاماتها من أحجار الجبال والطين المنجرف مع السيل، وكانت الأحياء الجديدة - في ذلك الوقت - امتداداً لتخطيط الحارة واستعمالاتها والواجهات المنكسرة عليها، وكانت اتساعات الأزقة بما يكفي لمرور الجمال أو الحمير في اتجاهات مطالع الجبال...

وهذه الفترة (١٣٧٥-١٣٨٤هـ/ ١٩٥٥-١٩٦٤م) شهدت بدايات التخطيط بالمعنى المبدئي، وورود عمال فنيين من خارج المملكة، وظهور أنماط مستوردة من العمارة مخالفة للعمارة القديمة المتوارثة، وقد شهدت هذه المرحلة ظهور أحياء جديدة في الناحية الغربية والشرقية والجنوبية وهي الأحياء المعروفة حالياً بالأسماء الآتية: الطندباوي والملاوي وامتدادات المسفلة إلى الجنوب. وقد شهدت هذه المرحلة

(٥٢) السرياني، محمد محمود، مكة المكرمة دراسة في تطور النمو الحضري (الكويت: قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ/ مارس ١٩٨٦م)، ص٢٧.

ظهور الشوارع المتسعة والعمارات متعددة الأدوار ذات البلكونات، واستعمال الأدوات الصحية والمواسير بدلاً من نظام القصبة، وكذلك مواد البناء الجديدة؛ الأسمنت والطوب الأسمنتي أو المحروق... وشهدت هذه الفترة أيضاً ظهور طراز خاص من العمارة القديمة في تغطية الفتحات بالخشب، واستعمال العقود على الفتحات والأبراج بديلاً عن البلكونات، بالإضافة إلى استخدام المواد الحديثة من الأسمنت والجبس والتحليات بالزهور والورود المرسومة، كما استعيض في بعض المباني عن الخشب في ستر شرفات البلكونات بتحليات من الجبس المشغول بفتحات، واستخدم في بعضها نظام القصبة وفي بعضها الآخر نظام الصرف الصحي الحديث. ومن أمثلته بيت البوقري عند مدخل مكة المكرمة من ناحية جدة وبيوت أخرى منتشرة في العتيبية والمعابدة والزاهر وأجياد والقرارة"[٥٣].

ب - العناية بتخطيط وتطوير المشاعر المقدسة والطرق:

حظيت المشاعر المقدسة في مكة المكرمة وما حولها: عرفات ومزدلفة ومنى والمسعى[٥٤] بعناية عظيمة، علاوة على العناية بالطرق التي تصل ما بينها، ويعد رصفها وتعبيدها وتهيئتها للسكان والوافدين من أهم وسائل تسيير الحياة في البلد الحرام، ونتتبع ذلك بما يأتي:

- عرفات: حظيت بعناية كبيرة، وظهر ذلك في الاهتمام بتخطيطها، وتوجيه حجاج بيت الله الحرام يوم الوقوف إلى النزول بها في أماكن محددة، لتسهيل معرفة منزل كل فريق، وتنظيم مرور الناس ومنع تزاحمهم، وهو يتضمن أيضاً تحديد مسار شوارعها[٥٥].

---

(٥٣) فارس، محمد سعيد، التكوين المعماري والنمو الحضري لمدن الحج بالمملكة العربية السعودية، ط١ (المملكة العربية السعودية: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٦٦-٦٨.

(٥٤) لمزيد من المعلومات عن حدودها وموقعها من مكة المكرمة انظر: غباشي، المنشآت المائية، ص٨، ٩.

(٥٥) صحيفة أم القرى، السنة (١١) العدد (٥٤٩) في ١٣٥٤/٣/١٩هـ الموافق ١٩٢٥/٦/٢١م.

- مزدلفة: تم إصلاحها وتعبيدها مع عرفات ومنى، حيث تمت معاينة حاجتها إلى الإصلاح والإعمار، ورفع تقرير عنها إلى جلالة الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م؛ فأمر بدفع مبلغ سبعين ألف ريال سعودي من حسابه الخاص، للبدء في إعمار المشاعر المقدسة، وتحقق ذلك بفضل الله(٥٦).

- منى: في عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م أمر الملك عبدالعزيز بفتح أربعة شوارع في منى؛ منعاً للازدحام أيام الحج، ووجه إلى أن يخصص أحدها للمشاة، وآخر للشقادف (التي تحمل على الجمال)، وثالث للبهائم، ورابع للسيارات والعربات، وقد تمكنت أمانة العاصمة من تنفيذ المشروع، وتمت تسمية أحد الشوارع الجديدة في منى باسم الملك عبدالعزيز(٥٧).

وتوالت أعمال الإصلاح والتطوير في منى وكان منها توجيهه - رحمه الله - رواداً للكشف عن أماكن صالحة لفتح طريق واسع يربط مكة المكرمة بمنى وعرفات إضافة إلى الطرق المعروفة، ويمر من خارج منى منعاً للازدحام الشديد الذي كان يحصل في الطرق القديمة(٥٨). وفي سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م أعلنت أمانة العاصمة المقدسة عن الرغبة في تعمير الأماكن الخربة في منى، ووجهت أصحاب تلك الأماكن إلى الاهتمام بتعميرها خدمة لحجاج بيت الله الحرام، وأعدت لجنة لمتابعة ذلك، والكشف على تلك الأماكن كافة، وتحديد خرابها ونفقات ذلك(٥٩).

(٥٦) صحيفة أم القرى السنة (٢٠) العدد (٩٨١) في ١٦/١٠/١٣٦٢هـ الموافق ١٥/١٠/١٩٤٣م.

(٥٧) صحيفة أم القرى السنة (٥) العدد (٢٤٩)، دارة الملك عبدالعزيز الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص٢٢٦.

(٥٨) صحيفة أم القرى السنة (٣) العدد (١٤٢) في ٦/٣/١٣٤٦هـ الموافق ٢/٩/١٩٢٧م.

(٥٩) صحيفة أم القرى السنة (١٥) العدد (٧٢٣) في ٣٠/٨/١٣٥٧هـ الموافق ١٤/١٠/١٩٣٨م.

ونشر في عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م خبر عن عناية الحكومة بالطرق الرئيسة للحج جاء فيه: "يعرف الجميع مبلغ اهتمام الحكومة براحة حجاج بيت الله الحرام، وعمل كل ما يوفر لهم أداء مناسكهم في رفاهية ودعة، ومن أول ما فكرت الحكومة في مستهل هذا العام، العناية بالطرق الرئيسة للحجاج، وأهمها على الإطلاق طريق عرفات الذي لا يستغني عن سلوكه وارتياده كل حاج قادم إلى هذه البلاد. لذلك فقد قررت الحكومة في هذا الصدد بعض المشاريع المهمة، وفي مقدمتها:

أولاً: فتح طريق فرعي لمرور السيارات الخالية بين مكة وعرفات.

ثانياً: إكمال تعبيد مدرج منى الذي عمل من قبل، وهو المدرج الواقع خلف الجمرة الكبرى ورصفه بالأسفلت وتمشية ذلك إلى مسافة كبيرة.

ثالثاً: فتح شوارع فرعية في عرفات، ورصفها بالأسفلت على ألاَّ يقل عرض الشارع الفرعي عن ١٨ متراً، وسيكون من فوائد هذه الشوارع تنظيم الخيام، والإقامة والحركة في عرفات، بحيث يسهل الكثير من وسائل الراحة، والتنقل، والارتياد في ذلك الوادي الفسيح الذي يضم يوم الحج ألوف الحجيج، وما يصطحبهم من أدوات الركوب من دواب وسيارات وغيرها"(٦٠).

كما أوضحت هذه الصحيفة في عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م جانباً من ملامح أعمال التطوير والإصلاح في عرفات ومزدلفة ومنى بما نصه:

"في عرفات: إنشاء خط رئيس جديد مسفلت بعرض تسعة أمتار من عرفة ماراً بالأخشبين فمزدلفة فمنى، وذلك ليكون مخصصاً فقط للسيارات المحملة النازلة من عرفات بعد النفرة (وتم) إكمال

---

(٦٠) صحيفة أم القرى السنة (٢٣) العدد (١١٤٢) في ٢٤/١٠/١٣٦٦هـ الموافق ١٧/١/١٩٤٧م.

الطريق المسفلت ابتداءً من منتهى الأزفلت حتى مقهى عرفات منحرفاً شمالاً فغرباً إلى أن يتصل بالأسفلت فيما دون جبل الرحمة، مع إصلاحه في كافة جوانبه ونواحيه إصلاحاً تاماً، وذلك ليكون مخصصاً فقط لمرور السيارات الخالية العائدة إلى عرفات من بعد النفرة. (وتم) إحداث وعمل الطرق الفرعية اللازمة في ساحة عرفات نفسها، وسفلتتها كلها، وذلك لتسهيل اتصال جميع هذه الطرق الفرعية المتقاطعة بالطريق الرئيس العام.

في مزدلفة: سفلتة جميع هذه الطرق الفرعية المتقاطعة، لتسهيل اتصال كل منها بالطريق الرئيس العام.

في منى: فتح طريق من الجبل الواقع خلف جمرة العقبة بمنى، وذلك لإيجاد وتيسير طريق خاص بالذاهب للرمي وطريق خاص بالعائد بعد الرمي وتم سفلتة الشارع العام بمنى"[٦١].

ويظهر مما سبق مدى العناية والتنظيم التي حظيت بها مشاعر عرفات ومزدلفة ومنى، ومنهج التفكير في استغلال الطرق لوظائف محددة.

رصف وإنارة وتجديد سقف شارع المسعى:

معروف أن هذا الشارع العظيم الممتد من الصفا إلى المروة من شعائر الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٦٢]. وبذلك فقد شكل هذا الشارع أهمية كبيرة للمسلمين، نظراً لسيرهم على أرضه، وقد رأى الملك عبدالعزيز أن رصف أرض هذا الشارع، سيحقق الراحة للمسلمين في أدائهم لشعيرة السعي، فأمر في سنة

(٦١) صحيفة أم القرى السنة (٢٩) العدد (١٤٣٦) في ١٣٧٢/٢/١٣هـ الموافق ١٩٥٢/١٠/٣١م.

(٦٢) سورة البقرة آية رقم ١٥٨.

١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م بتنفيذ ذلك، وتشكلت لجنة لهذا الغرض، وأوصت بأن يكون فرش شارع المسعى بالحجر الصوان المربع، وأن يبنى بالنورة، وعلى هذا ابتدأ العمل بهدم النواتئ التي كانت على ضفتي شارع المسعى، ثم عملوا في الرصف، وأتمّوه في أواخر شهر ذي القعدة للسنة نفسها التي صدر فيها الأمر(٦٣)، وبذلك أصبح شارع المسعى في غاية الاستقامة وحسن المنظر، واستراح الناس من الغبار الذي كان يثور نتيجة سير الناس على التراب، فكان هذا أول شارع رصف بمكة المكرمة، وأول رصف للمسعى من الصفا إلى المروة منذ فرض الله تعالى على المسلمين الحج. وكان الملك عبدالعزيز أول من اهتم برصفه(٦٤).

وفي سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م أمر الملك عبدالعزيز بتجديد سقيفة المسعى بصفة محكمة لتقي المسلمين حرارة الشمس، وقد تم إنجاز ذلك العمل، وسجل تاريخه في نقش كتابي على نحاس طوله أربعة أمتار وعرضه متر واحد(٦٥).

الطرق:

نظراً لأهمية العناية بالطرق الداخلية وتعبيدها لتسهيل مرور الناس من الأهالي والوافدين في البلد الحرام، فقد ظهرت العناية بذلك منذ السنوات الأولى من حكم الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة، كما ظهرت الحاجة عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م إلى العناية بالطريق الممتد من جرول إلى المعابدة، وذلك بإزالة النواتئ والدكاك والمظلات التي

---

(٦٣) باسلامة، حسين بن عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ط٣، (جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٢٩٥، ٢٩٦، قاضي، سهيل بن حسن، دور الملك عبدالعزيز في إعمار بيوت الله في مكة المكرمة، (جدة: مجلة المنهل، العدد ٥٥٥، المجلد ٦٠، العام ٦٤، شوال ١٤١٩هـ/ يناير، فبراير ١٩٩٩م)، ص٦٥.

(٦٤) الكردي، التاريخ القويم، ج٥، ص٣٥٧، قاضي، دور الملك عبدالعزيز في إعمار بيوت الله، ص٦٥.

(٦٥) الكردي، التاريخ القويم، ج٥، ص٣٥٦.

أقامها الناس بتعديهم على طريق المسلمين؛ مما تطلب تبني قرار بإزالة التعديات كافة عن الشوارع بتدرج، وهذا ما يسهم في توسعتها، ويسهل مرور الناس عبرها(٦٦)، وقد تتابعت الأعمال في ذلك، وكان منها عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م إزالة الدكاك والمظلات البارزة عن سمت الشارع الرئيس في القشاشية وسوق الليل، ومنها عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، وعام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م(٦٧).

وتواصلت أعمال الإصلاح والتجديد والتطوير في شوارع البلد الحرام والطرق المؤدية إليه؛ لتشمل التعبيد والتوسيع والرصف والإنارة والتشجير، وفتح طرق جديدة نتتبعها بما يأتي:

التعبيد والسفلتة وفتح طرق جديدة:

في ١٣٤٣/١٢/١٨هـ الموافق ١٩٢٥/٧/١٠م وردت الأخبار بوصول سيارة إلى مكة المكرمة قادمة من رابغ؛ مما يشير إلى احتمال قيام أعمال لتسهيل الطريق، وفي شهر شعبان عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م، تم الإعلان عن الفصل بين خط سير الجمال، وخط سير السيارات بين مكة المكرمة وجدة، وذلك بتخصيص مسار لكل منهما، وفي عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م تم الانتهاء من إصلاح الطريق بين مكة المكرمة والطائف، وبدأت السيارات في السير عليه دون مشقة(٦٨)، وفي العام نفسه أيضاً تتابعت أعمال إصلاح وتعبيد طريق مكة المكرمة - جدة، ثم صدر أمر الملك عبدالعزيز متضمناً الإسراع في إصلاح طريق العبادي لراحة حجاج بيت الله الحرام وهم في طريقهم إلى عرفات، وتواصلت الجهود لإصلاح طريق خاصة لسير السيارات، وهي في

(٦٦) صحيفة أم القرى السنة (٣) العدد ١١٤ في ١٣٤٥/٨/١٥هـ الموافق ١٩٢٧/٢/١٧م.

(٦٧) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص١٥٣، ١٥٤، ٢١٥، ٢١٦، ٣٩٥، ٤٩٨، ٥٠٩.

(٦٨) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص٥٠، ٥١، ١٢٩، ١٤٨، ١٤٩.

طريقها من مكة المكرمة إلى العمرة[٦٩]. ونتيجة للخراب الذي أصاب طريق مكة المكرمة - الطائف في موضع بين الشرائع والسيل، فقد لقي الناس مشقة وتعباً عظيمين؛ مما تطلب الإسراع في إصلاحه وتعبيده تأميناً لراحة المسافرين، وقد تحقق ذلك عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، وأصبحت السيارات تسير عليه بكل يسر وسهولة[٧٠].

ونظراً لأهمية الطريق بين مكة المكرمة وجدة في تنقل سكان بلد الله الحرام والحجاج والزوار، فقد تواصل العمل في إصلاحه وتعبيده، وكان من ذلك ما تحقق في شهر شعبان سنة ١٣٥١هـ/ ديسمبر ١٩٣٢م. وفي عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م تم افتتاح الطريق بين مكة المكرمة وأبها من خلال بيشة، وإصلاح طريق السيل - الزيمة بعد تأثره من السيول[٧١].

وفي عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م تم إعداد مشروع لتخطيط مكة المكرمة، وطبعي أن يكون ذلك منطلقاً لأعمال الإصلاح والتطوير في شوارعها التي نالت أعمالاً إصلاحية عدة، منها إصلاح الطريق بين باب مكة المكرمة إلى جرول وإصلاحات أخرى في الطرق عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م. وتم افتتاح شارع الأمير فيصل الذي قامت ببنائه مديرية الأوقاف العامة عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م[٧٢].

---

(٦٩) صحيفة أم القرى السنة (٣) العدد (١٥٠) في ١٣٤٦/٥/٢هـ الموافق ١٩٢٧/١٠/٢٧م، السنة (٤) العدد (١٥٥) في ١٣٤٦/٦/٨ هـ الموافق ١٩٢٧/١٢/٢م، السنة (٤) العدد (١٦٤) في ١٣٤٦/٨/١١هـ الموافق ٢/٢/ ١٩٢٨م.

(٧٠) صحيفة أم القرى، السنة (٧) العدد (٣٤٧) في ١٣٥٠/٣/١٥هـ الموافق ١٩٣١/٧/٣١م.

(٧١) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص٣٠٢، ٣٢١، ٣٣٢، ٣٣٧.

(٧٢) صحيفة أم القرى السنة (١٤) العدد (٦٧٠) في ١٣٥٦/٨/٣هـ الموافق ١٩٣٧/١٠/٨م، السنة (٢١) العدد (١٠٥٧) في ١٣٦٤/٦/٢٠هـ الموافق ١٩٤٥/٦/١م، السنة (٢٣) العدد (١١٢٠) في ١٣٦٥/٩/١٩هـ الموافق ١٩٤٦/٨/١٦م.

ونال الشارع العام بمكة المكرمة من جهة قصر الأمير فيصل بالأبطح إلى جرول والزاهر عناية كبيرة، بصفته شرياناً رئيسياً لتنقل الناس والحجاج، مما جعل الأمانة تعمل على تعبيده عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م[٧٣]. وفي عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م تم فتح طريق كدي وسفلتته، وتعبيد شارع المنصور، وإيصاله بطريق كدي، وتوطئة ريع الحجون في قمته أربعة أمتار، وسفلتته حتى يلتقي خط الأسفلت في الشارع العام في جرول[٧٤]. ومن المشروعات التي كان يجري العمل فيها وقت ١٣٧٢/٦/١٣هـ الموافق ١٩٥٣/٢/٢٧م[٧٥]:

١ - افتتاح طريق من حوض البقر (العزيزية) إلى جبل ثور ومنه إلى ريع كدي بالمسفلة.

٢ - توطئة ريع كدي وتعبيده وسفلتته.

وفي يوم الجمعة ١٣٧٢/٨/٣هـ الموافق ١٩٥٣/٤/١٧م تم الإعلان عن العمل في فتح شارع الفتح عبر خبر جاء فيه: "إن حكومتنا السنية جريا على عادتها في المبادرة إلى الموافقة على المقترحات الرشيدة، والمشروعات المفيدة للبلاد وسكانها، ولا سيما ما يؤدي إلى راحة الحجاج وطمأنينتهم في أداء شعائرهم الدينية، قد وافقت على مشروع فتح شارع الفتح الجديد الذي تقدم به إليها سعادة أمين العاصمة المقدسة، وهو ينفذ من مشعر المروة إلى شارع المدعى العام. وقد بدأت أمانة العاصمة - فعلاً - صباح أمس في عمليات فتح هذا الشارع الجديد، الذي سيخفف الضغط عن الحجاج والعمار، ولا سيما في موسم الحج، ويمنع به الصدام في السعي مع المنتهين منه،

(٧٣) صحيفة أم القرى السنة (٢٤) العدد (١١٦٤) في ١٣٦٦/٨/١هـ الموافق ١٩٤٧/٧/٢٠م.

(٧٤) صحيفة أم القرى السنة (٢٩) العدد (١٤٣٦) في ١٣٧٢/٦/١٢هـ الموافق ١٩٥٢/١٠/٣١م.

(٧٥) صحيفة أم القرى، السنة (٣٠) العدد (١٤٥٣) في ١٩٧٢/٦/١٣هـ الموافق ١٩٥٣/٢/٢٧م.

الذين ما كانوا يجدون لهم متنفساً حين انتهائهم من سعيهم، فقد صار في إمكانهم بعد فتح هذا الشارع الجديد أن ينفذوا إليه رأساً من المروة، فيستريحون ويريحون من الصدام والزحام، زيادة على ما يتوفر في هذا الشارع الجديد من الدكاكين والبسطات، التي ينتظر أن تكون خاصة بالحلاقين وباعة المرطبات والمشروبات المثلجة، مما يحتاج إليه الحجيج لتكميل نسكهم والترفيه عنهم"[٧٦].

توسيع الطرق ورصفها:

في عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م أعلنت أمانة العاصمة المقدسة عزمها على استخدام الأسفلت في رصف الشارع العام بمكة المكرمة، الممتد من المعابدة إلى جرول. وبهدف تحقيق ذلك بشكل جيد، ومنع ما قد يتعرض له الشارع من خراب لاحق، فقد تم الطلب من أصحاب المباني المطلة على الشارع تحديد مواضع المجاري الممتدة من المباني إلى الشارع العام، ليمكن على ضوئه وضع ذلك في الحسبان، وتحقيق المحافظة على الرصف الجديد، وعدم تعرضه إلى التكسير[٧٧].

وفي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م تتابعت الأعمال لتوسيع الشوارع في البلد الحرام ومشاعره المقدسة، وكان منها توسيع شارع القشاشية العام وشارع المسعى بإزالة بعض المباني وتعويض أصحابها[٧٨]، وقد نشرت صحيفة أم القرى في عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م خبراً عن ذلك جاء فيه: "كنا نشرنا فيما مضى ما قامت به أمانة العاصمة من هدم دار باناجه الذي أمام باب علي من أبواب المسجد الحرام على مفترق الطرق المؤدية إلى شارع القشاشية العام وشارع المسعى، وما يتصل

---

(٧٦) صحيفة أم القرى، السنة (٣٠) العدد (١٤٦٠) في ١٣٧٢/٨/٣هـ الموافق ١٩٥٣/٤/١٧م.

(٧٧) صحيفة أم القرى السنة (٢٣) العدد (١١٣٨) في ١٣٦٦/١/٢٦هـ الموافق ١٩٤٦/١٢/٢٠م.

(٧٨) صحيفة أم القرى السنة (٢٥) العدد (١٢٢٠) في ١٣٦٧/٩/١٧هـ الموافق ١٩٤٨/٧/٢٣م.

بها من الشوارع العامة، وقد تم هدمه، وأصبح محله في ميدان فسيح في ملتقى خطوط الشوارع والطرق المذكورة، والآن أخذت أمانة العاصمة في هدم الدكاكين الثمانية، والغرف التي كانت متصلة بدار باناجه من جهة شارع القشاشية العام، ويجري العمل في هدمها، ونقل أنقاضها من محلها بنشاط وسرعة تشكر عليهما أمانة العاصمة، التي سجلت لنفسها بعملها هذا أثراً محسوساً من آثار الإصلاح المطلوب منها في العاصمة. ولا ريب أن إزالة هذه الدكاكين والغرف مع بيت باناجه سوف يتسع به شارع القشاشية العام، ويخف به الضغط عن حركة المرور العامة للمشاة والركبان بالسيارات والدراجات وغيرها من سائر المركبات في هذا الشارع العام، الذي يعد أعظم نقطة لقوة حركة المرور المختلفة في العاصمة. وإن ذلك لمن أعظم المآثر الخالدة والأيادي البيضاء لجلالة مليكنا المعظم (الملك عبدالعزيز) على سكان هذه البلاد المقدسة والوافدين إليها من شتى أنحاء العالم الإسلامي"(٧٩).

وتواصلت الأعمال في تطوير الشوارع وتوسيعها، حيث نشرت وكالة الأنباء العربية عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م أنه قد تم إنجاز التدابير في البلد الحرام؛ لتحسين مرافقه، وتوسيع الشارع الرئيس فيه المؤدي إلى المسجد الحرام(٨٠).

الإنارة والتشجير والترقيم:

تواصلت العناية بشوارع البلد الحرام ومرافقه ومبانيه كافة، وكان من ذلك إضاءتها وتشجيرها، وقد تحقق ذلك عبر أعمال متتالية، ففي ١٦/٦/١٣٤٤هـ الموافق ٣١/١٢/١٩٢٥م تم الإعلان عن عرض

---

(٧٩) صحيفة أم القرى السنة (٢٦) العدد (١٢٦١) في ١٦/٧/١٣٦٨هـ الموافق ١٣/٥/١٩٤٩م.

(٨٠) صحيفة أم القرى السنة (٢٧) العدد (١٣٤٨) في ٢٤/٤/١٣٧٠هـ الموافق ٢/٢/١٩٥١م.

منافسة أمام رجال الأعمال، لإنارة (شوارع وأزقة) البلد الحرام، وطلب من كل من يرغب في المشاركة في هذه المنافسة لإقامة ذلك المشروع، أن يقدم عرضه، لتحقيق اختيار أفضلها[٨١]. وفي عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م قررت أمانة العاصمة المقدسة وضع (لوكسات) كهربائية في الشوارع العمومية بدلاً من الفوانيس الغازية[٨٢]، وقامت بعدد من الأعمال التطويرية لإضاءة الدوائر الحكومية بمكة المكرمة ليلاً. ثم عمل مجلس الشورى على دراسة طلب إنارة مكة المكرمة بالكهرباء في عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م. وانطلاقاً من العناية بتجميل البلد الحرام فقد وجهت أمانة العاصمة المقدسة أصحاب المقاهي والحوانيت إلى إضاءتها من الداخل والخارج، ثم توجت كل تلك الجهود بصدور أمر الملك عبدالعزيز بإضاءة مكة المكرمة بالكهرباء في ١٠/٦/١٣٦٩هـ الموافق ٢٩/٣/١٩٥٠م[٨٣]. وفيما يخص التشجير فقد ظهرت العناية به لتجميل شوارع البلد الحرام، وتحسين الجو بتلطيف الهواء، وقد بدئ بتحقيق ذلك عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م في "شارع الحكومة الموصل إلى دار وزارة المالية، فغرس فيه قسم غير قليل من الأشجار". وفي عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م عزمت أمانة العاصمة المقدسة على القيام بأعمال مهمة لغرس الأشجار في الشوارع الرئيسة في البلد الحرام، وهو مشروع لقي كل ترحيب من الناس، ودعوة إلى تعميمه على الشوارع كافة وبتعاون الأهالي[٨٤].

---

(٨١) صحيفة أم القرى السنة (٢) العدد (٥٣) في ١٦/٦/١٣٤٤هـ الموافق ٣١/١٢/١٩٢٥م.

(٨٢) لمزيد من المعلومات عن، صفة اللوكسات والفوانيس وغيرها من وسائل الإضاءة انظر: الكردي، التاريخ القويم، ج٥، ص٢٧٣-٢٩٠.

(٨٣) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ٣١٨، ٥٤٢، ٥٤٣، ٨٨٠.

(٨٤) صحيفة أم القرى السنة (١٢) العدد (٦٠١) في ٢٢/٣/١٣٥٥هـ الموافق ١٢/٦/١٩٣٦م، السنة (١٥) العدد (٧٢٤) في ٢٧/٨/١٣٥٧هـ الموافق ٢١/١٠/١٩٣٨م.

أما ما يخص الترقيم، ففي عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م عزمت أمانة العاصمة المقدسة على وضع أرقام نحاسية على أبواب المنازل والحوانيت والشوارع، وتم التنفيذ عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م بدءاً من منطقة جرول فالشبيكة(٨٥).

ج - العناية بإعمار بيوت الله والمرافق العامة في البلد الحرام:

نظراً للتوسع في امتداد رقعة النسيج العمراني، والعناية بالشوارع لمواجهة زيادة الكثافة السكانية من المواطنين والوافدين على البلد الحرام؛ فقد تطلب ذلك قيام أعمال تطويرية لإعمار المسجد الحرام وتوسيعه، وإعمار وزيادة عدد المساجد في الأحياء، علاوة على العناية بالمرافق العامة، مثل: مرافق المياه والمؤسسات الحكومية، وتوفير الفنادق لاستقبال الوافدين من الحجاج والعمار.

وقد بذل الملك عبدالعزيز جهداً كبيراً في سبيل تحقيق ذلك، وأصدر أمره عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م بإعادة الطلاء في بناء المسجد الحرام، وإصلاح كل ما يقتضي إصلاحه، ثم أمر عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م بعمل مظلات قوية ثابتة مجاورة للأروقة المطلة على صحن المطاف، وأمر بإجراء أعمال الترميم والإصلاح التي استمرت بتتابع إلى وفاته عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م(٨٦).

وأولى مرافق المياه عناية كبيرة(٨٧)، فجدد بناء قنوات المياه، وتبرع من ماله الخاص، ووجه رجاله إلى إعمار قناة عين عرفة (زبيدة) في

---

(٨٥) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص٢١٥، ٢٣٩.

(٨٦) لمزيد من المعلومات انظر: السباعي، تأريخ مكة، ص٦٥٨، باسلامه، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٩، ٢٩١. قاضي، دور الملك عبدالعزيز في إعمار بيوت الله، ص٦٤-٦٧.

(٨٧) لمزيد من المعلومات انظر: أونال، سعد الدين وسليمان بن عبدالغني مالكي، دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة من وجهة نظر الحجاج لحج عام ١٤٠٨هـ (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، سلسلة دراسات مركز أبحاث الحج، ١٤١٣هـ)، ص٤٧-٧٥. وعن اكتشاف آبار بالمشاعر انظر: دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص١٣٨، ١٤٠، ١٦٣، ١٦٤، ٢٢٢.

المنطقة الممتدة من وادي نعمان إلى عرفات، والعزيزية ثم باقي أحياء مكة المكرمة، فزادت كميات المياه عما كان في العصور السابقة، مما أصبحت معه القنوات القديمة غير قادرة على استيعاب الكمية الإضافية من الماء، فاتجه المعماريون إلى تعلية جانبي القنوات[٨٨]، وأمر - رحمه الله - بالعناية بالمرافق القديمة التي كانت تستعمل في توفير المياه للسكان والوافدين، كالبرك والأسبلة والبازانات[٨٩]، وأمر بإنشاء الجديد منها، فكان من ذلك إنشاؤه ثلاثة أسبلة عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م على الطريق بين مكة المكرمة وجدة: سبيل أم القرون، وسبيل حداء، وسبيل بئر المقتلة[٩٠]، وأسبلة عدة في مكة المكرمة والطرق المؤدية منها إلى المشاعر، منها سبيل في المعابدة عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م، وسبيل بأجياد وبازان النقا عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م[٩١]، وسبيل على طريق عرفات، ومنهل ماء بدحلة الرشد عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

---

(٨٨) لمزيد من المعلومات انظر: غباشي، عادل بن محمد نور، جهود الملك عبدالعزيز في عمارة عين عرفة (جامعة أم القرى، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٢، العدد ٢٠، صفر ١٤٢١هـ/ مايو ٢٠٠٠م)، ج٢، ص٧١٣-٧٣٠.

(٨٩) ملا قلندر، عبدالقادر، الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة (مكة المكرمة: مطبعة أم القرى، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، ص١٠-٢٠، غباشي، عادل بن محمد نور، نقش كتابي يؤرخ لعمارة بازان بمكة المكرمة في عصر الملك عبدالعزيز (الرياض: مجلة الدراة، العدد الأول السنة الحادية والعشرون. شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤١٥هـ)، ص١١٠-١١٩، غباشي، عادل بن محمد نور، أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبدالعزيز (مكة المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول بالمملكة العربية السعودية الذي نظمته جامعة أم القرى بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، شعبان ١٤٢٢هـ)، ج٣، ص١٣٨-١٤٧.

(٩٠) لمزيد من المعلومات انظر: غباشي، عادل بن محمد نور، أسبلة الملك عبدالعزيز على الطريق بين مكة المكرمة وجدة (الرياض: مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، ١٤١٤هـ)، ص٢٠٤-٢٣٢.

(٩١) غباشي، عادل بن محمد نور، مرافق المياه بمكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز دراسة تحت الطبع.

وأنشئت المستشفيات والمستوصفات، والمؤسسات الحكومية لتقديم الخدمات التي كانت منها مراكز الشرطة[٩٢]. وقد لقيت تلك الأعمال التطويرية لعمران البلد الحرام قبولاً لدى الأهالي والوافدين، فجاءت صحيفة أم القرى بالكثير من أخبار ذلك، ونشرت بها مشاهدات الكتاب، وكان منها ما ورد عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م ممثلاً للمرحلة المبكرة من حكم الملك عبدالعزيز للحجاز. وقد تضمن ذلك استعراضاً لبوادر الإصلاح، وبياناً لجهوده في العناية بإنعاش البلاد، وطرقه لوسائل العمران كافة، وأمره بتأسيس المدارس، وتحسين الحالة الصحية، ورصف الشوارع وإصلاح طرق السيارات، وغيرها من الأعمال والمشاريع التي تشهد شهادة بينة بأن جلالته قد وفق في وضع أقوى أساس لانطلاقة النهضة العمرانية التي ينبغي أن تكون مثالاً حسناً لكل نهضة في جزيرة العرب.

وورد أيضاً فيما نُشر أن هذه الأعمال تدعو للغبطة والارتياح، لأنها أنهت حالة الجمود الذي خيم قرونا على المنطقة علاوة على أهميتها في إنعاش البلاد وعمرانها[٩٣].

وفي يوم الجمعة الموافق ١٣٤٥/٨/١٥هـ الموافق ١٩٢٧/٢/١٧م تضمنت صحيفة أم القرى مقالاً عن "وسائل الإصلاح والعمران" وكان مما جاء فيه: "مكة المكرمة موطن جميع المسلمين وكذلك المدينة المنورة، ولذلك كان حقاً على حكومة الحجاز وأهله أن يبذلوا وسعهم في تأمين وراحة المسلمين الذين يفدون إلى هذه الديار فهم ضيوف الله في بيته الحرام. وبحمد الله أن الحكومة تتشاور مع أهل البلاد على توفير راحة هؤلاء الوافدين

كان حقاً على حكومة الحجاز وأهله أن يبذلوا وسعهم في تأمين وراحة المسلمين

(٩٢) دارة الملك عبدالعزيز، الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى، ج١، ص ٢٠٠، ٣٢٩، ٣٨١، ٤٧٦، ٤٩٦، ٥٠٧، جـ٢، ص٧٠٣، ٧٢٤، ٧٢٦، ٧٥٢.

(٩٣) صحيفة أم القرى السنة (٣) العدد (١٠٧) في ١٣٤٥/٦/٢٥هـ الموافق ١٩٢٦/١٢/٣٠م.

حتى يقضوا مناسكهم، ويرجعوا إلى أهليهم فرحين مسرورين، ولكن كما يعلم الناس كافة أن كل شيء في الحجاز كان مهملاً ويحتاج إلى إصلاح، ولابد في الإصلاح أن يكون تدريجياً يسير حسب الإمكان والظروف. ومن جملة الأشياء التي أولتها الحكومة في الحجاز اهتمامها بأمر الطرق والمعابر في سائر مدن الحجاز وبخاصة في المشاعر"(٩٤). وتتابعت المقالات والأخبار من هذه الصحيفة متضمنة معلومات عن التطور العمراني بمكة المكرمة منها مقال بعنوان "مشاريع عمرانية" في ١٣٤٨/٣/١١هـ الموافق ١٩٢٩/٨/١٦م(٩٥)، وآخر بعنوان "الإصلاحات في موسم هذا العام" بتاريخ ١٣٤٨/٥/١٣هـ الموافق ١٩٢٩/١١/١٥م(٩٦)، ومعلومات أخرى تحت عنوان "معرض الحوادث" كان مما جاء فيها عن الملك عبدالعزيز: "ومن عادة جلالته أيده الله أن يشرف في وقت الموسم على الوسائل التي اتخذت لتأمين راحة الوافدين من حجاج بيت الله، وأن يطلع على الاقتراحات التي ترفع لجلالته من الحكومة والأهلين والحجاج، ثم يعهد بعد ذلك إلى لجنة خاصة للنظر في كل هذه الأمور ودرسها وبحثها، وبعد أن تنتهي اللجنة من استقرائها وتمحيصها ترفع تقريرها لجلالته، فيصدر أمره السامي بتنفيذ ما جاء في التقرير من المشاريع خلال العام الذي يلي ذلك الموسم؛ حتى إذا جاء ميعاد الموسم المقبل، كانت الحكومة قد أتمت هذه المشاريع"(٩٧).

---

(٩٤) صحيفة أم القرى السنة (٣) العدد (١١٤) في ١٣٤٥/٨/١٥هـ الموافق ١٩٢٧/٢/١٧م.

(٩٥) صحيفة أم القرى السنة (٥) العدد (٢٤٣) في ١٣٤٨/٣/١١هـ الموافق ١٩٢٩/٨/١٦م.

(٩٦) صحيفة أم القرى السنة (٦) العدد (٢٥٦) في ١٣٤٨/٥/١٣هـ الموافق ١٩٢٩/١١/١٥م.

(٩٧) صحيفة أم القرى السنة (٦) العدد (٢٧٩) في ١٣٤٨/١١/١٣هـ الموافق ١٩٣٠/٢/١١م.

ومما جاء عن ذلك أيضاً ما كتبه الشيخ أبو السمح إمام وخطيب المسجد الحرام في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م تحت عنوان: "المشاريع الإصلاحية في الحجاز"(٩٨)، وما ورد بالصحيفة نفسها في عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م تحت عنوان "تقرير عام عن أعمال أمانة العاصمة ومشاريعها"، ومما جاء فيه: "هذا تقرير موجز عن الأعمال التي قامت بها الأمانة في غضون العام الحالي معتمدة في ذلك على أساسين، الأول: التدرج مع سنة التطور، وما يقتضيه من مسايرة روح الوسط، ووضعية البلاد الراهنة، والثاني: تقديم الأهم على المهم، والألزم على اللازم في المشاريع، وبالنسبة لحاجات البلاد، وما يستثمره المجموع من الفائدة والمصلحة وبالأخص أيام الموسم؛ أيام ازدحام البلاد بوفود بيت الله الحرام؛ وقد توصلت إلى إنفاذ عدة مشاريع عمرانية من الأهمية بمكان، حسبما يتسع لها الوقت وبقدر ما تتحمله مواردها المادية"(٩٩).

وفي ١٣٧٢/٥/١٣هـ الموافق ١٩٥٣/٢/٢٧م نشرت صحيفة أم القرى معلومات تفصيلية عن المشاريع العمرانية في البلد الحرام تحت عنوان: "من المشروعات الإصلاحية الكبرى التي جرى تنفيذها في هذه البلاد المقدسة"، وتناولت:

١ - مشروعات مياه الشرب لمكة المكرمة ومنى ومزدلفة.

٢ - مشروعات السد بمكة المكرمة في طريق العشر.

٣ - تعبيد الطرق بمكة المكرمة ومنى ومزدلفة، ونسف ريع الحجون بالديناميت وكذلك ريع كدي(١٠٠).

(٩٨) صحيفة أم القرى السنة (١٣) العدد (٦٣٥) في ١٣٥٥/١١/٢٣هـ الموافق ١٩٣٧/٢/٥م.

(٩٩) صحيفة أم القرى السنة (١٥) العدد (٧٤٠) في ١٣٥٧/١٢/٢٨هـ الموافق ١٩٣٩/٢/١٧م.

(١٠٠) صحيفة أم القرى السنة (٣٠) في ١٣٧٢/٦/١٣هـ الموافق ١٩٥٣/٢/٢٧م.

الخاتمة:

حظيت مكة المكرمة، بما لها من القداسة والمكانة السامية في قلوب المسلمين، بعناية فائقة من الملك عبدالعزيز - رحمه الله - تمثلت في العديد من الأعمال والمشروعات العمرانية والتطويرية التي تعهدها بها، وشملت استتباب الأمن، وربطها بسائر مناطق المملكة. وقد تمخض عن ذلك تنامي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وازدهار التجارة، وازدياد عدد السكان فيها والوافدين إليها. وتطلب هذا بدوره تواصل العمل في تطويرها والتوسع في عمرانها، وهو ما حاولت هذه الدراسة رصد أبرز ملامحه، وتوصلت إلى النتائج الآتية:

١ - ظهر من تتبع امتداد النسيج العمراني لمكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز أنه زاد عما كان عليه في العصور السابقة، حيث امتد العمران إلى مناطق جديدة في الجهات كافة، فأصبحت ضمن نسيجه العمراني، وهي: الأبطح ووادي الصدر في الجهة الشرقية، ومنطقة جبل الكعبة والتنضباوي والهنداوية في الجهة الغربية، وريع الكحل، ثم الزاهر والشهداء في الجهة الشمالية، ومنطقة المسفلة وشمال الجبال المطلة على أجياد في الجهة الجنوبية.

٢ - تبع نمو العمران وامتداد مساحاته اهتمام وتطوير لشوارع مكة المكرمة، فتواصلت أعمال توسيع الشوارع ورصفها وإضاءتها وتشجيرها وترميمها، هذا علاوة على العناية بفتح طرق جديدة لتواكب النهضة العمرانية، ويمكن من خلالها مواجهة زيادة الكثافة السكانية المستفيدة من زيادة إعمار المساكن والمرافق.

٣ - تواصل الاهتمام بتخطيط وتطوير مناطق المشاعر المقدسة التي يقع بعضها داخل حدود حرم مكة المكرمة، ومنها ما هو خارج الحرم، وتمثل ذلك في تطوير الطرق القديمة، وفتح الجديد منها، علاوة على الاهتمام برصفها وتوفير المرافق بها.

٤ - واكب تطوير عمران مكة المكرمة في عهد الملك عبدالعزيز اهتمام كبير بإعمار بيوت الله، وإنشاء المرافق العامة في البلد الحرام، فجاءت الأعمال المعمارية متتالية في عمارة المسجد الحرام والمساجد الأخرى، وأنشئت المستشفيات، ومراكز الشرطة، وجُددت وعمرت مرافق المياه، وغيرها مما يحتاجه السكان والوافدون، فأصبح البلد الحرام مثالاً للمدينة الإسلامية التي امتدت فيها مشاريع النهضة والتطوير لتشمل جميع الجوانب، دعماً لمركزيها الديني والحضاري.

أطباء من أجل المملكة

عمل مستشفيات الإرسالية الأمريكية في المملكة العربية السعودية

١٩١٣ - ١٩٥٥م

تأليف

بول أرميردينغ

ترجمة

د. عبدالله بن ناصر السبيعي

٢٢٨ صفحة



يحكي هذا الكتاب في صفحاته قصة عدد من الأطباء الأمريكيين الذين كان لهم إسهام واضح في تقديم الرعاية الصحية للمرضى في المملكة العربية السعودية خلال عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله.

وقد ضم الكتاب عددًا من كتابات أولئك الأطباء التي يروون فيها تجاربهم في العمل الطبي في المملكة، إلى جانب إجراء عدد من العمليات الجراحية التي زادت عن سبعة عشر ألف عملية، وذلك خلال زيارتهم المتصلة للمملكة التي ابتدأت من العام ١٩١٣م، وتوقفت عام ١٩٥٥م.

وقد صاغ المؤلف كتابه بطريقة قصصية، وزوده بصور توضيحية نادرة، وضمنه عددًا من المشاعر الطيبة التي حملها أولئك الأطباء عن المجتمع السعودي المسلم وقيادته الوفية لشعبها.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

نماذج من اتجاهات العلماء في بيان "مكانة مكة المكرمة"

د. عبدالرحمن بن محمد بودرع
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبدالمالك السعدي - المملكة المغربية

١ - مكة المكرمة:

بلد الله الحرام، سميت في القرآن الكريم بالبلد(١)، والبلد الأمين(٢)، والبلدة(٣)، وبكة(٤)، وأم القرى(٥)، والقرية(٦). وكان البيت يدعى قادسا، ويدعى بادرا، ويدعى القرية القديمة، ويدعى البيت العتيق.

وعن مجاهد قال: "من أسمائها مكة وبكة وأم رحم وأم القرى والباسة" ... والحاطمة: تحطم من يستخف بها، والناسة تنسهم؛ أي: تخرجهم إخراجا إذا غشموا وظلموا(٧).

---

(١) قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ - ٢].

(٢) قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣].

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

(٥) قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

(٦) قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

(٧) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ١/٢٩٧-٣١٤]، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري التيمي القرشي (ت٧٣٣)، طبعة دار الكتب، مصر.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

٢ - مكانتها(٨):

أجمع العلماء على أن مكة المكرمة والمدينة النبوية أفضل بقاع الأرض من جهة مضاعفة ثواب الصلوات، ويليهما في الفضل بيت المقدس.

فمما ورد في مكانتها أن فيها أول بيت وضع للناس من أجل العبادة، ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وفيها ولد رسول الله محمد ﷺ، وفيها كان مبعثه، ومنها خرجت دعوة الإسلام حتى عمت الدنيا، وفيها المسجد الحرام الذي تعد الصلاة فيه بمئة ألف صلاة، وفيها من الآثار مقام إبراهيم، وبئر زمزم، ودار الأرقم بن الأرقم، وغار حراء، وغار ثور...

ومن ذلك أيضا ما نقل إلينا من أخبار النبي ﷺ من تخصيص قريش بزيادة العلم، وحض الأمة على متابعتهم؛ بدليل قوله ﷺ، في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الأئمة من قريش؛ إن لهم عليكم حقًا ولكم عليهم حقًا مثل ذلك"(٩)، والحديث الذي رواه أبو سلمة عن أبي بريدة عن النبي ﷺ قال: "الناس تبع لقريش في هذا الأمر،

---

(٨) عبارة "مكانة مكة" أنسب من "فضائل مكة" وأعم؛ لأن "الفضائل" خاصة بأمكنة دون أخرى، وأزمنة دون أخرى من جهة الشرع فقط، أما "المكانة" فهي صفة مكتسبة، وهي أعم من الفضائل. وهذا ما يفيده قول ابن حزم الأندلسي: "ومكة أفضل بلاد الله تعالى، نعني الحرم وحده، وما وقع عليه اسم عرفات فقط، وبعدها مدينة النبي عليه السلام، نعني حرمها وحده، ثم بيت المقدس، نعني المسجد وحده. هذا قول جمهور العلماء". [المحلى بالآثار: ٥/٣٢٥-٣٣٣]، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦)، تح. عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩) أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك: [مسند أحمد: ٣/١٢٩و١٨٣]، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١)، مؤسسة قرطبة، مصر. والطبراني في [المعجم الكبير: ١/٢٥٢]: عن أنس بن مالك قال: "جاء رسول الله ﷺ ونحن في بيت فكل إنسان منا تأخر عن مجلسه؛ ليجلس إليه رسول الله ﷺ، فقام على الباب فقال:"الأئمة من قريش، ولهم حق، ولي حق ما فعلوا ثلاثا: إن حكموا عدلوا، وإن عاهدوا وفوا، وإن استرحموا رحموا...". وأخرجه الطبراني والطيالسي والبزار، والمصنف في التاريخ من طريق سعد بن إبراهيم عن أنس بلفظ "الأئمة من قريش ما إذا حكموا فعدلوا" الحديث، وأخرجه النسائي والبخاري أيضا في التاريخ، وأبو يعلى من طريق بكير الجزري عن أنس، وله طرق عدة عن أنس منها للطبراني من رواية =

خيارهم تبع لخيارهم، وشرارهم تبع لشرارهم"(١٠)، وفي فضل عالم قريش: عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا قريشا؛ فإن عالمها يملأ الأرض علما"(١١).

وقريش هي القبيلة المكية المعروفة(١٢)، والمشهورة بالشجاعة، والرأي الصائب، والحزم الثابت، والقيام بعظائم الأمور، والمطالب العالية، والمصادر السامية(١٣)، وقد ذهب الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) إلى أنه لم يجد فيمن بعد الصحابة

= قتادة عن أنس بلفظ: "إن الملك في قريش" الحديث. وأخرج أحمد هذا اللفظ مقتصرا عليه من حديث أبي هريرة ومن حديث أبي بكر الصديق بلفظ: "الأئمة من قريش"، ورجاله رجال الصحيح؛ لكن في سنده انقطاع، وأخرجه الطبراني، والحاكم من حديث علي بهذا اللفظ الأخير. [المعجم الكبير]، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠)، تح. حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الموصل، ط. ٢/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م. وانظر أيضا: [فتح الباري: ١١٤/١٣] لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، تح. محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(١٠) وفي رواية أخرى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم"، [صحيح مسلم: ١٤٥١/٣]، أبو الحسين مسلم النيسابوري (ت ٢٦١)، تح. محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وانظر: [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ١٥٩/١٤]، أبو حاتم محمد بن حبان (ت ٣٥٤)، تح. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

(١١) [كتاب السنة: ٦٣٥/٢-٦٣٧]، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧)، (باب في فضل عالم قريش)، تح. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. ١/ ١٤٠٠هـ. والحديث مروي عن عبدالله بن مسعود مرفوعا، وله طرق أخرى.

(١٢) انظر في فضائل قريش: [المنمق في أخبار قريش]، لمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥)، برواية أبي سعيد السكري، تح. خورشيد أحمد فاروق، ١٩٦٤م. ولا غرو فإن قريشا خصها الله بالفضل والمن على سائر الخلق، وبعث منها نبي الرحمة، وأنزل عليه القرآن بلسانها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلغة قريش أفصح اللغات، ونسبها أصح الأنساب.

(١٣) انظر شرح ألفاظ الأحاديث الواردة في فضل قريش: [فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢٥٥/٣]، عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط. ١/ ١٣٥٦هـ.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ السنة الحادية والثلاثون
الدارة

قرشيا - ممن أشارت إليه الأحاديث - ملأ طباق الأرض علما، إلا الشافعي المطلبي محمد بن إدريس القرشي(١٤).

فكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - أنموذجا عاليا تحقق فيه قول رسول الله ﷺ، فهو العالم القرشي الذي ملأ الأرض علما، وصنف الكتب، وفتق العلم، وشرح الأصول والفروع، وهو ما ذهب إليه البيهقي في كتاب "مناقب الإمام الشافعي"(١٥).

فهذا مما ورد في "مكانة مكة" و"منزلة أهل مكة".

٣ - نماذج من "اتجاهات التأليف" في المكانة:

ألف كثير من العلماء كتبا ومصنفات في "مكانة مكة المكرمة"، وعنوا عناية خاصة بذكر بقاعها، وآثارها، ومشاهير أعلامها من الصحابة والتابعين والسلف الصالح من العلماء، والمجاورة بها(١٦)، وتلقي العلم عن الشيوخ بجوار حرمها، والعتب على من تركها إلى غيرها من بقاع الأرض سوى المدينة النبوية...

واتجاهات التأليف العلمي في فضائل مكة ومكانتها كثيرة، منها الاتجاه الفقهي الذي يتعلق بالشعائر(١٧)، ومنها الاتجاه التاريخي الذي يتصل بالمآثر والبقاع، ومنها الاتجاه المعماري الذي يستعرض خطط البناء والتوسعة، ومنها اتجاه الترجمة للرجال الذين جاوروا مكة،

---

(١٤) [بيان خطأ من أخطأ على الشافعي: ٢٦]، الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٣٨٤-٤٥٨)، تح. خليل إبراهيم ملا خاطر، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ط. ١/ ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(١٥) [مناقب الإمام الشافعي: ١/٢٩-٣٠]، للإمام البيهقي، مكتبة دار التراث بمصر، ١٣٩١هـ.

(١٦) انظر ما ذكره أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري في مقدمة تفسيره، من أنه صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، والتوجه تلقاء مكة. [الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ مقدمة الكتاب]، دار المعرفة، بيروت.

(١٧) انظر على سبيل المثال كتاب [المحلى بالآثار]: "مسألة: مكة أفضل بلاد الله ....، ومكة أفضل بلاد الله تعالى، نعني الحرم وحده، وما وقع عليه اسم عرفات فقط، وبعدها مدينة النبي عليه السلام، نعني حرمها وحده، ثم بيت المقدس، نعني المسجد وحده. هذا قول جمهور العلماء". [المحلى بالآثار: ٥/٣٢٥-٣٣٣]، لابن حزم الأندلسي.

أو علموا فيها، أوتعلموا من شيوخها...، ومنها الاتجاه الجغرافي الذي يستعرض حدود البلد الأمين وجباله ووديانه وهواءه وموقعه[١٨].

٤ - المنهج المتبع في هذا البحث: القصر لا الحصر

إن المؤلفات في هذه الاتجاهات وغيرها كثيرة جدا لا تكاد تحصر؛ فمنها المطبوع، ومنها المخطوط، ومنها القديم، ومنها الحديث، ومحاولة حصرها لا يتسع لها إلا بحث أكاديمي مفصل، يستقصي ما كتب قديما وحديثا[١٩]، ويصنفه بحسب مادته العلمية.

وسأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج من اتجاهات العلماء في التصنيف في مكانة مكة المكرمة دون غيرها، وذلك لوفرة المصنفات في هذا الباب، وإفاضة المؤلفين في استعراض مزايا البلد الأمين، وتعدد الاتجاهات الذي يفرضه المجال العلمي للتأليف في الفضائل والمزايا.

سأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج دون غيرها

قلت: سأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج دون غيرها، مقسمًا ما وقع بين يدي من المؤلفات إلى ثلاثة اتجاهات:

---

(١٨) وموقعه في مركز العالم، وهذا الاتجاه الجغرافي يبرهن على مركزية مكة، وهي مركزية لفتت اهتمام الجغرافيين المسلمين في سياق تقسيمهم لأقاليم الأرض. ينظر هنا على سبيل المثال لا الحصر منهج "ابن حوقل" في تقسيمه الجغرافي، وحديثه عن فضل موقع مكة؛ يقول: "بدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا؛ لأن الكعبة فيها ومكة "أم القرى"، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي"، وكتابه "صورة الأرض" من أهم الكتب التي ألفت في الجغرافيا السكانية في القرن الرابع الهجري. ينظر: [صورة الأرض] لأبي القاسم بن حوقل، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٩م. وينظر أيضا: [صفة جزيرة العرب] لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٤٥)، وقد جمع المؤلف في كتابه ما لجزيرة العرب - بسبب وقوع مكة والبلد الحرام فيها - من فضائل، وذكر أقاليمها، وطبائع أهلها، وذكر أطول مدن العرب المشهورة.

(١٩) أما ما أنجز حديثا فيتعذر حصره، فمنه المطبوع، ومنه الرسائل الجامعية غير المنشورة، ومما أنجز حديثا على سبيل المثال لا الحصر رسالة دكتوراه في موضوع "الأحاديث الواردة في فضائل مكة"، أنجزها الباحث د. محمد عبدالله عائض عوض سنة ١٤١٩هـ، وأشرف عليها د. عوض بن أحمد الشهري، بكلية الحديث الشريف، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الأول: يستعرض فضائل مكة الدينية، وما تمتاز به من أركان ومواقف ومشاهد تؤدى فيها الشعائر، وحرمات تعظم وتوقر.

الثاني: يركز على الجانب التاريخي للبلد الأمين، وما فيه من بقاع ومآثر ومشاهد وأيام ووقائع.

الثالث: يخص بالذكر والأهمية الرجال الذين جاوروا بمكة، أو تلقوا فيها علما أوعلموا بها علوما، أوصنفوا مصنفات، وذلك من خلال تصنيف تراجم للرواة وطبقات المحدثين.

غير أن هذه الأقسام الثلاثة قصر لا حصر؛ لأن مناهج العلماء في التأليف في مكانة مكة المكرمة أوسع من أن تنحصر في هذه القسمة الثلاثية، وأكثر تفصيلا.

١ - "مكانة مكة الدينية" في بقاعها الطاهرة وشعائرها الدينية:

ألف في "مكانة مكة" أبو سعيد محمد بن تميم الهمداني الجندي المتوفى في حدود سنة ثمان وثلاثمئة[٢٠] كتاب "فضائل مكة"[٢١]، وأبو محمد الخزاعي المكي، ومحمد بن أبي بكر اللباد المالكي اللخمي

---

(٢٠) الجندي المقرئ المحدث الإمام أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن مفضل بن سعيد بن الإمام عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي ثم الجندي، حدث عن الصامت بن معاذ الجندي ومحمد بن أبي عمر العدني وإبراهيم بن محمد الشافعي وأبي حمة محمد بن يوسف وسلمة بن شبيب. وروى القراءات عن طائفة كالبزي وغيره. أخذ عنه أبو بكر بن مجاهد وعبدالواحد بن أبي هاشم، وحدث عنه أيضا أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم البستي وأبو بكر بن المقرئ وأبو جعفر العقيلي وآخرون. قال العقيلي: "قدمت مكة ولأبي سعيد الجندي حلقة بالمسجد الحرام"، وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: "هو ثقة"، وقال أبو القاسم بن مندة: "توفي سنة ثمان وثلاثمئة": [سير أعلام النبلاء: ٢٥٨/١٤]، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.٩/ ١٤١٣هـ.

(٢١) [كشف الظنون: ١٢٧٨/٢]، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

الإفريقي، والشيخ محمد بن علي بن علان المكي الصديقي المتوفى سنة سبع وخمسين وألف(٢٢).

ونسب أبو الفداء إسماعيل بن كثير في "البداية والنهاية"(٢٣)، والسهيلي في "الروض الأنف"(٢٤) إلى أبي الوليد الأزرقي كتابا بعنوان "فضائل مكة"(٢٥)، وذكر ابن الأبار في كتاب "التكملة لكتاب الصلة"، أن يحيى بن محمد بن سعادة من أهل قرطبة، المعروف بأبي بكر بن فصال، سمع بمكة من أبي الحسن رزين بن معاوية الأندلسي تأليفه في "فضائل مكة" ... وتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة(٢٦). ونسب إلى الحافظ أبي محمد عبدالغني المقدسي (ت ٦٠٠هـ) كتاب "فضائل مكة" في أربعة أجزاء(٢٧).

وعقد شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري التيمي القرشي (ت ٧٣٣هـ) الباب الثاني في "خصائص البلاد" من القسم الخامس من الفن الأول من كتابه المشهور "نهاية الأرب في فنون الأدب" للحديث عن مكة وفضائلها، قال: "ولنبدأ من ذلك بمكة ويثرب، وأعرب عما أنقله من فضلهما، ولا أغرب، وأصله بذكر البيت المقدس والمسجد

(٢٢) انظر التفصيل في: [كشف الظنون: ١٢٧٨/٢]، و[معجم البلدان: ٦٣/٣]، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦)، دار الفكر، بيروت. و[الوافي بالوفيات]، لأبي الصفاء صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤)، فيسبادن، ط. ٢ / ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٢٣) [البداية والنهاية: ١٨٦/٢]، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤)، مكتبة المعارف، بيروت.

(٢٤) [الروض الأنف: ٢٢٣/١]، عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي (ت ٥٨١)، تح. مجدي منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٢٥) ولعله كتاب "تاريخ مكة" الذي حققه رشدي صالح ملحس، أو ما يعرف بـ"خطط الأزرقي".

(٢٦) [التكملة لكتاب الصلة: ١٧١/٤]، لأبي عبيدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار البلنسي، تح. د. عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

(٢٧) انظر ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي في [البداية والنهاية: ٣٨/١٣-٣٩]، و[المعين في طبقات المحدثين: ١٨٨/١]، لأبي عبدالله الذهبي (ت ٧٤٨)، تح. د. همام عبدالرحيم سعيد، دار الفرقان، الأردن، ط. ١/ ١٤٠٤، و[طبقات الحفاظ: ٤٨٨/١]، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤٠٣هـ.

الأقصى، ولا أشترط الاستيعاب؛ لأن فضائلها لا تحصى. فأما مكة - شرفها الله تعالى وعظمها - ففضائلها مشهورة بينة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] (٢٨)، ثم قال: "ذكر شيء من خصائص مكة: من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي، ويعارضه، ويصيده، فإذا دخل الحرم كف عنه. ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إن كان عليلا؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلوها، والله أعلم"(٢٩).

وممن ألف في "مكانة مكة" قبل أولئك جميعا، أبو سعيد الحسن بن يسار البصري (ت ١١٠هـ)(٣٠)، الذي كتب رسالة لطيفة تعد فاتحة لعناية العلماء في زمن مبكر بالتأليف في فضائل البلد الأمين، ومكانة

---

(٢٨) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣١٩/١-٣٢٠].

(٢٩) نفسه.

(٣٠) هو الحسن بن يسار مولى الأنصار، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، ومات بالبصرة سنة عشر ومئة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وروي أن أمه كانت خادمة لأم سلمة زوج رسول الله ﷺ رضي الله عنها، وربما بعثتها في حاجة، فيبكي الحسن، فتناوله ثديها، فرأوا أن تلك الحكم التي رزقها الحسن من بركات ذلك، وروي أن أم سلمة أخرجته إلى عمر رضي الله عنه فقال: "اللهم فقهه في الدين، فليعلم، وحببه إلى الناس"، وسئل أنس بن مالك عن مسألة فقال: "سلو الحسن"، وعن أبي همام الكلاعي قال: "مر الحسن ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين، فقال: "أفرجتم عما بكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم، فتزهدوا فيكم. أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يتوسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم". قال أبو قتادة العدوي: "الزموا هذا الشيخ - يعني الحسن - فما رأيت أحدا أشبه رأيا بعمر بن الخطاب منه". وروى بلال بن أبي بردة قال: "سمعت أبي يقول: والله لقد أدركت أصحاب محمد ﷺ، فما رأيت أحدا أشبه أصحاب محمد ﷺ من هذا الشيخ، يعني: الحسن". وقال علي بن زيد: "أدركت عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب ويحيى بن جعدة والقاسم بن محمد وسالما في آخرين، فلم أر مثل الحسن، ولو أن الحسن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه". [طبقات الفقهاء: ١/ ٩١-٩٢]، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦)، تح. خليل الميس، دار القلم، بيروت. وتنسب إلى الحسن البصري رسالة في [فضائل مكة: ١٢-٢٣]، تح: سامي مكي العاني، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٠هـ.

أهله، فقد ضمنها ما أنزل الله من القرآن في شأن مكة، وما ورد عن النبي ﷺ من الأخبار في منزلتها ومكانة أهلها ومن جاورها. وقد كتبها؛ ليرغب فيها رجلا من الزهاد أراد الخروج من مكة إلى اليمن، ألا يغادرها، وألا يفضل عليها غيرها. والرسالة مروية بسند متصل يبتدئ بالحسن بن جعفر الهمداني، وينتهي إلى أبي هريرة الباجي، فقد كتب الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله - إلى رجل من الزهاد كان يسكن مكة المكرمة، وكان له فضل ودين وذكر، ولم يكن له في الدنيا عمل إلا عبادة الله تعالى، وأنه أراد الخروج من مكة إلى اليمن، فبلغ ذلك الحسن، وكان يؤاخيه في الله تعالى، فكتب إليه كتابا يبدي فيه استيحاشه من رغبة صاحبه في الخروج من مكة والانزعاج عنها، وكراهته لذلك وإنكاره عليه فعله، ويرغبه في المقام بمكة؛ فمما خاطبه فيها قوله له: إياك يا أخي والخروج منها والانزعاج عنها؛ فإنك في خير أرض، وأحب أرض الله تعالى إليه، وأفضلها، وأعظمها قدرا، وأشرفها عنده، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياك للخيرات".

ولم يقف نصح أبي سعيد لصاحبه عند حد الإنكار عليه، ولكنه جاوز ذلك إلى تعداد أوجه مكانة مكة، وامتيازها عن سائر البقاع، قائلا: "اعلم يا أخي أن الله تعالى فضل مكة على سائر البلاد، وأنزل ذكرها في كتابه العزيز في مواضع عديدة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

[البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال تبارك وتعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] ... فهذه الآيات يا أخي أنزلها الله تعالى كلها في مكة خاصة، ولم ينزلها لبلد سواها. ثم أفيدك ... ما جاء عن النبي ﷺ من الأخبار في فضائل مكة، وفضائل أهلها، ومن جاورها: اعلم ... أن رسول الله ﷺ قال حين خرج من مكة، وقد وقف على الحزورة، واستقبل الكعبة: "والله إني لأعلم أنك أحب بلد الله إلي، وأنك أحب أرض الله إلى الله عز وجل، وأنك خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"(٣١)، وكل نبي من الأنبياء

(٣١) عن أحمد بن خليد قال: حدثنا الحميدي قال: حدثنا عبدالعزيز بن محمد الدراوردي عن محمد بن عبدالله بن أخي الزهري عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبدالله بن عدي بن الحمراء قال: "وقف رسول الله على الحزورة، فقال: والله إني لأعلم أنك خير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت". لم يرو هذا الحديث عن ابن أخي الزهري إلا الدراوردي [المعجم الأوسط: ١/١٤٤]، لأبي القاسم سليمان بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠)، تح. د. محمود الطحان، الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. وأورد النيسابوري في مستدركه راوي الحديث عبدالله بن عدي بن الحمراء، وذكر مناقبه: [المستدرك على الصحيحين: ٣/٣١٥]، الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥)، تح. مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، ط. ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م. وأورده الترمذي في سننه في باب "في فضل مكة"، وقال: حديث حسن غريب صحيح: [سنن الترمذي: ٥/٧٢٢]، أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩)، تح. أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عليهم الصلاة والسلام إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة، وما من نبي هرب من أمته إلا هرب إلى مكة، فعبد الله تعالى بها عند الكعبة حتى أتاه اليقين ....، وما على وجه الأرض بلدة يرفع الله فيها الحسنة الواحدة غاية ألف حسنة إلا مكة، ومن صلى فيها صلاة رفعت له مئة ألف صلاة، ومن صام فيها كتب له صوم مئة ألف يوم، ومن تصدق فيها بدرهم كتب الله له مئة ألف درهم صدقة، ومن ختم فيها القرآن مرة واحدة كتب الله تعالى له مئة ألف ختمة، وكل أعمال البر فيها كل واحدة بمئة ألف، وما أعلم بلدة يحشر الله تعالى فيها يوم القيامة من الأنبياء والأصفياء والأتقياء والأبرار والصديقين والشهداء والصالحين والعلماء والفقهاء والفقراء والحكماء والزهاد والعباد والنساك والأخيار والأحبار من الرجال والنساء ما يحشر الله تعالى من مكة، وإنهم يحشرون وهم آمنون من عذاب الله تعالى، وليوم واحد في حرم الله تعالى وأمنه، أرجى لك وأفضل من صيام الدهر كله وقيامه في غيرها من البلدان. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى"(٣٢)، ولم يذكر شيئا من المساجد غيرها وقال ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ فإن الصلاة فيه بمئة ألف صلاة في غيره"(٣٣)، وما على وجه الأرض بقعة ينزلها كل يوم من عند الله تعالى عشرون ومئة رحمة: ستون للطائفين،

(٣٢) [صحيح مسلم: ١٠١٤/٢]، باب [لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد]، حدث عمرو الناقد وزهير بن حرب جميعا عن ابن عيينة قال عمرو: حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى. ورواه الترمذي أيضا في [سننه: ١٤٨/٢]، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣٣) [صحيح مسلم: ١٠١٢/٢]، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة: عن عمرو الناقد وزهير بن حرب واللفظ لعمرو قالا: حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام". ورواه الترمذي في [سننه: ١٤٧/٢]، وقال: حديث حسن صحيح.

وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين إلى الكعبة إلا مكة، والنظر إلى الكعبة عبادة؛ قال رسول الله ﷺ: "من نظر إلى بيت الله إيمانا واحتسابا وتصديقا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ..."(٣٤)، ولا يدخل الكعبة أحد إلا برحمة الله، ولا يخرج منها إلا بمغفرة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ أي: من النار، وما على وجه الأرض بلدة يستجاب فيها الدعاء في خمسة عشر موضعا إلا مكة، أولها: جوف الكعبة، وعند الحجر الأسود، وعند الركن اليماني، وخلف المقام، وفي الملتزم، وعند باب بئر زمزم، وعلى الصفا والمروة، وبين الصفا والمروة، وبين الركن، وبمنى، وبعرفات، وفي المشعر الحرام ....، فاغتنم الدعاء فيها؛ فإنها المواضع التي لا يرد فيها الدعاء، وهي المشاهد العظام التي ترجى فيها المغفرة.

واعلم يا أخي أنه لا يخرج منها أحد إلا ندم؛ قال رسول الله ﷺ: "المقام بمكة سعادة، والخروج منها شقاوة "(٣٥). فاثبت مكانك، وإياك والقلق والضجر ...".

هذه الرسالة على وجازتها تبين مذهب الصلحاء والعلماء في تعظيم البلد الحرام، وضرورة لزومه، وخطورة مغادرته إلى ما سواه، وطريقتهم العقدية الصحيحة في النظر إليه، وحمل الناس على جملة

---

(٣٤) [مصنف عبدالرزاق: ١٣٥/٥]، باب رؤية البيت، عن عبدالرزاق عن ابن جريج قال: أخبرني محمد بن علي قال: حدثت أنه "من نظر إلى البيت تعظيما له، ومعرفة لحقه كتب له بها حسنة ومحي عنه بها سيئة، ومن جاءه زائرا له تعظيما له ومعرفة له تحاتت ذنوبه حين ينظر إليه كما يتحات الورق عن الشجر"، عن عطاء ومجاهد قالا: "النظر إلى البيت عبادة، وتكتب له بها حسنة، وتصلي عليه الملائكة ما دام ينظر إليه". [مصنف عبدالرزاق] أبو بكر عبدالرزاق الصنعاني (ت ٢١١)، تح. حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.٢/ ١٤٠٣هـ. والحديث أورده علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧) في [مجمع الزوائد: ٢٩٢/٣]، ط. دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي، القاهرة/بيروت، ١٤٠٧هـ. وقال الهيثمي: وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك.

(٣٥) "المقام بمكة سعادة والخروج منها شقاوة"، قال القاري: لا أصل له في المرفوع، والله أعلم. انظر: [كشف الخفاء: ٢٨٢/٢]، لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢)، تح. أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ١٤٠٥/٤هـ.

من الآداب والقواعد التي ينبغي لهم أن يلتزموا بها عند وجودهم بها توقيرا وتعظيما واحتراما، ورجاء لبركاتها، وثواب القيام بأعمالها وشعائرها. وكتابة الرسالة طريقة تربوية سديدة، لا تقتصر على المخاطب بها، ولكنها تتعداه إلى نصح الأمة كلها، وتذكيرها بمكانة مكة، وتحذيرها تفضيل غيرها من الأمصار عليها.

أما ما أورده العلماء في حديثهم عن منزلة المدينة النبوية(٣٦)، وما عرفته من قيمة دينية مستمدة من دعاء النبي ﷺ لها ولأهلها، وما فيها من الفوائد الدنيوية والأخروية، على غرار "مكانة مكة"، فلا يعني أنها أفضل من مكة، فقد روي عن عبدالله بن أبي قتادة عن أبيه أن رسول الله ﷺ صلى بأرض سعد بن أبي وقاص بأصل الحرة عند بيوت السقيا، ثم قال: "اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة، وإن محمدا عبدك ونبيك ورسولك دعاك لأهل المدينة بمثل ما دعاك به إبراهيم عليه السلام لأهل مكة، يدعوك أن تبارك لهم في صاعهم، وفي مدهم، وفي ثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة .... اللهم قد حرمت لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم عليه السلام الحرم"(٣٧)، فالنص صريح في الدلالة على أن النبي ﷺ يسأل الله عز وجل أن يحبب إليه المدينة كما حبب إليه مكة المكرمة من قبل، وقد نزل المدينة منزلة دينية بعد مكانة مكة المكرمة، ويبدو ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(٣٦) انظر: [فضائل المدينة: ١٧-٢٣]، لأبي سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي (ت ٣٠٨)، تح. مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط. ١/ ١٤٠٧هـ. ولابن عساكر قاسم بن علي (ت ٦٠٠) كتاب في "فضائل المدينة". انظر: [كشف الظنون: ١٢٧٨/٢]. و[نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣١٩/١ وما بعدها]، لشهاب الدين النويري.

(٣٧) [صحيح البخاري: ١٤٢٨/٣]، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة". [صحيح البخاري]، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦)، تح. د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط. ٣/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

أنه قال: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام"، فجاء هذا الاستثناء في الحديث للدلالة على فضل مكة قبل المدينة.

وقد فصل العلماء[٣٨] في الحديث عن منزلة المدينة النبوية، واستقصوا النصوص الدالة على فضائلها الدينية، ولكن ذلك كله لم يخرج مكة المكرمة من الفضل والشرف، فإن لمكة مكانة عالية في قلب النبي ﷺ، وهو في دعائه الوجيز الجامع لأهل المدينة أن يشملهم ما شمل أهل مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام من دعاء بالبركة في الصاع والمد والثمار، وأن يقذف محبة المدينة في القلب بدرجة محبة مكة؛ صرح بأن مكة أحب إليه ﷺ لحب الله عز وجل لها، وقد عقد أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي في سننه الكبرى بابا لفضائل مكة والمدينة، قال فيه: "فضائل مكة والمدينة: فضل مكة: ... عن الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ، وهو على راحلته واقف يقول: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت"[٣٩]، ثم يعود عليه الصلاة والسلام إلى مكة بلد الله الحرام فاتحا، لا يخاف إلا الله رب العالمين، بعد أن انتشر الإسلام، وضعفت شوكة الكفار والمشركين[٤٠].

---

(٣٨) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ١/ ٣٢٠-٣٢٥].

(٣٩) [صحيح ابن حبان: ٢٢/٩]، باب فضل مكة.. و[السنن الكبرى: ٤٧٩/٢]، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣)، تح. عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١١هـ-١٩٩١م. وأورده الحاكم النيسابوري في [المستدرك على الصحيحين: ٨/٣]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين".

(٤٠) انظر خبر هذا الخروج في: [التدوين في أخبار قزوين: ٣٤/٢]، للإمام الرافعي عبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم أبو القاسم الرافعي القزويني (ت ٦٢٣)، بعناية عزيز الله العطاردي، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت: "عن منصور بن زاذان، عن ابن سيرين عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ، خرج من المدينة، إلى مكة لا يخاف إلا الله رب العالمين".

٢- "قيمة مكة التاريخية"، من خلال مصادر التأريخ لها:

لا شك أن لعلم التاريخ قيمة قصوى في الحال والمآل(٤١)، وإذا ثبت ذلك علم السبب في إيلاء العلماء تاريخ مكة والمدينة قيمة لا تدانيها في تأريخ الأمصار والفتوحات والبلدان قيمة، وتنزيلهم لأيامهما وشهورهما وأعوامهما منزلة تفوق منزلة الأزمنة السابقة واللاحقة، فهو تأريخ أحق بالتنويه، وأصدق في الوجاهة والتوجيه، وأصبح من المعلوم المقرر عند العلماء أن استعراض الأحداث العظام بمكة والمدينة، وذكر مشاهير الرجال بهما والصالحين، وما رافق ذلك من غزوات وفتوحات وأخبار، لما تستسقى به الرحمة، ويستدفع به كل بلاء ونقمة، وأن الاشتغال بنشر أخبار الحرمين لمن سعادة المرء في الدارين(٤٢).

مكانة مكة المكرمة في إيثارها بالتأريخ وتفضيلها في ذلك على الأمصار:

أما تاريخ مكة فقد قيد في نوعين من مصادر التاريخ: مصادر عامة ركزت على الجانب الزماني، وأرخت لمكة والأمصار الأخرى، ومصادر خاصة ركزت على الجانب المكاني، وخصت مكة بالذكر دون سائر الأمصار تفضيلا لها وتعظيما لحرماتها.

---

(٤١) ذكر المؤرخ محمد بن محمد بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٣٠) في كتابه "الكامل في التاريخ" قيمة علم التاريخ وأهميته في حياة الأمم، وأنكر على من صغر شأنه وأهانه قائلا: "رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة .... يحتقر التواريخ ويزدريها ... ظنا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، .... وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره .... ومن رزقه الله طبعا سليما، وهداه صراطا مستقيما، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة": [الكامل في التاريخ: ١/٩]، تح. أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٤٢) انظر ما ذكره شمس الدين السخاوي في موضوع قيمة التأريخ للمدينة النبوية ورجالها، في كتابه: [التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ١/٣-٧]، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٩٩٣م، وكذا كتاب [المغانم المطابة في أخبار طابة]، لمجد الدين الفيروز آبادي اللغوي، وكتاب [الإعلام بمن دخل المدينة من الأعلام]، للعفيف عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري.

أ - التاريخ العام ومنهج الحوليات:

من الأمثلة على هذا النوع من المصادر "تاريخ خليفة بن خياط"(٤٣) للمؤرخ الأخباري المحدث الثقة الحافظ أبي عمرو خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ)(٤٤)، الذي وصلنا تاريخه برواية بقي بن مخلد. وقيمة تاريخ ابن خياط في قدمه، وفي أنه من أوائل المؤرخين الذي كتبوا في تاريخ بلاد المسلمين، وجمع بين التحديث والتأريخ، فقد روى عنه جمع من علماء الحديث(٤٥).

ويعتمد خليفة في تاريخه منهج "الحوليات"، وهو منهج يقوم على سوق أخبار كل سنة على حدة، ابتداء من السنة الأولى، باسطا ما جرى فيها من أحداث ومغاز، فإذا فرغ من ذلك، ذكر من أدركتهم الوفاة في تلك السنة، وانتقل إلى السنة التالية(٤٦).

---

(٤٣) [تاريخ خليفة بن خياط]، برواية بقي بن مخلد، تح. د. سهيل زكار، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بسوريا، سلسلة إحياء التراث القديم، رقم: ١٧.

(٤٤) يعرفه لنا الحافظ محمد بن طاهر بن القيسراني المتوفى (ت٥٠٧) في كتابه [تذكرة الحفاظ: ٤٣٦/٢] بقوله: "الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري المعروف "بشباب" محدث نسابة أخباري علامة، صنف التاريخ والطبقات وسمع ابن عيينة ويزيد زريع وغندرا وطبقتهم، وروى عنه البخاري وبقي بن مخلد وعبدان وأبو يعلى، وطائفة قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة. قال مطين: مات سنة أربعين ومئتين رحمه الله تعالى، يقع لنا حديثه عاليا من مسند أبي يعلى الموصلي". [تذكرة الحفاظ: ٤٣٦/٢]، تح. حمدي عبدالمجيد إسماعيل السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط. ١/ ١٤١٥هـ. وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨) في (ميزان الاعتدال): "خليفة بن خياط العصفري البصري الحافظ شباب صاحب التاريخ، عن جعفر بن سليمان ومعتمر بن سليمان ويزيد بن زريع وخلق، وعنه البخاري وأبو يعلى وعبدان وخلق، غمزه ابن المديني بعض الغمز، فقال: لو لم يحدث لكان خيرا له... وقال ابن عدي: صدوق متيقظ، وقال مطين: مات سنة أربعين ومئتين". [ميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٤٥٧/٢]، تح. علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٩٩٥م.

(٤٥) انظر على سبيل المثال: [سير أعلام النبلاء: ٢٢٥/١٢].

(٤٦) انظر: التعريف بمنهج "الحوليات" في المقدمة التي عقدها د. سهيل زكار لتحقيقه كتاب تاريخ خليفة بن خياط.

والذي دفع بخليفة إلى كتابة تاريخه دافع علمي معرفي، وهو أن علم التاريخ عند المسلمين وسيلة الناس إلى معرفة أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدَدِ نسائهم ومحل ديونهم(٤٧). لقد دفعت الحاجة بالناس إلى التأريخ في الدهر الأول، أن اتخذوا من هبوط آدم من الجنة منطلقا، فلم يزل ذلك حتى بعث الله نوحا، فأرخوا من دعائه قومه، ثم أرخوا من الطوفان، ثم من تحريق إبراهيم، ثم من بنيان الكعبة، ثم من موت كعب بن لؤي، ثم من عام الفيل، ثم استقر التأريخ ابتداء من مهاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

فكان لمكة شأن كبير منذ القديم؛ لأن بنيان الكعبة فيها حدث عظيم في تاريخ الإنسانية، يستحق أن يكون مصدر تقويم زمني، والانتقال منها إلى المدينة أكبر حدث في التاريخ يستحق أن يكون مصدر تأريخ.

ومما يلحظ في طريقة خليفة في تاريخه أن موضوع "مكانة مكة وقيمتها التاريخية وتفضيلها على الأمصار"، هيمن على منهجه في سرد الأحداث وترتيبها؛ فقد رتب أسماء من استشهد ببدر بحسب أهمية الديار، فبدأ من قريش، من بني عبدالمطلب بن عبدمناف بن قصي، ثم انتقل إلى ديار الأنصار من بني عمرو بن عوف، ثم من بني الخزرج، فذكرهم بحسب أسماء ديارهم(٤٨)، وكذلك فعل في ترتيب من استشهد يوم أحد(٤٩)، ثم من قتل بخيبر(٥٠)، ثم من استشهد يوم الطائف(٥١)، ومن استشهد يوم اليمامة(٥٢).

ورتب مبعوثي رسول الله ﷺ إلى الأمصار، فبدأ بذكر بعث عثمان إلى أهل مكة سنة الحديبية، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى أبي

(٤٧) [تاريخ خليفة بن خياط: ١/٥].
(٤٨) [تاريخ خليفة بن خياط: ١/١٩].
(٤٩) [المصدر نفسه: ١/٣٢].
(٥٠) [نفسه: ١/٥٢].
(٥١) [نفسه: ١/٦٢].
(٥٢) [نفسه: ١/٩١].

سفيان بمكة، ثم عروة بن مسعود الثقفي إلى الطائف، ثم استعرض أسماء المبعوثين إلى باقي الأمصار كاليمن واليمامة وكسرى وقيصر والإسكندرية والحبشة(٥٣).

ورتب عمال عمر بن الخطاب فبدأ بمكة، فذكر كل من عزله عمر، وولى غيره على مكة، ثم انتقل إلى ذكر من استخلف على المدينة، ثم ذكر من ولاه على اليمن والبصرة والبحرين(٥٤).

ورتب عمال عثمان بن عفان، فبدأ بمكة حيث ولّى عثمان على مكة علي بن عدي بن ربيعة، وولّى عليها أيضا خالد بن العاصي، وكان يستخلف زيد بن ثابت على المدينة إذا حج(٥٥). والأمثلة على هذا الترتيب كثيرة في تاريخ خليفة.

ب - التاريخ الخاص ومنهج "الخطط":

النوع الثاني من مصادر التأريخ لمكانة مكة، يعرف بخطط مكة التي تبحث في تاريخ البلد الأمين، وتطوره عبر العصور هندسة ومعمارا وديارا، وأهم المصنفات التي وضعت في هذا النوع من التأريخ خطط الأزرقي، وهو كتابه المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"(٥٦) لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي المكي (المتوفى في القرن الثالث للهجرة)، تتبع فيه إنشاء الكعبة ومعاهدها وآثارها، وألم بتاريخها وأماكنها وبقاعها منذ نشأتها، واقتفى أثر المحدثين في رواية الأخبار(٥٧).

---

(٥٣) [نفسه: ١/٧٤].

(٥٤) [نفسه: ١/١٥٣].

(٥٥) [نفسه: ١/١٩٤].

(٥٦) [أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار]، تح. رشدي صالح ملحس، دار الثقافة، بيروت، ط. ٣/ ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ومطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.

(٥٧) صنف في أخبار مكة المكرمة، قبل خطط الأزرقي، كتاب [أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه]، لأبي عبدالله محمد بن إسحاق بن أبي العباس الفاكهي (ت ٢٧٥)، تح. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، دار خضر، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٤هـ، أورد =

وسأتخذ الأزرقي في هذا المقام أنموذجا ومثالا للذين ألفوا في تاريخ مكة وأخبارها؛ لأنه من المتقدمين، ولأنه جمع بين فضيلة التحديث ومنهج التأريخ، ولتنويه العلماء به وبكتابه "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"؛ فهو ثابت النسبة إليه، ومعروف، ومتداول بين العلماء، والنقل عنه في كتبهم مشهور مستفيض(٥٨).

وقد امتد مجال التأريخ لبناء الكعبة المشرفة، في كتاب الأزرقي إلى قرون سحيقة، عندما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وما تلا ذلك من بناء ولده البيت الحرام، ومرورا بإبراهيم عليه السلام، الذي أسكن إسماعيل وهاجر، وبجرهم الذين نزلوا مع أم إسماعيل في

= فيه مصنفه جملة من الأحاديث والأخبار والآثار حول فضائل مكة المكرمة وما فيها من الأماكن الطاهرة، بمنهج قريب من منهج المحدثين في إسناد الأخبار. أما الأزرقي فهو محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المالكي، أحد الأخباريين وأصحاب السير، وتاريخ مولده غير معروف. روى عن جده أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي ومحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني وإبراهيم بن محمد الشافعي وعبدالله بن مسلمة القعنبي، وروى عنه أبو محمد إسحاق بن أحمد بن نافع الخزاعي، وإبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي. كما أن تاريخ وفاته غير معروف، ولكن الثابت أنه كان حيا في سنة ٢٤٤هـ، كما يتضح من النصوص التي أوردها في كتابه "أخبار مكة"، وأقدم من ترجم للأزرقي هو ابن النديم. وقد ذكر له (كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها)، ووصفه بأنه كبير، ثم أبو سعيد السمعاني في كتاب الأنساب، الذي أثنى فيه على كتابه (أخبار مكة)، وقال: "قد أحسن في تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان"، كما ترجم له أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي في [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، وقال: "إنه كان حيا في خلافة المنتصر محمد بن جعفر العباسي (٢٤٧ - ٢٤٨)". وقال الألباني: "لم نجد له ترجمة في شيء من المصادر المعروفة المطبوعة والمخطوطة إلا قول السمعاني في كتابه أخبار مكة"، ولذلك فقد عدّه الشيخ الألباني من ناحية روايته في حكم المستورين عند المحدثين الذين يستأنس بحديثهم ولا يحتج به. أما كتابه فلم يعرف للأزرقي من المؤلفات سوى كتاب (أخبار مكة)، وهو ثابت بالنسبة له، ومعروف ومتداول بين العلماء، والنقل عنه في كتبهم مشهور مستفيض، وهو من أوائل الكتب التي وصلت إلينا عن تاريخ مكة وخططها. انظر: [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، لأبي الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي (٧٧٥-٨٣٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت. [الأنساب]، للسمعاني أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢)، تعليق عبدالله عمر البارودي، دار الجنان، ١٤٠٨هـ.

(٥٨) انظر: كتاب [الأنساب]، للسمعاني في الترجمة للأزرقي والتنويه به وبكتابه.

الحـرم، ثم بناء إبراهيم الكعبـة، ودعـائه لأهل مكة بالأمن والرزق، وولاية بني إسماعيل الكعبة بعده، وإمرة جرهم، ثم ولاية خزاعة، ثم ولاية قصي بن كلاب، ثم بداية انتشار الأصنام بعد إسماعيل، ثم مسير تبع إلى مكة، ثم مبدأ حديث الفيل، ثم بناء قريش الكعبة، ثم ما تلا ذلك من أحداث فتحها وحريقها وكسوتها وأركانها، وما جاء في فضل الطواف بها والصيام بجوارها، وما ورد في الحطيم والمقام والركن وحد المسجد الحرام وفضله، وذكر جدرانه، وتوسعته على عهد عمر وعثمان ثم على عهد الوليد بن عبدالملك ومن بعده، وذكر أساطينه وطاقاته وأبوابه وشرفاته وسقفه ومناراته وقناديله، ومنبره، وذكر صفة زمزم، وما كان عليه حوضها وحجرتها، وتعظيم الحرم وحدوده، وبيوت مكة، وسيول واديها، والبناء بمنى، وذكر مسجد الخيف وصفته وذرعه وفضل الصلاة فيه، ورمي الجمار، وأول من رمى، وحصى الجمار، ومسجد عرفة وأبوابه والموقف، ومزدلفة وحدودها والوقوف بها، والمشعر الحرام، وذكر حراء والطريق من حراء إلى ثور، وذكر مسجد البيعة، ومسجد الجعرانة، ومسجد التنعيم، وما جاء في مقبرة مكة ومنزلتها، وآبار مكة قبل زمزم وبعدها، والعيون التي أجريت في الحرم، وما ورد في أمر الرباع رباع قريش وحلفائها، ورباع القبائل، وذكر معلاة مكة ومسفلتها، وذكر الأخشبين والجبال والشعاب مما أحاط به الحرم.

فقد جاء وصف أبي الوليد الأزرقي لمكة في أخباره وخططه، مفصلا لا يكاد يترك دقيقة من دقائق مكة، ولا عظيمة من عظائمها إلا ذكرها، مستعرضا أزمنتها وأمكنتها عبر تاريخها الطويل[٥٩].

---

(٥٩) هذا مبلغ زمان أبي الوليد الأزرقي في القرن الثالث، وقد أضاف محقق الكتاب الأستاذ رشدي ملحس خمسة ملحقات إلى خطط الأزرقي ضمنها الزيادات التي طرأت على عمارة المسجد الحرام مما فات المصنف ذكرها، والسيول التي طرأت بعده حتى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، والتوسعة السعودية للمسجد الحرام حتى أواخر القرن الرابع عشر، فجاءت ملاحق المحقق الخمسة امتدادا لخطط الأزرقي وصلة وتكملة.

وقد تضمن تاريخ الأزرقي فوائد عدة، ينتفع بها كل من يدرس "منزلة مكة" من زاوية التاريخ أوالجغرافيا أوالأدب أو فن المعمار. فمن هذه الفوائد ما يتعلق بخدمة بيت الله الحرام كالرفادة والسقاية والإنارة والقيادة والحجابة واللواء، ومنها ما يتعلق بالأيام التاريخية الشهيرة كالطوفان والفيل والحمس وحلف الفضول وأحد والأحزاب وبدر وتبوك والحديبية، ومنها ما يتعلق بالأعلام والأقوام والقبائل وأسماء الأماكن داخل مكة وخارجها، من البقاع والآبار والبيوت والدور، والجبال والأمصار.

٣ - "قيمة مكة العلمية" من خلال الترجمة لرجالها ومشاهيرها:

لمكة المكرمة مكانة علمية منذ القديم(٦٠)، شهدت لها حركة الترجمة لرجالها ومشاهير علمائها ومن جاورها، من خلال "أدب التراجم". فقد حفظت لنا كتب التراجم والطبقات أسماء كثير من الأعلام وحملة العلم النبوي الذين جاوروا، وكان لهم أثر كبير في نشر علوم الدين في الأمصار الإسلامية المختلفة، وأصبحت كتبهم مراجع في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف.

فإن أولى العلم بعد كتاب الله عز وجل، سنن رسوله ﷺ؛ فهي المبينة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه، والدالة على حدوده والميسرة له. ومن أوكد آلات السنن المعينة عليها، والمؤدية إلى حفظها

(٦٠) قيمة مكة العلمية ومكانتها الثقافية، كانت معروفة في عصر ما قبل الإسلام؛ فقد عرفت الأسواق العامة التي كانت تقام للبيع والشراء وتبادل المنافع، في الحجاز وعكاظ، في سهل منبسط بين مكة والطائف، بل امتازت سوق عكاظ على سائر أسواق العرب بقربها من مكة مركز التجارة الكبرى في بلاد العرب، وباطمئنان التجار إلى الأمن على أنفسهم وأموالهم، وبكونها سوقا للخطابة والشعر أيضا. وبدخول الإسلام مكة بدأت تنعقد حلقات العلم في المسجد الحرام في مختلف العلوم الدينية، ونشطت حركة التدريس والإفتاء لأهل مكة والقادمين إليها، والمناظرات بين العلماء من المجاورين والوافدين عليهم. كما أنشئت الرباطات في بلاد الحجاز؛ لتوفير سبل الراحة لطلاب العلم والحجاج، والمدارس الكثيرة التي توالى إنشاؤها على مر العصور.

معرفة الذين نقلوها عن النبي ﷺ إلى الناس كافة، وحفظوها، وبلغوها عنه، وهم صحابته الذين وعوها وأدوها، حتى كمل بما نقلوه الدين، وثبتت بهم الحجة على الناس، فهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس، وثبتت عدالة جميعهم بثناء الله ورسوله، لصحبة نبيه ونصرته، وهي تزكية عليا لا تزكية أفضل منها على وجه الأرض وأكمل؛ فقد قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فهذه صفة من بادر إلى تصديق النبي ﷺ والإيمان به، وآزره، وهاجر معه من أهل مكة، ونصره من أهل المدينة، وصحبه وأحسن الصحبة، وعلى رأس الصحابة: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ثم الذين اتبعوهم بإحسان. فمن وقف على معرفة تراجم الصحابة والتابعين من المصرين مكة والمدينة، ثم باقي الأمصار، ومعرفة عيون أخبارهم، فقد أخذ بحظ وافر من علم الخبر ومعرفة الحديث؛ لما فيه من الوقوف على معرفة أهل القرن الأول المبارك، ثم القرون التي تليه.

ومن كتب التراجم التي حفظت لنا أعلام الحديث النبوي، ممن كانوا بمكة أو خرجوا منها لأسباب كثيرة، من الخلفاء الراشدين والصحابة وكبار التابعين كتاب "تذكرة الحفاظ" لمحمد بن طاهر بن القيسراني (ت ٥٠٧)[٦١]، وكتاب "سير أعلام النبلاء" لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨)[٦٢]، الذي استعرض سير أعلام الإسلام.

وقبل أن أعرض نموذج ابن حبان في الترجمة لمشاهير مكة والأمصار، ونموذج الترجمة لمن نعتوا بالمكي، وهم منحدرون من

---

(٦١) [تذكرة الحفاظ]، تح. حمدي عبدالمجيد إسماعيل السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط.١/ ١٤١٥هـ.

(٦٢) [سير أعلام النبلاء].

أصول غير مكية، أشير إلى أن أدب التراجم لرجال مكة وعلمائها ومشاهيرها كان أمرا معروفا متداولا شائعا بين العلماء، وقد ساد بينهم اصطلاح مخصوص يدل به على هؤلاء الرجال المترجم لهم، وهو اصطلاح "علماء مكة"، ومما ورد في ذلك: قول أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي (ت ٤١٨): "من علماء مكة من علية التابعين عبيد بن عمير وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر بن زيد، فهؤلاء أصحاب ابن عباس"[٦٣]. وقول محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧) عن يوسف بن مالك: إنه "من علماء مكة"[٦٤]. وقول أبي عبدالله الذهبي (ت ٧٤٨): "عن حاتم بن مالك الوراق قال: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا"[٦٥].

وقول مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧): "وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب بن عباس، وهم علماء مكة المكرمة شرفها الله تعالى، ومنهم مجاهد بن جبر المكي المتوفى سنة ثلاث ومئة، قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين، وعكرمة مولى بن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومئة، وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ست ومئة، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومئة"[٦٦].

١ - نموذج ابن حبان في الترجمة لمشاهير رجال مكة والمدينة:

ألف أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، المحدث الثقة المترجم، صاحب "الصحيح" و"الثقات" و"المجروحين"، المتوفى

(٦٣) [اعتقاد أهل السنة: ٢/٢٣٥]، تح. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.
(٦٤) [تذكرة الحفاظ: ١/١٠٦].
(٦٥) [سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٢٥].
(٦٦) [كشف الظنون: ١/٤٣٠].

سنة (٣٥٤هـ)(٦٧) كتاب "مشاهير علماء الأمصار"(٦٨). واستهل تأليفه بالترجمة لأهل المدينة النبوية؛ لأنها مهبط الوحي، ومعدن الرسالة، وفيها نصر النبي ﷺ كثيرا، ومنها انتشر الإسلام، وظهر أعلام الدين، وبها قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيها قطن جلةُ الصحابة أجمعون الذين هم منار الإسلام، وبهم صان الله دينه عن الانثلام، وأول مبدوء بترجمته هو النبي ﷺ محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهذا هو منتهى أنساب العرب؛ لأنه ليس يصح من عدنان إلى إرم فيه إسناد، حسب ما ذكر ابن حبان في "مشاهيره"، ثم ترجم للصحابة بدءا بالخلفاء الراشدين، ثم باقي

---

(٦٧) اشتهر عند كثير من العلماء أن ابن حبان متساهل في التصحيح؛ يوثق ما يضعفه العلماء، ويضعف ما يوثقونه؛ فانصرف عن اعتماد آرائه وأقواله كثير من العلماء، والحقيقة أن ابن حبان رجل من رجال الحديث، شهد له كثير من العلماء بالتوثيق والصحة، وله مصنفات مشهورة، منها [صحيح ابن حبان] الذي رتبه ابن بلبان؛ وهو يضم الصحيح الذي يوافقه عليه جمهور أهل العلم، وهذا هو الغالب على كتابه، ويضم ما تنازع فيه العلماء، وأورده هو في صحيحه، وليس ذلك يغض من شأنه ومنزلته العلمية، فهو معرض للنقد والجرح والتعديل كغيره من علماء الحديث، ويضم في أحيان قليلة شيئا مما يكون قد وهم فيه، كتخريجه لسعيد بن سماك بن حرب بعض الأحاديث المتروكة. و[كتاب المجروحين]، وهو كتاب عظيم في بابه، حتى قال جماعة من العلماء: "كل رجل يوثقه ابن حبان فعض عليه بالنواجذ، وأما ما يضعفه فتوقف عليه"، فهذا يفيد أهمية توثيق ابن حبان رحمه الله، ورماه الحافظان الذهبي وابن حجر بالتشديد في نقد الرجال، وكثيرا ما كان يحيل على كتابه الصحيح، ويقول عن بعض الرواة، مثل: محمد بن أبان ومجالد: "تبرأنا من عهدته في كتاب المجروحين". انظر: [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان].

(٦٨) [مشاهير علماء الأمصار]، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤)، تح. م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩م. وقبله ألف أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣): [تسمية فقهاء الأمصار]، تح. محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط.١/ ١٣٦٩هـ، وبدأ بفقهاء المدينة من الصحابة والتابعين وأئمة الفقه، قبل فقهاء الأمصار الأخرى؛ لأنهم أهل النصرة.

الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، أورد بعد ذلك مشاهيرهم بمكة، والكوفة، والبصرة، الشام، وواسط، ومصر، وخراسان.

أما الترجمة لمشاهير مكة من الصحابة بعد ذكر رجال المدينة، فلا يعني أن المدينة أفضل من مكة كما مر بنا في الحديث عن "قيمة مكة الدينية"، ولكن مرد ذلك إلى أن مشاهير الصحابة بمكة، دفعتهم الهجرة والأسفار والغزوات والتجارات إلى الخروج منها، ومنهم من كان له مقام بها وبالمدينة، مثل: عبدالله بن أبي بكر الصديق الذي كان يقيم بالمدينة مدة وبمكة زمانا؛ فهو ممن قطن الحرمين معا، وله فيهما دور وأموال(٦٩).

٢- نموذج الترجمة لمن نعت بالمكي من العلماء من ذوي الأصول غير المكية:

حفظت لنا مصادر ترجمة رجال الحديث أسماء كثير من علماء الحديث الذين خدموا السنة النبوية الطاهرة، من ذوي الأصول غير المكية، الذين جاوروا بالبقاع الطاهرة، أو ولدوا بها وتوفوا، حتى دعي الواحد منهم بالمكي، وإن كان منحدرا من أصول غير مكية، ومنهم صاحب الترجمة المشهورة بـ"ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد"، وهو:

- تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسيني الفاسي المكي المالكي، المولود بمكة سنة ٧٧٥هـ والمتوفى بها سنة ٨٣٢هـ، قاضي المالكية(٧٠) بمكة المكرمة، عني بالحديث؛ فقرأ وسمع كثيرا عن شيوخه الكبار، وحضر مجالس العلماء، ومنها: مجلس الشريف عبدالرحمن الفاسي في الفقه، تنقل بين مكة والمدينة النبوية ودمشق

---

(٦٩) [مشاهير علماء الأمصار: ٣٠].

(٧٠) [ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد: ١/٦٠]، أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي (٧٧٥-٨٣٢)، تح. كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١٠هـ. انظر ترجمته في كتابه هذا، تحت رقم [٥٢].

ومصر، وروى كثيرا بالإجازة(٧١)، ومن مقروءاته "صحيح البخاري" قرأه ثلاث مرات على مسنديه، وهو صاحب "ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد"، ألف تذييله على كتاب "التقييد لمعرفة الرواة والمسانيد" لأبي بكر محمد بن عبدالغني بن أبي بكر بن نقطة البغدادي الحنبلي، وضمنه ما أهمله من ذكر جماعة من الرواة لم يكونوا أخفى حالا من الذين ذكروا(٧٢)، ومن مؤلفاته كتب في الحديث من مروياته، ومنها تواريخ لمكة المشرفة، جمع فيها بين ما ذكره الأزرقي من أخبار عمارة الكعبة المشرفة، وحليتها ومعاليقها وكسوتها، وخبر الحجر الأسود، والحجر، ومقام إبراهيم الخليل عليه السلام، والمسجد الحرام، وزمزم، وسقاية العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصفا والمروة، وحدود الحرم، والأماكن المباركة بمكة وحرمها، وأمصار مكة في الجاهلية والإسلام...، وبين ما تجمع لديه فيما بعد، وأضاف إلى ذلك أحاديث وآثارا في فضائل الكعبة والأعمال المتعلقة بها وما يحيط بها، وأمورا كثيرة لم يذكرها الأزرقي، مثل: أحاديث نبوية، وآثار عن الصحابة والسلف، ومسائل فقهية وحديثية لها صلة بمكة وأهلها وولاتها وملوكها، ومنها أيضا ما علمه من المآثر بمكة وحرمها، كالمدارس والربط وغيرها...

ومن مؤلفاته أيضا: "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام"(٧٣)، ومختصره "هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام"، ثم مختصره "الزهور المقتطفة، من تاريخ الكعبة المشرفة"، وكتاب "العقد الثمين في أخبار البلد الأمين"(٧٤)، فيه تراجم كثيرة لجماعات من علماء مكة وولاتها وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها، ومن

---

(٧١) ترجم أبو الطيب الفاسي المكي المالكي، لنفسه في كتابه: [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، الجزء الأول من الكتاب، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٧٢) انظر مقدمة كتابه: [ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد].

(٧٣) دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧٤) مؤسسة الرسالة، بيروت.

سكنها مدة طويلة أو مات بها، ومن عمر بأماكنها المباركة. وترجم فيه أيضا لجماعة من الصحابة المكيين الذين ينحدرون من قريش، ومن كنانة وخزاعة لمشاركتهم قريشا في الدار، ومن الطائف وثقيف، ومن مؤلفاته أيضا "عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى" اختصره من "العقد الثمين".

- ومن شيوخ الحديث بمكة أبوه أحمد بن علي بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الشريف، شهاب الدين أبو العباس الفاسي المكي المالكي، سمع من القاضي عز الدين بن جماعة، ومن الموفق الحنبلي، ومن الشيخ خليل المالكي صحيح مسلم، اشتغل بالفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والأدب وغير ذلك. ومن شيوخه في الفقه والنحو الشيخ أبو العباس بن عبدالمعطي المكي، والشيخ موسى المراكشي(٧٥)، وأخذ عن القاضي أبي الفضل النويري أشياء من العلم. وأفتى كثيرا وحدث، قال صاحب "ذيل التقييد" عن أبيه هذا: "أخذت عنه بمنى ومكة، وسمع منه الطلبة، وله تواليف في مسائل"(٧٦)، وغيرهم.

- ومحمد بن أحمد بن علي الحسني الشريف أبو الفتح الفاسي المكي المالكي سمع بمكة على عثمان بن الصفي أحمد بن محمد الطبري سنن أبي داود، ومن عمه أبي الحسين بعض الملخص للقابسي، ومن جماعة، ولد بمكة سنة ٧٣٢هـ، وتوفي بها سنة ٧٩٦هـ(٧٧). وله بنت محدثة هي السيدة الشريفة أم الهدى، التي أجاز لها الشيخ المحدث عبدالقادر بن محمد الدمشقي الفرا المعروف بابن القمر المتوفى سنة ٨٠٣هـ(٧٨).

(٧٥) [ذيل التقييد: ١/٣٥٠]، رقم الترجمة: [٦٩٠].

(٧٦) [ذيل التقييد: ١/٣٥٠-٣٥٢].

(٧٧) [ذيل التقييد: ١/٨٠] رقم الترجمة: [٧٢].

(٧٨) [ذيل التقييد: ٢/١٤١-١٤٢].

- ومن علماء الحديث بمكة أيضا جد صاحب "ذيل التقييد" محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن علي الحسني، الشريف أبو عبدالله الفاسي، نزيل مكة، المولود سنة ٦٧٣هـ، والمتوفى سنة ٧١٩هـ، سمع بمكة والمدينة على جماعة من العلماء[٧٩].

ويلحظ على هؤلاء العلماء الذين ترجم لهم، أنهم منحدرون من أصول غير مكية، وإنما دعي الواحد منهم بالمكي؛ لإقامته بمكة، وتلقيه العلم فيها، أوإلقائه العلم على طلبته فيها.

وقد اخترت نماذج من هؤلاء النزلاء أوالمولودين بمكة، من أسرة الفاسي؛ لأنها من الأسر المغربية العريقة التي كان لها حضور مشهود بالبلد الحرام نزولا وتعليما وتعلما، وعندها حرص شديد على الجمع بين النسبتين المكية والمغربية.

الخاتمة:

وخلاصة القول: إن موضوع "مكانة مكة" المكرمة قد ألف فيه كثير من العلماء مصنفات عدة، اختلفت وتنوعت باختلاف مقاصد التأليف ودوافعه، واختلاف الميدان العلمي والاهتمام المعرفي وطرائق التأليف والتخصص. وقد أفاض العلماء في استعراض فضائل مكة الدينية، وجمعوا نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف التي تبين فضل البلد الأمين على ما سواه من بقاع الأرض - غير المدينة النبوية - وعنوا عناية خاصة بذكر بقاع مكة وآثارها ومشاهير أعلامها من الصحابة والتابعين والسلف الصالح من العلماء، وذكروا فضل الإقامة بها، وتلقي العلم عن الشيوخ بجوار حرمها.

موضوع "مكانة مكة" المكرمة ألف فيه كثير من العلماء مصنفات عدة

---

(٧٩) [ذيل التقييد: ١/٢٢٩-٢٣٠] رقم الترجمة: [٤٤٨].

وقد اقتصر هذا البحث على بيان ثلاثة نماذج من الاتجاهات في التأليف في "مكانة مكة"؛ فمن العلماء من استعرض فضائل مكة الدينية، وما تمتاز به من أركان ومواقف ومشاهد تؤدى فيها الشعائر، وحرمات تعظم وتوقر. ومنهم من أسهم بالترجمة لرجال مكة ومشاهيرها عن طريق تصنيف تراجم للرواة وطبقات المحدثين، ممن ولدوا فيها وتلقوا العلم، أو جاوروا وعلَّموا بها، وفي منهج الترجمة لرجال مكة، بيان لمكانتها العلمية. ومنهم من أسهم بوضع تصانيف في تاريخ مكة وأخبارها وأيامها، لبيان قيمتها التاريخية، فصنف على منهج الحوليات أو منهج الخطط.

هذا، وإن التأليف في فضائل مكة الدينية ومنزلتها العلمية ومكانتها التاريخية والتعريف برجالها وعلمائها ومشاهيرها، ليعد لونا من ألوان التصنيف العلمي، كان له أثر في انتشار أدب خاص من آداب التصنيف هو أدب فضائل مكة، وما يتصل بذلك من مكانة تبوأتها جزيرة العرب في نفوس المسلمين عامة، ومدينة مكة على وجه الخصوص، حتى غدت مركز إشعاع عقدي وعلمي في العالم الإسلامي، وحولت مدن الإسلام الرئيسة إلى مراكز للعلم، ومنها المدينة النبوية والكوفة والبصرة وبغداد والشام ومصر والأندلس، واستقطبت علماء هذه المراكز وفضلاءها وصلحاءها، ونشأ التفاعل العلمي بين مكة وباقي الأمصار، فكان موسم الحج، والمجاورة بالبلد الحرام مناسبات للالتقاء بين علماء مكة وعلماء الأمصار الأخرى، مثل: طاووس بن كيسان من اليمن (ت ١٠١هـ)، والحسن البصري (ت ١١٤هـ)، وسلمة بن كهيل الكوفي (ت ١٢١هـ)، وغيرهم من باقي الأمصار كثير، وتوالت اللقاءات بين العلماء في القرون التالية، وتوطدت دعائم حركة علمية وازدهار ثقافي، تمثلت في عقد المناظرات بين المجاورين والوافدين والمكيين، فكانت المناظرات وحلق

العلم والتدريس والرباطات والمدارس علامات على ازدهار الحضارة الإسلامية، وانتعاش ثقافة الحوار التي أسسها القرآن الكريم وعلمها النبي ﷺ(٨٠). وهذه العوامل كلها جعلت من مكة مركز إشعاع عقدي وثقافي وتاريخي على مر العصور، وامتد تأثيرها إلى عصور تلت وأمصار عدة.

(٨٠) سلك النبي ﷺ سبيل الحوار والجدال بالتي هي أحسن منذ أن كان في مكة إلى أن قامت بينه وبين اليهود مناظرات معروفة، وبينه وبين نصارى نجران عندما انتقل إلى المدينة، وبينه وبين أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - بقصد التربية والتوجيه، وبينه وبين الأعراب الذين كانوا يفدون إليه، فيسألون عن الإسلام والصدقات، كما سلك عليه الصلاة والسلام سبيل الحوار في الحديبية مع مشركي مكة وقبول ما فيه خير الفريقين. انظر على سبيل المثال: مجادلة المشركين رسول الله ﷺ، وإقامة الحجة الدامغة عليهم بالحوار وبالتي هي أحسن، واعترافهم في أنفسهم بالحق، وإن أظهروا المخالفة عنادا وحسدا وبغيا وجحودا: [السيرة النبوية: ٤٩٨/١]، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤)، تح. مصطفى عبدالواحد، دار الفكر، بيروت، ط. ٢/ ١٣٩٨هـ-١٩٧٤م.

الدارة قسيمة اشتراك

السادة / مجلة الدارة

أرغب الاشتراك في مجلة الدارة بعدد (   ) نسخة، وذلك لمدة (   )

ترسل الأعداد إلى: (   )

العنوان

العنوان: الدولة: المدينة:

ص.ب: الرمز البريدي: الهاتف: الفاكس:

طريقة التسديد

☐ الإيداع في حساب دارة الملك عبد العزيز رقم: ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٢٤٦١٢٣٠٠٠٠٠٠ في مصرف البنك الأهلي التجاري في الرياض فرع التخصصي، بتاريخ: / / هـ (ترسل صورة قسيمة الإيداع على الفاكس ٤٠١٣٨٩٤)

☐ شيك مصدق باسم دارة الملك عبد العزيز رقمه (   ) مسحوب على (   ).

☐ نقدًا

ترسل قسيمة الاشتراك إلى مجلة الدارة

◄ ص.ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢٠١٦ . فاكس ٤٠١٣٨٩٤

الاشتراكات السنوية

☐ سنة بقيمة (٢٠ ريالا) أو (٦ دولارات أمريكية)
☐ سنتان بقيمة (٤٠ ريالا) أو (١٢ دولار أمريكي)
☐ خمس سنوات بقيمة (١٠٠ ريال) أو (٣٠ دولار أمريكي)

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

الدارة

الدارة قسيمة اشتراك

السادة / مجلة الدارة

أرغب في إهداء الاشتراك في مجلة الدارة، وذلك لمدة (   )

ترسل الأعداد إلى: (   )

العنوان

العنوان: الدولة: المدينة:

ص.ب: الرمز البريدي: الهاتف: الفاكس:

طريقة التسديد

☐ الإيداع في حساب دارة الملك عبد العزيز رقم: ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٢٤٦١٢٣٠٠٠٠٠٠ في مصرف البنك الأهلي التجاري في الرياض فرع التخصصي، بتاريخ: / / هـ (ترسل صورة قسيمة الإيداع على الفاكس ٤٠١٣٨٩٤)

☐ شيك مصدق باسم دارة الملك عبد العزيز رقمه (   ) مسحوب على (   ).

☐ نقدًا

اسم المُهدي ______

عنوانه: ص.ب :   الرمز: هاتف:

ترسل قسيمة الاشتراك إلى مجلة الدارة

◄ ص.ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢٠١٦ . فاكس ٤٠١٣٨٩٤

الاشتراكات السنوية

☐ سنة بقيمة (٢٠ ريالا) أو (٦ دولارات أمريكية)
☐ سنتان بقيمة (٤٠ ريالا) أو (١٢ دولارًا أمريكيًا)
☐ خمس سنوات بقيمة (١٠٠ ريال) أو (٣٠ دولارًا أمريكيًا)

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

الدارة

al_darah

SUBSCRIPTION FORM

I wish to subscribe to Al-darah for :

❑ One year ❑ Tow years ❑ Five years

Please forward my copies to the following address :

Address

Name ....

Street..

P.O Box................ Code .... Tel............................. Fax ....

City......................... Country..

Form of Payment

❑ Certified Cheque drawn to King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives account No. 24612300000300 drawn by the .... Bank.

Subscription form to be mailed to :
P.O Box : 2945, Riyadh - 11461,
Kingdom of Saudi Arabia
Tel : 4011999/2016, Fax : 4013894

Subscription fee :

❑ One year SR. 20 ($6.00)

❑ Two years SR. 40 ($12.00)

❑ Five years SR.100 ($30.00)

al_darah

GIFT SUBSCRIPTION FORM

I wish to subscribe to Al-darah for :

❑ One year ❑ Tow years ❑ Five years

Please forward my copies to the following address :

Address

Name ....

City......................... Street............................ Country..

P.O Box................ Code .... Tel............................. Fax ....

Form of Payment

❑ Certified Cheque drawn to King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives account No. 24612300000300 drawn by the .... Bank.

❑ Cash.

From .... Address ....
P.O Box..Code ....

Subscription form to be mailed to :
P.O Box : 2945, Riyadh - 11461,
Kingdom of Saudi Arabia
Tel : 4011999/2016, Fax : 4013894

Subscription fee :

❑ One year SR. 20 ($6.00)

❑ Two years SR. 40 ($12.00)

❑ Five years SR.100 ($30.00)

قضاة مكة المكرمة إبان الفترة (١٢٢٠-١٢٦٦هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٨م)

دراسة وثائقية من واقع أرشيف دار الوثائق القومية بمصر

د. محمد علي فهيم بيومي

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالقاهرة

تعد وظائف القضاء ومناصب القضاة من أهم الوظائف في الدولة العثمانية - بصفة عامة - وما قبلها من دول إسلامية قامت ثم دالت، ذلك أن القضاة هم الحراس على أحكام الشرع الحنيف يقضون بها ويضعونها موضع التنفيذ، ويلوذ بهم ذوو الحقوق المهضومة من أجل الحصول على حقوقهم، كذلك أنيطت بهم بعض المهام الأخرى في كل قطر تقلدوا فيه هذا المنصب الخطير.

ونظراً لمكانة مكة المكرمة في نفوس المسلمين بعامة، حيث بيت الله الحرام أطهر بقعة على وجه الأرض، وما تتمتع به من منزلة رفيعة وأهمية كبيرة لدى الدولة العثمانية بخاصة؛ مما جعلها تولي مكة المكرمة عناية خاصة، وذلك لارتباط المكانة الإسلامية للدولة العثمانية بالسيادة على الحرمين الشريفين والعناية والاهتمام بهما.

وكان من أبرز أوجه الاهتمام هو العناية بقضاة مكة المكرمة، حيث أصبح القاضي أحد أربعة - بجانب والي الحجاز وشريف مكة ومحافظ جدة - يجسدون أو يمثلون السلطة والسيادة العثمانية على إقليم الحجاز، ومن ثم أنيطت بالقضاة مهام كثيرة وخطيرة خلال هذا القرن، فضلاً عن الدور السياسي والرقابي الذي قاموا به، مما

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

أسهم بشكل كبير في استقرار الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية في مكة المكرمة.

لكل ذلك بالإضافة إلى توافر الوثائق الخاصة بقضاة مكة في هذه المرحلة التاريخية في أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة، اتجهت إلى كتابة هذا البحث وجعلته تحت عنوان: "قضاة مكة المكرمة إبان الفترة (١٢٢٠-١٢٦٦هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٨م) دراسة وثائقية من واقع أرشيف دار الوثائق القومية بمصر"، بهدف محاولة الكشف وإماطة اللثام عن صورة من صور نظم الحضارة الإسلامية في مكة المكرمة في العصور المتأخرة.

وسوف نتناول في هذه الدراسة الموضوعات التي ألفيناها في دار الوثائق بالقاهرة عن قضاة مكة المكرمة، ومدة توليهم، ووضعهم الاجتماعي وأبرز مظاهره من حسن الضيافة وتحمل نفقات تنقلاتهم، وتقديم الدولة لهم الهدايا، ثم نلقي الضوء على ألقاب القضاة وفقاً لما ورد في الوثائق، وجنسياتهم ومعاونيهم، ثم نتناول بالتفصيل عرض المهام التي ألقيت على عاتق القضاة كما ورد في الوثائق والتي تمثلت - فضلاً عن المهمة الأساسية وهي الفصل في الخصومات - في التصدي للفساد الإداري، ومتابعة أمر الحجيج، وتوزيع الصرة(١) والمخصصات بالإضافة إلى قيامهم بالإشراف على الإصلاحات العمرانية، ثم نميط اللثام عن الدور السياسي لهؤلاء القضاة، وقبول وساطتهم - نظراً لمكانتهم - لدى أولي الأمر.

---

(١) الصرة: مصطلح يستخدم بشأن الأموال والهدايا التي ترسل من جميع أقاليم العالم الإسلامي، وكانت تخرج من الدولة العثمانية تحت اسم الصرة الهمايونية، أما من مصر فكانت تسمى: "الصرة الشريفة"، ولها أقسام فمنها: الصرة الرومية، وصرة الجوالي، وصرة الموقوفات، وصرة السنويات، وغير ذلك بالإضافة إلى الكسوة والعينيات.

M.Z.pakalin: Osmonli tarih deyimleri veterimleri ozlugu, Milliegitin Basimeui baski, st 1971. P. 224-225.

كما لا نغفل حرص الدولة على محاسبة القضاة المقصرين أو المهملين كما ورد في الوثائق، بالإضافة إلى تكريم هؤلاء القضاة عند وفاتهم، ثم نتناول بالتفصيل عوائد قضاة مكة سواء منها النقدية والتي تمثلت مصادرها في رسوم التقاضي، وبعض الرواتب والإنعامات من مصر فضلاً عن عوائد جمرك جدة أو العوائد العينية والتي تتمثل في الغلال المقدمة إلى القضاة من مصر، لتأمين حياتهم المعيشية، مما ينعكس على أدائهم الوظيفي بالإيجاب.

كيفية تعيين قضاة مكة المكرمة:

يتم تعيين القضاة بمقتضى فرمان سلطاني[٢] يصدر بتوليهم قضاء مكة المكرمة، فعلى سبيل المثال وصل إلى مصر فرمان أرخ في ٢ ذي القعدة سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م خاص بتعيين السيد محمد توفيق المعين قاضياً لمكة المكرمة[٣].

وكان عادة يشار في الفرمان السلطاني إلى تعطف السلطان عليه بهذا المنصب، فتقول وثيقة أخرى: "من الجناب العالي إلى مصطفى أفندي محافظ جدة[٤] يبلغه تفضل السلطان على حضرة الأفندي[٥]

(٢) الفرمانات: مفردها فرمان، وهو الأمر السلطاني إلى من دونه من رجال دولته كالصدر الأعظم أو الوزراء أو الباشوات أو غيرهم، ويصل إلى الأقاليم مع المسلم أو رجال البريد بوجه عام. والأمر من غير السلطان يسمى (بيورلدي) ويكون لمن دونه في المنزلة أيضاً. د. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ص ٤٩-٥٠.

(٣) دار الوثائق: محافظ الأبحاث، معية سنية تركي، دفتر رقم ٥٣٠، محفظة ١٠٣، أوامر مركزية إلى محافظ مصر، مؤرخة في ٢ ذي القعدة ١٢٧٩هـ، رقم ١٥٢.

(٤) محافظ جدة هو قائم مقام جدة، غير أن الوثائق تصفه دائما بأنه محافظ جدة مما سوف يظهر في البحث، لذا لزمت الإشارة.

(٥) الأفندي: مصطلح يطلق لقبه على من يعرفون القراءة والكتابة واستخدم بمعنى الصاحب والسيد والنبيل والأستاذ والمتعلم، ثم صار يطلق فيما بعد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على القضاة ورؤساء الكتاب، وفي مطلع القرن التاسع عشر لقب به الأمراء، وكان يستخدم على الأمراء على نحو أفندينا وأفنديميز، كما شاع على زوجات السلاطين خانم أفندي. وشيوخ الإسلام وبعض رجال الدين المسيحي في الدولة العثمانية.

Pakalin, tarih, op. cit, PP. 505, 506

الملا[٦] (القاضي) [كذا..] الشريف أحمد سعيد ابن الباشا الشريف بتوجيه قضاء مكة إليه وإحسانه به عليه"[٧].

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ينص في ذات الفرمان بالتأكيد على أن يعامل القاضي المعين معاملة كريمة، وأن توفر له كافة وسائل راحته، حيث تضيف الوثيقة السابقة: "وآمراً [أي السلطان] إياه [أي محافظ جدة] بأن يعطيه حين وصوله إليها ما جرت به العادة بإعطائه لأمثاله، وبأن يقضي ما له من الأعمال في جدة ويهيئ له الرغائب اللازمة لإيصاله إلى مكة"[٨].

وأما عن موعد تعيين القضاة في مكة المكرمة فيرى أحد المؤرخين الأتراك أنه كان في العادة في شهر ربيع الأول من كل عام[٩]، بينما نجد أن الوثائق المحفوظة في دار الوثائق القومية تخالف هذا الرأي، حيث يستخلص أو يستنتج منها أن شهر شوال هو الشهر الذي كانت تصدر فيه كل هذه الفرمانات السلطانية القاضية بتعيين القضاة المكيين[١٠]. على أن يكون التعيين ومباشرة العمل اعتباراً من غرة المحرم في كل عام[١١]، وهو ما يعطي تفسيراً بأن كل قاض كان عليه الاستعداد وتهيئة ظروفه لكي يرحل

الوثائق المحفوظة في دار الوثائق القومية تخالف هذا الرأي

(٦) الملاّ: اصطلاح يستخدم لكبار العلماء؛ اللغوي العالم والفاضل والفقيه.

M.Z.pakalin: tarih op. cit, 2, P. 549.

(٧) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ١٤٤، مؤرخة في ٨ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

(٨) الوثيقة السابقة.

(٩) إسماعيل جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ص ٨٣-٨٥.

(١٠) دار الوثائق: دفتر رقم ١٣ معية تركي، وثيقة ص ٨٥، رقم ١٤٩، مؤرخة في ٢٧ شوال سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م. ودفتر رقم ٥٣٠، محفظة ١٠٣، مؤرخة في ١١ شوال ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م، ودفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ١٤٤، مؤرخة في ٨ شوال ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م.

(١١) دار الوثائق: دفتر معية تركي رقم ٤٠، مؤرخة في ٨ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م، وثيقة رقم ١٠٣ محفظة ذوات من والي مصر إلى رستم أفندي محافظ جدة، مؤرخة في ٢٠ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

من العاصمة العثمانية حتى يصل إلى مكة المكرمة، حيث كان ينبه عليه بالانضباط في التاريخ المحدد وهو غرة المحرم من كل عام، وأشارت إحدى الوثائق المهمة الصادرة من الباشا(١٢) في مصر إلى أحد القضاة المرشحين لتولي القضاء في مكة ما نصه: "على أن يضبط ذلك من غرة محرم الحرام لسنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م"(١٣).

وفي حالات الضرورة الملحة كان أهل الحل والعقد في مكة المكرمة يقومون بتكليف أحد الأشخاص المعروفين من العلماء الصالحين في منصب القضاء، وذلك إذا اضطرتهم الظروف الطارئة إلى ذلك، ففي رسالة من محافظ جدة إلى باشا مصر يقول فيها: "أرجو أن تتفضلوا فتعرضوا على عتبات ولي النعم(١٤) أن لبيب أفندي قاضي مكة المكرمة قد أدركه أجله الموعود، فارتحل إلى دار البقاء في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول الحالي، وأننا اخترنا من بين وجوه مكة عالماً صالحاً اسمه الشيخ عبدالله سراج مكانه على سبيل الوكالة؛ ليتصرف في مصالح العباد، ويرجع الفصل فيه إلى أحكام الشرع الشريف، وليتولى ضم ما يقتضي ضمه من الحجج الشرعية حتى يأتي القاضي الذي يخلف المرحوم"(١٥). ويتضح من هذه الوثيقة أن

(١٢) الباشا: لقب رسمي للوزراء وكبار الموظفين وكبار القادة العسكريين وحكام الولايات التابعة للدولة العثمانية، وهو في الأصل من الفارسية بادشاه ثم اختصر إلى باشا، وتسمى به رئيس كل ولاية، وكان يطلق عليه أيضاً محافظ وكان يلقب بالسردار؛ أي: صاحب الرأس والزعامة.

M. Z. pakalin, I. P. 527.

(١٣) دار الوثائق: دفتر رقم ١٣ معية تركي، وثيقة رقم ١٤٩، مؤرخة في ٢٧ شوال سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م.

(١٤) ولي النعم من الألقاب التي لقب بها باشا مصر محمد علي في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، ومن الألقاب التي لقب بها أيضاً الجناب العالي وأمير الأمراء وغير تلك الألقاب، وقد وردت في الوثائق والمكاتبات الرسمية، دار الوثائق: وثيقة رقم ٧٠، محفظة بحر براً، مؤرخة في ٢٥ المحرم ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، ودفتر ٤٠ معية تركي مكاتبة رقم ٣٥٨، مؤرخة في غرة ذي القعدة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م.

(١٥) دار الوثائق: وثيقة مؤرخة في ٩ ربيع الأول ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، محفظة رقم ٢٦١ عابدين.

الأشراف والمفتين ورجال الإدارة كان لهم دور في تكليف القضاة في بعض الظروف الطارئة.

وكان بعض القضاة الذين يشغلون منصب القضاء خارج إقليم الحجاز يلتمسون من الدولة تعيينهم في قضاء مكة المكرمة، فقد وردت في سنة ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م إرادة من قاضي مصر شاكر أفندي بالتماس توليه قضاء مكة المكرمة، وحينما وافقت الدولة العلية جاء الشكر من القاضي المذكور بعد الإنعام عليه بها للسلطان(١٦) وشيخ الإسلام(١٧).

مدة تولية القاضي:

أما عن الحقبة التاريخية التي كان القضاة يتولونها فكانت لمدة عام واحد في الأصل، إذ يصدر الفرمان السلطاني في الغالب قبل بداية كل عام قضائي(١٨) بتعيين أحد القضاة في قضاء مكة المكرمة ابتداءً من غرة المحرم(١٩) - كما سبق أن أشرنا - غير أنه وفي بعض الأحوال أوردت الوثائق تولي أحد قضاة مكة هذه الوظيفة أكثر من عام في حالة الظروف الطارئة فقط، ومن هذه الظروف أن يتقدم أحد القضاة بالتماس للدولة العلية بتجديد توليته منصب القضاء، فكان يجاب إلى ذلك وهو ما حدث مع أحد قضاة مكة، وهو شاكر أفندي الذي تولى قضاءها سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

---

(١٦) دار الوثائق: سجل ١٩ صادر عابدين، محفظة ١٩، تلخيص الرسالة التركية رقم ٥٣٠ مؤرخة في ١٧ شوال ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

(١٧) كان هذا المصطلح يطلق بادئ الأمر على مفتي عاصمة الدولة العثمانية تكريما له وتمييزا له عمّن سواه، حيث كان بالدولة العثمانية ما يزيد على مئتي مفت، فكان رئيس هيئة العلماء وكان له النفوذ الأدبي حتى إنه كان أكبر من الصدرً الأعظم، وكان لا يعينه ولا يعزله إلا السلطان، وألغي هذا المنصب سنة ١٩٢٢م.

د. عبدالله محمد جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط ١، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ص ٢٢٩-٢٣٥.

(١٨) دار الوثائق: معية سنية تركي، دفتر ٥٣٠، محفظة ١٠٣ من الأوامر الكريمة إلى محافظ مصر مؤرخ في ٣ ذي القعدة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م.

(١٩) دار الوثائق: محافظ عابدين محفظة ١٤، سجل ١٩، صادر عابدين، برقم ٥٣٠/ ١٣٧، مؤرخ في ١٧ شوال ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

وقد أوردت الوثائق تولي بعض القضاة قضاء مكة المكرمة أعوامًا عدة، وذلك مثل: القاضي محمد صادق أفندي أكثر من سبعة أعوام، والقاضي شاكر أفندي مثله، ولكن بعد أن يصدر بشأنهم التجديد السلطاني في كل عام.

وأحيانا كان القاضي المكي يستمر في قضائه إذا توفي القاضي الجديد قبل مباشرته المنصب، كما حدث مع محمد بك الذي استمر في سلك القضاء عندما توفي عطا الله أفندي قاضي مكة القادم الجديد، فقد قدم القاضي القديم رسالة بهذا الشأن إلى إبراهيم باشا والي الحجاز، وطلب إرسالها إلى الأعتاب السلطانية(٢٠).

كذلك إذا عزل أحد القضاة كان يستكملها غيره، وبذلك تطول مدته، ففي إحدى هذه الوثائق المهمة المرسلة من مصر إلى محافظ جدة تقول: "وإنه نظراً لتوجيه قضاء مكة المكرمة إلى صاحب الفضيلة صادق بك على أن يستلمه ابتداءً من غرة المحرم عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م، كما أضافت إليه المدة المتبقية من قضاء سلفه حيث صدرت الإرادة بتسليمه ما هو مرتب للمتوفى المشار إليه من مصر عن سنتين"(٢١).

كذلك إذا تأخر وصول القاضي الجديد فيكون ذلك مدعاة لاستمرار القاضي القديم وهو ما كان، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها القاضي محمد صادق أفندي إلى الجناب العالي أعلن فيه ما كان تلقاه من بكر أفندي كتخدا الخزينة من تجديد مدته القضائية إلى أن يأتي الخلف عنه، فكان ذلك باعثاً له على الانشراح والسرور(٢٢).

(٢٠) دار الوثائق: محفظة ٩ بحر برًا، وثيقة رقم ١٠٨، مؤرخة في ١٠ ذي القعدة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

(٢١) دار الوثائق: وثيقة رقم ١٣٨، مؤرخة في ٧ ذي القعدة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م، محفظة معية سنية تركي ١٠.

(٢٢) دار الوثائق: وثيقة رقم ٧٠، محفظة ١٧ بحر برًا، مؤرخة في ٢٥ المحرم ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

الوضع الاجتماعي لقضاة مكة المكرمة:

حظي قضاة مكة في العصر العثماني بمكانة رفيعة ووضع اجتماعي متميز، ويكفي أن تعيينهم كان يتم بصدور فرمان سلطاني، حيث تجرى بشأنه مراسلات بين الدولة والمسؤولين في مصر ثم مراسلات أخرى بين مصر والحجاز في جدة ومكة[٢٣] مثلهم في ذلك، مثل: الولاة، والأمراء، وكبار رجال مكة حين ذاك، وهو ما يبرز مكانتهم فيها، وفضلاً عن ذلك، فقد كانت هناك بعض المظاهر الأخرى التي تبرز هذه المكانة المتميزة لقضاة مكة المكرمة في هذه الحقبة التاريخية كما أوردته الوثائق الموجودة في دار الوثائق القومية بالقاهرة ما يأتي:

أ - حسن الضيافة في رحابة باشا مصر:

فقد كان هؤلاء القضاة - أثناء وجودهم في مصر وقبل وصولهم إلى مقر عملهم في مكة المكرمة - يلقون رعاية خاصة، حيث يكونون في ضيافة والي مصر في مصر، وكان والي مصر يبلغ محافظ جدة بذلك، حيث تقول الوثيقة: من والي مصر إلى رشوان بك محافظ جدة يبلغه صدور الإرادة السلطانية بتعيين صاحب الفضيلة عبدالحميد أفندي إمام زادة قاضياً لمكة المكرمة، وينبئه بحلوله ضيفاً على والي مصر بمصر، ثم رحيله عنها إلى الحجاز[٢٤].

وبالإضافة إلى ما سبق فإنه يلاحظ من تاريخ الوثيقة أن القاضي كان يصل إلى مصر في أول ذي القعدة؛ أي: أنه كان يمكث فيها قبل مباشرته مهام منصبه في مكة في شهر المحرم حوالي الشهرين تقريباً في ضيافة والي مصر كما يفهم من الوثيقة، ويبدو أن انتظار قاضي مكة في القاهرة طوال هذه المدة حالات فردية، لا سيما أن هذه الأشهر من كل عام تواكب أيام الحج، ومن البعيد أن يضيع القضاة فرصة الحج إذا سنحت لهم.

---

(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ٣٥٨، مؤرخة في غرة ذي القعدة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م.

ب - تحمل الدولة نفقات تنقلاته:

وأيضا من مظاهر التقدير لقاضي مكة أنه كان يسافر إلى مقر عمله، وقد أشارت إلى ذلك وأكدته الأوامر الباشوية منها ما صدر من والي مصر إلى محافظ جدة، يشير فيه إلى كتابه الذي حرره بنفسه بتوجيه قضاء مكة إلى صادق بك وسفره براً إلى مقر وظيفته، ثم يأمر محافظ جدة بأن يبادر لدى وصول القاضي إليه بتقديم ما يقدم لأسلافه من التقدير والتكريم فضلاً عن الأموال المخصصة له(٢٥).

ومما يؤكد أيضاً تحمل الدولة نفقات سفر القاضي إلى مكة، ما ورد في رسالة والي مصر إلى تيمور أغا محافظ المدينة يأمره فيها: "بإعطاء الجمال اللازمة لسفر فضيلة لبيب أفندي قاضي مكة إلى مقر وظيفته على حساب الحكومة وأسوة بأمثاله واحترامه الاحترام اللازم"(٢٦).

وفي بعض الأحيان كانت تخصص سفينة من السويس إلى ينبع أو جدة حسب ما تقتضيه الظروف من أجل سفر القضاة إلى مكة المكرمة، ففي سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م يقرر والي مصر بأن "يركب قاضي مكة محمد أسعد ملا أفندي كبيري زاده من كرام القضاة في سفينة مناسبة هو وتابعه وأن يدفع له أجرة السفينة، كما يأمر بإركابه الجمال اللازمة على هذا الوجه"(٢٧)، وكان القضاة يصلون إلى مكة المكرمة من طريقين:

الطريق الأول: وهو طريق القاهرة إلى السويس إلى الحجاز(٢٨)، وكان هذا هو الطريق الأساسي والأهم.

---

(٢٥) دار الوثائق: معية سنية تركي، محفظة ٤٢، تراجم ملخصات الدفاتر، دفتر ٤٠، أمر كريم ٦٥، رقم ٥٥٥ بتاريخ ١٩ رجب ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

(٢٦) دار الوثائق: محافظ الأبحاث، محفظة ذوات، وثيقة رقم ١٢١ مؤرخة في ٩ شوال ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م.

(٢٧) دار الوثائق: معية سنية تركي، محفظة ٤٢، تراجم ملخصات الدفاتر، دفتر ٤٠، رقم ٥٤ مؤرخ في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

(٢٨) دار الوثائق: معية سنية تركي، محفظة ٤٢، تراجم ملخصات الدفاتر، دفتر ٤٠، رقم ٥٥٥ مؤرخ في جمادى الأولى ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وأما الطريق الثاني الذي سلكه القضاة: فكان مع قافلة الحج الشامي، وربما كان هذا بسبب هدوء الطريق أو لأنه هو الأنسب والأيسر للقاضي حسب ظروفه الخاصة، حيث صدر أمر كريم من والي مصر إلى أحد قضاة مكة، وهو السيد محمد أمين بأن يصل من الآستانة إلى الشام على أن يسافر مع قافلة الحجاج إلى محل مأموريته[٢٩]، فكان هذان الطريقان هما اللذان يسلكهما قضاة مكة، غير أنهم كانوا يفضلون الطريق الأول، وهو طريق مصر، وقد أوردت الوثائق المصرية السبب في ذلك، فقد سافر القاضي "محمد أفندي إلى مصر على مقتضى مأموريته بناءً على مطالعة يسر وسهولة طريق الحجاز المتبع من هناك"[٣٠]، ويعود ذلك إلى سبب مهم ألا وهو أن طريق مصر كان طريقا بحريا، حيث يحضر القاضي من الدولة العثمانية إلى الإسكندرية أو رشيد على ساحل البحر المتوسط، ثم يتخذون طريق نهر النيل إلى رشيد، ومنها إلى القاهرة فالسويس برا، ومن السويس إلى جدة ومنها إلى مكة[٣١]، ومن ثم كان القضاة يفضلون طريق مصر.

ج - تقديم الدولة الهدايا للقضاة:

ومن مظاهر الاحترام والتكريم لقضاة مكة أنهم كانت تُهدى لهم بعض الهدايا من الإدارة، وتقبل منهم هداياهم، فقد صدرت رسالة من والي مصر إلى قاضي مكة بإشعاره بوصول هديته التي أرسلت مع تابعه كتاب "معرفة نامة" من مؤلفات إبراهيم حقي الأرضرومي[٣٢]، ومعناه رسالة المعرفة.

---

(٢٩) دار الوثائق: دفتر ٢٢ معية تركي، مكاتبة رقم ١٢٠، مؤرخة في ١٧ شوال ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

(٣٠) دار الوثائق: دفتر رقم ٤ معية تركي، ترجمة المكاتبة رقم ٢٦١، مؤرخة في ١١ شعبان ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م.

(٣١) الدمرداش، أحمد كتخدا عزبان: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق د. عبدالرحيم عبدالرحمن، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ص ٩، ٤١، ٥٧.

(٣٢) دار الوثائق: دفتر ٢٢ معية تركي، مكاتبة رقم ١٢٠، مؤرخة في ١٧ شوال ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

ومن هذه المظاهر أيضا هذا الاهتمام الملحوظ بإسكان قضاة مكة السابقين في أماكن لائقة، مثل: نزول عارف بك وصادق أفندي قاضيي مكة السابقين في قصر قدم النبي(٣٣) بناءً على طلبهما وطلب البحث عن منزل مناسب بالحرم والعمل على راحتهما(٣٤).

ومنها كذلك أنه كانت تقدم للقاضي الخلع المناسبة شأنه في ذلك شأن كبار رجال مكة المكرمة، ففي رسالة واردة للمعية السنية من الآستانة جاء فيها: "فقد أرسلت الكسوة الشريفة التي نسجت وجهزت في الآستانة بمعرفة محمد عارف أفندي أمين الصرة الهمايونية من رجال الدولة العلية وناظر المهمات السابق، كما أنه أرسلت فراء السمور(٣٥) المستوجبة السرور الشاهانية المخيطة من تحت إلى فوق من طرف الذات الملكية إلى حضرة صاحب السعادة والسيادة الشريف وإلى حضرة صاحب السعادة الوزير المكرم نجل فخامتكم طوسون باشا والي جدة، وفرو سمور واسع الأكمام إلى حضرة صاحب العزة نائب شيخ الحرم، وإلى صاحبي الفضيلة الأفنديين قاضيي المدينتين المباركتين والخلع الفاخرة لهما"(٣٦). ويتضح من هذه الوثيقة أن قاضيي مكة المكرمة والمدينة المنورة كانا يعدان من كبار رجال الدولة في الحجاز الذي يجرى تكريمهم، الأمر الذي كان يضفي على هؤلاء القضاة مكانة اجتماعية رفيعة عند الخاصة والعامة على السواء.

(٣٣) يتضح من الوثيقة أنه المكان الذي يسكن فيه قاضي مكة، ولم أعثر له على تعريف ولا أي إشارة في المصادر التاريخية مما وصل إلى يدي منها.

(٣٤) دار الوثائق: دفتر ١٨ معية تركي، تلخيص الوثيقة رقم ٥٠٣، مؤرخة في ١٦ صفر ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

(٣٥) السمور: دابة تشبه حيوان النمس، تظهر في موطنها بلاد الروس، تسوى من جلودها فراء غالية الأثمان، والفراء هو الجلد المدبوغ، وكان يقدم هدايا للقضاة، وما سواهم. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق علي عبدالله الكبير، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ج ٣، ص ٢٠٩٢.

(٣٦) دار الوثائق: محفظة رقم ٩٥/٣ بحر براً، مؤرخة في ٢١ رجب ١٢٢٩هـ/١٨١٣م.

رتبة قضاة مكة بين قضاة الدولة:

قبل أن نتحدث عن رتبة قضاة مكة المكرمة بين قضاة الدولة العثمانية ينبغي الإشارة إلى أن درجات تعليم قضاة الدولة العثمانية كانت إحدى عشرة مرحلة تعليمية، يتولاها القضاة والمدرسون في الدولة العثمانية واحدة بعد الأخرى، كلما وصل إلى درجة علمية منها ارتقى درجة وظيفية أعلى بين القضاة من المراتب الصغيرة كقضاء بلدة صغيرة إلى إقليم أوسع وأكبر وهكذا.

وتبدأ هذه المراحل بمرحلة تسمى ابتداء خارج، وهو لقب لأول درجة من درجات هذا التعليم القضائي في المدارس، وكان يطلق عليه أيضاً (خارج مدرسة سي)؛ أي: مدرسة الخارج، وهي تقوم مقام مرحلة التعليم الأولي بينما تأتي بعدها مرحلة أخرى، هي ابتداء داخل، وهو ما يعد مرحلة التعليم المتوسط، وبعد الانتهاء منها يعد الطالب على مراحل عدة هي: حركت خارج، ثم ابتداء داخل، ثم حركت داخل. وهي المرحلة الثانية حتى يدخل الطالب مرحلة التعليم العليا، ابتداء من مدرسة صحن ومن يتخرجون منها يتولون التدريس بها، أما من لا يرغبون منهم في العمل بالتدريس أو من لا يجتازون الامتحان الخاص به فإنهم يصبحون قضاة بانتسابهم إلى سلك القضاء، وعلى من اتجه إلى القضاء أن يمر بمراحل عدة يمكن له من خلالها الوصول إلى قضاء العاصمة العثمانية ذاتها. وهذه المراحل هي: صحن ثمان وابتداء والتومشلي، ثم حركت التمشلي ثم موصلة سليمانية، ثم سليمانية وهي المدرسة التي أنشأها السلطان سليمان القانوني ثم أخيراً عليه أن يحصل على الإجازة من مدرسة دار الحديث(٣٧) وكان خريجو هذه المدارس يسمى الواحد منهم ملازماً وعليه أن يختار وظيفته بين القضاء أو التدريس أو في وظيفة إدارية،

(37) M. Z, Pakalin: Osomanli, L. P. 14-15. 2, P. 15.

وانتشرت تلك المدارس في أنحاء الدولة كفروع لهذه المدارس الأم بتخريج أصحاب الوظائف العليا، وعلى رأسها القضاة[٣٨].

ويؤكد جارشلي المؤرخ التركي أن هذه المراحل هي مراحل دراسية، لابد أن يجتازها القضاة ويترقوا إليها حتى يتمكنوا من تولي مناصب القضاء في الدرجات والرتب الأعلى، وكان قبل عام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م يتولى قضاء مكة المكرمة من وصل إلى المرتبة التاسعة، وهي موصلة سليمانية (Musila isulaymariye)، واعتباراً من التاريخ المذكور أصبح قانوناً إسناد قضاء مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الحاصلين على مرتبة أعلى، وهي مرتبة بلاد ثلاثة (Bilad-selase)؛ أي: المعزولين عن إسكودار[٣٩]، وغلطة (GalTa)[٤٠] وأيوب (Eyupi)[٤١]، ثم كان على قضاة مكة المكرمة المعزولين عنها تولي المرتبة الأعلى في سلك القضاء العثماني وهو قضاء إستانبول وظلت الحال على ذلك الوضع خلال القرنين التاليين[٤٢]. والذي أصبح هو الوضع الطبيعي، وإن كانت هناك بعض التجاوزات التي أوردتها الوثائق حيال هذا الأمر، إذ تأخرت رتبة قضاء إستانبول عن أحد القضاة الذين تولوا قضاء مكة سبع سنوات؛ مما جعله لا يفرح بها حينما جاءته هذه الرتبة، ففي رسالة من قاضي مكة المتولي عليها سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، قال فيها

(٣٨) د. حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ط ١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٢٩-١٣٠.

(٣٩) هي حي من أحياء إسطنبول، وتمثل الجزء الآسيوي منها.

(٤٠) غلطة أو جلطة وجلاطة: أحد أحياء مدينة إستانبول، كانت تسكن فيه أقلية إسلامية قبل فتح المدينة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وبعد الفتح كانت واسطة العقد في المدينة، وبنى السلطان محمد الفاتح فيها القصر السلطاني المسمى (جلطة سراي) الذي تحول فيما بعد إلى مدرسة لتعليم أبناء السلاطين. د. حسين مجيب المصري، معجم الدولة الإسلامية، ص ٩٥.

(٤١) أيوب: أحد أحياء مدينة إستانبول أيضا، قريب من أسوارها القديمة تنسب للصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي توفي فيها سنة ٥٠هـ في عهد يزيد بن معاوية. د. حسين مجيب المصري، المرجع السابق. ص ٢٦.

(٤٢) جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ٨٥.

بأنه أعلن ما كان تلقاه من بكر أفندي كتخدا[٤٣] الخزينة من تمديد مدته القضائية إلى أن يأتي الخلف عنه "فكان ذلك باعثاً للانشراح والسرور، وأما توجهي رتبة إستانبول فلم أكن لأفرح بها؛ لأنها استحقاقي منذ سبع سنوات، ولكن إعراض شيخ الإسلام "علي" كان سبباً في تأخر توجهها إلى هذا الوقت، ومع ذلك كتبت لبكر أفندي كتاب شكر ووقعته بتوقيع قاضي مكة المكرمة برتبة دار الخلافة العلية"[٤٤].

ويتضح من النص السابق أن قضاة مكة المكرمة كانوا عادة يتولون منصب قضاء العاصمة بعد نزولهم من قضاء مكة - وهي رتبة إستانبول، وهي سالفة الذكر - وأن ذلك التقليد كان أحيانا يتأخر بسبب تصرفات شيخ الإسلام، وهو رئيس القضاة في مختلف أقاليم الدولة العثمانية خلال تلك المرحلة التاريخية.

كذلك يتضح أن القاضي محمد صادق أفندي على الرغم من أنه أظهر استياءً من ذلك التأخير إلا أنه أيضاً قبل المنصب ووقع الرسالة بقاضي دار الخلافة العلية؛ أي: منصب قضاء العاصمة إستانبول، وأما اللقب الذي كان يلقب به قاضي مكة المكرمة كما ورد في الوثائق المصرية فهو "مكة مكرمة باية سي"[٤٥].

---

(٤٣) كَتْخُدا بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء: من الفارسية (كدخدا)، والكلمة الفارسية من القطعتين (كد) بمعنى: بيت، و(خدا) بمعنى: صاحب أو رب، والمعنى: رب البيت، وتطلق على السيد الموقر، ويطلقها الترك على الوكيل، وهي بمعنى: الكخيا أووكيل الباشا، وهي تطلق على الموظف المسؤول أيضاً عندهم وكتخدا الخزينة؛ أي: وكيل الخزينة. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ١٩٧٩م، ص ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٤٤) دار الوثائق: وثيقة رقم ٧٠، محفظة ١٧ بحر برًا، مؤرخة في ٢٥ المحرم ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

(٤٥) دار الوثائق: سجل ١٩، محفظة ١٤، رقم ٣٧ أصلي، مؤرخة في شوال ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

ألقاب القضاة:

وردت بالوثائق مجموعة من الألقاب التي كان يلقب بها قضاة مكة المكرمة على سبيل التشريف والتكريم، صحيح أن أغلب هذه الألقاب لم تكن خاصة بالقضاة وحدهم إلا أنه يكفينا أن هذه الوثائق لم تذكر أحد القضاة إلا ويلازمه أحد الألقاب أو أكثر سابقةً لاسمه تقديراً واحتراماً، ومن هذه الألقاب ما يأتي:

١ - حضرة قاضي مكة:

وجاء ذلك عند ذكر القاضي في دفاتر المالية، تقول الوثيقة: "عما كان صرف لزوم حضرة قاضي مكة المشرفة"[٤٦] فقط (حضرة)، وهذا اللقب كان يذكر على سبيل الإكرام والاحترام مثل غيره من الألقاب.

٢ - مكة المكرمة باية سي:

وهو لقب فخري يمنح للشخص لا لأداء مهمة فعليًا، وإنما هي وظيفة اسمية تشريفية، وقد لقب به أحد القضاة كما جاء في إحدى الوثائق في إفادة جاء فيها: "تتضمن الشكر بالإنعام على صاحب الفضيلة شاكر أفندي قاضي مصر حالاً برتبة مكة مكرمة باية سي"[٤٧] وفقاً لالتماسه.

٣ - الملا الشريف:

وكان لقب الملا - وهو في الأصل اللفظ العربي المولى - وهو مرادف للفظ الشيخ من ألقاب القضاة، وقد كان يكتب على صورة (منلا)، ثم استخدم فيما بعد لمن يتمتعون بمنزلة سامية اجتماعياً وعلمياً ومن هم من رجال الدولة والوجهاء، ثم أطلق أخيراً على القضاة[٤٨]، حيث ورد هذا اللقب في وثيقة تعيين أحد القضاة، من والي مصر إلى مصطفى أفندي محافظ جدة يبلغه "تفضل السلطان على حضرة

(٤٦) دار الوثائق: ديوان المالية، دفتر إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية عن سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، سجل ١٦٢٦، مخزن (٤٠)، عين (١١٤).

(٤٧) دار الوثائق: سجل (١٩)، صادر عابدين، تلخيص الكتاب التركي، رقم ٣٧/٥٣٠، المؤرخ في ١٧ شوال ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

(48) M. Z. Pakalin: Osmanli tarih Deyimlen, 2, P. 59.

الأفندي الملا القاضي الشريف، أحمد سعيد ابن الباشا الشريف"(٤٩). وواضح من النص أن المعين في الوظيفة من الجنس العربي، وأنه من الأشراف، وكان يحمل لقب الملا الذي هو من ألقاب القضاة.

٤ - الأفندي:

ومن الألقاب المهمة التي اشتهرت في الوثائق المصرية، كان لفظ أفندي، وقد كان هذا اللقب هو أكثر الألقاب اشتهاراً وملازمة للقضاة، حيث لقب به كبار رجال الدولة العثمانية، وكان منهم قاضي إستانبول ومنه أطلق لقب الأفندي على القضاة، وفي القرن التاسع عشر الميلادي شاع لقب الأفندي على القضاة كافة، وظهر ذلك في الرسائل المتبادلة بين كبار رجال الإدارة سواءً من والي مصر أو من محافظ جدة، فإذا صدر فرمان بتولية أحد القضاة كان يصدر: "بتوجيه قضاء مكة لعهدة الحاج عارف أفندي"(٥٠).

من هنا فإنه يمكن القول إن لقب الأفندي هو: اللقب الرسمي الذي يمكن أن تضاف إليه ألقاب عدة أخرى، تقول الوثيقة في ذلك: "بناء على إعلام داعيكم صاحب الفضيلة الأفندي قاضي مكة المكرمة"(٥١)، فكان يضاف إلى لقب الأفندي، لقب صاحب الفضيلة.

ومما يؤكد أن لقب الأفندي كان أحد أهم الألقاب، أن محافظ جدة كان في الغالب من الأفندية، وهو ما أشارت إليه الوثائق المصرية الخاصة بهذا الشأن(٥٢)، وبالتالي يتأكد لنا أن القضاة كانوا يلقبون بأكبر الألقاب في الدولة العثمانية مثلهم مثل كبار رجال الدولة.

---

(٤٩) دار الوثائق: دفتر (٤٠)، معين تركي، مكاتبة رقم ١٤٤، مؤرخة في ٨ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

(٥٠) دار الوثائق: دفتر (٢٢)، معية تركي، مكاتبة ٣٦٩، مؤرخة في ٢٥ رمضان ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

(٥١) دار الوثائق: دفتر (٤)، معية تركي، وثيقة ١٩، مؤرخة في ١٥ رجب ١٢٣٤هـ/١٨١٨م، محفظة ١.

(٥٢) دار الوثائق: محفظة رقم (١٥)، بحر براً، وثيقة رقم (٦)، غير مؤرخة، ومحفظة (٤٢)، ملخصات أوامر الدفاتر، دفتر (٤٠)، أمر (٦٥)، رقم (٨٣٤)، ومحفظة (١٧) بحر براً، وثيقة مؤرخة في ٣ صفر ١٢٤٧هـ/١٨٣١م.

٥ - بك:

وهذا اللقب كان للأتراك القدماء وأقوام الألتاي بأشكال مختلفة، ثم أخذ هذا الشكل فيما بعد في لهجة العثمانيين، وصار لقباً على رؤساء القبائل والموظفين المدنيين والعسكريين، وعمم هذا اللقب في أواخر الدولة على الذين يعملون في الخدمة الخاصة والمناصب الدينية والقضائية.

وقد لقب به بعض القضاة على سبيل التكريم والتشريف، ومن ذلك ما جاء سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م في وثيقة من والي مصر إلى باقي (بك) في أنه أنعم على كامل (بك) قاضي مكة السابق بمبلغ ٣٠ ألف قرش(٥٣)، وقد ورد هذا اللقب لقضاة عدة(٥٤).

٦ - السيد:

ومن الألقاب التي لقب بها القضاة للتشريف كان لقب (السيد)، وقد لقب به القاضي إبراهيم خليل أفندي، فقد ورد بالوثيقة: "من السيد إبراهيم خليل حفيد فندق زادة..."(٥٥)، وقد شاع هذا اللقب سابقاً للقب "أفندي" على الكثير من القضاة(٥٦).

جنسية القضاة:

وهي من الأمور المهمة التي كشفتها الوثائق والتي صححت بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤرخين حول جنسية القاضي حيث يزعم بعضهم أن القضاة كانوا أتراكاً، يقول الشيخ أحمد السباعي في

---

(٥٣) دار الوثائق: دفتر رقم (٩٦)، معية تركي، ترجمة الوثيقة رقم (٢٤)، مؤرخة في ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م.

(٥٤) دار الوثائق: محفظة (٤٢)، تراجم ملخصات الدفاتر، دفتر (٤٠)، أمر (٦٥)، مؤرخة في ٩ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

(٥٥) دار الوثائق: م. حفظة (١١)، بحر برًا، وثيقة (٢)، مؤرخة في ٥ المحرم ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

(٥٦) دار الوثائق: محفظة بحر برًا، مكاتبة رقم (٢٧)، مؤرخة في ٢١ ربيع الثاني ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

تاريخ مكة: "أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الأتراك الذين تنتدبهم الدولة التركية"(٥٧).

فعلى الرغم من أن الوثائق ذكرت أن أغلب القضاة الذين تولوا القضاء في مكة في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي كانوا من الأتراك(٥٨)، إلا أن بعض الوثائق الرسمية ذكرت أكثر من قاض تولى قضاء مكة المكرمة من غير الأتراك، وذلك مثل الشيخ عبدالله سراج من علماء مكة المكرمة(٥٩)، كما تولى القضاء كذلك الشريف أحمد ابن الشريف سعيد باشا(٦٠) وهو أيضًا من العرب، مما يؤكد أن العلماء العرب تولوا هذا المنصب، وقد أكدت المصادر التاريخية ذلك حينما أشارت إلى أن الشيخ عبدالحفيظ العجيمي(٦١) تولى ذلك المنصب، وأيضا الشيخ عبدالمنعم القاضي المتولي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م(٦٢) قضاء مكة المكرمة.

بعض الوثائق الرسمية ذكرت أكثر من قاض تولى قضاء مكة المكرمة من غير الأتراك

معاونو القضاة:

قبل العصر العثماني كان يوجد في مكة المكرمة أربعة من القضاة على المذاهب الأربعة يتقدمهم القاضي الشافعي وهو قاضي القضاة في مكة المكرمة وله الرئاسة على سائر القضاة؛ الأحناف والمالكية والحنابلة.

---

(٥٧) أحمد السباعي: تاريخ مكة المكرمة، ط٦، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص ٥٩١.

(٥٨) طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج٦، ص ١٠١.

(٥٩) عبدالله مرداد: المختصر من نشر النور والزهر، نشر وتحقيق محمد سعيد العامودي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، الطائف (د. ت)، ج١ ص ٢٠٥.

(٦٠) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ١٤٤، مؤرخة في ٨ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

(٦١) عبدالله مرداد: المختصر من نشر النور والزهر، ج١ ص ٢٠٥.

(٦٢) السابق، ج٢ ص ٢٨٤.

وفي سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م ورد أول قاض لمكة من تركيا بعد أن قام السلطان سليمان القانوني ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م بتعديل النظام القضائي في الدولة، إذ صار قاضي القضاة هو قاضي المذهب الحنفي تبعاً لمذهب الدولة العثمانية الرسمي(٦٣).

ومنذ التاريخ المذكور والزعامة الأدبية للقاضي الحنفي مع وجود قضاة على المذاهب الثلاثة الأخرى، فرضت لهم رواتب(٦٤)، إلا أنهم لم يكن لهم وجود من الناحية السياسية أو في الوثائق الرسمية المصرية المعنية بالدراسة.

أما الأعوان الذين ذكر بعضهم فقد كانت الدولة تعين لكل قاض معاوناً من أجل إنهاء كافة أعماله المتعلقة به، فقد يرحل إلى القاهرة للحصول على راتب القاضي، ومن ذلك جاء في وثائق سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م "أنه بناء على الأوامر العالية الصادرة في هذا الشأن سلم لتابعه مصطفى أغا(٦٥) مرتبه المعتاد إعطاؤه من خزينة مصر"(٦٦).

ولم تزد الوثائق في ذكر أعوان القضاة مثل: النواب أو الشهود كالنظام المتبع في الدولة العثمانية.

---

(٦٣) طاهر الكردي: التاريخ القويم، ج٦ ص ١٠١، جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ٨٤.

(٦٤) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، القاهرة، د. ت، ج١ ص ٣١٠.

(٦٥) أغا: كلمة تركية مغولية الأصل، دخلت الفارسية بعد حملة المغول، وشاع استخدامها، وتوسعت معانيها بتوالي الأيام، فتطلق على الأخ الأكبر لتفيد الاحترام والإكبار والتبجيل، وبمعنى السيد والأفندي ورئيس الخدم والقائد العسكري، كما تطلق على الرجل من العوام مقابل المتعلم والمتأدب. د. حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ص ١٨.

(٦٦) دار الوثائق: دفتر ٢٢ معية تركي، مكاتبة رقم ١٢١، مؤرخة في ٢٠ شوال ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م .

مكان التقاضي:

أشارت الوثائق التركية المودعة بمصر إلى أن مكان التقاضي هو مجلس الشرع الشريف(٦٧)، ويوجد هذا المجلس الشريف في مكان قريب جداً من البيت الحرام في مدرسة السلطان قايتباي، حيث يوجد أيضا مكان لسكن القاضي، وهو الأمر الذي يوفر للقاضي الفرصة الكاملة للراحة؛ مما يمكنه من تأدية مهامه حتى يمكن له أن يؤدي مهامه القضائية على أكمل وجه(٦٨)، وقد أطلق على مكان التقاضي في الوثائق اسم "مجلس الشرع الشريف"، بينما سمي في المصادر المطبوعة (المحكمة الكبرى) وذلك تمييزاً لها عن المحاكم الأخرى بالمذاهب الثلاثة غير وجود محاكم أخرى للمذاهب الحنفية(٦٩)، ولقد تم ترسيم مجلس الشرع الشريف بمدرسة قايتباي(٧٠) سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م(٧١).

(٦٧) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي ٢، دفتر ٤، بتاريخ ١٥ رجب ١٢٣٤هـ/١٨١٨م، ومحفظة ١١ بحر براً، وثيقة ٢٧، مؤرخة في ٢١ ربيع الثاني ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

(٦٨) النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى مصر والشام والحجاز، تعليق أحمد هريدي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٣٤٥.

(٦٩) جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ٨٤.

(٧٠) مدرسة قايتباي: أسسها السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٢ - ٩٠١هـ/ ١٤٦٧ - ١٤٩٥م، وجعل بها دروساً في الفقه والحديث، وأوقف عليها الأوقاف العديدة، وقد درس بها الشيخ ابن غانم، المقدسي الحنبلي، وكان إماما وشيخا لها، وألحق بها مكتباً. الملطي: نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين، طبعة أولى، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ص ١٤٣-١٤٦، والغزي: الكواكب السائرة في أخبار المئة العاشرة، وضع حواشيه خليل المنصور، ٣ج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٨١م، ج١ ص ٢٩٩، والمحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج٣ ص ١٨١، ورمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين حتى ١٩٤٥م، ٦ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤ ق٢ ص ٤، ١٣٢.

(٧١) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي، ٢ دفتر ٤، مؤرخة في ١٥ رجب ١٢٣٤هـ/١٨١٨م.

مهام قضاة مكة المكرمة:

من المعروف والمألوف أن المهمة الرئيسية للقضاة كانت - عبر التاريخ - تكاد تقتصر على الفصل في الخصومات وتنفيذ الأحكام الشرعية والحقوقية وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ولكن الوثائق الخاصة بقضاة مكة المكرمة والمودعة بدار الوثائق المصرية بالقاهرة كشفت وأماطت اللثام عن واقع جديد فيما يتعلق بمهام القضاة، حيث كثرت تلك المهام وتشعبت، وأصبحت تتصل بكثير من أمور الحياة المعيشية والدينية بالنسبة للمقيمين في مكة بل والحجاج والأماكن المقدسة.

فبجانب المهام المألوفة والرئيسة والتي تتمثل في الفصل في الخصومات وتنفيذ الأحكام الشرعية والحقوقية وفق المذهب الحنفي في المنطقة الخاضعة لحكم أمير مكة، وإخبار الدولة بما يجري فيها(٧٢)، وهو الأمر الذي أكدته الوثائق، حيث تذكر أن قضاة مكة كانوا منفذين لأحكام الشرع، حيث كانت ترفع إليهم القضايا الشائكة أو المعقدة، فقد تقدمت زوجة أحد المجاورين في مكة يدعى إبراهيم الكشاني بطلب تخصيص مرتب زوجها الذي لها، وقد رفع طلبها سر عسكر الحجاز بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م إلى حسين باشا باشمعاون(٧٣) والي مصر، وعندما عرض الأمر على القاضي المكي تم تخصيص المرتب لها في ٢٦ رمضان ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م(٧٤).

فبجانب هذه المهمة الأساسية كشفت الوثائق عن مهام أخرى على جانب كبير من الأهمية ألقيت على عاتق القضاة، وقاموا بها على أكمل وجه، وتتمثل فيما يأتي:

---

(٧٢) جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ٨٤.

(٧٣) باشمعاون: رئيس المعاونين للباشا.

M. Z. Pakalin: Osmanli tarih, 1. P. 527

(٧٤) دار الوثائق: محفظة ٢٦٦ عابدين، رقم ٩٣ حمراء، مؤرخة في ٢٦ رمضان ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م.

١ - التصدي للفساد الإداري:

وبالإضافة إلى مهمة التقاضي وتنفيذ الأحكام الشرعية فقد كلف بحكم منصبه بمحاربة الفساد، ففي رسالة من والي مصر إلى الميرلوا(٧٥) عابدين بك محافظ مكة المكرمة يطلب فيه أن يلفت نظر القاضي إلى ما تجري به الأقلام في تلك الأيام من الاختلاس في الحسابات مومياً بتطهير أداة الإدارة في مكة(٧٦).

كذلك طلب من القاضي عقاب من يجترئ على معاملة العملات النقدية بأكثر من حقها - قيمتها - فقد وردت مكاتبة من والي مصر إلى محافظ مكة ينبئه فيها عن التعامل الجاري في بعض العملات، منها الريال الفرنسي في مكة وجدة والتنبيه على القاضي بوجوب معاقبة من يجترئ على أخذ الريال الفرنسي(٧٧) وإعطائه بأكثر من خمسة عشر قرشاً أو بأقل منها على وفق الأمر الصادر سابقاً وتأكيد لزوم المراعاة للسعر المحدد من غير محاباة، لظهور أن الاجتراء على ذلك لا يصدر من رجال دون الآخرين(٧٨)، وبذلك يتضح أنه كان من مهام القضاة المكيين أيضا: الحفاظ على النظام الاقتصادي والضرب على أيدي العابثين.

---

(٧٥) الميرلوا: هو اللفظ العربي المعروف بأمير اللواء واختصر في التركية إلى هذا الشكل، وهو منصب الأمير صاحب السنجق، والسنجق هو الإقليم من الولاية، مثل: دمياط ورشيد وجرجا والإسكندرية بالنسبة لولاية مصر، وجدة بالنسبة للحجاز، وكان يطلق عليه هذا اللقب؛ لأنه في الأصل رجل عسكري يحفظ الأمن والنظام، وتعد هذه أول مهامه. د. سيد محمد السيد: مصر في العصر العثماني، في القرن السادس عشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٢٦.

(٧٦) دار الوثائق: محفظة ٤٢ معية سنية تركي ملخصات أوامر الدفاتر، دفتر ٤٠، رقم ٢٤٢، مؤرخة في جمادى الأولى ١٢٤٥هـ.

(٧٧) الريال: عملة فرنسية كان تعادل خمسة عشر قرشاً في النصف الأول من القرن الثالث عشر. دار الوثائق: دفتر ٢٢، معية تركي، مكاتبة رقم ٥٤٢ مؤرخة في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٤٢هـ.

(٧٨) دار الوثائق: دفتر ٢٢ معية تركي، مكاتبة رقم ٥٤٢، مؤرخة في ١٤ جمادى الأولى ١٢٤٢هـ.

٢ - متابعة أمر الحجيج:

كما أنيط بقضاة مكة المكرمة مهمة كتابة تقارير عن الحج والحجاج ورفعها إلى والي مصر حتى تكون الدولة على علم بأي جديد يطرأ على الحجاج أو المقدسات، فقد وصلت إلى والي مصر رسالة من قاضي مكة سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م تتضمن تقريراً عن ورود الحجاج من كل صوب واجتماعهم في بيت الله الحرام وصعودهم جبل عرفات في تاريخ ٩ ذي الحجة الحرام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م وأدائهم فريضة الحج وعودتهم إلى مكة آمنين سالمين. مما جعل الوالي يظهر ارتياحه عن ذلك(٧٩).

وأيضا فقد قام السيد إبراهيم خليل - حفيد فندق زادة - قاضي مكة المكرمة سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م بعرض ولائه لوالي مصر ويذكر أنه وصل إليها ويبلغ بأن الحج هذا العام كان حجاً كبيراً، إذ إن الحجاج وقفوا بعرفات يوم الجمعة(٨٠).

٣ - توزيع المخصصات:

ومن ضمن المهام الأساسية التي كانت ملقاة على عاتق قضاة مكة المكرمة المشاركة في توزيع صرة الحرمين الشريفين التي ترد إلى مكة من كافة أنحاء العالم الإسلامي خاصة من مصر والدولة العثمانية.

حيث كان يقام عمل إحصاء دقيق للأهالي المستحقين لهذه المخصصات في مكة يشارك فيه القاضي، ويتضح ذلك من رسالة من محمد علي باشا إلى أغا دار السعادة، جاء فيها: "حينما تعلقت الإرادة السلطانية قبل مدة بترتيب غلال من مصر لأهالي الحرمين الشريفين وإعطائها لهم كانت أسامي أهالي مكة المكرمة ومجاوريها حررت بمعرفة عبدكم ابننا صاحب العطوفة إبراهيم باشا ومحافظ

(٧٩) دار الوثائق: دفتر ١٠ معية تركي، أمر رقم ٤١١، مؤرخ في ١٤ صفر ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م.

(٨٠) دار الوثائق: محفظة ١١ بحر برا، وثيقة رقم ٢، مؤرخة في ٥ المحرم ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م.

مكة خليل باشا المرحوم وقاضي مكة صاحب الأفندي وحضرات مفتيي المذاهب وخدام الحرم الشريف وأهالي مكة ونظم دفتراً بأساميهم(٨١) وبعث بها إلى الآستانة"(٨٢). فيظهر من هذه الوثيقة أهمية دور القاضي في كتابة أسماء المجاورين المستحقين لهذه المخصصات.

كذلك كان يكتب دفترًا يرسل بأسماء الأهالي المستحقين ويوقع بإمضائه مع شيخ الحرم، حيث تشير الوثيقة إلى هذا التوقيع حينما تضيف: "فعلى موجب دفتر المفردات الوارد في هذه المرة بإمضاء والدكم صاحب الدولة الأغا شيخ الحرم وداعيكم القاضي المومى إليه"(٨٣)، ومما يجدر ذكره أن ما ورد في الوثيقة يتوافق مع ما أورده بعض الرحالة الأجانب حين يقول عن الصرة: "وهي ترد بشكل أساسي من سلاطين إستانبول الذين يخصصون عادة مبلغاً من المال سنوياً لإعانة الفقراء وأعيان الناس في مكة والمدينة ويوزعها القاضي في كل من المدينتين المقدستين وفقاً لما يراه"(٨٤) وكان هذا التوزيع يتم بموجب بطاقات قابلة للتحويل ولابد عند تحويلها من توقيع القاضي والشريف واعتماد التحويل ويتم تسجيل الاسم الجديد مشفوعاً بتزكية من القاضي ويرسل للعاصمة وكانت هذه البطاقة تسمى براءة سلطانية(٨٥)، وبموجب هذه البراءة كان البك كتخدا يقوم بتوزيع الغلال ويخطر بها

---

(٨١) دار الوثائق: دفتر ٤ معية تركي، مكاتبة رقم ١٩٧م، مؤرخة في ١٣ جمادى الثانية ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م.

(٨٢) الآستانة: اصطلاح كان يستخدم في الأصل بشأن التكايا الكبرى، وقد ظهر من كلمة "آستان" الفارسية وهي تعني عتبة الباب، وقد استخدم هذا المصطلح بالنسبة لإستانبول؛ لأنها عتبة أو مقر الحكومة في زمن العثمانيين والمكان الذي ينظر فيه شؤون الأفراد، وكان يستعمل هذا المصطلح آستانة سعادت وآستانة عليه.

M. Z. Pakalin: Osmonli tarih Deyimteri1. P. 94.

(٨٣) دار الوثائق: دفتر ٤ معية تركي مكاتبة رقم ١٩٧م مؤرخة في ١٣ جمادى الثانية ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م.

(٨٤) بوركهارت: الرحلة، ص ١٧٨.

(٨٥) دار الوثائق: الفرمانات الشاهانية الصادرة إلى ولاة مصر باللغة التركية العثمانية، دفتر فرنامات رقم ١، وثيقة رقم ٩، مؤرخة في ٥ شعبان ١١٨٠هـ/ يناير ١٧٦٧م ورقم ١٥ مؤرخة في ٢٥ شوال سنة ١٢٠٧هـ/ ٥ يونية ١٧٩٤م.

والي مصر شخصياً عن طريق محافظ مكة ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة أحمد شكري باشا محافظ مكة إلى والي مصر بشأن ورود أمر كريم بصرف مرتبات أهالي مكة المعلومة المقدار قبل الحج وإشعاره بأنه قام بتوزيع الغلال حسب الكشوف(٨٦).

ولقد توافقت المصادر مع ما جاء في المجموعة الأرشيفية محل الدراسة سواء في الأموال أو الغلال، فأما من ناحية الأموال فقد أورد الإسحاقي ما كان يرسل خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي بأنه كان مئة وستين كيسا قيمة كل كيس خمسة وعشرون ألفا من الأنصاف الفضية(٨٧)، وكذلك أوردها المحبي في ترجمته لأحد سلاطين الدولة العثمانية(٨٨)، وفي القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي أوردت الوثائق ما كان يرسل من صرة وصلت سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م إلى ٦٥١ كيسا روميا، قيمة كل كيس عشرون ألفا من الأنصاف الفضية(٨٩)، وقد أضاف محمد صادق أمير الحاج بأن ما كان يرسل من أموال نقدية خلال فترة البحث ما يعادل قيمته (١٣٦٣٤١٧) قرشا وقيمتها بالجنيه الإنجليزي (٥٦١٩) وبالريالات (٣٩٦٠) ريالا حجريا و(٢٢) قرشا وكسور قدرها ٣١ نصفا فضيا(٩٠)، وأما من ناحية الغلال فقد أوردتها أيضا الوثائق التركية الموجودة بالقاهرة بتفصيل شديد، وأوردها كذلك إبراهيم

(٨٦) دار الوثائق: وثيقة ٢٦٣ عابدين تركي، مكاتبة رقم ١٣٣/٥٧ أصلية حمراء، مؤرخة في ١٦ شعبان ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م، ومحفظة ٧ بحر برًا، وثيقة رقم ٦٠، مؤرخة في ١٣ ذي الحجة سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م.

(٨٧) الإسحاقي محمد بن عبدالمعطي: لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول، القاهرة: ١٣٥٣هـ، ص ١٥٠-١٥٤.

(٨٨) المحبي: خلاصة الأثر، ج١، ص ٢٩٠.

(٨٩) دار الوثائق، سجلات روزنامة، دفاتر الصرة الرومية لأهالي الحرمين الشريفين، واجب سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م.

(٩٠) محمد صادق باشا : الرحلات الحجازية، مشعل المحمل، ط ١، بدر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٩٩٩م، ص ٧٢.

رفعت في كتابه[٩١] كما أوردناها في كتابنا مخصصات الحرمين الشريفين بشيء من التفصيل، وكان يوزعها القاضي في مكة بل كان المسؤول الأول عن ذلك، ويعد من أهم المهام المنوطة به والمسؤول عنها أمام السلطان[٩٢].

وحينما كانت الأحوال الاقتصادية تسوء على أهالي مكة المكرمة ومثلها المدينة يقوم قاضي مكة بعمل آخر هو تجميع أسماء الفقراء ثم التوقيع عليها بنفسه ويشاركه في ذلك المفتون الأربعة وشيخ الحرم ومن الأمثلة على ذلك ما حدث سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م حينما اشتدت الأزمة الاقتصادية على أهالي مكة عقب نهاية الصراع بين الدولة السعودية الأولى والعثمانيين، حيث قام قاضي مكة المكرمة بذلك، ويشير والي مصر إلى عمل القاضي في رسالته إلى السلطان العثماني: "ومن ثمة حرروا للمشار إليه ما يفيد لزوم استكتاب أسماء فقراء مكة المكرمة بمعرفة دعاتكم صاحبي الفضيلة قاضي مكة المكرمة ومفتيها الأفندي في دفتر مصدق عليه بالإمضاء"[٩٣].

وبمجرد وصول هذا الدفتر من قاضي مكة تقول الوثيقة: "تعرض على الأعتاب السلطانية وحصول موافقة الإرادة السنية يقيد في قلم الحرمين ويستصدر الرسم السلطاني على مقتضى ذلك ويرسل إلى صوب هذا الخادم المطيع، وبهذه الصورة تخرج الآثار الخيرية السلطانية إلى حيز الوجود من حضرة مولانا وولي نعمتنا صاحب الشوكة والمهابة والكرامة"[٩٤]، وبعد ذلك يوافق السلطان على تقديم مخصصات إلى أهالي مكة. ومن هنا يتضح الدور المهم لقضاة مكة في توزيع المخصصات للأهالي.

---

(٩١) إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص ٢١٠.

(٩٢) د. محمد فهيم: مخصصات الحرمين الشريفين، ص ٢٥ وما بعدها.

(٩٣) دار الوثائق: محفظة معية تركي رقم ٢، دفتر ٤، مؤرخ بتاريخ ١٥ رجب ١٢٣٤هـ/١٨١٨م.

(٩٤) الوثيقة السابقة.

وبالإضافة إلى تحرير أسماء الأفراد من الأهالي وأصحاب الوظائف في دفتر موقع باسمه يقوم القاضي بمراسلة والي مصر بنفسه، وذلك بموجب مهامه حول هذا الشأن، ومن ذلك ما جاء في رسالة محمد عارف القاضي بقضاء مكة المكرمة إلى والي مصر يعرض ما يأتي: "إن المقيمين في مكة المكرمة أشرف بقاع الأرض نوّرها الله تعالى إلى يوم الدين من علماء وصلحاء وأئمة وخطباء وفقراء وضعفاء ومن أطفال ورجال ونساء حضروا لمجلس الشرع الشريف وعرضوا حالتهم الحاضرة قائلين: إنه بسبب انحباس المطر بضع سنين عنا لحكمة يعلمها الله تعالى، قلَّ وارد الغلال من أطراف البلاد قلة مؤلمة، لا سيما الحنطة التي هي أساس ومدار معيشتنا، فإننا في حاجة شديدة إليها نظراً لقلة وجودها أصبحنا في حالة بؤس شديد نستحق العطف والرحمة من كل الوجوه، فنرجو عرض حالنا على والي مصر القاهرة حالاً"(٩٥).

وبعد أن يستعرض قاضي مكة المكرمة حالة المقيمين في مكة وما وصلوا إليه من ضنك في المعيشة يختتم رسالته بالتصديق عليها مؤكداً مدى حاجتهم الشديدة إلى تلك المخصصات قائلا: "وفي الحقيقة إنه بإرادة الله تعالى قد استولى الغلاء على هذه البلدة المعظمة بسبب قلة الحنطة وندرة وجودها، فأصبحت حالة الأهالي - لا سيما فقراؤهم وضعفاؤهم - شديدة أليمة تستوجب الشفقة عليهم، والنظر إليهم والرأفة بهم من كل الوجوه، وقد كتبنا ما هو واقع حسبة لوجه الله تعالى ليكون معلوماً لدى حضرة الوزير"(٩٦).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصرة وما بها من مخصصات كانت توزع تحت نوافذ منزل قاضي مكة(٩٧) وذلك بعد مغادرة الحجيج،

(٩٥) دار الوثائق: محفظة ١١ بحر برًا، مكاتبة رقم ٢٧، مؤرخة في ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

(٩٦) الوثيقة السابقة.

(٩٧) بوركهارت: الرحلة، ص ١٧٩.

وكان هناك أشخاص يتلقون مبالغ صغيرة بموجب الصكوك التي قدمت لهم وبالمقدار المالي المسجل بها[٩٨].

٤ ـ الإشراف على الإصلاحات العمرانية:

وبالإضافة إلى المهام السابقة التي أنيطت بقاضي مكة، فقد عهد إليه بمهمة أخرى، ربما تبدو غريبة الآن فيما يتصل بعمل القاضي، ولكنها كانت في فترة البحث من المهام الأساسية التي كلف بها القضاة بمقتضى فرمان سلطاني، وهي المتابعة والإشراف على الإصلاحات العمرانية سواء الخاصة بالبيت الحرام أو غيره من المساكن والمؤسسات العامة كالمدارس وغيرها مما يشير إلى نظرة الدولة إلى مكانة القاضي الرفيعة وما يرتبط بها من عدل وكفاءة فيما تسند إليه من أعمال.

وأما ما يتعلق بالبيت الحرام فقد احتاج في سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م إلى تجديد سطحه وترميم بعض أجزائه وبالفعل أصدر السلطان محمود الثاني (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩) فرماناً بتلك التجديدات، وقام شريف مكة ومحافظ مكة وقاضيها بمسؤوليتهم في متابعة تلك الأعمال حتى تمت، ثم أصدر شريف مكة والمحافظ والقاضي رسالة بإعلام والي مصر طبقاً للأمر السلطاني؛ مما دفع الوالي إلى إظهار السرور والممنونية من انتهاء الترميمات[٩٩].

ومن المباني العامة التي احتاجت إلى ترميم وعمارة المؤسسات العلمية ومنها المدرسة الداودية نسبة لصاحبها داود باشا[١٠٠]، التي تخربت بفعل الزمن، فقد قدَّم قاضي مكة المكرمة عريضة إلى والي

---

(٩٨) دار الوثائق: دفاتر الفرمانات دفتر رقم ١، فرمان رقم ٥٨، فرمان صادر من السلطان سليم الثالث إلى خسرو باشا، وإلى مصر مؤرخ في ٤ رجب ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢/١٠/٣١م.

(٩٩) دار الوثائق: محفظة ٤ بحر برًا، وثيقة رقم ١١٨، مؤرخة في ٢٧ رجب ١٢٣٢هـ/١٨١٦م.

(١٠٠) داود باشا: هو أحد باشوات الدولة العثمانية تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، وكانت له أعمال خيرية جليلة، منها مدارسه في مكة والمدينة، أهمها هذه =

مصر يطلب منه ترميم المدرسة الداودية لإشرافها على الخراب والتي قدرت بمعرفة مهندس العمارة بعشرين ألف قرش(١٠١)، وقد صدرت الإرادة بإجراء عمارة المدرسة المذكورة تحت إشراف محافظ جدة على أن تصرف هذه النفقات من واردات الخزينة العامرة(١٠٢).

كذلك فقد تم ترميم مدرسة قايتباي وبناؤها في جوار المسجد النبوي على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بعد طلب القاضي نفسه المذكور(١٠٣).

وعندما تخربت دار الحكم وهي مقر الوالي العثماني ورجاله وكان يطلق عليها دار السعادة، قدم قاضي مكة صادق بك أفندي تقريراً عنها إلى والي مصر فجاءه الرد بأنه قد حصل اطلاع والي مصر عليها والتي فيها "أن دار الحكم السالفة الذكر أشرفت على الخراب، ولذلك جرى إصلاح أحد غرفها ومطبخها وسطحها بصرف ٣٠٠ ريال فرنسي، وبقي جزء منها محتاجاً إلى الإصلاح وتبليغه السرور الزائد الحاصل من ذلك، وأنه حرر إلى أمين جمرك جدة بأن يعطى المبلغ المنقضى لإصلاح الجزء الباقي"(١٠٤).

= المدرسة المسماة بالداودية التي أنشأها في مستهل حكمه مصر، ثم عزل عن مصر سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م، وعاد إلى عاصمة الدولة العثمانية. ابن الوكيل يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق د. عبدالرحيم عبدالرحمن، المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٥٢.

(١٠١) القرش: القرش في الأصل هو تعريب (Groshen) بالألمانية وهي تعني ضربه وتداوله وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي استقر في التعامل التجاري وأطلق عليه (قرش أو غرش)، وتسميه العامة في مصر (إرش)، وضرب في الدولة العثمانية سنة ١١٨٧هـ/ ١٦٧٦م، وكان يحتوي على ٤٠ بارة أو نصف فضة، وكان الكيس خمسمئة قرش. د. صلاح هريدي: الإدارة في الإسكندرية في العصر العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية زغوان، تونس، العدد الخامس فبراير ١٩٩٢م ص ٤٥٠.

(١٠٢) دار الوثائق: محفظة معية سنية ٢، دفتر رقم ٤، وثيقة رقم ١٦، مؤرخة في ١٥ رجب ١٢٣٤هـ/١٨١٨م.

(١٠٣) الوثيقة نفسها.

(١٠٤) دار الوثائق: دفتر ١٤ معية تركي، مكاتبة رقم ٢٩١، مؤرخة في ١٧ جمادى الأولى ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م.

وقد جاءت الموافقة على قبول صرف المبلغ المذكور، وقد قام قاضي مكة بنفسه بصرفه وإنفاقه في إصلاح هذا الجزء وإخطار ناظر الخزينة في مكة بأن يقوم بإصلاح ما لم يتم إصلاحه بها[١٠٥].

مما سبق يتضح لنا عظم المهام التي ألقيت على عاتق قضاة مكة إبان ذلك القرن والتي قاموا بأدائها على أكمل وجه، الأمر الذي يكشف مكانة هؤلاء القضاة، والثقة الكبيرة التي أولتها إياهم الدولة.

دور القضاة في الحياة السياسية:

وبالإضافة إلى المهام السابقة، فقد كشفت الوثائق دورًا مهمًا لقضاة مكة في الحياة السياسية، إذ كانوا يقومون بكتابة التقارير عن أحوال مكة وسلوك أمراء مكة المكرمة فيها من حيث استقامتهم وهفواتهم[١٠٦]، هذا فضلاً عن مشاركتهم في اتخاذ القرارات السياسية مع كبار المسؤولين في مكة، الأمر الذي يعزز من مكانة هؤلاء القضاة ويبرز دورهم المهم في الحياة السياسية، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما حدث بعد عزل الشريف يحيى من الإمارة في ذي القعدة ١٢٤٢هـ/ أيار ١٨٢٧م.

ولما لم يصدر فرمان بتعيين الشريف الجديد، ولم تصل إلى مكة المكرمة أية أوامر أو تعليمات بهذا الشأن من باشوية مصر، فقد اجتمع قاضي مكة مع الأشراف، وقائد الحامية العسكرية أحمد باشا، واتفقوا على تنصيب الشريف عبدالمطلب ابن الشريف غالب أميراً لمكة المكرمة وكالة، وكتبوا برئاسة القاضي إلى محمد علي بخصوص تعيين هذا الشريف أميراً بالأصالة، فأبلغ محمد علي الباب العالي بما حدث[١٠٧].

---

(١٠٥) دار الوثائق: دفتر ١٤ مكاتبة، رقم ٢٩٢، مؤرخة في ١٧ جمادى الأولى ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م.

(١٠٦) جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ٨٣.

(١٠٧) جارشلي: المصدر السابق، ص ١٦١.

وفي المحرم سنة ١٢٤٨هـ/ حزيران ١٨٣٢م صدرت أوامر للقضاة في مكة والمدينة ومصر جميعاً بمساعدة الشريف عبدالمطلب المعين على مكة بفرمان في ذلك التاريخ(١٠٨).

قبول وساطة القاضي:

واستكمالاً لدورهم السياسي، كانت طبيعة وظيفة هؤلاء القضاة التي تكسبهم المهابة والقوة والنفوذ وتمكنهم من القيام ببعض الوساطات لحل المشكلات السياسية أو المتعلقة بالأوضاع السياسية في مكة المكرمة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك قيام أحد هؤلاء القضاة بالوساطة أثناء الصراع الذي وقع بين الشريف غالب بن مساعد وبقية الأشراف، إذ تمكن القاضي المكي من حل الأزمة بوساطته حيث انتهت بتولي الشريف أغلب الأمور ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م(١٠٩)، واسترضاء منافسيه، وبذلك استطاعوا إبعاد الفتنة عن الحجاز.

كما قام القضاة المكيون بدور مهم في تحمل مسؤولية نقل رسائل الفقراء والمساكين والضعفاء والصلحاء وغيرهم إلى السلطان وإلى والي مصر أو محافظ جدة، وتمكن هؤلاء القضاة من فعل الكثير سواء برفع المظالم أو جلب المصالح والمنافع لهؤلاء الفقراء بموجب وظائفهم القضائية وحسبة لوجه الله سبحانه(١١٠).

محاسبة القضاة عند التقصير أو الإهمال:

على الرغم من المكانة الرفيعة التي تبوأها قضاة؛ مكة نظراً للمهام الجسام التي أنيطت بهم، وللدور السياسي والاجتماعي الذي يقومون به، والذي يعبر عن ثقة الدولة في عدل وكفاءة هؤلاء القضاة، غير أن الدولة ما كانت لتسمح لأي قاض مهما كانت منزلته بالتقصير أو الإهمال

---

(١٠٨) المصدر السابق نفسه: ص ١٦٥.

(١٠٩) جارشلي: أمراء مكة في العهد العثماني، ص ١٥١.

(١١٠) دار الوثائق: محفظة ١١ بحر برًا، مكاتبة ٢٧، مؤرخة في ٢١ ربيع الثاني ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

الدارة
مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون

في المهام المنوطة به أو الموكلة إليه، فكانت تؤاخذه بل وتحاسبه لدى حدوث أي تقصير أو إهمال، ففي رسالة موجهة إلى قاضي مكة وأمين جمرك[١١١] جدة يؤاخذه والي مصر على إهماله في مسألة توزيع الحنطة المرتبة لفقراء مكة ومجاوريها ويحذره من تكراره[١١٢].

وكان إذا أصدر القاضي حكماً يستحق أن يراجع فيه وأن يعاد النظر فيه، وكان صاحب الحكم يتضرر من ذلك، فيرفع عريضته إلى والي مصر الذي كان يقوم بدوره بمخاطبة قضاة مكة المكرمة بهذا الشأن، ومن الأمثلة التي تؤكد دور الدولة الإيجابي وعدم ركونها إلى الظلم الذي يقع على الأهالي نتيجة إهمال قضاة مكة في بعض الأحوال، حيث تبادر الدولة بمطالبة القضاة بالتأكد مما تظلم منه بعض الأهالي إلى الدولة سواءً الإدارة العثمانية في مصر أو الدولة ذاتها، تقول الوثيقة التي بين أيدينا: "من الديوان الخديوي إشعار بأنه أرسل إليه المكاتبة الواردة من ظاظا قاسم أغا زوج السيدة المسماة فاطمة المصرية التي أرسل إليها ورق طلاق بدون إمضاء فتطالب بمرتبها ونفقتها ومهرها، فإذا كان مضمون هذا صحيحاً فيقوم القاضي بإخبارنا بذلك وإخبار رئيس أولاد الجيش والعسكر بمرافقتها والذهاب معها إلى المحكمة الشرعية للنظر في قضيتها شرعياً وتخصيص نفقة لها وإحقاق الحق حسب الأمر العالي الصادر في ذلك"[١١٣].

---

(١١١) جمرك: في الأصل لفظ إيطالي هو (Commercio)، وهو يعني مركز تحصيل المكوس والضرائب على السلع الخارجة والداخلة. د. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص ٧٠.

Shaw,stan ford: The finiciek and Administratiue Organisation and development of Ottoman Egypt (1517-1798) princetan, new, yersy 1964. PP. 272-280.

(١١٢) دار الوثائق: دفتر معية تركي ١٠، ترجمة المكاتبة رقم ٢١٣، مؤرخة في ٢١ رجب ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(١١٣) دار الوثائق: دفتر خديوي تركي رقم ٧٨٠، وثيقة ٦٩، مؤرخة في ٦ رمضان ١٢٤٧هـ/١٨٣١م.

ومن الجدير بالذكر أن الإدارة في مصر كانت مفوضة من قبل العاصمة إستانبول بضرورة اتخاذ موقف صارم من قضاة مكة المهملين أو المقصرين في واجباتهم؛ مما دفع البعض إلى التعلل بظروفه صادقاً أو غير ذلك، ومن الأمثلة على التعلل بالمرض ما جاء في رسالة من محمد صادق أفندي قاضي مكة المكرمة إلى والي مصر، يعتذر فيها عن تأخيره عن تقديم العرائض بسبب المرض الذي أصابه كما أصاب الحجاج وابتلائه مرة أخرى بالملاريا واضطراره إلى التنحي إلى الطائف ويشكر الله تعالى على شفائه ومباشرته تنفيذ أحكام الشرع واستعداده لتنفيذ الأوامر السامية(١١٤).

وإذا قام القاضي بالخروج عن إرادة الدولة أخذت منه موقفاً في غاية الشدة، مثل ما أوردته الوثائق المصرية من الشدة والتعنيف والتهديد بالقول، خاصة في قضية الشريف محمد بن عون الذي اختلف مع الأهالي، فانضم القاضي إلى الأهالي متضامناً معهم، فجاء الأمر العالي بالتهديد للجميع؛ للشريف الذي يريد الخروج عن رأي الإدارة، وللقاضي وللأهالي المسببين للفتنة، جاء فيه: "وبأنه إذا كان ما زال يميل لهذا الفكر ومصر على تلك الأفعال يكون سبباً لانقلاب الالتفات الحاصل له بتغير الخاطر عليه، وإتلاف نفسه وفقدان النعم التي نالها"(١١٥). كذلك فقد تم التشديد على الشريف أيضاً مع القاضي "وأن عدم انضمام الشريف للمحافظ يكون سبباً لضياع النعم العظيمة التي نالها في ظل محمد علي ولا يشك في عزله وتنصيب بدله، وبأنه إذا كان حصل بينه وبين المحافظ برودة نشأ عنها أفعاله هذه يبديها التحقيق، وأنه لا يتردد في تأديب من يظهر عليه الحق"(١١٦).

(١١٤) دار الوثائق: محفظة ١٧ بحر برًا، وثيقة رقم ٥، مؤرخة في ٣ صفر ١٢٤٧هـ/١٨٣١م.

(١١٥) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي، محفظة ٢، وثيقة في دفتر ١١، مؤرخة في ١٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م.

(١١٦) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي، رقم ٢، دفتر ١١، مؤرخة في ٢٣ صفر ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

ويتضح من هذه الوثيقة المهمة أن الشريف والقاضي قد أحيلا للتحقيق، وإن كانت الوثائق المصرية لم تفصح أو تشر إلى ماهية التحقيق ومكانه وما وصل إليه من نتيجة، لكن الذي لا شك فيه أن الدولة كانت تتدخل في شؤون القضاء وتبحث عن مدى ولاء القضاة الكامل لها، وهو ما يشير كذلك إلى أن القضاة على الرغم من أنهم قاموا بكتابة تقارير عن كبار الشخصيات في الحجاز نجد أن تقارير أخرى تكتب من رجال الأمن عنهم وعن سلوكهم وعن أحوال القضاء في عهدهم؛ مما يعطي تصورا عن أسلوب الدولة العثمانية في إدارة شؤون الدولة ورجال المناصب والوظائف العليا؛ مما يؤدي في النهاية إلى عوامل سلبية تؤثر في النظام العام كله.

يتضح من هذه الوثيقة المهمة أن الشريف والقاضي قد أحيلا للتحقيق

تكريم الدولة للقضاة عند الوفاة:

كان قضاة مكة المكرمة يحاطون بمظاهر التكريم عند وفاتهم كما كانوا يحفلون بها في حياتهم، فكان إذا توفي أحد القضاة تبلغ الإدارة المصرية على الفور بهذا الخبر، وعلى سبيل المثال لا الحصر حين حضرت الوفاة القاضي عطا الله أفندي سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م تم إبلاغ الخبر فوراً إلى والي مصر(١١٧).

وعند إحاطة والي مصر بالخبر كان يتخذ قرارات عدة، منها نقل جثمان القاضي المتوفى مع الإكرام الزائد إلى موطنه(١١٨)، ومنها حفظ حقوقه، وتسليمها إلى الورثة، حيث كان الورثة في تلك الحالة يطلبون حقوقهم من الدولة، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها

---

(١١٧) دار الوثائق: محفظة بحر برًا، وثيقة ١٠٨، مؤرخة في ١٠ ذي القعدة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

(١١٨) دار الوثائق: محفظة ١٠ بحر برًا، وثيقة ١٧، مؤرخة في ١٥ المحرم ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

الميرلوا محمد أمين بك وكيل محافظة مكة إلى باشمعاون الخديو، جاء فيها: "مولاي صاحب الدولة، والإكرام والهمم العالية، تلقى حضرة صاحب الدولة الباش عسكر الأقطار الحجازية الأمر السامي الذي صدر إليه وعلم منه أن زوج لبيب أفندي قاضي مكة المكرمة سابقاً وأيتامه قدموا عريضة إلى الأعتاب الخديوية التمسوا فيها قسم حاصلات مدة قضائه الباقية بعد وفاته، وأن الحاصلات الباقية تبلغ سبعة عشر ألفاً وثلاثمائة وتسعة وثمانين قرشاً وثلاثاً وثلاثين بارة، فأقدم هذه القائمة صوب دولتكم لعلها تشتمل بنظركم"(١١٩).

بالإضافة إلى موافقة الجناب العالي على مثل هذه العرائض المقدمة من الورثة كانت الدولة تقرر لأسرته مبلغاً إضافياً قدره ٥٠٠٠ قرش، إعانة بعد فقد العائل(١٢٠)، وبذلك تكون الدولة قد أكرمت القاضي في مكة بعد وفاته كما كانت تكرمه في حياته.

ثم تقوم الدولة بتعيين القاضي الجديد في مثل تلك الظروف الطارئة(١٢١)، وحتى يأتي القاضي الجديد كانت تضاف وظيفة القضاء إلى المفتي الحنفي كما حدث بتولي المفتي في مكة وظيفة القضاء بعد وفاة عثمان كامل أفندي وأن المفتي قائم بالوظيفة بالنيابة لحين ورود قاض جديد(١٢٢).

وتكرر هذه التولي بالنيابة أيضاً عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م بعد وفاة أحد قضاة مكة المكرمة وهو لبيب أفندي حيث أمدتنا الوثائق بطريقة

---

(١١٩) دار الوثائق: محفظة ٢٦٣ عابدين، وثيقة رقم ١٤ حمراء، مؤرخة في ٥ المحرم ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م.

(١٢٠) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي (١)، دفتر ٤ وثيقة ٢٠٥، مؤرخة في ١١ شعبان ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م.

(١٢١) دار الوثائق: محفظة ٩ بحر برًا، وثيقة ١٠٨، مؤرخة في ١٠ ذي القعدة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م.

(١٢٢) دار الوثائق: محفظة ١٠ بحر برًا، وثيقة رقم ١٧، مؤرخة في ١٥ المحرم ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

اختيار القاضي الجديد بأن: "اجتمعت سادة ووجوه مكة المكرمة، واختارت عالماً صالحاً اسمه الشيخ عبدالله سراج مقامه على سبيل الوكالة ليتصرف في مصالح العباد فليرجع الفصل فيه إلى أحكام الشرع"(١٢٣).

عوائد قضاة مكة المكرمة:

أما عن العوائد التي كان يحصل عليها قضاة مكة المكرمة إبان القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي فقد تنوعت إلى عوائد نقدية وعينية.

وتنوعت مصادر العوائد النقدية إلى ما يأتي:

أولاً: العوائد النقدية

أ - رسوم التقاضي:

وكانت تدفع على القضايا المرفوعة كرسوم بين المتقاضين بنسبة ٢,٥٪(١٢٤)، وعلى الرغم من أن هذه الرسوم لم تذكر صراحة في النصوص الوثائقية، إلا أنها قد أشارت إشارات قريبة من هذا المعنى، وذلك حين توفي أحد القضاة وطلبت السيدة زوجته بقية حقوقه، وقررت الدولة تقديم هذه الحقوق كاملة دون نقص(١٢٥) لزوجة القاضي لبيب أفندي قاضي مكة سابقاً وأيتامه، وعندما حسبت العوائد المتبقية تبين أن مجموعها ١٧٣٨٩ قرشاً وكسور قدرها ٣٣/٤ من القرش، وذلك حتى يحصل الورثة على كافة الحقوق(١٢٦).

---

(١٢٣) دار الوثائق: محفظة رقم ٢٦١ عابدين، وثيقة مؤرخة في ٩ ربيع الأول ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م.

(١٢٤) محمد علي فهيم: مخصصات الحرمين الشريفين في مصر، ص ٣٥٠.

(١٢٥) دار الوثائق: وثيقة تركية مترجمة، ١٤ حمراء وأصلية، محفظة ٤٢، مؤرخة في ٥ المحرم ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م.

(١٢٦) الوثيقة نفسها.

وفي سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م كان يتحصل من رسوم التقاضي خمسون ألف قرش كما جاء في وثيقة مهمة بهذا الشأن من والي مصر إلى القبو كتخدا(١٢٧) فيها: "من المعلوم لدينا جزماً أن يتحصل في السنة من رسم قسمة التركات لقضاة مكة ٥٠ ألف قرش"(١٢٨)، وكانت هذه الوثيقة التي أعطتنا إجمالاً رسوم قسمة التركات بخصوص تفوق عوائد قضاة مكة على عوائد نظرائهم قضاة المدينة وقد تساءل والي مصر في نهاية الرسالة "هل ترون زيادة مخصصات قاضي مكة على قاضي المدينة المنورة أكثر من ثلاثين ألف قرش أم أن لكم رأياً آخر؟"(١٢٩).

ولا شك أن هذه الوثيقة تؤكد أن الدولة كانت تحاول المساواة في العطاء لقضاة مكة والمدينة، وقد وفقت في ذلك إلى حد كبير، غير أن الدولة لم تكن قادرة على مساواة قضاة مكة والمدينة في أمر لا تستطيع السيطرة عليه، وهو رسوم قسمة التركات؛ لأن هذا الأمر كان يخضع لظروف خاصة تتعلق بالوفيات.

ب - رواتب وإنعامات:

وبجانب عوائد التقاضي كانت هناك الرواتب والإنعامات التي كانت تأتي إلى قضاة مكة، بموجب فرمان من السلطان العثماني إلى والي مصر الذي كان يبادر بتقديم تلك الإنعامات إلى قضاة مكة، وكانت تلك الإنعامات تتفاوت في المقدار تبعاً لظروف كل قاضي ووضعه الاجتماعي.

(١٢٧) قبو كتخدا أو قابي كتخدا: بمعنى وكيل الباب؛ أي: وكيل الباب العالي؛ أي: وكيل السلطان، وهو لقب يطلق على موظف كبير عينه السلطان مهمته تدبير وتيسير المهام والمطالب للأجانب من الولاة والوزراء والمخابرات والمكاتبات. د. حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ص ١٠٩.

(١٢٨) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي رقم ٢، دفتر ٤، وثيقة رقم ١٨٢، مؤرخة في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م.

(١٢٩) الوثيقة السابقة.

ففي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م صرف مبلغ قدره ١٠٠٠٠ قرش (عشرة آلاف قرش) على سبيل الإكرامية لقاضي مكة المكرمة(١٣٠).

وفي سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م "أنعم على كامل بك قاضي مكة السابق بمبلغ ٣٠ ألف قرش، ويتطلب صرفها له وتقييد في دفتر الإنعامات(١٣١) كراتب ثابت من مصر لقاضي مكة المكرمة"(١٣٢).

وإذا عجز أحد القضاة عن الحصول على حقوقه لسبب أو لآخر كان يرسل رسولاً من قبله ليحصل له على حقوقه، ففي رسالة من والي مصر إلى محافظ جدة يقول فيها عن راتب صادق بك الذي يأخذه من الخزينة المصرية ما يأتي: "وبأن مرتب المشار إليه الذي يعطى من خزينة مصر قد أرسل إليه مع رسوله سعيد أفندي، ثم يأمره بأن يعطيه أيضاً المرتب المعتاد صرفه من جمرك جدة"(١٣٣).

وكانت كل تلك المخصصات التي تخرج من حسابات الإدارة المصرية عقب صدور فرمان الباب العالي وتقديم السند الخاص به، كانت تدون تحت بند: "حساب إرساليات الآستانة والحجاز"، كما جاء في الوثيقة الآتية: "منصرف في ٨ رمضان ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م بسند حضرة قبو كتخداي عن خرج فرمان وخدمة عن رتبة قضاء مكة المكرمة الذي توجهها إلى فضيلتو شاكر أفندي قاضي مصر ومن إفادة المعية السنية الواردة للمالية تحت تاريخ ٢٧ الحجة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م"(١٣٤).

---

(١٣٠) دار الوثائق: دفتر ٧٢٩ خديوي تركي، وثيقة رقم ١١٦، مؤرخة في ١٩ رمضان ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

(١٣١) دار الوثائق: دفتر ٦٦ معية تركي، ترجمة الوثيقة رقم ٢٤، مؤرخ في ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م.

(١٣٢) دار الوثائق: معية سنية محفظة ٢، دفتر ٤، وثيقة رقم ١٨٢، مؤرخة في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠ م.

(١٣٣) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ٥٥٣، مؤرخة في ١٩ رجب ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

(١٣٤) دار الوثائق: ديوان المالية، ورشة الآستانة دفتر شطب حساب إرساليات الآستانة والحجاز، دفتر رقم ٧٧٢ قديم، ٥٣٣٤ حديث عين ١٠٦ مخزن ٤٠.

وهذه الوثيقة تعطينا صورة دقيقة للنظام المتبع لصرف مخصصات القاضي المكي من الإدارة المصرية.

جـ - عوائد من جمرك جدة:

أما المصدر الثالث للعوائد النقدية التي كان يحصل عليها قضاة مكة فتتمثل في راتب للقاضي يستخرج من إيرادات جمرك جدة، فبعد أن أصبح الحجاز تحت الحكم العثماني خصص السلطان سليم الأول لأول قاض يعينه في مكة راتباً من إيرادات جمرك جدة قدره (٥٠٠٠) قطعة ذهبية[١٣٥].

وقد ظلت الرواتب تقدم من جمرك جدة إلى قضاة مكة طوال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حتى صارت أمراً ثابتا أو عادة متبعة تلتزم بها الإدارة المصرية التي كانت تحرر إرادة سنية إلى أمين جمرك جدة تقول فيها على سبيل المثال: "بخصوص صرف عوائد حضرة صاحب الفضيلة محمد سعيد أفندي الذي تعين قاضي (قاضياً) لمكة المكرمة من جمرك جدة حسب المعتاد"[١٣٦].

ومما يجدر ذكره أن الأمر الباشوي الذي كان يصدر للسيد أمين جمرك جدة بهذا الخصوص يرسل الأمر ذاته في الأساس إلى محافظ جدة، غير أن التفاصيل كانت مختلفة تماماً؛ فعندما يصل الأمر إلى أمين جمرك جدة ينبه عليه فيه بإعطاء القاضي راتبه المستحق، بينما في الأمر الباشوي إلى محافظ جدة كان يحاط المحافظ علماً بمدة تولية القاضي للقضاء، وأنه حصل على راتبه المعتاد صرفه إلى قضاة مكة المكرمة من الخزينة المصرية العامرة، ثم يطلب منه إعطاء راتب القاضي من جمرك جدة[١٣٧].

(١٣٥) جارشلي: أمراء مكة، ص ٨.

(١٣٦) دار الوثائق: دفتر معية تركي رقم ١٠، أمر باشوي رقم ٤٠٨، مؤرخ في ١٤ صفر سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م.

(١٣٧) دار الوثائق: دفتر ٢٢ معية تركي، مكاتبة رقم ٣٦٩، مؤرخة في ٢٥ رمضان ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

ولتوضيح ذلك نورد أحد الأمثلة لهذه الأوامر السنية، منها: "رسالة من والي مصر إلى محافظ جدة، ينبه بأن "قضاء مكة قد أسند إلى صاحب الفضيلة صادق بك ابن والدة كتخدا محسوباً على سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م وبأن مرتب المشار إليه الذي يعطى من خزينة مصر قد أرسل إليه مع رسوله سعيد أفندي"(١٣٨)، ثم يأمره بأن يعطيه هو أيضاً المرتب المعتاد صرفه من جمرك جدة.

أما قيمة الراتب الذي كان يحصل عليه قضاة مكة المكرمة من جمرك جدة فقد أفادت الوثائق أن راتب القضاة من هذا الجمرك كان (٤٠٩٠) زرًا محبوبًا(١٣٩)، فقد أُعطي أحد قضاة مكة المكرمة هذا الراتب، وهو القاضي محمد عارف(١٤٠)، وفي العام الذي يليه تقرر الراتب نفسه للقاضي الذي تولى قضاء مكة بعده القاضي عبدالفتاح أفندي(١٤١).

ومن المهم أن نذكر أن هذه الرواتب كانت تأتي إلى مصر بالزر المحبوب، بينما كانت تكتب في الرسائل إلى محافظ جدة بالقرش، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في إحدى الرسائل إلى المحافظ المذكور، جاء فيها: "وبأن يصرف المرتب المعتاد صرفه من جمرك جدة المعمور وقدره أحد عشر ألف قرش ومائتان وخمسون قرشاً"(١٤٢).

---

(١٣٨) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ٥٥٣، مؤرخة في ١٩ رجب ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

(١٣٩) الزر المحبوب: عملة عثمانية ضربت في عهد السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦ – ١١١٥هـ) وكان يزن ٢,٦ جم، وأطلق عليه الجبرتي الجنزرلي أو المحبوب، وظل هذا النقد مستخدماً حتى ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م، للمزيد: مصطفى بن الحاج إبراهيم: تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة تحقيق د. صلاح هريدي، الطبعة الثانية، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ص ٦٣.

(١٤٠) دار الوثائق: سجلات الفرمانات، فرمان رقم ٤٦١، مؤرخ في ٢٠ ربيع الثاني ١٢٤١هـ/ ديسمبر ١٨٢٥م.

(١٤١) دار الوثائق: سجلات الفرمانات، فرمان رقم ١١٤، استرجاع رقم ٤٨٠، مؤرخ في ١ شعبان ١٢٤٢هـ/٢٨ يناير ١٨٢٧م.

(١٤٢) دار الوثائق: محفظة ٤٢ معية سنية تركي، دفتر ٤٠ مكاتبة، رقم ٥٣٣ تراجم ملخصات، مؤرخة في ١٩ رجب ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

ولما كانت الرواتب المذكورة تأتي في الفرمانات بالعملة المعروفة "بالزر المحبوب"، فقد كانت ترد في بعض الفرمانات بعملة "الزر المحبوب" مع ذكر ما يعادلها من القروش، ففي فرمان سلطاني إلى الجناب العالي في مصر "يعطى محمد سعيد أفندي المعين قاضياً لمكة المكرمة (٤٠٩٠) زر محبوب بما يعادل (١١٢٥٠) قرشاً نصرة له من حال جمرك جدة "(١٤٣)، ومما لا شك فيه أن ورود هذا الأمر السلطاني بهذه الدقة المتناهية كان علاجاً لما يمكن أن يحدث من حالات التلاعب في سعر العملة الذي كان سائداً في تلك المرحلة التاريخية المهمة من تاريخ مكة المكرمة، ومن الأمثلة على هذا التلاعب ما حدث سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م حينما قام بعض التجار بالتلاعب في بيع العملة وصرفها، وحينما لحظت الإدارة في مكة هذا التلاعب لا سيما سعر الريال الفرانسي، الذي بيع بأزيد من قيمته أرسلت الإدارة المصرية بتحذير إدارة مكة من ذلك التلاعب، وحددت الأسعار الخاصة به، وتقول الوثيقة: "حيث إن رواج ريال الفرانسة على مقتضى الحال في مصر بسعر أحد عشر قرشا ونصف قرش وتداول بين التجار بهذا السعر يكون من الموافق لإرادتنا إعطاء الرخصة لأهالي مكة المكرمة في أخذ ريال الفرانسي المتداول بين أهالي مكة المكرمة وإعطائه بنفس السعر المذكور عاليه، ونبهوا الأغا ناظر الخزينة على قبوله بهذا الوجه"(١٤٤)، وهو ما يؤكد أن الدولة لم تكن تقف مكتوفة الأيدي(١٤٥) إزاء هذه

(١٤٣) دار الوثائق: فرمان شاهاني رقم ٣٢٩، مؤرخ في ٢٩ ربيع الثاني ١٢٣٧هـ/ ٢٢ يناير ١٨٢٠م.

(١٤٤) دار الوثائق المصرية، وثيقة ٥٧، دفتر ٧ معية تركي مؤرخ في ٢٦ صفر ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م.

(١٤٥) لم يكن هذا الموقف المتشدد موقف باشا مصر وحده، بل إن السلطان العثماني أصدر فرمانا في فترة تاريخية لاحقة خلال هذا القرن ورد فيه (بالتنبيه باتباع أمر السلطان بالمعاملة بالأسعار الواردة دون زيادة بالنسبة للعملة الريال أبي مدفع وقيمته ٢٣ قرشا، وكسور ١٧ نصفا، والريال أبي طاقة ٢٢ قرشا و٢٠ نصفا، وذلك سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م). دار الوثائق، دفتر حساب التكية لمكة المشرفة من المحرم ١٢٨٠هـ حتى ربيع آخر سنة تاريخه، رقم السجل ٢، عين ١٠٧، مخزن ٤٠.

الأحداث، وقد كان يشرف على إصلاح هذه الأوضاع القاضي بنفسه، وبالتالي لا تتأثر ميزانية الإدارة في جدة ومكة ولا يحدث تلاعب لا في راتبه ولا راتب غيره من الموظفين، لا سيما أن جمرك جدة كان المصدر الأساسي لراتب القضاة، وذلك خلاف الإنعامات والراتب العيني من الحنطة والغلال بوجه عام، ومما تجدر ملاحظته أن قاضي المدينة المنورة كان يحصل على الراتب نفسه باعتبار أنهما في مرتبة قضائية واحدة؛ لذلك كان يحصل على ٤٠٩٠ زرًا محبوبًا من جمرك جدة(١٤٦)، وكانت الدولة حريصة على مساواة قاضي المدينة المنورة في العطايا مع قضاة مكة المكرمة(١٤٧).

وأخيراً فكان إذا مات أحد القضاة في مكة المكرمة كان مرتبه يعود إلى جمرك جدة كأمانات، وذلك حتى يطالب به أحد الورثة، وذلك كما سبق أن قدمنا، ومن الأمثلة على مارجع إلى خزينة أمين جمرك جدة ما أورقه دفاتر إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية، حيث جاء فيها: "عما كان صرف لزوم حضرة قاضي مكة المشرفة وبوفاته صار ارتداده وأضيف على إيرادات الجمرك ٢٢ كيساً رومياً"(١٤٨).

ثانيا: العوائد العينية:

جرت العادة منذ القدم على إعطاء قضاة مكة مقداراً من الحنطة المرسلة مع صرة مصر أو بدلاً نقدياً عن تلك الكمية بما يعادل سعرها في مصر (Misir Riyali)(١٤٩)، وكان مقدار الحنطة المخصص

---

(١٤٦) دار الوثائق: سجلات الفرمانات الشاهانية، فرمان رقم ٤٥٤، مؤرخ في ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٥هـ/ ١٤ يناير ١٨٢٠م.

(١٤٧) دار الوثائق: محفظة معية سنية ٣، دفتر ١٠، ص ١٧، مؤرخة في ١٣ ربيع الأول ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م.

(١٤٨) دار الوثائق: دفتر إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، سجل رقم ١٦٢٦، مخزن ٤٠، عين ١١٤.

(١٤٩) جارشلي: أمراء مكة، ص ٨٣.

لقاضي مكة كل عام يعادل ٣٦٦ أردباً(١٥٠)، فكانت هذه الغلال هي الراتب العيني الرسمي(١٥١) والثابت الموجه إلى قضاة مكة المكرمة في العصر العثماني لا سيما فترة البحث(١٥٢).

وفي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م صدر أمر باشوي إلى ناظر شونة بولاق من أجل صرف ١٥٠ أردبًا حنطة أنعم بها على من يعين قاضياً لمكة أو المدينة المنورة(١٥٣).

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل على عوائد عينية أخرى، قدرها خمسون أردبًا من الحنطة يؤكد ذلك رسالة والي مصر إلى محافظ مكة المكرمة أحمد باشا يوصيه فيها بأن يأمر ناظر شونة مكة المكرمة بإعطاء قاضي مكة الشريف أحمد ابن الشريف سعيد باشا زادة الخمسين أردبًا من الحنطة وهو المقدار المعتاد منحه لحضرات الأفندية قضاة مكة المكرمة(١٥٤).

وكانت هذه الغلال يحصل عليها القاضي خالصة دون أن يتكبد مشقة نقلها من الشونة، بل كانت تنقل إلى مقر إقامته على نفقة الدولة وإذا نقلها على نفقته كان يحصل على بدل نقلها، وهو مبلغ محدد وقدره ١٠١٨٨ بارة، حيث نص في الوثائق على: "حقوق

(١٥٠) الأردب: كيل مصري يعادل ١٥٠ كجم، وتغيرت قيمته عبر العصور، وكان يوزن به الحبوب والحنطة في العصر العثماني. د. صلاح هريدي: الإدارة في الإسكندرية في العصر العثماني، ص ٤٥٠.

(١٥١) دار الوثائق: الفرمانات السلطانية، فرمان رقم ٨٧، مؤرخ في أوائل شعبان ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م.

(١٥٢) دار الوثائق: سجلات الروزنامة، دفتر إيرادات ومصاريف خزينة عامرة واجب سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م، وواجب سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م.

(١٥٣) دار الوثائق: دفتر ٧٢٩ خديوي تركي، وثيقة ١٠٢، مؤرخة في ٢٤ رمضان ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

(١٥٤) دار الوثائق: معية سنية تركي، محفظة ٤٢، دفتر ٤٠، أمر ٦٥ تراجم وثيقة رقم ١٤٧، مؤرخة في ٩ شوال ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م.

القاضي المكي من خزينة مصر ٣٦٦ أردب و ١٠١٨٨ بارة بدل النولون للحاج عمر أفندي جلبى زاده"[١٥٥].

وفي بعض الأحيان كان قضاة مكة المكرمة يقبلون القيمة النقدية للقدر المستحق له، فقد ورد داخل دفاتر الإيرادات والمصروفات التابعة لديوان الروزنامة[١٥٦]، أن الإدارة قررت في سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، صرف مبلغ ٣٨٢٥٥ قرشاً ثمن قمح لزوم قاضي مصر وقاضي مكة ونقيب الأشراف[١٥٧].

ويلحظ أن الوثيقة لم تجدد قيمة ما يستحقه كل من هؤلاء الثلاثة بل ذكرت المبلغ المستحق لهم جميعاً على وجه الشيوع، ولكن الذي يجب استخلاصه والخروج من هذه الوثيقة المهمة أن القاضي في مكة كان أحياناً يحصل على القيمة النقدية بدلاً من مستحقاته العينية.

مما سبق يتضح أن الرواتب المقدمة إلى قضاة مكة المكرمة كانت كبيرة ومجزية بالفعل، وكانت تكفيه مؤونة العيش والحياة الكريمة مدة قضائه، وبالتالي يستطيع القيام بأعباء منصبه على أكمل وجه، باعتبار أن هذا المنصب كان منصباً رفيعاً، ويعد أحد أهم المناصب القيادية البارزة في مكة المكرمة آنذاك، كما يتضح ذلك جليًّا من

(١٥٥) دار الوثائق: ديوان جلالة الملك، تلخيص الفرمانات السلطانية، في ١/١/٥، فرمان ٨٧ أوائل شعبان ١٢٢٢هـ/٥ أكتوبر ١٨٠٧م.

(١٥٦) ديوان الروزنامة: هو ديوان المالية صاحبه هو الروزنامجي، وهو المسؤول عن تسجيل الإيرادات والمصروفات اليومية، واللفظ في الأصل مكون من مقطعين: روز بمعنى يوم، ونامة بمعنى كتاب؛ أي: كتاب اليومية أو دفتر اليومية، وكان للروزنامجي صاحب هذا الديوان شأن كبير في كافة أقاليم الدولة العثمانية. للمزيد: عزت أفندي الدارندلي: ضيا نامة مخطوط باللغة التركية، ترجمة د. جمال سعيد عبدالغني تحت عنوان الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٤٧٤.

(١٥٧) دار الوثائق: دفتر إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية عن سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، دفتر رقم ١٦٢١، مخزن ٤٠، عين ١١٤، وهو يخص الفترة التاريخية من ١٢٢٠ - ١٢٣١هـ.

المهام الكثيرة الملقاة على عاتقه، والجهود العظيمة التي كان يسهم بها في قضاء مصالح الناس ورفع الظلم عن الضعفاء وإشاعة جو من الأمان والطمأنينة والاستقرار على حياة الأهالي والمقيمين في مكة المكرمة إبان هذا القرن.

يلحظ أن بعض المراجع التاريخية المهمة قد جانبها الصواب عند حديثها عن قضاة مكة المكرمة خلال فترة البحث، فعلى سبيل المثال نجد الشيخ طاهر الكردي في كتابه التاريخ القويم في الجزء السادس منه يورد قائمة لقضاة مكة المكرمة خلال هذه الحقبة التاريخية تخالف ما ورد في الوثائق، وأيضا نجد الرحالة الشهير بوركهارت في كتابه رحلات في شبه الجزيرة العربية يتحامل بشكل واضح على قضاة مكة وعلى الدولة العثمانية ذاتها في تعاملها مع هؤلاء القضاة.

بعض المراجع التاريخية المهمة قد جانبها الصواب عند حديثها عن قضاة مكة المكرمة

وسوف نحاول - إن شاء الله تعالى - أن نصوب الأخطاء التي وردت في كتاب الشيخ طاهر الكردي، كما سنحاول مناقشة المزاعم والادعاءات التي وردت في كتاب بوركهارت بحيادية وموضوعية.

أولاً: ففيما يتعلق بالشيخ طاهر الكردي وقائمة القضاة التي وردت في كتابه فإنه وقبل أن نتحدث عن قائمة القضاة التي أوردها ينبغي التأكيد على أن الشيخ طاهر الكردي يعد أحد المؤرخين أصحاب الشأن الذين كتبوا عن تاريخ مكة المكرمة، وذلك بما قدمه في كتابه التاريخ القويم في ستة مجلدات ضخمة من مادة علمية تستحق الإعجاب، وذلك في شتى مجالات الحياة في مكة من سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وحضارية؛ مما جعل هذا المؤلف يتبوأ مكانته العالية كأحد أصحاب المصنفات البارزة في تاريخ مكة المكرمة، وذلك بفضل المصادر المهمة والمتنوعة التي اعتمد عليها في كتابه.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

غـيـر أنه بالـرجـوع إلى قـائمـة القـضـاة التي أوردها في الجـزء السادس[١٥٨] عند حديثه عن القضاء في مكة - معتمداً في ذلك على ما أفاده به رئيس المحكمة الشرعية بمكة - والخاصة بذكر أسماء من تشرفوا بتولي مهمة القضاء في مكة المكرمة خلال مرحلة البحث نجد أنها قد شابها الخلط والاضطراب وتخالف ما ورد في الوثائق من حيث أسماء القضاة وسني توليتهم؛ مما يعني أن هذه القائمة تحتاج إلى إعادة نظر للوصول إلى قائمة صحيحة لإبراز الحقيقة التاريخية حول هذا الأمر بحيث تكون مستقاة من الوثائق الأصلية سواء في مصر أو الحجاز، حيث تتوافر نصوص الفرمانات أو الرواتب المرصدة على القضاة من جمرك جدة، أو سجلات محكمة مكة المكرمة التي تعود إلى ذلك القرن، بالإضافة إلى الأوامر الباشوية أو غير تلك المجموعات.

ثانيا: أما موقف بوركهارت من القضاة فقد نظر إلى قضاة مكة المكرمة نظرة متحاملة، فالقاضي في مكة من وجهة نظره ليس مستقل الإرادة، بل يخضع لنفوذ الوالي، وأيضا للقاضي أن يستبد ويظلم كما يحلو له طالما أنه يرسل دعماً مالياً منتظماً للباب العالي. كما يرى بوركهارت أيضاً تفشي عملية الرشوة بين القضاة، بحيث أن المتقاضي لا يكسب القضية إلا إذا دفع شيئاً للقاضي الذي يشاركه فيه الوالي، كما يعرج بوركهارت إلى الحديث عن رسوم التقاضي باهظة التكاليف التي تبلغ - في زعمه - ربع المبلغ المتنازع عليه، كما يزعم أن الباب العالي يشجع هذه الفوضى، حيث يباع منصب القاضي علناً لأعلى المزايدين، مع علم الباب العالي أن القاضي سيعوض المبلغ الذي دفعه من استغلال منصبه[١٥٩].

---

(١٥٨) محمد طاهر الكردي المكي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، جـ٦ ص ١٠٦.

(١٥٩) بوركهارت: رحلات في شبه الجزيرة العربية ص ٢١٤.

وبعد عرض مجمل هذه المزاعم التي أوردها بوركهارت في سياق تحامله على قضاة مكة المكرمة، ينبغي قبل مناقشة هذا الرحالة في آرائه واتجاهاته، ينبغي أن نؤكد أن بعض القضاة كانت تصدر منهم بعض التصرفات التي تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية، لكن لم يكن ذلك على وجه التعميم الذي يراه بوركهارت، وإنما تعد هذه التصرفات حالات فردية، لذلك نؤكد بشيء من الاطمئنان أن آراء هذا المستشرق كانت متحاملة بصورة واضحة كما سيظهر في ضوء ما أوردته وثائق أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة، ليتضح من خلال هذا الأرشيف أن ما أورده هذا الرحالة كان فيه تحامل واضح، ليس على قضاة مكة المكرمة فحسب، بل على الدولة العثمانية ذاتها، ولا غرابة في تحامل بوركهارت وأمثاله على تلك الدولة الإسلامية؛ فهي الدولة التي واجهت أوروبا قروناً عدة، وكانت العدو الأول للأوروبيين جميعاً طوال هذه الحقبة التاريخية الطويلة، ونبادر القول رداً على تلك الادعاءات أن بوركهارت عندما يرى أن القاضي تحت النفوذ المباشر للوالي، فإن ذلك يتناقض مع ما أوردته الوثائق المودعة بدار الوثائق القومية بالقاهرة من وقوع خلافات كبيرة بين الأشراف والباشوات وتدخل قاضي مكة للإصلاح(١٦٠)، ليس هذا فحسب بل كان قضاة مكة المكرمة يبعثون بالتقارير التي توضح أمور الحجاز السياسية لدى الباب العالي، واستطاع القضاة كشف وفضح تصرفات بعض الأشراف والباشوات وغيرهم(١٦١)، بما ينفي هذه الشبهة عنهم.

أما ادعاؤه قضية الدعم المالي من قضاة مكة المكرمة للباب العالي فلا يمكن لمنصف أن يوافقه على هذا الادعاء لسبب منطقي، وهو أن الدولة لم تكن تأخذ أموالاً مباشرة، فكانت الأموال تنضم لجمرك

(١٦٠) دار الوثائق: محفظة معية سنية ٢، دفتر ١١، ملخصات الأوامر المستخرجة من ١١ - ٢٠، مؤرخة في ٢٠ صفر ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

(١٦١) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي رقم ٣، كراس ١٠، ص ١٧، مؤرخة في ١٣ ربيع الأول ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م.

جدة[١٦٢]، ثم تقسم بين الأشراف[١٦٣]، وأن كل الأموال المخصصة للقضاة وللقضاء من جمرك جدة ما هي إلا رسوم من ميناء جدة تصرف في كافة شؤون الحجاز، ليس هذا فحسب، بل إن الدولة كانت تحصل فقط على حسابات هذه الجمارك والعوائد والمخصصات لمنع التلاعب في أموال الدولة، يضاف إلى ذلك أن ما يسمى بالخزينة الإرسالية[١٦٤] ما هي إلا مجموعة الأموال التي كانت تصرف من مصر أو الحجاز على شؤون الحرمين الشريفين والموظفين فيهما وفي إقليم الحجاز، ولم تكن تُرسل أموال من مصر إلى الدولة العثمانية كما تفيد الوثائق المصرية، وإنما الهدف هو وجود حسابات دقيقة منعاً للتلاعب[١٦٥] كما سبق أن أشرنا.

كذلك فإن رسوم التقاضي لم تكن ربع الأموال المتنازع عليها للتقاضي، وإنما كانت لا تتعدى ٢,٥٪ من تلك الأموال محل التنازع[١٦٦]، وهو ما يوضح أنها لم تكن مبالغ كبيرة، وللدليل على ذلك فإن رسوم التقاضي عن سنة واحدة للقاضي "محمد صادق" لم تزد على ستة آلاف قرش، وهو مبلغ لا يصل إلى مقدار راتبه الذي بلغ ثلاثين ألف قرش من مصر وأحد عشر ألف قرش ومئتين

---

(١٦٢) دار الوثائق: ديوان المالية، دفتر إيرادات ومصروفات الحكومة المصرية ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، دفتر رقم ١٦٢٦، مخزن ٤٠، عين ١١٤.

(١٦٣) عارف عبدالغني: تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر، سورية، ١٩٩٢م، ص ٧٨٨.

(١٦٤) الخزينة الإرسالية: هي المخصصات المقررة للدولة العثمانية الباقية بين الإيرادات والمصروفات، وقد سجلت فيها بالتفصيل الإيرادات والمصروفات والأموال المتبقية، أما هذا الفرق فكان في أغلب الأحيان يصرف على شؤون الحياة في مصر والحجاز عنها.

Shaw: Op, cit, P. 305.

(١٦٥) دار الوثائق: سجلات الديوان العالي، سجل ٣، ٣٥٢ – ٣٧، ص ١٧ – ١٩، وديوان المالية، ورشة الآستانة، دفتر شطب حساب إرساليات الآستانة والحجاز عن سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م، رقم ٧٧٢ قديم، ٥٣٣٤ حديث، عين ١٠٦، مخزن ٤٠.

(١٦٦) هاملتون جب وآخر: المجتمع الإسلامي والغرب، الهيئة المصرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، جا ص ٢٤١.

وخمسين قرشا من بندر جدة[١٦٧]، وهو بالتالي مبلغ ضخم جداً غير الحنطة وعلوفات دواب القضاة، وعلى هذا فإن العائد من رسوم التقاضي كان مبلغاً هزيلاً، وهو ما يرد على ادعاءات بوركهارت.

وبما لا شك فيه أنه يكفي للرد على بوركهارت مما أورده في كتابه حينما تحدث عن أن الصدر الأعظم في العاصمة كان يقدم إعانة قدرها مئة كيس لقاضي مكة المكرمة[١٦٨]، وهو رد من كتابه على ما أورده من اتهامات لقضاة مكة المكرمة، وفي هذا السياق يمكن أن نطرح سؤالاً، وهو هل يستطيع القاضي أن يقدم للدولة مثل هذا المبلغ المقدم من الصدر الأعظم من بند رسوم التقاضي؟ ولا شك أن الإجابة ستكون بالنفي؛ لأنه لا يمكن بأي حال وصول رسم التقاضي إلى مثل هذا المبلغ الذي قدمه الصدر الأعظم المذكور إلى القضاة، مما يؤكد تحامل بوركهارت على القضاة.

ونأتي بعد ذلك إلى ادعاء آخر، وهو أن الدولة كانت تشجع القضاة على هذا الفساد، حيث تردُّ الوثائق على مثل هذه الدعاوى، إذ يوجد بدار الوثائق بالقاهرة العديد من الرسائل المباشرة من الجناب العالي في مصر إلى قاضي مكة المكرمة تحذره من عدم احترام الأحكام الشرعية، وتهدده دائما من الخروج على الحكم الشرعي، وقد قبلت الدولة أكثر من مرة شكاوى من بعض الأفراد[١٦٩]، وطالبت القاضي بإعادة النظر فيها مرة أخرى؛ وذلك لسبب واحد، وهو تنفيذ أحكام الشرع وإعادة الحقوق لأصحابها[١٧٠]، وهو ما يؤكد أن الدولة لم تكن

---

(١٦٧) دار الوثائق: دفتر ٤٠ معية تركي، مكاتبة رقم ٥٥٣، مؤرخة في ١٩ رجب ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، ودفتر ٧٢٩ خديو تركي، وثيقة رقم ١١٦، مؤرخة في ١٩ رمضان ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

(١٦٨) بوركهارت: رحلات في شبه الجزيرة العربية، ص ٢١٤.

(١٦٩) دار الوثائق: محفظة معية سنية تركي ٢، دفتر ١١، مؤرخة في ٢٣ صفر ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، ومحفظة ٢ أيضا، وثيقة مؤرخة في ١٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م.

(١٧٠) دار الوثائق: دفتر خديو تركي رقم ٧٨٠، وثيقة ٦٩، مؤرخة في ٦ رمضان ١٢٤٧هـ/١٨٣١م.

صاحبة مصلحة في فساد القضاة، بل كانت تقوم بالضرب بيد من حديد على القضاة الذين يخالفون الأحكام الشرعية كما أوردنا في هذه الدراسة عند حديثنا عن محاسبة الدولة للقضاة عند التقصير أو الإهمال.

وأما ما يدعيه بوركهارت من بيع منصب القضاء في مكة فإن الأمر كان يتعلق بالنظام الاقتصادي للدولة أثناء تطبيق نظام الالتزام، حيث كان القاضي يدفع المبلغ المقرر عليه، وقد أعفي إقليم الحجاز من كل هذه الالتزامات والرسوم(١٧١).

وأخيراً فقد كان من الأهمية بمكان الرجوع إلى الوثائق الأرشيفية من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي تدحض ادعاءات بوركهارت ضد النظم القضائية الموجودة في الحجاز والدولة العثمانية بوجه عام.

---

(١٧١) فائق بكر الصواف: العلاقات بين مصر وإقليم الحجاز (١٨٠٥-١٨٧٦م) رسالة دكتوراه غير منشورة من جامعة الأزهر - القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٧ وما بعدها.

دراسات وثائقية عن الجزيرة والخليج العربي:
٢ - نماذج من عناية الملك عبدالعزيز بالحج

حمد بن عبدالله العنقري
دارة الملك عبدالعزيز

حرص الملك عبدالعزيز بعد دخول الحجاز على العناية بالحرمين الشريفين، وخدمة الحجاج والمعتمرين، فبمجرد استقرار الأوضاع في الحجاز عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، بادر رحمه الله بعمل الإصلاحات والترميمات اللازمة للحرم المكي الشريف؛ حيث أصدر أمره إلى مدير الأوقاف محمد سعيد بالخير[١] "بترميم عموم الخراب الواقع في جدار المسجد الحرام وأرضه وأعمدته، وإصلاح المماشي وحاشية المطاف وعموم الأبواب، وطلاء مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالدهان الأخضر، وكذلك الأساطين النحاسية الواقعة حوالي المطاف، وغير ذلك من الإصلاحات اللازمة"[٢]، وتمت هذه الإصلاحات بشكل عاجل قبل موسم حج عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

وفي العام التالي رأى الملك عبدالعزيز أهمية رصف أرضية المسعى، وأنه سيحقق الراحة للساعين في أدائهم لشعيرة السعي،

(١) محمد سعيد بلخير ولد عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م بمكة المكرمة، وتلقى علومه فيها على يد والده وغيره من علمائها، ودرس في المدرسة الصولتية، وبعد تخرجه فيها عيّن عضواً بهيئة التدقيقات (التمييز)، فمديراً للأوقاف، وعضواً في اللجنة التأسيسة التي شكلت بأمر من الملك عبدالعزيز لوضع التنظيمات الإدارية والسياسية للحكومة في الحجاز، توفي عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م. عبدالجبار، عمر: سير وتراجم بعض علمائنا القرن الرابع عشر الهجري، تهامة، جدة، ط.٣، ١٤٠٣هـ، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) آل عبدالمحسن، إبراهيم بن عبيد: تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان، نشر مطابع النور، الرياض، د. ت، ١٥٩/٣.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة

وينهي معاناتهم من الوحل والغبار، فأمر بأن يفرش الصفا والمروة، ولتنفيذ ذلك شُكلت هيئة تضم عدداً من كبار أهل الخبرة والدراية، وأوصت بأن يكون رصف أرضية المسعى بالحجر الصوان المربع، وأن يطلى بالنورة، وانتهى العمل بذلك في نهاية شهر ذي القعدة من ذلك العام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)[٣]. واستمرت عناية الملك عبدالعزيز بالإصلاحات في الحرمين الشريفين، والعناية بزوارهما من الحجاج والمعتمرين إلى وفاته، وسار أبناؤه من بعده على نهجه.

ويسعى هذا العرض إلى تسليط الضوء على بعض النماذج الوثائقية، التي تبين عناية الملك عبدالعزيز بالحج والحجاج، وذلك من خلال المجموعات الوثائقية التي تحتفظ بها دارة الملك عبدالعزيز. وقد قسمت هذا العرض إلى مداخل أربعة، تندرج تحت بعضها فقرات عدة ذات مواضيع متقاربة، وعرفت ببعض الأعلام الواردة في هذه الوثائق، ممن تمكنت من الحصول على ترجمة له في المصادر المتوافرة، وقد أبقيت نصوص الوثائق كما جاءت في الأصل دون تصحيح للأخطاء النحوية واللغوية الواردة فيها.

١ - دعوة الملك عبدالعزيز عموم المسلمين إلى أداء فريضة الحج:

أ - بعد دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، سار جنده لمحاصرة جدة، فعمل الملك علي بن الحسين على بث دعاته في الأقطار الإسلامية؛ يبلغهم بتعذر أداء المسلمين فريضة الحج في هذا العام؛ بسبب الحرب الدائرة بينه وبين الملك عبدالعزيز[٤].

---

(٣) باسلامة، حسين بن عبدالله: تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، (جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص ٢٩٥- ٢٩٦. الكردي، محمد طاهر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٥-١٤١٢هـ، ٥/ ٣٥٧. آل عبدالمحسن، المرجع السابق، ٣/١٦٤.

(٤) انظر على سبيل المثال: "الحج في هذا العام"، جريدة بريد الحجاز، السنة الأولى، العدد ٤٥، (٢٦ شوال ١٣٤٣هـ)، ص ٣. "حول الحج في هذا العام"، جريدة بريد الحجاز، السنة الأولى، العدد ٤٨، (٨ ذي القعدة ١٣٤٣هـ)، ص ٤. =

وقد سارع الملك عبدالعزيز لرد هذه الدعاية المغرضة، بأن أصدر بيانًا في غرة شهر شعبان ١٣٤٣هـ/ ٢٤ فبراير ١٩٢٥م، نشر في جريدة أم القرى، ووزع على نطاق واسع في العالم الإسلامي كله، كما أرسل إلى صحف البلاد التي يقطنها المسلمون، متضمنا تعهد الحكومة السعودية بأن تكون خير حامية للحجاج بالقول والفعل، كما تضمن أيضا أمورًا منها: الترحيب بوفود حجاج بيت الله الحرام من جميع طوائف المسلمين في موسم هذه السنة، والتكفل بتأمين راحتهم، والمحافظة على جميع حقوقهم، وتسهيل سفرهم إلى مكة المكرمة، وحدد البيان الموانئ التي ستستقبل وفود الحجاج، وهي: رابغ والليث والقنفذة، التي تمت تهيئتها لاستقبال الحجاج والعمار والزائرين، بتسهيل وصول السفن والقوارب منها إلى البواخر الكبيرة في عرض البحر التي تقل الحجاج والمعتمرين، أما ميناء جدة فقد أشار البيان إلى قيام القوات السعودية بإحكام الحصار عليها؛ لوجود الملك علي بن الحسين وحكومته فيها.

كما أكد البيان أن النظام قد أحكم، والأمن قد استتب استتباباً تاماً في المنطقة، وأنه تم اتخاذ جميع التدابير التي تكفل راحة الحجاج وسلامتهم(٥)، كما تم إبلاغ جميع ممثلي الدول الأجنبية في جدة بذلك(٦).

ولم يكتف الملك عبدالعزيز بهذا بل بعث عدداً آخر من الخطابات إلى ملوك ورؤساء وقادة المسلمين، وممثلي الحكومات الغربية

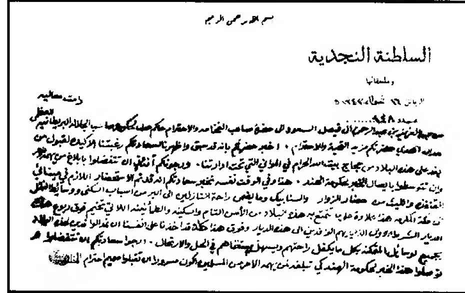
= وحول الدعاية الحجازية ضد الحج في هذا العام انظر تقارير ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة، ونائبه ستانلي روبرت جوردان إلى وزارة الخارجية البريطانية في الملفات الآتية في أرشيف وزارة الخارجية بلندن:

FO 371/10809, FO 371/10810.

(٥) "نداء عام إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها"، جريدة أم القرى، السنة الأولى، العدد ١٢، (٣ شعبان ١٣٤٣هـ)، ص ٢.

(٦) FO 371/10809 خطاب من الملك عبدالعزيز إلى ممثلي الدول الأجنبية في جدة في ٢٨/١١/١٣٤٣هـ.

المستعمرة لعدد من الدول الإسلامية، يبين لهم سلامة طرق الحج، وأنه قد أخذت جميع الوسائل التي تكفل راحة الحجاج، ومن هذه الخطابات؛ خطاب وجهه الملك عبدالعزيز إلى الجنرال تي. أي.


بسم الله الرحمن الرحيم

السلطنة النجدية

وملحقاتها

سكوت المقيم السياسي في عدن، وهذا نصه: "من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل السعود إلى حضرة صاحب الفخامة والاحترام حاكم عدن لحكومة صاحب الجلالة البريطانية العظمى دامت معاليه[٧]، بعد ما أهدي حضرتكم مزيد التحية والاحترام. أخبر حضرتكم بأنه قد سبق وأظهرنا لسعادتكم رغبتنا الأكيدة لقبول من يفد على هذه البلاد من حجاج بيت الله الحرام في المواني تحت إدارتنا. ورجوناكم آنئذ أن تتفضلوا بإبلاغ من يهمه الأمر، وأن تتوسط بإيصال الخبر لحكومة الهند. هذا وفي الوقت نفسه نخبر سعادتكم أنه قد تم الاستحضار اللازم في مينائي القنفذة والليث[٨] من إحضار الزوارق والسنابيك[٩]، وما يضمن راحة

---

(٧) كان المقيم السياسي في عدن في هذه الفترة الجنرال تي. أي. سكوت، الذي أصبح مقيمًا سياسيًا من عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م وحتى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م. محمد، علي ناصر: عدن التاريخ والحضارة، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ، ص ١١٤.

(٨) أشارت الوثائق البريطانية إلى الاستعدادات الجارية في هذه الموانئ لاستقبال الحجاج، وعن وصولهم إليها بسلامة وأمن، انظر: FO 371/10807 تقرير من ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٥/٣/١١م. FO 371/10808 تقارير من ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٥/٤/٣٠م، ١٩٢٥/٥/٢١م، ١٩٢٥/٥/٢٩م. كما رصدت أيضًا وصولهم، انظر: (IOR) R 15/1/565 تقرير من ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٥/٦/٢٩م.

(٩) السنابيك مفردها سنبوك، وتنطق سنبوق أو سمبوك، ويراد بها نوع من أنواع السفن ذات الحجم المتوسط، والتي يغلب استعمالها في عمليات الغوص. زيات، حبيب: الوراقة وصناعة الكتابة ومعجم السفن، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٢م،=

النازلين إلى البر من أسباب السكنى ووسائط النقل إلى مكة المكرمة، هذا علاوة على ما تتمتع به هذه البلاد من الأمن التام والسكينة والطمأنينة اللاتي تخيم فوق ربوع هذه الديار الشرط الأول الذي يهم الوافدين إلى هذه الديار، وفوق هذا كله قد أخذنا على أنفسنا أن نمد الوافدين لهذه البلاد بجميع الوسائل الممكنة بكل ما يكفل راحتهم، ويسهل مبتغاهم في الحل والترحال. أرجو سعادتكم أن تتفضلوا وتوصلوا هذا الخبر لحكومة الهند؛ كي تبلغه لمن يهمه الأمر من المسلمين، أكون مسرورًا أن تقبلوا صميم احترام المخلص"(١٠).

ومع أن الملك عبدالعزيز قد أوصى المقيم البريطاني بعدن بأن يرسل فحوى خطابه السابق إلى الحكومة البريطانية بالهند إلا أنه لم يكتف بذلك، بل بادر بنفسه بالاتصال بالمسلمين الهنود، وحاول أن يبين لهم الوضع في الحجاز وأن الطرق سالكة، وأنه ليس هناك ما يعكر قدوم الحجاج، وهذا يدل على أن الملك عبدالعزيز بنظرته الثاقبة كان يدرك أهمية الاتصال على كافة الصعد، خاصة في ظل عدم وجود وسائل إعلام قوية يمكن أن يستفيد منها في ذلك الوقت، ولرغبته في الاتصال المباشر أرسل هذه الرسالة إلى السيد شوكت علي رئيس جمعية الخلافة الإسلامية في الهند(١١)، ونصها: "من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل السعود إلى حضرة المكرم الأخ في الله السيد

= ص١٣٣-١٣٤. حنظل، فالح: معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٨٥م، ص ٢٠٤. حنظل، فالح: معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وزارة الإعلام، أبو ظبي، ط.٢، ١٩٩٨م، ص٣٣٦.

(١٠) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٤٢٩ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى حاكم عدن في ١٦ شوال عام ١٣٤٣هـ.

(١١) شوكت علي ولد في الهند في عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧١م، ونشأ في أسرة محافظة، والتحق بجامعة عليكرة في مدينة عليكرة، ثم بجامعة أكسفورد، أنشأ مع أخيه محمد علي جمعية الخلافة في عام ١٣٤٢هـ. مجاهد، زكي محمد: الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.٢، ١٩٩٤م، ١/١٦٣. البيومي، محمد رجب: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٥/٢٩٧-٣٠٧.

شوكة علي رئيس جمعية الخلافة الموفقة في بمبي المحترم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أرجو لكم تمام الصحة والعافية، بعده، لقد وصل إلينا أخيرًا خطابا من وكيلنا في عدن الحاج عبدالله آل فضل[١٢]، يذكر فيه أن جمعيتكم المحترمة سئلت منه عما إذا كانت الموانى الحجازية والقنفذة والليث ورابغ هن على استعداد من حيث وجود السنابك والاستحضارات الضرورية لقبول حجاج الهنود في هذه السنة، وقد أفادكم بما يقتضي، وعليه أزيدكم بأن الموانى الآنف ذكرها وخصوصًا مينائي القنفذة والليث في الوقت الحاظر هن على أتم استعداد لقبول ما ينزل فيهن من الحجاج، وقد توفرت في هذين المينائين جميع ما يحتاج إليه الحاج من الوسائط الضرورية كوفرة الزوارق والسنابيك في الميناء، وما يمكن حصوله من وسائط النقل من هاتين الميناءين إلى مكة المكرمة من الجمال والدواب وغيرها. زد عليه ما تتمتع به هذه البقعة من الأمن التام والسكينة والطمأنينة بالشكل الذي لم تعهده هذه الديار من أمد بعيد. هذا ونحن على استعداد لإتمام راحة من يفد على هذه البلاد من حجاج بيت الله الحرام بجميع الوسائل، هذا ما لزم، وأرجوكم أن تقبلوا شكري. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[١٣].

ومع ما حاكه خصوم الملك عبدالعزيز، أو ممن حاول أن يتضامن مع الملك علي بن الحسين إلاّ أن حجاج ذلك العام من خارج المملكة

(١٢) عبدالله بن محمد العبدالله الصالح الفضل، ولد في مدينة بريدة عام ١٢٨٢هـ، ودرس فيها، عمل في التجارة في مكة وجدة والهند وكراتشي، كان من مستشاري الملك عبدالعزيز، الذي عينه نائبًا لرئيس مجلس الشورى خلال السنوات ١٣٤٧-١٣٦٨هـ، كما عين معاونًا لنائب جلالة الملك في الحجاز في عام ١٣٥٦هـ، توفي في القاهرة عام ١٣٨٨هـ. الزهراني، عبدالرحمن بن علي: من رجال الشورى في المملكة العربية السعودية (منذ عام ١٣٤٦هـ - حتى ١٤٠١هـ)، مجلس الشورى، الرياض، ١٤٢١هـ، ص ١٠٣-١٠٤.

(١٣) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٨٨٩ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى شوكت علي في ١٦ شوال عام ١٣٤٣هـ.

بلغ تعدادهم سبعة آلاف حاج[١٤]. ويعود سبب ذلك إلى منع الدول الإسلامية رعاياها من الحج، فالمملكة المصرية مثلاً أصدرت فتوى بعدم جواز الحج لهذا العام، وقد أحدثت تلك الفتوى ردودًا مختلفة؛ فمثلاً عاب الشيخ محمد رشيد رضا[١٥] على الحكومة المصرية موقفها هذا بقوله: "إن الحكومة المصرية قالت في موسم سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م): إنه قد ثبت لديها أن طريق الحج غير آمن؛ بسبب الحرب بين الشريف علي وابن السعود، وأمكنها بتلك الشبهة أخذ فتوى شرعية رسمية بجواز تأخير الحج، ثم ظهر للعالم كله أن طريق رابغ التي أعلن ابن السعود أنه كافل للأمن فيها كانت آمنة لم يصب أحد ممن سلكها إلى مكة المكرمة بسوء في نفسه، ولا في ماله"[١٦].

وقد وفق الملك عبدالعزيز في تنظيم حج هذا العام مع ما واجهه من متاعب كونها السنة الأولى التي يشرف فيها على الحج، مما يدل

---

(١٤) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٧٥ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٤ ذي الحجة عام ١٣٤٣هـ. "عدد الحجاج"، جريدة أم القرى، السنة الأولى، العدد ٢٨، (١٨ ذي الحجة ١٣٤٣هـ)، ص٣.

(١٥) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني الحسيني، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد في القلمون عام ١٢٨٢هـ، ورحل إلى مصر، وفيها أصدر مجلة المنار عام ١٣١٥هـ، التي واصلت الصدور إلى وفاته عام ١٣٥٤هـ، وقد صدر منها ٣٤ مجلدًا. الزركلي، خير الدين: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط.١٠، ١٩٩٢هـ، ٦/١٢٦.

(١٦) رضا، محمد رشيد: "السعي لمنع الحج ومفاسد البدع"، مجلة المنار، المجلد ٢٨، العدد ٤، (ذي القعدة ١٣٤٥هـ/ مايو ١٩٢٧م)، ص٢٩٣. وقد حرص الملك عبدالعزيز في العام الذي يليه (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م) على إرسال خطاب إلى الملك أحمد فؤاد الأول ملك مصر يبين له استتباب الأمن في الحجاز، وأنه متكفل بسلامة الحجاج. الجريسي، خالد بن عبدالرحمن: من وثائق العلاقات السعودية المصرية في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، الناشر المؤلف، الرياض، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ١/٢٩٣-٣٩٥. الخطيب، عبدالحميد: الإمام العادل صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود: سيرته - بطولته - سر عظمته، تعليق فهد السماري، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ١/٢٧٩.

على علو كعبه في دنيا السياسة، ولذلك نجد أن الوثائق البريطانية تدحض حجة من يشكك في حج تلك السنة، حيث وصفت حج ذلك العام بأنه حج منظم لم يشهد الحجاز مثله، من حيث الأمن والسلامة من الأمراض والأوبئة إضافة إلى سلوك الطرق فيه، وعدم تعرض الحجاج فيما بين الحرمين للسرقة والنهب، كما كان سائدًا من قبل[١٧].

ولهذا كان الملك عبدالعزيز فرحًا بهذه النتائج التي أخذ يبشر بها كل من له علاقة به من زعماء العالم، فكان مما جاء في رسالة منه إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة[١٨] ما يأتي: "ولا - يعلم الله - أخبر فيهم عاصب الرأس ولا والله جرى ما يكدر خواطرهم، حج الناس حجًا ما يقاس، على أقل تقدير مائة ألف، والغريب حج منهم من الستة إلى السبعة آلاف"[١٩]. مما يدل على فرحه وقدرته على تنظيم الحج وتيسيره، من غير أن يكدر على الحجاج أو ينغص عليهم، ونتيجة لهذا فقد تزايد عدد الحجاج في السنوات الآتية بسبب نجاح حج هذا العام، حيث بلغ عدد الحجاج بعد سنتين في موسم حج عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م مئتين وخمسين ألف حاج[٢٠].

---

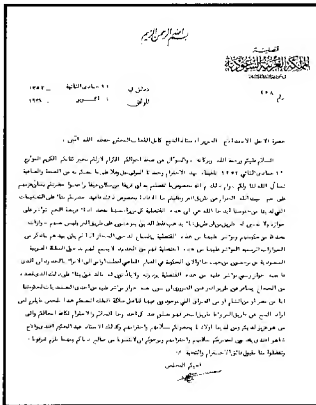
(١٧) FO 371/10810 التقارير الآتية: من ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٥/٧/٢٠م، ومن ستانلي روبرت جوردان نائب القنصل في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٥/٨/٢٩م.

(١٨) الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة ولد في البحرين عام ١٢٦٥هـ، وتولى الحكم عام ١٢٨٦هـ، وطالت مدته إلى وفاته في ١٠ شعبان ١٣٥١هـ. العنقري، حمد بن عبدالله: أعلام وتراجم من الخليج العربي في الوثائق البريطانية، مجلة الدارة، س ٣١، ع ١، (١٤٢٦هـ)، ص ١٧٢-١٧٤.

(١٩) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٧٥ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٤ ذي الحجة عام ١٣٤٣هـ.

(٢٠) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٨١ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٦ ذي الحجة عام ١٣٤٥هـ. دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٣٩٢ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى محمد الرعوجي في ١٩ ذي الحجة ١٣٤٥هـ.

ب - استمرت جهود الملك عبدالعزيز بعد ذلك في تذليل صعوبات الحج، فقد كان يوجه تعليماته إلى سفرائه ومعتمديه في الخارج بتسهيل إجراءات الحج، ومساعدة الحجاج وفق الأنظمة والتعليمات المتبعة، ومن هذه التعليمات السماح لكل من أراد الحج بشرط أن يكون حاصلا على جواز معتمد من حكومته، ويراجع القنصليات السعودية في بلده؛ لمنحه التأشيرة لدخول المملكة، وكانت المعتمديات والقنصليات السعودية تجيب على جميع الاستفسارات المقدمة لها حول الشروط والتعليمات الواجب اتباعها لمن أراد الحج، فقد سأل الشيخُ محمد كامل القصاب[21] الشيخَ رشيد الناصر[22] حول الطريقة المتبعة مع حجاج البر، فرد عليه بالخطاب الآتي: "حضرة الأجل الأمجد الأخ العزيز الأستاذ الشيخ كامل القصاب المحترم حفظه الله آمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والسؤال عن صحة أحوالكم الكرام لا زلتم بخير، كتابكم الكريم المؤرخ ١٩ جمادى الثاني ١٣٥٣هـ [٢٨ سبتمبر ١٩٣٤م] تلقيناه بيد الاحترام، وحمدنا


بسم الله الرحمن الرحيم

قنصلية المملكة العربية السعودية

---

(٢١) الشيخ محمد كامل بن أحمد بن عبدالقادر القصاب، من علماء الشام وزعماء الحركة الاستقلالية العربية، ولد بدمشق عام ١٢٩٠هـ، ودرس بها، عينه الملك عبدالعزيز مديرًا للمعارف في الحجاز، فبقي فيها مدة ثم استقال، واستقر بحيفا، ثم عاد إلى الشام رئيسًا لجمعية العلماء فيها، وبها توفي عام ١٣٧٣هـ. الزركلي، المرجع السابق، ٣٠٦/٦-٣٠٧. واقتنى مركز الوثائق بالدارة مجموعة كبيرة من الوثائق الخاصة به.

(٢٢) رشيد بن ناصر بن رشيد بن ليلى، ولد بحائل عام ١٢٩٤هـ، وبها تعلم، عينه ابن رشيد مندوبًا عنه في مجلس المبعوثان ووكيلاً له في إسطنبول، فعاش فيها عشرة أعوام، ثم عينه الملك عبدالعزيز بمجلس الشورى، ثم قنصلا في دمشق، وبها توفي عام ١٣٦٢هـ. الزهراني، المرجع السابق، ص ٦١-٦٢. صابان، سهيل: مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٥٩-٦٠.

المولى جل وعلا على ما متعكم به من الصحة والعافية، نسأل الله لنا ولكم دوام ذلك، ثم إنه بخصوص ما تفضلتم به أن فريقًا من سكان حيفا راجعوا حضرتكم بشأن عزمهم على حج بيت الله الحرام عن طريق البر، وطلبتم منا الإفادة بخصوص ذلك، فأفيد حضرتكم بناء على التعليمات التي لدينا من حكومتنا - أيدها الله - هي أن هذه القنصلية[٢٣] كل من راجعها بقصد أداء فريضة الحج تؤشر على جوازه، ولا تعين له طريق، من أي طريق شاء يذهب. فقط الذين يتوجهون على طريق البر، وليس معهم جوازات مصدقة من حكومتهم، ومؤشر عليها من هذه القنصلية بالسماح لدخول الحجاز، إذا لم يكن بيدهم ما ذكر من الجوازات الرسمية المؤشر عليها من هذه القنصلية، فهم من الحدود لا يسمح لهم بدخول المملكة العربية السعودية، بل يرجعون من حيث جاءوا؛ لأن الحكومة في العام الماضي أعطت الأوامر إلى الأمراء بالحدود أن الذي ما معه جواز رسمي مؤشر عليه من هذه القنصلية يردونه ولا يأذنون له بالدخول، بناء على ذلك الذي قصده من الحجاج يسافر عن طريق البر فمن الضروري أن يكون معه جواز مؤشر عليه من أحد المعتمديات لحكومتنا إما من مصر أو من الشام أو من العراق التي موجودون فيها قناصل جلالة الملك المعظم، هذا ملخص ما يلزم لمن أراد الحج عن طريق البر، وأما من طريق البحر فهو معلوم عند كل أحد"[٢٤].

ولهذا فإن فترة الحج كانت تستنزف جهود موظفي السفارات والقنصليات السعودية، وذلك من أجل تيسير الحجاج وراحتهم، ويشير الشيخ فوزان السابق معتمد الملك عبدالعزيز في مصر[٢٥] في

(٢٣) أي: قنصلية المملكة في سورية ولبنان.

(٢٤) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة القصاب، ملف رقم ٢٣، وثيقة رقم ١٠٤، رسالة من رشيد الناصر إلى محمد كامل القصاب في ٢٢ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ.

(٢٥) الشيخ فوزان بن سابق الفوزان آل عثمان، ولد في بريدة عام ١٢٧٢هـ تقريبًا، وبها نشأ وتعلم وتفقه، اشتغل بتجارة الخيل والإبل، عينه الملك عبدالعزيز =

خطاب له موجه إلى الشيخ حافظ وهبة[٢٦] إلى أن فترة الحج تستغرق وقته كله؛ نظرًا لإقبال الناس هناك على الحج ونص خطابه: "حضرة صاحب السعادة الأخ الكريم الشيخ حافظ وهبه حفظه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فبمناسبة عيد الأضحى المبارك أقدم لكم تهنئتي الخالصة مع تمنياتي لكم بالصحة والهناء، لقد كان من أعز أمانينا أن نراكم هنا وأن تقضوا العيد بقربنا، ولكن شاءت الظروف غير ذلك، وكان في عزمي السفر إلى الحجاز للحج هذا العام بعدما ضاعت الفرصة منا في العام الماضي، فحضر بعض الضيوف من نجد هم الشيخ صالح العبدالعزيز[٢٧] من أهل الشيخ

= معتمدًا له في دمشق ثم في القاهرة، واستمر بها إلى أن استقال، وبها توفي في ٤ جمادى الأولى عام ١٣٧٣هـ. الزركلي، المرجع السابق، ٥/١٦٢. المسلم، إبراهيم: رجال من القصيم، الدار الثقافية، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١/ ١٨٦. المسلم، إبراهيم: عبدالعزيز بن سعود وشخصيات في الذاكرة، الدار الثقافية، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ص ١٧٩-١٨١. السماري، فهد بن عبدالله وآخرون: موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤١٩هـ، ص ٥٩٤. واقتنى مركز الوثائق بالدارة، وقسم الوثائق بمكتبة الملك فهد الوطنية مجموعة كبيرة من الوثائق الخاصة به. وفي بعض المكتبات الخاصة مجموعات كبيرة من الوثائق الأصلية المتعلقة به. ومع شهرته وكونه أول سفير للمملكة في سوريا ومصر، إلا أن اسمه لم يرد في معجم السفراء الصادر عن وزارة الخارجية. مجموعة باحثين: معجم السفراء السعوديين، أسبار للدراسات والبحوث والإعلام، الرياض، ١٤٢٣هـ.

(٢٦) حافظ وهبة من مستشاري الملك عبدالعزيز، ولد في مصر عام ١٣٠٧هـ، وبها تعلم، اتصل بالملك عبدالعزيز فكان من معاونيه ومستشاريه، عينه الملك سفيرًا في لندن، وتوفي في عام ١٣٨٧هـ، له مؤلفات في تاريخ المملكة. الزركلي، المرجع السابق، ٢/١٦٠.

(٢٧) الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن حسين آل الشيخ، ولد في بلدة السلمية في الخرج، وعاش بها ثم انتقل إلى الرياض وتعلم بها، ورافق الملك عبدالعزيز في غزواته، وعيّن قاضيًا على الرياض من عام ١٣٣٧هـ إلى عام ١٣٥٢هـ، وبها توفي عام ١٣٧٢هـ. آل الشيخ، عبدالرحمن بن عبداللطيف: مشاهير علماء نجد، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ، ط.٢، ص ١٤٨-١٥١. البسام، عبدالله بن عبدالرحمن: علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢/٤٨٦-٤٨٧.

محمد بن عبدالوهاب وأولاده، الشيخ إبراهيم العبدالرحمن الفضل[٢٨]، فمنعني قدومهم عن السفر، فالشيخ صالح حضر من أجل معالجة عينيه، ويقوم بعلاجه صديقنا الدكتور سالم، وأما الفضل فيشكو من مرض باطني، ويعالجه الدكتور محمود عرفان، وحالة الاثنين في تقدم مستمر يبعث على الارتياح. ولقد تشرفت بوصول كتابكم وإني أشكركم على عنايتكم بالكتابة، وأرجو أن تلتمسوا لي العذر إذا وقع مني تقصير في ذلك، فإن موسم الحج كما تعلم يستنفد منا وقتا كبيرا، وقد بلغ الحجاج هذا العام أزيد من خمسة آلاف حاج، وهو عدد لا بأس به؛ نظرا لانشغال الناس هنا بمسائل السياسة والانتخابات[٢٩]، وخوف بعضهم من حدوث اضطراب في البحر الأحمر للحوادث الجارية بقربه[٣٠]، ولولا هذه العوامل لبلغ عددهم أكثر من ذلك. وعلى كل حال فإن مستوى الحجاج في السنوات الأخيرة أرفع مما سبق؛ نظرا لما يجدونه من الراحة ببواخر شركة مصر وما يلقونه من العناية بهم في الحجاز ومن بين كبار الحجاج في هذا العام الأميرة خديجة عباس حليم ابنة توفيق باشا الخديوي وشقيقة الخديوي عباس والأمير محمد علي،

(٢٨) الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالله الفضل، ولد في عنيزة وبها تعلم، تولى مناصب عدة، منها عضوية مجلس الشورى، وكان معاونًا ثانيًا للنيابة العامة، وعضوًا في مجلس الوكلاء. الزهراني، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(٢٩) يشير بذلك إلى وفاة الملك أحمد فؤاد الأول والمناداة بابنه الملك فاروق ملكًا على مصر، وتعيين مجلس للوصاية عليه برئاسة الأمير محمد علي توفيق إلى حين بلوغه السن القانونية لتوليه صلاحيات الملك. كما يشير إلى الانتخابات المصرية والتي فاز بها حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا. سالم، لطيفة محمد: فاروق وسقوط الملكية في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢٢-٤٤. كرم، فؤاد: النظارات والوزارات المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط.٢، ١٩٩٤م، ١/ ٣٥٣.

(٣٠) يشير بذلك إلى إعلان المملكة الإيطالية الحرب على الإمبراطورية الحبشية، والتي انتهت باستعمار إيطاليا للحبشة. داموك، عبدالواحد: الحرب العالمية الأولى والثانية قراءة بين السطور، الناشر المؤلف، دمشق، ١٩٩٩م، ص ١٠٨-١٠٩.

وكذلك الدكتور هيكل(٣١) والدكتور عبدالعزيز إسماعيل(٣٢) والسيدة حفيظة الألفية ويعقوب عبدالوهاب وغيرهم. ختاما أشكركم على إهدائكم نسخة من مؤلفكم إلينا(٣٣) وهي لم تصل إليّ بعد، وأرجو أن يصادف هذا الكتاب ما يستحقه من عناية الجميع به في بلادنا والمشتغلين بالشؤون العربية في البلاد الأخرى"(٣٤).

ج - ونظرًا لما يجده الحجاج من تسهيلات فقد دون بعضهم رحلاتهم للحج وطبعوها، ليطلع الناس على ما يحصل في الحرمين الشريفين من تطور(٣٥)، ومن هذه المؤلفات ما قام به الأستاذ حسن حسن خرسا من معهد الإسكندرية الذي ألف كتابًا عن المملكة بعد أدائه فريضة الحج في عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، وقد أشار فيه إلى أنه قام بذلك نظرًا لإعجابه بما وصلت إليه البلاد من حسن المعاملة والأخلاق الفاضلة والرقي والتطور، وأداء فريضة الحج بسهولة ويسر؛ ولذا ألف رحلته التي وسمها بـ "رحلتي إلى الحجاز"، وقد

---

(٣١) محمد حسين سالم هيكل، ولد بمصر عام ١٣٠٥هـ، تعلم بالقاهرة، وحصل على شهادة الحقوق من جامعة السربون بفرنسا، توفي بالقاهرة عام ١٣٧٦هـ، وله مؤلفات عدة. الزركلي، المرجع السابق، ١٠٧/٦.

(٣٢) عبدالعزيز إسماعيل ولد بمصر عام ١٣٠٦هـ، وبها تعلم الطب وبإنجلترا، كان أستاذًا للدراسات العليا بمدرسة الطب المصرية، توفي بالقاهرة عام ١٣٦١هـ. الزركلي، المرجع السابق، ١٥/٤.

(٣٣) المراد بذلك كتاب حافظ وهبة الموسوم بـ: "جزيرة العرب في القرن العشرين"، في طبعته الأولى، المطبوعة عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

(٣٤) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة فوزان السابق، ملف رقم ٥، وثيقة رقم ٣٦٤، رسالة من فوزان السابق إلى حافظ وهبة في ٦ ذي الحجة ١٣٥٤هـ.

(٣٥) انظر مثلا بعض هذه المؤلفات: المازني، إبراهيم عبدالقادر: رحلة إلى الحجاز، د. ن، القاهرة، ١٣٤٩هـ. رضا، محيي الدين: رحلتي إلى الحجاز في عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٥٤هـ. حمادة، عباس متولي: مشاهداتي في الحجاز، د. ن، د. م، ١٣٥٥هـ. عيسى، أحمد إبراهيم: الحجاز في عام ١٣٥٦ هجرية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٣٥٦هـ. هيكل، محمد حسين: في منزل الوحي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٦هـ. خضير، عبدالوهاب: مشاهداتي في بلاد الحجاز بمناسبة حضوري عيد جلوس جلالة الملك ابن السعود، مكتبة ومطبعة خضير، القاهرة، د. ت.

أرسل مجموعة منها إلى الشيخ فوزان السابق، ومعها خطاب جاء فيه: لقد قمت "بأداء فريضة الحج، ولله الحمد والشكر على ما حباني به من نعم في توفيق أدائها وأعجبت بحالة البلاد العربية أيما إعجاب، وسررت من معاملة أهالي البلاد وأخلاقهم وطباعهم، ولما عدت من هناك انتهزت الفرصة، ووضعت كتابا، وسميته "رحلتي إلى الحجاز" ليأخذ الناس صورة واضحة عن سهولة أداء الفريضة، وفكرة عامة عن حالة البلاد العربية"(٣٦).

من الوسائل التي اتبعها الملك عبدالعزيز إنشاء مكتب الحج للدعاية والنشر

د - ومن الوسائل التي اتبعها الملك عبدالعزيز في الدعوة إلى الحج، إنشاء مكتب الحج للدعاية والنشر في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ليقوم بنشر التسهيلات التي تقدمها الدولة، وتوعية الحجاج بترتيبات الحج ومقدار الرسوم والتكاليف الإجمالية المترتبة على المعيشة والإقامة(٣٧)، كما أنه اقترح الوسائل المناسبة للتوعية والدعاية للحج، وقد تقدم المكتب في عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م باقتراح إصدار نشرة إخبارية، لتزويد الصحف والمجلات في الداخل والخارج بأخبار الحج، لكن وزارة الخارجية رأت التريث في ذلك، وقد صدر قرار من مجلس الوكلاء بمكة المكرمة حول هذا الاقتراح، ونصه: "اطلع المجلس على المعاملة الواردة من وزارة الخارجية بتاريخ ٧/٥/٣٥٧[١]هـ (٤/٧/١٩٣٨م)، بصدد اقتراح مكتب الدعاية للحج إصدار نشرة إخبارية عن الوقائع والحوادث المهمة لإرسالها إلى أمهات الصحف في الداخل والخارج، وإفادة [وزارة] الخارجية إنها ترى أنه لم يحن الوقت بعد لإصدار نشرة إخبارية تختص بنشر الوقائع

---

(٣٦) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة فوزان السابق، ملف رقم ٥، وثيقة رقم ٣٣، رسالة من حسن حسن خرسا إلى فوزان السابق في ٢١ رمضان ١٣٥٤هـ.

(٣٧) "مكتب الدعاية للحج"، جريدة أم القرى، السنة الثالثة عشرة، العدد ٦١٥، (٢ رجب ١٣٥٥هـ)، ص ٤.

والحوادث، وأنها تحبذ هذا الاقتراح فقط في نشر منشورات دورية تقتصر الدعاية المنظمة في البلدان الإسلامية البعيدة والمجاورة، لدعوة الناس إلى أداء فريضة الحج وأنه لا مانع من أن يقوم المكتب المشار إليه بالدعاية عن طريق المذياع والمنشورات الدورية فتقرر الموافقة على ذلك حسبما ارتأته [وزارة] الخارجية"(٣٨).

٢- استقبال الملك عبدالعزيز الوفود والبعثات الرسمية واستضافتهم:

ومن الوسائل الأخرى التي حرص عليها الملك عبدالعزيز في تسهيل أمور الحجاج وراحتهم، تنظيمه استقبالاً رسميًا يكون مخصصًا لكبار الوفود ليتباحث معهم في حج هذا العام والأعوام السابقة واللاحقة، وتشير جريدة أم القرى إلى استقبالاته هذه الوفود ولقائه معها، وكان موعد ذلك الاحتفال في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة في منى، كما حرص على استقبال كل وفد على حدة.

إضافة إلى ذلك استضاف بعض الشخصيات الإسلامية أثناء تأديتها فريضة الحج، ومع أن بعض هؤلاء ذوو مناصب عليا في دولهم، فإنه كان يعدهم ضيوفًا عليه، ومن تلك الشخصيات الأمير شكيب أرسلان(٣٩) الذي حج عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م(٤٠)، ودوّن حجته تلك في كتابه المشهور بـ "الارتسامات اللطاف"(٤١). كما حج أحد

(٣٨) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٢٧ وطنية، قرار مجلس الوكلاء رقم ٥٠٨، في ٢٧ ذي القعدة ١٣٥٧هـ.

(٣٩) شكيب بن حمود أرسلان أمير البيان ومن كبار الكتاب، ولد في الشويفات بلبنان عام ١٢٨٦هـ، وبها تعلم، عين قائم مقام للشوف لمدة ثلاث سنوات، ثم تعين عضواً بمجلس المبعوثان العثماني، وبعد الحرب العالمية الأولى انتقل إلى برلين ثم جنيف، وبقي بها إلى قرب وفاته، ثم عاد إلى بيروت وبها توفي عام ١٣٦٦هـ، له مؤلفات عدة. الزركلي، المرجع السابق، ٣/١٧٣-١٧٥.

(٤٠) "الأمير شكيب أرسلان"، جريدة أم القرى، السنة الخامسة، العدد ٢٢٩، (٦ ذي الحجة ١٣٤٧هـ)، ص٣.

(٤١) أرسلان، شكيب: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، إشراف محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

الأمراء العثمانيين وهو الأمير أحمد توحيد[٤٢] عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، فاستضافه الملك عبدالعزيز طيلة مقامه في مكة المكرمة، ولمناسبة وجوده أشار الملك في خطبته السنوية بمنى أثناء استقباله الوفود إلى علاقات الدولة السعودية مع الدولة العثمانية[٤٣].

وفي عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م حج الأمير محمد علي ولي عهد المملكة المصرية[٤٤]، وقد أولاه الملك عبدالعزيز عناية خاصة، وشرّفه بغسل الكعبة، وكان الملك عبدالعزيز قد أخر غسلها إلى حين وصول الأمير إلى مكة المكرمة. وقد كان الأمير محمد علي طيلة فترة إقامته

---

(٤٢) الأمير أحمد توحيد بن الأمير محمد سيف الدين بن السلطان عبدالعزيز، ولد في ٢٢ رمضان ١٣٢٢هـ بإسطنبول، وبعد سقوط الدولة العثمانية في عام ١٣٤٢هـ انتقل إلى مصر وعاش فيها، لكن أوضاعه فيها غير مستقرة، فامتهن الكتابة في الصحافة، وألف العديد من الكتب منها: كتاب "تاج الإمبراطوريات"، وكتاب "النصر"، ورغم ذلك فقد اضطرته الظروف المادية إلى الاستدانة، وكثيرا ما كان يعطف عليه الشيخ فوزان السابق المفوض السعودي بالقاهرة، توفي في بيروت في ٤ المحرم عام ١٣٨٦هـ. الأرشيف العثماني تصنيف HANEDAN DEFT 1 سجلات الأسرة المالكة العثمانية. آل عثمان، أحمد توحيد: تاج الإمبراطوريات، مطبعة الأنوار، د. م، ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م، ص ٦٢. صفا، محمد بك: دليل الآستانة عاصمة الخلافة العظمى، مطبعة العدل، إسطنبول، ١٣٣١هـ، ص ٣٨. أوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٢/٨٧. وانظر: دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة فوزان السابق، ملف رقم ٥، وثيقة رقم ٣٠٨، رسالة من أحمد توحيد إلى فوزان السابق في ٢٩ مايو ١٩٤٠م.

Osmanoğlu,Osman Salahedin, The Ottoman Family, ISAR, Istanbul, 1999, P. 28, 44.

(٤٣) "أمير عثماني"، جريدة أم القرى، السنة السابعة، العدد ٣٣٢، (٧ ذي الحجة ١٣٤٩هـ)، ص٢. "خطاب جلالة الملك المعظم"، جريدة أم القرى، السنة السابعة، العدد ٣٣٣، (١٣ ذي الحجة ١٣٤٩هـ)، ص١.

(٤٤) الأمير محمد علي بن الخديوي توفيق باشا بن الخديوي إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، ولد عام ١٢٩٢هـ بالقاهرة، وتعلم بها وبسويسرا، قام برحلات عدة، وأجاد الفرنسية والإنجليزية والتركية، وتولى ولاية العهد ثلاث مرات، الأولى لأخيه الخديوي عباس حلمي الثاني، والثانية للملك فاروق، والثالثة للملك أحمد فؤاد الثاني، له مؤلفات عدة، توفي بلوزان عام ١٣٧٤هـ، ودفن بالقاهرة. الزركلي، المرجع السابق، ٦/٣٠٦-٣٠٧.

في مكة المكرمة محل رعاية الملك عبدالعزيز وعنايته، وقبل عودته إلى مصر أهداه الملك أحد سيوفه الخاصة(٤٥).

ولا يخلو موسم حج من استضافة شخصيات أو وفود، وقد رصدت جريدة أم القرى تلك الزيارات وأشارت إليها وإلى استقبال الملك عبدالعزيز رؤساء الوفود. ومن تلك الشخصيات التي ذكرتها: الملك أمان الله خان ملك أفغانستان(٤٦)، والشيخ عبدالرحمن بن قاسم آل ثاني، والشيخ أحمد بن علي آل خليفة، والأمير محمد بن صالح القعيطي(٤٧)، والمؤرخ اليمني السيد محمد زبارة وزير القصر المتوكلي(٤٨).

(٤٥) "قدوم الأمير محمد علي توفيق"، جريدة أم القرى، السنة الخامسة عشرة، العدد ٧٣٧، (٧ ذي الحجة ١٣٥٧هـ)، ص٤. "غسيل الكعبة"، جريدة أم القرى، السنة الخامسة عشرة، العدد ٧٣٧، (٧ ذي الحجة ١٣٥٧هـ)، ص٤. "الأمير محمد علي ولي عهد المملكة المصرية"، جريدة أم القرى، السنة الخامسة عشرة، العدد ٧٣٨، (١٤ ذي الحجة ١٣٥٧هـ)، ص٤، ٨. "ولي العهد في الحجاز: الأمير محمد علي يغسل الكعبة"، مجلة الاثنين والدنيا، عدد ٢٤٢، (١٩٣٩م)، ص ٢٤. وما يزال هذا السيف موجودًا إلى اليوم معروضًا في متحف قصر الأمير محمد علي في المنيل بالقاهرة. وحول أثر زيارة الأمير محمد علي توفيق إلى الحجاز، انظر: الجريسي، المرجع السابق، ١/ ١٢٤، ٤٩٩ - ٥٠٠، ٢/ ١١٣١-١١٣٢، ١١٦٧-١١٦٨، ١١٨٩.

(٤٦) "خطاب جلالة الملك المعظم"، جريدة أم القرى، السنة السابعة، العدد ٣٣٣، (١٣ ذي الحجة ١٣٤٩هـ)، ص١. "جلالة الملك أمان الله خان ملك الأفغان سابقًا"، جريدة أم القرى، السنة السابعة، العدد ٣٣٤، (٢٠ ذي الحجة ١٣٤٩هـ)، ص٢. "جلالة الملك أمان الله خان"، جريدة أم القرى، السنة الحادية عشرة، العدد ٥٣٥، (١١ ذي الحجة ١٣٥٣هـ)، ص٣. والملك محمد أمان هو ابن الأمير حبيب الله خان، تولى الملك بعد مقتل والده في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ، جرت بينه وبين البريطانيين معركة انتصر فيها، ووقع معهم المعاهدة الإنجليزية الأفغانية الثانية، ثم عقد معاهدة مع الروس، واتجه إلى تنظيم بلاده على النمط الغربي، فثار عليه بعض قواده أثناء وجوده في فرنسا في أواخر عام ١٣٤٧هـ. سعيد، أمين محمد: ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ص ٢٧٧-٢٨٣.

(٤٧) "قدوم"، جريدة أم القرى، السنة الخامسة، العدد ٢٣٠، (١٧ ذي الحجة ١٣٤٧هـ)، ص٢.

(٤٨) "السيد محمد زبارة"، جريدة أم القرى، السنة الثالثة عشرة، العدد ٦٣٠، (١٨ شوال ١٣٥٥هـ)، ص٥. ومحمد زبارة هو محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني، مؤرخ يمني من علماء صنعاء، ولد بها عام ١٣٠١هـ، وبها تعلم، كان أميرًا للقصر السعيد في عهد الإمام يحيى حميد الدين، له عناية بتراجم اليمانيين، وصنف مؤلفات عدة في ذلك، توفي بصنعاء عام ١٣٨١هـ. الزركلي، المرجع السابق، ٧/ ٨٥.

وتتوافر مجموعة من الوثائق التي تشير إلى ذلك، ومنها رسائل متبادلة بين الملك عبدالعزيز والشيخ عيسى بن علي آل خليفة حول قيام بعض أفراد أسرة آل خليفة بأداء فريضة الحج، ومن تلك الرسائل هذه الرسالة ردًّا من الملك عبدالعزيز على رسالة الشيخ عيسى بن علي في ١٧ ذي الحجة ١٣٤٧هـ/ ١٠ مايو ١٩٢٩م، وهذا نصها: "جناب الأجل الأمجد الأفخم بهي الشيم الوالد المكرم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة المحترم حفظه الله تعالى آمين، بعد إهداء جزيل التحية والاستعلام عن شريف خاطركم، أرجو الله تعالى أن تكونوا جميعًا رافلين في حلل الصحة والعافية، كما وأنا جميعًا لله مزيد الحمد بالحال التي تسركم، نسأل المولى جل شأنه أن يديم على الجميع نعمه الضافية ويرزقنا جميعًا شكرها. ثم في أبرك الأوقات تلقينا كتاب حضرتكم الكريم المنبئ بدوام صحتكم، ولقد أسرنا ذلك وما ذكره حضرتكم من توجه العائلة الكريمة وتوصية ابنكم عليهم، تدري حفظك الله أننا لا نحتاج إلى توصية من طرفهم؛ لأنهم من الروح والواجب يقضي بملاحظتهم، وقد قمنا بما يجب نحوهم من تأمين راحتهم وتوفير رفاهيتهم، وقد أدوا مناسك الحج على أسر حال وأنعم بال وهم الآن متوجهين إليكم، نرجوا الله تعالى أن يصحبهم السلامة ويوصلهم إليكم، وهم حائزين تمام الصحة والعافية.

هذا ما لزم تحريره وبما يلزم نتشرف والأمل إبلاغ السلام كافة العيال والمحبين، ومنا سيدي الوالد والأعمام والأخوان يسلمون، والله تعالى يحفظكم"(٤٩).

٣ - حرص الملك عبد العزيز على مساعدة الحجاج وتقديم العون لهم، ويتمثل ذلك فيما يأتي:

أ - إلغاء رسوم الحج؛ التي كانت تؤخذ من الحجاج، إذ يعد ذلك دلالة واضحة، وشاهداً حيا على صدق المساعدة وحسن القصد. ذلك أن الحكومات السابقة قبل الملك عبدالعزيز فرضت رسوماً على الحجاج، تؤخذ عند التصديق على الجوازات، وعلى الحجر الصحي، وهناك رسوم للبلدية على كل حاج(٥٠). لكن الملك

الحكومات السابقة قبل الملك عبدالعزيز فرضت رسوما على الحجاج

(٤٩) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٨٥ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٧ذي الحجة ١٣٤٧هـ. وانظر الوثائق الآتية: وثيقة رقم ٩٨٤ وطنية، ملحق رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٢ ذي الحجة ١٣٤٧هـ. وثيقة رقم ٩٨٨ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٨ ذي الحجة ١٣٤٨هـ. وثيقة رقم ٩٩٢ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٩ شوال ١٣٤٩هـ. وثيقة رقم ٩٩٨ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ٢٢ ذي الحجة ١٣٥٠هـ.

(٥٠) "رسوم الجوازات على القادمين إلى الحجاز"، جريدة القبلة، السنة الثانية، العدد ٢١٠، (٢٢ ذي القعدة ١٣٣٦هـ)، ص٢. "إعلان رسمي لكافة من يريد القدوم إلى جدة وسواها من موانئ البلاد"، جريدة القبلة، السنة الرابعة، العدد ٣٨٨، (١٣ رمضان ١٣٣٨هـ)، ص١. "إعلان رسمي"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٤٥٦، (٢٩ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ)، ص١. "إعلان رسمي"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٤٦٠، (١٣ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ)، ص١. "إعلان رسمي"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٤٦١، (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ)، ص١. "إعلان رسمي"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٤٦٨، (١١ رجب ١٣٣٩هـ)، ص١. "تعريفة الحجاج"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٤٦٨، (١١ رجب ١٣٣٩هـ)، ص١. "تعريفة الحجاج"، جريدة القبلة، السنة الخامسة، العدد ٥٦٤، (٣٠ جمادى الثانية ١٣٤٠هـ)، ص٢.

وقد رصدت التقارير البريطانية تلك الرسوم التي كانت تفرض على الحجاج من قبل الأشراف، انظر: FO 371/10806 تقرير من ريدر وليم بولارد القنصل البريطاني في جدة إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٤/٣/٢٩م، وفي ١٩٢٤/٤/٣٠م، وفي ١٩٢٤/٦/٢٨م.

عبدالعزيز سعى إلى التقليل منها، ثم في فترة لاحقة ألغاها، وفيما يأتي بعض نصوص الوثائق الدالة على ذلك، إذ قامت وزارة المالية بتعميم قرار الملك بإلغاء الرسوم؛ وأرسلته إلى جميع إداراتها في مدن المملكة، ومنها هذه البرقية المرسلة من سليمان بن حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية إلى إدارة مالية بريدة، ونصها: "نبلغكم فيما يأتي نص الإرادة الملكية رقم ٦٦٢٩ في ٧١/٩/٢ [١٣هـ] (١٩٥٢/٥/٢٥م)، وهي يجب أن نوضح لكم معنا أمرنا السابق بشأن إلغاء رسوم الحج حتى لا تكون فيه إشكال عندكم. أولاً: أن رسوم الحكومة التي كانت تؤخذ باسم رسوم الحج ملغًا، ثانيًا: لا يمكن أن تتولى ممثلياتنا أو تطالب بأي مبالغ باسم المطوفين أو خدمات واجبة الحجاج، وإنما هذا يكون بين الحجاج وبين أرباب الخدمات المعنيين أنفسهم، ثالثًا: النقطة الرئيسية التي ينبغي على مفوضياتنا اتباعها هي أن لا يؤشر على جواز أحد إلا من كان مسموحًا له بالحج من قبل حكومته، وأن يكون معه تذكرة عودة حتى لا يقيم عالة على البلاد، ولاعتماد ما ذكر فيه"(٥١).

وقد أكدت الدولة إلغاء الرسوم في العام الذي يليه، وأرسلته إلى جميع أمراء المناطق، وقد وجه أمراء المناطق التابعين لهم بتطبيق هذا القرار، فقد أرسل الأمير خالد السديري(٥٢) أمير المقاطعة الشمالية برقية إلى أمير الوجه ذكر فيه أن وزارة الداخلية أرسلت برقية برقم ٧٠٩٩ في ٢١ شوال ١٣٧٢هـ/ ٣ يوليو ١٩٥٣م، نصها: "تلقينا من المقام السامي أمرًا برقياً برقم ٥٥٢٩ /٧٢/١٠/١٦ الموجهة صورة منه لوزارة الخارجية وابن سليمان والمشرف على شؤون الحج يقضي

---

(٥١) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٨٠٦ وطنية، برقية من سليمان بن حمد السليمان وكيل وزارة المالية إلى إدارة مالية مدينة بريدة في ٦ رمضان ١٣٧١هـ.

(٥٢) الأمير خالد بن أحمد السديري، ولد في الأفلاج في عام ١٣٣٣هـ، ودرس وتعلم في الغاط والرياض، تولى مناصب عدة، إذ كان وكيلاً لإمارة أبها، وأميرًا على جازان، ثم الظهران، ثم على تبوك والحدود الشمالية، ووزيراً للزراعة، فأميراً على نجران. البخيتان، معيض علي: معالي الأمير خالد السديري شاعر في المعدودين، د. ن، د. م، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٢٩-٣٣.

بأنه صدر أمر جلالة مولاي الملك المعظم من قبل رسوم التأشيرة على الحجاج بأنه لا يؤخذ من الحجاج أي رسم تأشيرة، وكل شخص معه جواز من أجل الحج مصدق من حكومته لا يؤخذ عليه شيء لا رسوم حج ولا رسوم تأشيرة، أما الأشخاص غير الحجاج فهؤلاء ينفذ عليهم الأنظمة المقررة. اعتمدوا ذلك والتمشي بموجبه. لإبلاغكم ما جاء بالأمر الكريم لاعتماده"(٥٣).

ب - مساعدة الحجاج الفقراء بالسماح لهم بالحج دون حصولهم على تأشيرات الدخول، وذلك تيسيرا منه في عدم تكليفهم فوق طاقتهم بالتنازل عن الرسوم المقررة في تلك الفترة على الحجاج، فقد أرسل أمير الوجه إلى الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود النائب العام لجلالة الملك يستفسر منه عن معاملة الحجاج الذين يفدون إلى الحدود والموانئ دون حصولهم على تأشيرات دخول وطريقة معاملتهم، وقد رد عليه الأمير فيصل بما نصه: "بالإشارة إلى خطابكم رقم ٤٠٤ وتاريخ ٢٧/٨/١٣٥٠[هـ] (٦/١/١٩٣٢م) ومرفقاته المعاد إليكم لفًا بهذا، والمقترح فيه إجراء التحقيق من قبلكم عن هوية الحجاج الواردين برا إلى الوجه حاملين جوازات غير مؤشرة من قبل معتمد من الحكومة وعن جنسيتهم وفقرهم، وإعادة المشتبه فيه، والتصريح لمن تحقق فقره بالدخول، نشعركم أننا قد وافقنا على الاقتراح فيقتضي السير على موجبه، ولما ذكر حرر"(٥٤).

ج - رغبته في عدم الحج بهدف التوسعة على الحجاج في بعض السنوات، وقيامه بصرف ما كان معداً لحجه ومرافقيه على الفقراء والمساكين، ففي عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م قرر الملك عبدالعزيز عدم حج

(٥٣) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة منطقة تبوك، ملف رقم ١٧، وثيقة رقم ١٧٧١، برقية من الأمير خالد السديري إلى أمير الوجه في ٢٢ شوال ١٣٧٢هـ. وابن سليمان هو عبدالله بن سليمان الحمدان أول وزير للمالية.

(٥٤) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة منطقة تبوك، ملف رقم ١٧، وثيقة رقم ١٣٥، خطاب من الأمير فيصل بن عبدالعزيز إلى أمير الوجه في ٨ شوال ١٣٥٠هـ.

هذا العام، وأصدر بذلك بيانًا نشر على الناس بقراره هذا(٥٥)، وقد أرسل الأمير عبدالله بن فيصل بن عبدالعزيز خطابات لبعض الأعيان بذلك، ومنها هذا الخطاب الموجه إلى محمد العبدالله بن ربيعان، وفيه بعد السلام: "نفيدكم أن الإمام حفظه الله تعالى عزمه هذه السنة عدم الحج هو بنفسه قصده من ذلك توفير المصاريف الذي يصرفها كل سنة في مكة لأجل توزيعها على مستحقيها من الفقراء والمساكين، وقد أمرنا أيده الله تبليغكم بذلك"(٥٦).

د - تشديده الأوامر والتعليمات لأمرائه في المناطق بالعناية بالحجاج، وتوفير كافة السبل والتسهيلات لهم، فقد أرسل الملك عبدالعزيز خطابًا إلى الأمير تركي بن ماضي(٥٧)؛ هذا نصه بعد السلام: "من طرف حجاج اليمن لا أحد يعارضهم بشيء بل يجب إكرامهم وأخذ خاطرهم، ومن تعرضهم فلا يأمن العتب، إن شاء الله تنبهون على قبايلكم زهران وغامد بذلك، يكون معلوم، والسلام"(٥٨).

---

(٥٥) "كتاب ملكي كريم موجه إلى أهل هذه البلاد عن تخلف جلالة مولانا الملك المعظم عن الحج في هذا العام"، جريدة أم القرى، السنة الثامنة عشرة، العدد ٨٨٢، (٣ ذي القعدة ١٣٦٠هـ)، ص١. الجريسي، المرجع السابق، ٢/ ١٢١٤-١٢١٩، ١٣٠٦-١٣٠٨. القابسي، محيي الدين: المصحف والسيف مجموعة من خطابات وكلمات ومذكرات وأحاديث جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، دار الصحراء السعودية، الرياض، ط.٤، ١٤٢١هـ، ص٣٣٠.

(٥٦) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٥٢ وطنية، رسالة من الأمير عبدالله بن فيصل إلى محمد العبدالله بن ربيعان في ٤ ذي القعدة عام ١٣٦٠هـ. وانظر أيضًا: وثيقة رقم ١٢١٥ وطنية، رسالة من الأمير عبدالله بن فيصل إلى عبدالله بن حجاج في التاريخ نفسه.

(٥٧) تركي بن محمد بن تركي الماضي، أمير أبها، توفي عام ١٣٨٥هـ. الحقيل، عبدالكريم بن حمد: من مشاهير الجزيرة العربية من عام ٧٠٠هـ إلى عام ١٤١٩هـ، د. ن، الرياض، ١٤١٩هـ، ص ٢١٦.

(٥٨) دارة الملك عبدالعزيز، مجموعة الباحة، ملف رقم ٢٨، وثيقة رقم ٦، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الأمير تركي بن ماضي في ١٤ ذي الحجة ١٣٥٣هـ.

هـ - استغلال مواسم الحج في الدعوة إلى الله ونشر العقيدة الصحيحة بين وفود الحجيج القادمين من مختلف أصقاع المعمورة، وتصحيح ما لدى بعضهم من مفاهيم خاطئة عن العقيدة السلفية(٥٩)، فقد خطب - رحمه الله - في حجاج الهند، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن "أول ما يلزمنا من الإسلام هو كلمة الشهادتين، ومعنى الشهادة لا إله إلا الله أنها تفيد إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى، ومعنى أن محمداً رسول الله أن نحب الرسول ﷺ ونصدقه ونؤمن به ونعمل بما قال... والحقيقة أنه لا يوجد إنسان غير مذنب؛ لأن العصمة لله وحده، (ولو لم تذنبوا لخلق الله عباداً يذنبوا فيستغفروا الله فيغفر لهم)، ولكن الذنوب على جملة درجات، منها ما لا يمكن معه صفح أو غفران، وهي الشرك بالله"(٦٠)، وقد أشار الملك عبدالعزيز إلى أثر تلك الخطب والتوجيهات التي تقدم للحجاج في رسالة منه إلى ابنه الأمير سعود، جاء فيها: أن "جميع الوفود الذين جو من الأقطار كلهم راغبين بأمر هالدين وعارفين من فضل الله إن الذي حنا عليه ومعتقدنا انه هو الحق وموافق للصواب، وشفنا من فضل الله رغبة واقبال ما تكاد توصف فيما كان عليه السلف الصالح نرجو ان الله تعالى يرزقنا واياكم شكر نعمته ويوفقنا وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه"(٦١).

و - ولم يكتف الملك عبدالعزيز بذلك بل وجه عنايته إلى مهنة الطوافة؛ لأهميتها وعلاقة المطوف بالحجاج، فسعى إلى تدريب المطوفين وتعليمهم، وأصدر مرسوماً ملكياً بإنشاء مدرسة للمطوفين، وذلك في ٢٣ المحرم

---

(٥٩) تشير الوثائق المصرية إلى تضمن كلمات الملك عبدالعزيز التي يلقيها في منى إلى توجيهات شرعية للمسلمين، ودعوته لهم بالاقتداء بالتعاليم الإسلامية والتمسك بأهداب الدين، ونصحه لهم بالتعاضد والتآزر بينهم. الجريسي، المرجع السابق، ٣/ ١٧٦٣.

(٦٠) "نص خطاب جلالة الملك في مأدبة الحجاج الهنود"، جريدة أم القرى، السنة الثالثة عشرة، العدد ٦٣٧، (١١ ذي الحجة ١٣٥٥هـ)، ص ٤.

(٦١) دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٢٤٧، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الأمير سعود بن عبدالعزيز في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٦هـ.

١٣٤٧هـ (١١ يوليو ١٩٢٨م)، تضمن أربع مواد، جاء فيه ما يأتي: "تؤسس في مكة مدرسة للمطوفين يتلقى فيها المطوفون ونوابهم ما يأتي: أولاً علم التوحيد، ثانيًا القسم الخاص بالعبادات، ثالثًا القسم الخاص بالمناسك وأدائها حسب ما دونه علماء السلف والأئمة الأربعة رضوان الله عليهم، رابعًا ما يجب على المطوفين لحجاج بيت الله الحرام من حسن الوفادة وتسهيل وسائل الراحة"، وحدد المرسوم الملكي مدة الدراسة في المدرسة المذكورة بعام دراسي واحد، كما أشار إلى أنه لن يسمح بمزاولة مهنة الطوافة لمن لم يكن حائزًا على شهادة مدرسة المطوفين(٦٢).

٤- الإعلان عن سلامة الحج، وخلوه من المشاكل والأمراض:

اتبع الملك عبدالعزيز تقليدًا يدل على مدى حرصه على تبليغ الأخبار السارة عن الحج، ولم تكن الدول الإسلامية والجماعات والأفراد هم المستهدفين بالأخبار السارة، وإنما كان يخبر أخواته وإخوانه وبعض الأعيان بالداخل عن حال الحج وما لاقاه من نجاح، ويدل أيضًا من جهة أخرى أنه كان يشعر بمدى حرص أهل بيته على سلامة الحج، لهذا نجده حريصًا على إخبار إحدى أخواته وهي الأميرة حصة بنت عبدالرحمن آل سعود(٦٣)، ويشرح لها حال الحج، وما حصل به من تطور في تقديم الخدمات، وانتهائه دون مشاكل، وفي إحدى هذه الرسائل يقول: "من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى جناب الأخت المكرمة حصة بنت عبدالرحمن الفيصل سلمها الله تعالى آمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، على الدوام مع السؤال عن أحوالكم، أحوالنا من كرم الله جميلة، الخط المكرم وصل، وما عرفتو

---

(٦٢) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٥٦١ وطنية، مرسوم ملكي بإنشاء مدرسة للمطوفين في ٢٣ محرم عام ١٣٤٧هـ. وانظر أيضًا: "تعليم المطوفين"، جريدة أم القرى، السنة الرابعة، العدد ١٨٧، (٣ صفر ١٣٤٧هـ)، ص ٢.

(٦٣) حصة بنت عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، أخت الملك عبدالعزيز، زوج الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، وخلف منها أولادًا عدة؛ لكن لم يعش منهم أحد. سليمان، حسن حسن: الأمير عبدالعزيز بن مساعد حياته ومآثره، د. ن، د. م، د. ت، ص ١٥٣.

كان معلوم، أخبارنا من فضل الله على ما تحبون، الحج يوم الثلاثاء، وعموم المسلمين بغاية الصحة والعافية ولا بعد صار من فضل الله مثل هالسنة براد، والما راهي، والناس راكدين ومطمئنين. نرجو أن الله تعالى يرزقنا وإياكم شكر نعمه وينصر دينه ويعلي كلمته، هذا ما لزم مع إبلاغ السلام سيدي الإمام الوالد والأولاد، ومن عندنا الأخوان والعيال يسلمون"(٦٤).

وفي خطاب آخر من الملك لها، جاء فيه "نعرفكم بأن المسلمين استكملوا مناسك الحج بأتم الصحة والعافية وصارة الحجه نهار الجمعة نرجوا ان الله يتقبل منا ومن جميع المسلمين ويرزقنا وإياكم شكر نعمه هذا ما لزم تعريفه"(٦٥).

كما خاطب من أهل بيته ابنه الأمير سعود بن عبدالعزيز - الملك فيما بعد -(٦٦)، أما من الأعيان في الداخل فمنهم إبراهيم الشايقي(٦٧)، ومحمد الرعوجي(٦٨) وغيرهم.

(٦٤) دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٤٦٦، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الأميرة حصة بنت عبدالرحمن آل سعود في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٦هـ.

(٦٥) دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٤٤٠، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الأميرة حصة بنت عبدالرحمن آل سعود في ٢٢ ذي الحجة ١٣٥٠هـ.

(٦٦) دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٢٤٧، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الأمير سعود بن عبدالعزيز في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٦هـ.

(٦٧) دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٢٨٧، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى إبراهيم بن عبدالله الشايقي في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٨هـ. دارة الملك عبدالعزيز، المجموعة العامة، ملف رقم ١٥، وثيقة رقم ٢٨٤، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى إبراهيم بن عبدالله الشايقي في ٢٩ ذي الحجة ١٣٤٩هـ.

(٦٨) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ١٣٩٢ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى محمد الرعوجي في ١٩ ذي الحجة ١٣٤٥هـ.

أما الدول المجاورة فقد حرص على تبليغها بذلك، ومنها رسائله إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، التي من بينها هذه الرسالة ونصها: "من عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل فيصل إلى حضرة جناب الأجل المحترم حميد المكارم والشيم الشيخ عيسى ابن علي ابن خليفة المفخم، أدام الله عزه وأبقاه آمين. أما بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مع الاستفسار عن رفاهيتكم لا زلتم بوفور السرور ومزيد النعم، وعن أحوالنا فهي ولله الحمد جميلة من جميع الوجوه، ثم كتابكم المؤرخ ٣ شوال ١٣٤٥[هـ] (٥ أبريل ١٩٢٧م) وصل، وما ذكرتم كان عندنا معلوم، أخبار طرفكم أحسنتم الإفادة، وعن أخبار طرفنا الحج يوم الخميس، والمسلمين من فضل الله صحتهم على ما يرام، والحج حج طيب وسكون وراحة للجميع، وقد بلغ مجموع الحجاج تقريبًا من عرب وغريب مايتين وخمسين ألف، نرجو ان الله سبحانه وتعالى يتقبل من الجميع ويحفظنا وإخواننا المسلمين، هذا ما لزم بيانه سلامنا على الأولاد، ومنا الأخوان والأولاد يسلمون، والسلام"[٦٩].

---

(٦٩) دارة الملك عبدالعزيز، وثيقة رقم ٩٨١ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٥هـ. وانظر الوثائق الآتية: وثيقة رقم ٩٧٥ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٤ ذي الحجة ١٣٤٣هـ. وثيقة رقم ٩٨٣ وطنية، رسالة من الملك عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في ١٢ ذي الحجة ١٣٤٧هـ.

خاتمة

يتضح من خلال هذه النماذج - وغيرها كثير - عناية الملك عبدالعزيز - رحمه الله - بالحج وخدمة الحجاج، وقد بدا ذلك جليًا في التطور الواضح الذي لمسه الحجاج بمجرد دخولهم مكة المكرمة، ويمكن تلخيص جوانب عناية الملك عبدالعزيز بتيسير الحج والدعوة إليه في ثلاثة أمور بارزة:

أولها: إلغاء أمور سلبية كانت تمارس ضد الحجاج في الفترات السابقة عليه، كالرسوم الباهظة على الحجاج التي تعد من أبرز عوائق الحج في الفترات السابقة.

وثانيها: استحداث معينات على الحج، والعمل على إتاحة الحج لكل مسلم قادر عليه في أرجاء المعمورة، وكان من ذلك إنشاؤه - رحمه الله - مكتب الحج للدعاية والنشر، ودعوته عموم المسلمين للحج، وتوجيه أمراء المدن التي يمر بها الحجاج لتسهيل أمورهم، وتسهيل إجراءات الحصول على تأشيرات الدخول، والتسامح مع الفقراء من الحجاج وتسهيل الحج عليهم.

وثالثها: تطوير ما هو قائم بالفعل، وجعله أكثر فاعلية من قبل، وتعد عناية الملك عبدالعزيز بشأن الطوافة والمطوفين، وإنشاؤه مدرسة لهم من أبرز المظاهر الدالة على ذلك، إذ أسهمت تلك المدرسة في تعريف المطوفين كثيرًا من الواجبات الشرعية عامة وأركان الحج وواجباته بصفة خاصة، بالإضافة إلى كيفية الحج والعمرة وفق مذاهب الأئمة الأربعة.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

DOCUMENTS

Dr. Muhammad A. Bayyumi

Qadis of Makkah al-Mukarramah during the Period A.H. 1220-1336/ 1805-48: A Documentary Study Based on the Archives of Dar al-Watha'iq al-Qawmiyya in Cairo

The qadis of Makkah al-Mukarramah were appointed by means of a firman issued by the sultan in the month of Shawwal. Appointments were for a period of one year only, except in certain cases. Only individuals were appointed who had attained the highest ranks of qadis, and the majority of them were Turks. The scope of their activities increased until it came to include matters of religious and daily life.

(311 - 360)

Hamad A. al-Angari

Documentary Studies on the Arabian Peninsula and the Arabian Gulf. 2- Examples of King Abdulaziz's Concern for the Hajj

After King Abdulaziz entered Makkah al-Mukarramah in A.H.1343, he called upon all Muslims to perform the obligation of the hajj, providing all facilities for them in the Hijazi ports, in addition to security and health care. He also directed his ambassadors and representatives abroad to simplify the procedures for the hajj and abolish the duties that former governments used to exact from pilgrims. He also hosted delegations and official missions.

(361 - 387)

Dr. Muhammad al-Sharif

Perspectives and Impressions of the Khailfi Justice Minister of Morocco Regarding the Hijaz in A.H. 1355/1937

The Moroccan Khailfi Justice Minister, Ahmad al-Rahuni, headed the Moroccan delegation to the Hajj, which General Franco had organized for political purposes. King Abdulaziz received the delegation with full honors, and letters and gifts were exchanged between the two sides. The delegation was impressed with aspects of the Kingdom's development, such as roads and transportation, the care given to the Zamzam well, and illumination of the two Holy Mosques.

(221 - 246)

Dr. Adil M. Ghabbashi

Aspects of the Development of Makkah al-Mukarramah during the Era of King Abdulaziz

The development of the built-up area of Makkah al-Mukarramah increased during the reign of King Abdulaziz compared to what it had been earlier, extending to new areas in all directions. Concurrent with this, streets were developed and widened, and services provided. Attention was also paid to the planning and development of the pilgrimage sites, the construction of public facilities in the Holy City, and the building of hospitals and police centers.

(247 - 279)

Dr. Abd al-Rahman M. Budara

Examples of the Orientations of the Ulema in the Clarification of the Status of Makkah al-Mukarramah

There have been numerous orientations in writing about Makkah al-Mukarramah, such as the jurisprudential, historical and archeological approaches. Some of the ulema have expounded the religious excellences of Makkah al-Mukarramah, while others have written biographies of its famous inhabitants, or compiled its history in the form of annals or *khitat* literature.

(281 - 310)

Dr. Sulayman S. Al Kamal

Some Ulema of Makkah al-Mukarramah and Their Connections with the Intellectual Movement in Taif during the Thirteenth and Fourtenth Centuries A.H.

The relationship between the ulema of Makkah al-Mukarramah and Taif had an affect upon the efflorescence of the intellectual movement in Taif during the period studied. Some ulema studied together, while the ulema of Makkah al-Mukarramah taught in some of the famous mosques in Taif and in their homes during the summer season.

(103 - 123)

Dr. Ahmed Ibrahim Abushouk

Cultural Interaction between the Hijaz and the Malay Archipelago: The Journey of al-Hajj Abd al-Majid Zayn al-Din to the Holy Places as an Example

This journey, which took place in A.H. 1341/1921, embodies many of the distinguishing facets of cultural interaction between the Hijaz and the Malay Archipelago, particularly in the realm of religious, cultural and social values. Moreover, this interaction affected the political position of the Archipelago vis-à-vis some of the problems then current.

(125 - 174)

Dr. Mohammad M. Siryani

The Melting Pot of Makkah al-Mukkaramah and Its Influence on the Assimilation of Its Inhabitants: A Study of the Historical Geography of Migration and the Assimilation of Emigrant Groups in the Sacred Capital

Migrations to Makkah al-Mukarramah have taken place since pre-Islamic times, due to religious, cultural and mercantile reasons, as well as the foreign occupation of a number of Muslim countries. During the Saudi era, these migrations exerted a profound influence, and the stages of structural development abetted the assimilation of emigrant groups in the Makkan melting pot.

(175 - 219)

CONTENTS

ARTICLES



A Quarterly
Issued by
King Abdul Aziz Foundation
for Research and Archives

Issue No. 4
Year 31
2005